



الحوار المتوسطي

مجلة محكمة تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية والفكرية بصورها
مختبر البحوث والدراسات الإستراتيجية في حضارة المغرب الإسلامي
جامعة الجيلالي ليايس سيدي بلعباس - الجزائر

العدد 13-14
ديسمبر 2016

رقم العدد: 1112-945X

Décembre
2016

DIALOGUE MEDITERRANEEN

N°13-14

الحوار المتوسطي

ديسمبر
2016



DIALOGUE MEDITERRANEEN

Revue académique spécialisée en sciences Humaines et Sociales
éditée par le laboratoire de recherches sur les études
orientalistes de civilisation du Maghreb Islamique
Université Djillali Liabes Sidi Bel Abbès - Algérie

N° 13-14
Décembre 2016

ISSN 1112-945X



الحوار المتوسطي

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية والفكرية
يصدرها مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي
جامعة الجيلالي ليايس سيدي بلعباس - الجزائر

العدد 13-14

ديسمبر 2016

رمز: 1112-945X



الحوار المتوسطي

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية والفكرية ،
يصدرها مخبر البحوث و الدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي
جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس- الجزائر

العدد 13-14
ديسمبر 2016

ردمك : 1112-945X
الإيداع القانوني : 4402-2009

الحوار المتوسطي

مدير المجلة :

أ.د- حنيفي هلايلي

رئيس التحرير:

د. عبد القادر صحراوي

الهيئة العلمية

أ.د. ميلود طواهري

أ.د. ميسوري عباس

د. بن إبراهيم حميدة

د. محمد سمير عباد

د. نوال غوثي

د.ة صورية متاجر

أ.د. حنيفي هلايلي

أ.د. عبد القادر صحراوي

الهيئة العلمية الاستشارية

أ.د- رياض بوريش (جامعة قسنطينة)

أ.د- عبد الحميد حاجيات (جامعة تلمسان)

أ.د- محمد الأمين بلغيث (جامعة الجزائر)

أ.د- عبد العزيز لعرج (جامعة الجزائر)

أ.د- إبراهيم مهديد (جامعة وهران)

أ.د- أحمد يلديز (تركيا)

د- عبد القادر دوحه (جامعة خميس مليانة)

أ.د- إبراهيم السعداوي (تونس)

أ.د- التليبي العجيلي (تونس)

أ.د- محمد جادور (المغرب)

أ.د. محمد مكحلي (جامعة سيدي بلعباس)

د. محمد محمود السيد (المملكة العربية السعودية)

مجلة الحوار المتوسطي

عنوان المجلة :	الحوار المتوسطي
مدير المجلة :	أ.د. حنيفي هلايلي
رئيس التحرير :	أ.د. عبد القادر صحراوي
الناشر :	منشورات مخبر البحوث و الدراسات الإستشرافية.
الخطوط :	حنيفي هلايلي
الطبعة :	ديسمبر 2016
العدد :	عدد مزدوج 13-14
الطبع :	دار الأصول سيدي بلعباس
الإيداع :	القانوني : 2009 /4402
ردمد :	1112/945x

قواعد النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الكتاب و الأساتذة و الباحثين .

- تقبل للنشر الدراسات و المقالات المتعمقة وفقا للقواعد التالية :
1. أن يكون محتوى العمل المقترح للنشر أصيلا لم يسبق نشره، و أن لا يتعدى حجمه 15 صفحة و ألا يقل عن 10 صفحات.
 2. أن يتبع العمل المقترح للنشر الأصول العلمية المتعارف عليها عالميا، و خاصة ما يتعلق بالتوثيق و إثبات الهوامش و المراجع و الخرائط و الوثائق.
 3. ترسل الأعمال المقترحة للنشر في نسختين ورقيتين و نسخة إلكترونية على قرص مدمج، و لا ترد أصولها لأصحابه سواء نشرت أو لم تنشر.
 4. أن لا يقل عدد صفحات البحث عن 10 صفحات ولا يزيد عن 25 صفحة مكتوبة بخط Traditionnel Arabic مقاس 14 وتباعدا 1. وتكتب الهوامش بطريقة عادية في نهاية البحث، وبمقاس 10 وتباعدا فردي، مع تقديم ملخص باللغة الإنجليزية بالنسبة للمقالات المكتوبة باللغة العربية، وبالعربية بالنسبة للمقالات المكتوبة باللغات الأجنبية(فرنسية- إنجليزية-إسبانية)، مع اضافة الكلمات المفتاحية.
 5. تخضع كل البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم العلمي، ولا تقبل المقالات التي لا تحترم الشروط المذكورة سابقا.
 6. لا ترد الدراسات والبحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
 7. الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها.

المقالات المنشورة في هذه المجلة لا تعبر إلا عن آراء أصحابها ولا تعكس رأي المجلة.

ترسل المقالات باسم مدير المجلة :

كلية التكنولوجيا- مقر المخابر رقم 12 جامعة سيدي بلعباس-الجزائر

مخبر البحوث و الدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي

البريد الإلكتروني: hanifi_andalous@yahoo.fr

صفحة الواب: <http://www.univ-sba.dz/lreocmi>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿٥١﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ

يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ ﴿٥٢﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمْ

ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلْبَدَارِ ﴿٥٣﴾

سورة غافر : آية: 51-52

كلمة العدد

جاء هذا العدد المزدوج من المجلة بناء على الدراسات المقدمة و التي تصب في مناحي مختلفة من مجالات المعرفة. تطرق ملف الدراسات المتنوعة إلى بحوث كل بمقارنته فجاءت دراسة الأستاذ هلايلي حنيفي إلى معالجة موضوع الوفاق الأوروبي و علاقته بأйالة الجزائر خلال العهد العثماني ، وصارت في نفس الاتجاه بحوث حول الدراسات النفسية و الإرشادية من الإيقاع البيولوجي لعملية النوم عند الإنسان من زاوية الأهمية الوظيفية، و تناول بحث آخر إلى دور المستشار في الإرشاد المدرسي و مدى إعتنائه بالصحة النفسية للتلميذ في الوسط المدرسي. و لامست دراسة الباحث بن سنوسي إلى أدب النبوءات عند الموريسكيين في ضوء كتاب القاسم الحجري، و ختم الملف بمراجعة الباحث التونسي شاشية لكتاب باللغة الإسبانية حول التعايش و صراع الديانات في اسبانيا الموريسكية .

تضمن ملف الدراسات التاريخية و الفكرية موضوع الباحثة درعي فاطمة حيث ساهمت في التعريف بالعالم مصطفى بن زرفة الدحاوي أحد علماء حاضرة معسكر بالجزائر خلال العهد العثماني من خلال كتابه الرحلة القمرية، و أبرز الأستاذ صحراوي عبد القادر قيمة النصوص القديمة المكتوبة باللغة اللاتينية في تأريخ مدن الجزائر خلال الحقبة الرومانية فكان نموذج سكيكدة روسيكادا في العهد الروماني. وأسهب الباحث حمري عيسى في تبيان علاقة الأمير شكيب أرسلان بالوطنيين المراكشين خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية. لقد بين باحث آخر أهمية الشهادة الشفوية في التأريخ للحركة الوطنية الجزائرية و ثورة التحرير و اعتبارها مصدرا لا يقل أهمية عن الوثائق الأرشيفية.

تناول الطالب تومي الطاهر موضوع الحملات البحرية الأوروبية على مدينة الجزائر عاصمة الأيالة ، جاءت هذه الغزوات و التحرشات كرد فعل على الصراع القائم بين الصليبيين و الإسلام فساهم في التعريف بحملة الكونت أورلي على مدينة الجزائر سنة 1775 و انعكاساتها السياسية و العسكرية. كما ركز الدكتور عبد القادر دوحة على دور الأمير عبد القادر في تطوير القانون الدولي الإنساني من خلال بصماته في معاملة الأسرى خلال مقاومته للاحتلال الفرنسي و حسن معاملته و حمايته للمسيحيين في بلاد الشام. ، أما دراسة الأستاذ هلايلي حنيفي فتناولت كتاب بحوث في التاريخ العربي الإسلامي لسعد الله و قدم مجموعة من الملاحظات المنهجية .

في محور ملف الدراسات القانونية و السياسية استهل الباحث رمدم رضا بدراسة دور الفاعلين الاجتماعيين في حل النزاعات الدولية ، كما بين الأستاذ رياض بوريش مفاهيم السياسة العامة العالمية و مفهوم الحكم العالمي، و تطرق الدكتور جباري زين الدين إلى الأساس القانوني للعلاقات في المحكمة الجنائية الدولية و هيئة الأمم المتحدة ، و أشار الدكتور الجبارين إلى القرار التاريخي لسنة 1948 الرامي إلى تقسيم فلسطين دراسة في المحتوى و النتائج. و تعرض الباحث بركة إلى نهاية الدولة القومية بعد العولمة ، و خلص الملف إلى دراسة الباحث حمودي حول الإطار الانتلافي الدفاعي في دراسة السياسة العامة، من خلال المزايا و العيوب.

شمل محور اللغات الأجنبية كوكبة من المساهمات و في مستهله تطرق الباحث غوتي نوالي إلى أهمية تدريس اللغات الأجنبية في البرامج الجامعية الجزائرية و بالخصوص اللغة الألمانية و مدى فعالية الأداء البيداغوجي للأساتذة المؤطرين لهذه اللغة و حضارتها من شأنها تقريب الثقافات بين الضيفتين. بينما استهل الباحث المغربي محمد جادور أهمية المخزن المغربي في عهد المولي إسماعيل (1672-1727). و اهتم باحث آخر بالشعر الملحون الشعبي المغربي المكتوب باللغة الفرنسية. و أشارت دراسات أخرى إلى تعليمية اللغة الفرنسية في نظام ل م د . و في بحث جدير بالدراسة تناول باحث مغربي المخزن المغربي خلال القرنين 17-18م و أهمية البحر و حركة الموانئ و المغاربة و مساهماتهم في النشاط البحري.

لن يتأتى صدور هذا العدد المزدوج ، لولا المجهودات التي ما فتئت تبذلها أيادي مساعدة من الأعضاء المحكمين كل باسمه من قراءة و تصحيح و تصويب. أشكر مجددا كل الأساتذة المساهمين في هذا العدد المزدوج بالعروض المقدمة.

نسأل الله التوفيق وحسن الثواب.

أ.د حنيفي هلايلي

مدير المخبر ومدير المجلة

فهرس العدد

7 كلمة مدير المجلة:

ملف الدراسات المتتومة

أ.د. حنيفي هلايلي: 13

الوفاق الأوروبي وانعكاساته على أيلة الجزائر (1815-1830م)

د. عبد الرحمان بقادير: 42

الإيقاع البيولوجي للإنسان من زاوية الأهمية الوظيفية لعملية النوم

عبد القادر بن سعيد : 60

دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني في تحقيق الصحة النفسية للتلميذ

د. هشام بن سنوسي: 71

نبوءات الموريسكيين بين الحقيقة التاريخية والمغامرة اللاهوتية مختصر القاسم الحجري نموذجاً

أ. حسام الدين شاشية: 90

مراجعة كتاب: "هويات مُسائلة: التعايش والصراعات المابين دينية في المتوسط

(من القرن 14م إلى القرن 18م)

د. صلاح الدين طالبي - محمد كاملي: 95

تحديات التعليم العالي في العالم: قراءة تحليلية

د. صورية متاجر: 114

ملاحم الاتصال الوثائقي عند ابن بشكوال: قراءة منهجية بيبليوغرافية.

د. اسماعيل نقاز: 133

معهود العرب في تلقي الخطاب القرآني قراءة في تفسير الظلال لسيد قطب

ملف الدراسات التاريخية والفكرية

- 150 د. فاطمة درعي:
العالم مصطفى بن زرقفة الدحاوي ورحلته القمرية
- 163 عمر سي عبد القادر:
التأثيرات الأندلسية في بلاد المشرق من القرن 7هـ إلى 15هـ م
- 181 أ.د. حنيفي هلايلي:
ملاحظات حول كتاب أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي
- 198 أ.د. عبد القادر صحراوي:
سكيكدة (Rusicade) خلال عهد الاحتلال الروماني
- 206 عيسى حمري :
علاقة الأمير شكيب أرسلان بالوطنيين المراكشيين
- 226 د. عبد القادر دوحه :
بصمات الأمير عبد القادر الجزائري في القانون الدولي الإنساني
- 239 أحمد بن يغزر :
الشهادة الشفوية كمصدر لتاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية بين الإمكان والضوابط
- 252 الطاهر تومي :
حملة الكونت أورلي «Orelly» على مدينة الجزائر سنة 1775م

ملف الدراسات السياسية والقانونية

- 280 د. عبد القادر الجبارين :
قرار الجمعية العامة رقم 181 بتاريخ 1947/11/29 (دراسة في المحتوى والنتائج)
- 306 د. لحسن زين الدين جباري :
الأساس القانوني للعلاقة بين المحكمة الجنائية الدولية و هيئة الأمم المتحدة
استنادا لمشروع اتفاق تفاوضي الموقع عام 2004
- 324 رضا دمدوم :
دور الفاعلين الاجتماعيين في حل النزاعات الدولية :مدخل نظري
- 340 د. عبد القادر رحال :
الإثبات الجزائي بقرائن الأحوال وتطبيقاته القضائية في الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري
- 362 أ.د. رياض بوريش :
السياسة العامة العالمية و مفهوم الحكم العالمي
- 374 محمد أمين دبار :
الحماية القانونية للمشتري في عقد البيع على التصاميم
- 392 عبد المؤمن حمودي :
نموذج الاطار الانتلافي الدفاعي في دراسة السياسة العامة المزايا والعيوب
- 418 محمد بركة :
نهاية الدولة القومية بعد العولمة : مفاجأة استراتيجية في القرن الحادي والعشرين

ملف الدراسات المتنوعة

الوفاق الأوروبي وانعكاساته على أليالة الجزائر (1830-1815م)

European Accord and its impact on Regency of Algeria (1830-1815)

أ.د. حنفي هلابلي

جامعة سيدي بلعباس - الجزائر

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/11

Abstract:

With the end of the wars Napoléon Bonaparte I European countries agreed at a conference in us 1815 to fight piracy in the country's west. In Algeria, it has become traditional birth attendants find themselves caught between two fires: the threat of countries abroad and the Revolution at home. This alarming situation was not hidden on the Europeans by much of what they had informants official Consuls and traders and spies, tourists and travelers.

The Church has taken the maritime activity General of the - and the Algerian private way of uniting Christians efforts to eliminate this activity, which spending the brothers in religion since the beginning of the modern era.

key words:

Wars- Napoléon Bonaparte I- European countries- Algeria- Maghreb

إن تراجع هيبة الأتراك العثمانيين قد تزامن مع انتهاء الوجود الإسباني وعودة وهران نهائيا إلى إيالة الجزائر بعد أن ضربها زلزال عنيف أتى على معظم مبانيها سنة 1792م. وزاد الوضع تعقيدا أن فرنسا الدولة المرشحة لاستلام إرث إسبانيا لأسباب دينية (وحدة المذهب الكاثوليكي) وعائلية (حكام آل بوريون لكلا البلدين)، كانت تربط فرنسا بالجزائر مصالح تجارية هامة. و في بداية القرن التاسع عشر ومع انتهاء الحروب النابولونية واتفاق الدول الأوروبية في مؤتمر فيينا 1815م على محاربة القرصنة، كانت الأقلية التركية تعيش فيها بينما، توجه أنظارها للداخل لتنظم فيه وجودا عسكريا يضمن لها مواصلة الجباية التي كانت تشتد وطأتها على الأهالي سنة بعد أخرى. أما سياسة التقارب مع مشايخ الزوايا وكسب كنف العلماء بتشديد المساجد والإكثار من التحسيس لفائدة المدارس. وبسبب هذا العجز عن الاندماج في صلب المجتمع المحلي تشبث أعضاء الديوان بالقرصنة (الجهاد البحري) والتي كانت تتولد عليها نزاعات مع الدول تكلف

الداي مصاريف تفوق بكثير مغانمها القليلة والموسمية. كثيرا ما أصبح الدايات يجدون أنفسهم بين نارين: تهديد الدول في الخارج والثورة في الداخل. وهذا الوضع المقلق لم يكن خفيا على الأوروبيين لكثرة ما كان لهم من مخبرين رسميين كالقناصل والتجار وغير الرسميين كالجواسيس والسياح.

لقد اتخذت الكنيسة من النشاط البحري المغربي عامة والجزائري خاصة وسيلة لتوحيد جهود المسيحيين من أجل القضاء على هذا النشاط الذي يسترق إخوانهم في الدين منذ بداية العصر الحديث. ففي البداية عملت على توفير الأموال اللازمة لافتدائهم، فتكونت لهذا الغرض الجمعيات والمؤسسات المختلفة⁽¹⁾.

وقد استمر العمل على جمع التبرعات إلى غاية سنة 1819م، مما جعل الحكومات المسيحية تستعمل هذه الأموال في زيادة عدد قطعها البحرية، كما هو الحال في مملكة الصقلتين التي استطاعت بناء ما يزيد عن خمس قطع بحرية كبيرة مزودة بحوالي أربعة وسبعين مدفعا⁽²⁾. كانت ظاهرة القرصنة عادية مارستها كل الدول البحرية تقريبا شرقا وغربا، ولكن وجهات نظرها قد اختلفت، فأوروبا كانت ترى في الجزائر مراكز لمجموعة من الناهبين وقطاع الطرق ولصوص البحر يجب محاربتهم. أما القراصنة الأوروبيون فكانوا في نظرهم محاربين في سبيل الوطن والعقيدة المسيحية فهم بذلك جنود الله والمسيح⁽³⁾. وهذا ما جعل الدول الأوروبية تقوم بحملات بحرية مستمرة على الجزائر. وقد أدى فشل تلك السياسة في تحقيق أهدافها بشكل انفرادي مما أدى إلى سعيها منذ عام 1815م، لتوحيد جهودها في جبهة واحدة ضد الجزائر.

1. مؤتمر فيينا 1815م.

عرفت الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر نوعا من الاستقرار، نتيجة للمعاهدات التي أبرمتها مع بعض الدول الأوروبية كإسبانيا والبرتغال والولايات المتحدة الأمريكية⁽⁴⁾. وقد استغللت الجزائر الظروف الدولية المتمثلة في الحروب الأوروبية لكي تجدد قطع أسطولها الذي وصل إلى 30 قطعة⁽⁵⁾. ولك بمجرد أن توقفت الحروب الأوروبية، تحالفت تلك

الدول من أجل وضع حد لنشاط الأسطول البحري الجزائري الذي كان يشكل خطرا على مصالحها التجارية في البحر المتوسط.

وكانت انجلترا قد وعدت الداي من قبل بأن أسطولها سيتولى حماية الجزائر من الاعتداءات الأجنبية، ولكنها لم تلتزم بوعودها، إذ حينما هاجم الأسطول الأمريكي بمدينة الجزائر، كانت انجلترا من بين الدول التي خططت للقضاء على قوة الجزائر البحرية. وهو الأمر الذي جل أحد وزراء الجزائر يقول للكنصل الانجليزي عندما حاصر الأسطول الأمريكي ميناء الجزائر: "لقد سبق أن أخبرتنا أن أسطولكم سوف يطرد الأسطول الأمريكي من البحار في ظرف ستة أشهر، ولكن الأمريكيين يشنون الحرب علينا مستعينين ببعض السفن الحربية التي أخذوها منكم"⁽⁶⁾.

لقد قام ممثلو فرسان مالطة⁽⁷⁾ بتسليم عدة مذكرات إلى المؤتمرين في فينا، يطالبون فيها بإعادة تشكيل نظامهم القديم، ومنحهم مقرا في البحر المتوسط، تجتمع فيه جميع الأساطيل المسيحية لمحاربة قراصنة الدول المغربية⁽⁸⁾. كما دعا سيدني سميث (Sidney Smith) الدول الأوروبية إلى إنشاء قوة بحرية تضم جميع الدول المسيحية لمراقبة سواحل البحر المتوسط ومطاردة القراصنة⁽⁹⁾. وبعد تداول المؤتمرين في القضايا المطروحة في مؤتمر فيينا أصدروا قرارا نهائيا في 9 جوان 1815م، ألحوا فيه على ضرورة وضع حد لمسألة استرقاق المسيحيين في البلدان المغربية⁽¹⁰⁾.

ومن المعروف أنه في شهر أوت 1814 م وجه السيد سيدني سميث⁽¹¹⁾ نداء إلى قادة أوروبا: "لتنظيم حصار حول الجزائر عبر حملة أوروبية مشتركة حتى يوضع حد لقرصنة الدول المغربية"⁽¹²⁾. وقبل تاريخ 1814 م، كان نابوليون الأول قد فكر في الاستيلاء على الجزائر والقضاء على الإيالات المغربية. وبالفعل كان انضمام شمال إفريقيا تحت سلطة فرنسا، أحد بنود المعاهدة السرية التي عقدها نابليون مع قيصر روسيا⁽¹³⁾.

لقد اقترح السيد سميث على المؤتمر في فينا طريقتين رآهما متكاملتين لإجبار الجزائر بصفة خاصة والإيلات المغربية (تونس وطرابلس الغرب) بصفة بحرية عامة، على التخلي عن القرصنة. تمثلت الطريقة الأولى في تكوين قوة بحرية مشتركة بين الدول الأوروبية لمحاصرة السواحل المغربية ومنع السفن الحربية من الخروج من موانئها. أما الطريقة الثانية فهي قيام سفراء الدول الأوروبية بتحميل الباب العالي مسؤولية تلك الأعمال وهذا من خلال السماح لها بتنظيم عمليات التجنيد في أقاليم الدولة العثمانية⁽¹⁴⁾.

عندما انعقد مؤتمر فينا في أواخر ديسمبر 1814م وأول يناير 1815م⁽¹⁵⁾، انشغلت إنجلترا سيدة البحر الأبيض المتوسط وشركائها بنشوة الانتصار على نابوليون في معركة واترلو 1815م (Waterloo)، فتبادلت أنخاب النصر، وبدأت تفكر في إعادة رسم خريطة أوروبا. لما كانت إنجلترا سيدة البحر المتوسط فقد أوكل إليه المؤتمر اتخاذ الإجراءات الكفيلة بذلك، حيث عقد مؤتمر لندن مع بداية 1816م، بمشاركة إنجلترا وهولندا وفرنسا وبعض الدويلات الإيطالية⁽¹⁶⁾، الذي أوصى بتكوين أسطول مشترك لضرب إيالات المغرب غير أن فرنسا رفضت المشاركة فيه لأنها أثرت فيما يبدو الحملات المغربية في البحر المتوسط على الهيمنة الانجليزية عليه⁽¹⁷⁾.

اعتبرت الدولة العثمانية تعرض مؤتمر فينا لقضية الإيلات المغربية تدخلا مباشرا في الشؤون الداخلية لحكومة الباب العالي، وقد تخوف السلطان محمود الثاني من تعرض الدول الأوروبية وعلى رأسها إنجلترا، للإيلات الثلاث فأمر بضرورة التشاور مع أعضاء دولته حول إمكانية إرسال مبعوث عثماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب لتنبيه ولايتها بالأخطار المحدقة بهم نتيجة المؤتمرات التي حيكّت في مؤتمر فينا.

لقد أرسل الباب العالي أحد مبعوثيه أحمد آغا إلى الإيلات الثلاث. ولما علم الجزائريون بالمخططات الأوروبية وأدركوا أنه لا مناص من تجاهل الوضع الخطير، رحبوا بالمبعوث العثماني

وأظهروا الطاعة للأوامر من خلال عدم المساس بسفن الدول التي لها علاقات طيبة مع الباب العالي كما لبوا طلب السلطان بإطلاق سراح خمسين أسيرا يونانيا⁽¹⁸⁾.

وتجدر الإشارة هنا أن محمد خسرو⁽¹⁹⁾ قد نبه السلطان محمود الثاني في رسالة بتاريخ 2 جويلية 1815م، يتحدث فيها عن حاكم الجزائر الحاج علي: "منذ أن أصبح هذا الشخص واليا على الجزائر، تعددت المظالم مع المسيحيين، بحيث أن الصداقة (مع الأوروبيين) قد تحولت إلى نزاعات ومهاجمات"⁽²⁰⁾.

وهكذا أصبحت السياسة الإنجليزية في البحر المتوسط بعد مؤتمر فيينا وتفويض الدول الأوروبية لها - عدا فرنسا - إحدى العقبات الرئيسية التي تقف في وجه النشاط البحري الجزائري، بالإضافة إلى تخوف حكام الجزائر من البحرية الانجليزية التي هي قاب قوسين أو أدنى من الجزائر من خلال وجودها في مالطة وجبل طارق.

2. مؤتمر إكس لاشابيل (Aix-La chapelle) 1818م:

كان من نتائج مؤتمر فيينا 1815م تكوين انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا الحلف المقدس بهدف المحافظة على السلام والحيولة دون انتشار عدوى الثورة الفرنسية وظهور نابليون جديد يهدد الأمن والاستقرار لأوروبا. كما امتد نشاط هذا الحلف إلى خارج القارة الأوروبية فأصبح وكأن له الحق في الإشراف على الأمن الدولي وحمايته⁽²¹⁾.

ولما كانت مسألة أمن البحر الأبيض المتوسط إحدى القضايا الساخنة التي نالت اهتمام الدول المسيحية بزعامة انجلترا منذ عقد مؤتمر لندن 1816م. غير أنها لم تؤد في الواقع إلى إنهاء النشاط البحري المغربي عموما، والجزائري خاصة، رغم تراجع بصورة واضحة، فالجزائر استطاعت إعادة بناء أسطولها وتجدد نشاطه من جديد، الأمر الذي جعل الدول الأوروبية تعود لإثارة هذه القضية من جديد في مؤتمر اكس لاشابيل في جنوب ألمانيا 1818م، حيث انضمت هذه المرة فرنسا إلى "الحكومة العالمية الفعلية" التي أصبحت تضم انجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا، واتفقت هذه الدول على تفتيت الامبراطورية العثمانية⁽²²⁾.

كان مؤتمر أكس لاشابيل ، آخر المؤتمرات التي ناقشت مسألة "القرصنة". وقد تمكن مندوبو الدول الأوروبية من توقيع بروتوكول في 20 نوفمبر 1818م ، جاء فيه : "اتفق المفاوضون طبقا لنص بروتوكولي على أن يواصلوا في المؤتمر الوزاري الذي سيعقد في لندن النظر في المقترحات لإلغاء القرصنة التي تمارسها الدول البربرية (المغربية) بطريقة فعالة... وقد طلبوا إلى مندوبي بريطانيا وفرنسا بوصفها ممثلين للبلاطين اللذين يجب أن يكون لنفوذهما ثقل أكبر لدى هذه القرصنة الذي يقلق التجارة السلمية التي ستكون له آثار تجعل الإيالات المغربية أن تفكر عاجلا في نتائجها التي قد تمس وجودها نفسه... وتحفظ البلاطات الخمس بحقها في تحذير الباب العالي أيضا بصورة ودية من الأخطار التي قد تتعرض لها الأيالات المغربية، نتيجة استمرارها في ممارسة القرصنة من حيث أنها ستكون سببا في قيام الدول الأوروبية باتخاذ إجراءات حاسمة"⁽²³⁾.

بدأ هذا المخطط بالقضاء على النشاط البحري المغربي لأنه يمثل آخر مظاهر القوة الإسلامية، وذلك بتكوين أسطولين: الأول انجليزي والثاني فرنسي لإرغام المغاربة على التخلي عن ممارسة هذا النشاط، وبالفعل تكونت هذه الفرقة البحرية خلال النصف الثاني من سنة 1819م، وكان الأسطول الانجليزي بقيادة توماس فريمانتل (T.Fremantl)، والأسطول الفرنسي بقيادة جوريان دي لاغرافيير (le.Gravier) في البحر الأبيض المتوسط، حيث توجهوا رأسا إلى الجزائر. وقد خصص لهما الداوي حسين لقاءين يومي 5 و 9 سبتمبر عام 1819م، استمع خلالهما إلى قرارات ومطالب الدول الأوروبية التي أُنذرت البلدان المغربية بضرورة وضع حد لأعمال القرصنة⁽²⁴⁾.

بعد محادثات طويلة مع الداوي حسين، رفض الامتثال لهذه المطالب وقال للوفد الأوروبي أنه لا يخضع لأوامر الملوك الأوروبيين، وأن دولته حرة في أن تحارب من تشاء وتسلم، وأنه سيتولى تفتيش جميع السفن الأجنبية⁽²⁵⁾. ولم يكتفِ الداوي حسين بهذا الرد، بل أمر بتكثيف النشاط الحربي، كما أُنذر جميع القناصل الأوروبيين المعتمدين بالجزائر، بأنه أُنذر جميع القناصل

الأوروبيين المعتمدين بالجزائر. بأنه في حالة ما إذا رفضوا دفع الأتاوات المقررة عليهم يعتبرون أعداء⁽²⁶⁾.

أبحر الوفد الأوروبي بعد تلك المحاولات الفاشلة إلى تونس التي وافقت على احترام كل المعاهدات المعقودة مع الدول الأوروبية والإجماع الأوروبي على إنهاء الحملات البحرية، وعلى الرغم من أن الجزائر هي التي تعرضت للقصف والتدمير من حملة اكسموث، فإن موقفها كان قويا وفيه تحد واضح للقوى الأوروبية مجتمعة على عكس تونس وطرابلس التي وصلتها الفرقة الانجلو فرنسية يومي 8 أكتوبر 1819م، حيث أبلغت يوسف باشا (1795-1830م) بما أبلغت به إيلات المغرب، وقد كان رد يوسف باشا كما يلي: "صاحب السمو باشا طرابلس نشعر... بكل مشاعر الاحترام والصداقة لأصحاب الجلالة ملكا انجلترا وفرنسا وإلى ملوك القوى الأوروبية الذي اجتمعوا في أكس لاشايبيل فإننا لندين من هذا اليوم (9 أكتوبر)" وإلى الأبد كل مظاهر القرصنة والنهب سواء بالبحر أم الأرض، وأيضا بعدم السماح لأي من سفننا التجارية بأن تدنو لتهاجم في البحر أي سفينة أو مركب تابعة للقوى المشار إليها أعلى"⁽²⁷⁾.

نستشف موقف المغرب الأقصى من قرارات مؤتمر أكس لاشايبيل من خلال قول أبي العباس الناصري: "وفي هذه السنة 1233هـ/1818م أبطل السلطان⁽²⁸⁾ الجهاد في البحر ومنع رؤسائه من القرصنة به على الأجناس، وفرق بعض قراصنته على الأيالات المجاورة مثل الجزائر وطرابلس، وما بقي منها أنزل منها المدافع وغيرها من آلة الحرب وأعرض عن أمر البحر راسيا بعد أن كانت قراصين المغرب أكثر وأحسن من قراصين صاحب الجزائر وتونس"⁽²⁹⁾.

ومما يلفت النظر، أنه بعد هذا المؤتمر، تأزمت العلاقات بين الجزائر والدول الأوروبية، التي أضحت تتدخل في شؤون الجزائر الداخلية عن طريق قنصلياتها، خاصة القنصلية الفرنسية في مدينة عنابة التي كانت تورد الأسلحة وتبيعها إلى القبائل الجزائرية لإثارة القلاقل في البلاد⁽³⁰⁾.

وعلى أية حال يعتبر مؤتمر أكس لاشايبيل بداية المرحلة الأولى لتفويض الامبراطورية العثمانية وتقسيم البلاد العربية بين القوى الاستعمارية، الانجليزية والفرنسية، وأن هذا المؤتمر لم يؤدي

إلى تدني النشاط المغربي فحسب، بل أدى في النهاية إلى احتلال الجزائر عام 1830م. حيث كانت البداية الفعلية لهذا المخطط الاستعماري الزاحف تحت ستار القضاء على ما يعرف في أدبياته بـ "القرصنة" وحرصا من هذه الدول على إنجاح مخطتها، لجأت إلى إضعاف القدرات الحربية لأريالات المغرب وذلك من خلال عدم تزويدها بالمواد الاستراتيجية والأسلحة والسفن بعد هذا المؤتمر، وهي المواد التي كانت تقدم في السابق كهدايا من طرف دول أوروبية، وحتى آتاوات سنوية التي تدفعها الدول الصغرى أصبحت في تراجع مستمر نتيجة لحصول بعض الدول على حماية انجلترا وفرنسا.

3. الأطماع الأوروبية الاستعمارية:

لم يبق في البحر الأبيض المتوسط في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، من الدول الأوروبية سوى فرنسا وانجلترا اللتان كانتا تتنافسان من أجل الحصول على امتيازات تجارية في السواحل الجزائرية. فلا على الاستفادة من موقع الجزائر الاستراتيجي، وثرواتها المطلوبة أسواق البحر الأبيض المتوسط، كما تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الفترة، كطرف ثالث في دائرة الصراع، إذ وجهت اهتمامها نحو الجزائر بصفة خاصة وإلى الحوض المتوسط بصفة عامة.

وقد حاولت كل دولة تحقيق أهدافها من خلال كسب صداقة الجزائر والتقرب إلى حكامها، وعندما عجزت الدول الثلاث عن تحقيق تلك الأطماع، قامت بشن حملات عسكرية ضد الجزائر كان لها آثار مدمرة على الاقتصاد الجزائري وعلى البنية العسكرية، مما أسهم بدوره في تعجيل بسقوط الحكم العثماني في الجزائر.

أ. حملة الولايات المتحدة الأمريكية على الجزائر 1815م:

لقد ساهمت الدول الأوروبية في تأجيج العلاقات بين الجزائر والولايات المتحدة خلال الفترة ما بين سنتي 1793-1797م. وقد كان مندوبو الولايات المتحدة يتهمون الفرنسيين باستمرار

بالعمل لعرقلة تقدم المفاوضات مع الجزائر، بالإضافة إلى المعارضة القوية من أعضاء الغرفة التجارية في مرسيليا بسبب مصالح النقل البحري والتجارة في الحبوب⁽³¹⁾. وإذا ألقينا نظرة عامة على العلاقات الجزائرية- الأمريكية خلال الفترة ما بين 1795-1797م، سنلاحظ عددا من النتائج الهامة، فإن الأسرى الأمريكيين قد أطلق سراحهم، وأصبحت علاقات سلام مع الولايات المتحدة وبلدان المغرب العربي وهذا بفضل الوساطة الجزائرية.

ومن جهة أخرى دفعت الولايات المتحدة ثمنا باهضا على سبيل الفدية وفي مقابل عقد معاهدة السلم مع الجزائر⁽³²⁾. وكذلك قدمت ترضيات في شكل هدايا، كما تعهدت بدفع ضريبة سنوية في شكل عتاد وأجهزة حربية من 21600 دولار⁽³³⁾. يقول كاثكارت بأن الداى حسن طلب من المبعوث الأمريكي مبلغ 2.247.000 دولار، تدفع منها قيمة شراء سفينتين حربيتين كل واحدة منهما ذات 36 مدفعا ومبلغا لشراء العتاد الحربي تدفع كضريبة وهدايا في حكل سنتين⁽³⁴⁾.

لقد التزمت الولايات المتحدة على دفع 642.500 دولار نقدا وضريبة تدفع في شكل أجهزة ودخيرة حربية. وهذا بعد موافقة مجلس الشيوخ الأمريكي على نص المعاهدة وذلك بتاريخ 2 مارس 1796م⁽³⁵⁾. وفي يناير 1797م بلغت تكاليف المعاهدة الجزائرية والمحافظة عليها على الولايات المتحدة الأمريكية ما يقرب من مليون دولار، وفي مقابل هذا، مرت سنة 1799م حوالي ثمانين سفينة تابعة الولايات المتحدة الأمريكية في سلام إلى البحر الأبيض المتوسط للتجارة⁽³⁶⁾.

وفي العقد الثاني من القرن التاسع عشر قررت الولايات المتحدة الأمريكية عدم دفع الأتاوة المقررة عليها إلى الجزائر. وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين البلدين، مما دفع الداى الحاج علي باشا، إلى طرد قنصلها من الجزائر عام 1812م. ويبدو أن الرسالة التي نقلها إلى الجزائر مبعوث انجلترا كان لها تأثير على قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. فأعلن الداى بعدم

بقاء ليرماديصون (Lear Madison)، القنصل العام في الجزائر، كما أكد الداى أن الولايات المتحدة الأمريكية مدينة للجزائر بمبلغ 47 ألف دولار⁽³⁷⁾.

يذكر شالر أن اليهود اقترحوا على الداى الحاج علي مهاجمة السفن الأمريكية حتى يرغم حكومتها على تجديد معاهدة السلم مقابل دفع مبالغ مالية معتبرة⁽³⁸⁾، والملاحظ أن القنصل الأمريكي لير التجأ إلى شركة بكري اليهودية ليقترض منها المبلغ الذي حدده الداى، فقبل بكري أن يدفع للداى مبلغ 27 ألف دولار، على أن يتلقى في مقابل ذلك مبلغ 30.750 دولار عن طريق جبل طارق⁽³⁹⁾.

كان عقد الصلح في معاهدة غانت (Ghent) في 24 ديسمبر 1814م، والتي أنهت الحرب بين إنجلترا الولايات المتحدة الأمريكية، مناسبة ملائمة لمعاقبة الجزائر بالإضافة أن الأسطول الجزائري كان منشغلا في حربه مع كل من إيطاليا وإسبانيا وهولندا وبروسيا والدانمارك وروسيا. ففي 23 فبراير، أعلن الكونغرس الأمريكي الحرب على الجزائر⁽⁴⁰⁾. واثرا ذلك، تم تجهيز أسطول حربي عهد بقيادة إحداهما إلى الكمودور وليام بينبريدج (Bainbridge) وقد أقلعت من بوسطن، والثانية بقيادة الكمودور استيفان ديكاتور (Decature)، أقلعت من نيويورك. وأصدر وزير العلاقات الخارجية الأمريكية تعليماته إلى قائدي الأسطول والسيد شالر (الذي سوف يصبح قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر)، بعقد الصلح مع الجزائر على أن يتم بشروط مشرفة الولايات المتحدة، وإطلاق سراح الأسرى الأمريكيين، وذلك بدون دفع ضريبة⁽⁴¹⁾. وفي 17 جويلية 1815م، التقى الأميرال ديكاتور ببارجة جزائرية "مشهودة" بقيادة الرايس حميدو، وبعد يومين من المعركة قرب الشواطئ الإسبانية، استسلمت البارجة وقتل قائدها حميدو وثلاثون من بحارتها نتيجة لانفجار أحد مدافع البارجة. كما اكتشف الأسطول الأمريكي سفينة حربية فأسرها وأرسلها إلى قرطاجنة

الإسبانية⁽⁴²⁾. ولما علم الداوي عمر بمصرع الرايس حميدو ومصير الأسطول الجزائري، قبل التفاوض مع الأمريكيين⁽⁴³⁾.

توصل الطرفان إلى حل وسط، ووقعا على معاهدة في 30 جويلية سنة 1815م نصت بنودها على إلغاء الأتاوة السنوية، وإطلاق سراح الأسرى الأمريكيين، ودفع تعويضا ماليا مقداره عشرة آلاف دولار للاستيلاء على السفينة الأمريكية "أيدوين" بما تعهدت الولايات المتحدة الأمريكية بأن ترد إلى الجزائر السفينتين اللتين استولى عليهما الأسطول الأمريكي من ذي قبل، وإطلاق سراح الأسرى الجزائريين⁽⁴⁴⁾.

وبعد هذا التاريخ لم يقع أي نزاع بين الدولتين، ولكن استمرت الولايات المتحدة الأمريكية على إنفاق مبالغ مهمة على علاقاتها مع الجزائر ودول المغرب العربي تونس وطرابلس الغرب، ولكنها لم تعد تدفع الضريبة السنوية مثل الدول الأوروبية⁽⁴⁵⁾. يقول دي غرامون: "لقد ظلت الجزائر طيلة ثلاثة قرون رعب النصرانية وكارثتها، فلم تنجح واحدة من الدول الأوروبية من البحرية الجزائرية، بل وأخضعت الجزائر، زيادة على ذلك، الضريبة السنوية ثلاثة أرباع أوروبا، بل وحتى الولايات المتحدة الأمريكية"⁽⁴⁶⁾.

واضح من خلال دراستنا لتاريخ العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر والولايات المتحدة، فإننا ندرجها في ثلاث معاهدات أساسية انتهت باحتلال الجزائر سنة 1830م⁽⁴⁷⁾.

ب. الحملة الإنجليزية - الهولندية 1816م:

بادرت هولندا بإرسال أسطولها الحربي إلى الجزائر في شهر جويلية 1815م، قصد تجديد معاهداتها مع الجزائر، ولكن الداوي عمر باشا رفض التفاوض مع الهولنديين قبل أن تدفع بلادهم الأتاوات المتأخرة⁽⁴⁸⁾. وفي تلك الظروف، ظهر الأسطول الانجليزي في ميناء الجزائر عدة مرات⁽⁴⁹⁾.

لقد اضطر الداي عمر أمام هذه التحركات التي تنذر بالخطر إلى بعث رسالة إلى السلطان محمود الثاني في 15 ماي 1815م، أخبره فيها بتحركات الأساطيل الأوروبية في البحر المتوسط، ونوايا الدول الأوروبية السيئة تجاه الجزائر وضرورة تعضيد السلطان للجزائر بالجند والسلاح⁽⁵⁰⁾. ولم يدخر الباب العالي جهدا في تنبيه الإيالات المغربية للأخطار التي تحيط بها، فأرسل مبعوثه ينصح ولايتها بالالتزام باليقظة لمواجهة أي هجوم عسكري تقوم به إحدى الدول الأوروبية. وقد ذكر عمر باشا في الرسالة التي بعث بها إلى السلطان في 5 رجب 1231هـ-1 جوان 1816م: "أننا سوف نستعمل كل طاقانا واهتمامنا للدفاع عن هذا الشعب المسلم الذي هو تحت كفالتنا، وأننا على استعداد للتضحية بأنفسنا دفاعا عن ذلك"⁽⁵¹⁾.

في أواخر أوت 1816م اجتمع وزير الخارجية البريطاني اللورد كاسلريه، سفراء روسيا وبروسيا والنمسا وفرنسا في لندن، وبحث معهم مشروع تكوين حلف عسكري لمدة سبع سنوات لمقاومة الأيالات المغربية. ولم يكن هدف انجلترا من وراء عقدها لمؤتمر لندن سوى كسب تأييد أوروبي لحملتها العسكرية التي كانت تعد لها وقررت إرسالها إلى الجزائر رفقة هولندا⁽⁵²⁾. ومن بين التبريرات التي وجدتتها انجلترا لحملتها ضد الجزائر، أن الجزائريون قد استولوا على سفينة في عنابة تحمل العلم الانجليزي. كما أنهم أسروا رعايا سردينيا ونابولي⁽⁵³⁾. وفي شهر أبريل عام 1816م، وصل الأسطول الانجليزي إلى ميناء الجزائر، قصد افتداء أسرى مملكتي سردينيا ونابولي⁽⁵⁴⁾.

لقد جاء في تقرير الحاج عبد الله مبعوث الداي عمر الباب العالي: "أنه عندما اقترب اللورد أكسموث من ميناء الجزائر، أرسل مبعوثا إلى الباشا ليخبره بأنه يريد افتداء أسرى سردينيا الموجودين في الجزائر، لأن هؤلاء الأسرى يعتبرون من رعايا انجلترا... وإذا وافق والي الجزائر على ذلك، فإنه مستعد أن يدفع مقابل كل رأس من هؤلاء الأسرى البالغ عددهم 50 أسيرا، ألف ريال. وقد وافق الباشا على اقتراح الذي عرضه عليه "أكسموث" إلا أن القائد

الانجليزي... طلب أيضا من الباشا أن يطلق سراح الأسرى التابوليتانيين البالغ عددهم 1200 أسيرا... وقد عرض القائد الانجليزي على الباشا ألف ريال مقابل كل رأس... إلا أن الباشا لم يستجب لهذا الطلب... النابوليتان دولة مستقلة ولها ملكها... ولذا فإننا مستعدون أن نسلم لكم هؤلاء الأسرى ولكن بعد أن تدفعوا ثمن فديتهم المتفق عليه".⁽⁵⁵⁾

وبعد هذا التقرير، اتجه الأسطول الانجليزي نحو تونس وطرابلس، حيث أبرم مع حكامها معاهدة سلم، وحرر أسرى سردينيا ونابولي منهما دون أن يدفع لهما فدية⁽⁵⁶⁾. وفي شهر ماي عام 1816م عاد الأسطول الإنجليزي إلى ميناء الجزائر، ولما علم اللورد أكسموت باستعداد الجزائر لمحاربته، رفع العلم الأبيض، وقبل تسوية مشكلة الأسرى في إطار الأوامر السلطانية، كما طلب من الداوي أن تتولى السفينة الانجليزية مهمة حمل هدية الجزائر إلى الدولة العثمانية⁽⁵⁷⁾.

ومن جهة أخرى اعترف الداوي بمملكة هانوفر الجديدة، وسمح لها بالتمتع بالامتيازات التي نصت عليها المعاهدة الجزائرية الانجليزية باعتبار تلك المملكة تابعة للإمبراطورية البريطانية. وبسبب نتائج هذه الحملة جعل كل من مملكتي نابولي وسردينيا تدين الحملة الانجليزية وتتهم بريطانيا بالتقاعس تجاه واجباتها المسيحية⁽⁵⁸⁾.

قررت انجلترا تجهيز حملة ثانية ضد الجزائر، حيث غادر أسطولها ميناء بليموث (Blymouth). بقيادة اللورد أكسموت يوم 28 جويلية 1816م، وانظم إليه الأسطول الهولندي بقيادة الأميرال فون كابلان (Van de capellen)⁽⁵⁹⁾.

إن إيالة الجزائر كانت نعلم منذ سنة أن الأسطول المسيحي يتجول في عرض البحر المتوسط. وأن الدول الأوروبية تضمّر الشر ضد هم. وقد جاء في إحدى الوثائق العثمانية وهي عبارة عن رسالة بعث بها عمر باشا إلى السلطان العثماني بتاريخ 5 رجب 1231هـ/1 جوان 1816م: "لقد علم أوجاقنا من مالطة أن الدول المسيحية قد تحالفت على إنشاء أسطول مشترك بينها، وقوة مدفعية لمحاربتنا، ومن الواضح أنهم يضمرون لنا النوايا السيئة تجاهنا..."⁽⁶⁰⁾. وقد شرح اللورد أكسموت خلال هذه الحملة بأن مؤتمر فيينا قد قرر إلغاء الرق والقرصنة. وطلب بأن يقبل

الجزائريون هذا القرار وأن يحرروا أرقاءهم المسيحيين. وقد كان الداوي والديوان كلاهما غاضبين من هذا الموقف: كيف يمكن للدول الأوروبية أن تعطي لنفسها حق التدخل في نظام قائم منذ أمد طويل على عادات وقوانين بلادهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن اللورد أكسموث و فود كابلان أميرا البحر الإنجليزي والهولندي، كان على علم بالتحصينات ونقاط دفاعات مدينة الجزائر، بفضل النقيب وارد (Warde) والضابط زيغل (Zeiwgel). اللذين مكنا رئيسهما من معلومات هامة حول الاستراتيجية الدفاعية لمدينة الجزائر⁽⁶¹⁾.

أشار المؤرخ الجزائري مولاي بلحميسي في دراسته عن البحرية الجزائرية، أن الذخيرة الحربية الانجليزية والهولندية قد بلغت أربعمئة وخمسين مدفعا من عيارات 18، 24، 32، أما تحصينات مدينة الجزائر فتوزع على الشكل التالي: المنطقة الشمالية أربعة وأربعين قطعة مدفعية. وفي برج الفنار ثمانية وأربعين مدفعا، وفي البرج الشرقي ستون مدفعا، وفي برج السردين خمسة عشر مدفعا⁽⁶²⁾.

رصدنا من خلال إحدى الوثائق أن الداوي عمر أرسل تقريراً مفصلاً عن حالة الحصار والحملة بصفة عامة، حملها رئيس ميناء الجزائر القبطان علي، إلى الباب العالي جاء فيها: "رغم أننا أبرمنا اتفاقاً مع الانجليز والفلامينك (الهولنديين) ونص على انتظار مدة ستة أشهر لإعادة النظر في مسألة الأسرى. فأنهم قدموا إلى الجزائر بأسطول ضخم يتكون من ثلاثين قطعة. وكان ذلك يوم 15 أوت 1816م. وبعد أن رفع الأسطول العلم الأبيض رمز الصلح والسلام. أرسلوا إلينا زورقا ليسلم لنا رسالة تتضمن شروطهم والتي قضت بأن نسلم لهم جميع الأسرى الموجودين في الجزائر، ونرد على رسالتهم خلال ساعة واحدة فقط... لما شرعنا في إعداد الجواب، تقدمت بعض قطع الأسطول من التحصينات، وبدأت تقصف مواقعها بالقذائف... واستمرت (الحرب) بكل ضراوتها من الساعة الثامنة صباحاً إلى منتصف الليل"⁽⁶³⁾. لقد علق شالر على هذه

الأحداث، فقال: "تصرف الداوي تصرفا يتسم بقلّة التصميم والحزم ولا يليق بشخصيته. فإنه لم يكتف بأن يعيد رسول القائد البريطاني بدون جواب على إنذاره، بل أنه سمح في نفس الوقت أيضا للأسطول المشترك بأن يختار المواقع الملائمة لقصف المدينة، دون أن تخطر في باله مقاومته"⁽⁶⁴⁾.

حددت بعض الكتابات سرّ هزيمة الجزائريين إلى عامل تضييع الوقت بخصوص الدفاع عن المدينة، لأن الجيش كان ينتظر أوامر الداوي، فلو تمكن المدافعون من إشعال النار وقصف الأسطول الإنجليزي الهولندي لكان النصر حليفهم⁽⁶⁵⁾. ويرجع القنصل الفرنسي دوفال سرّ نجاح حملة 1816م على الجزائر إلى عاملين أساسيين:

1. الأيام التي قضاها الأميرال البريطاني بالجزائر، ففي خلال سنة واحدة زار الجزائر ثلاث مرات من أجل المفاوضات تمكن من خلالها معرفة مواقع القوة والضعف في تحصينات مدينة الجزائر⁽⁶⁶⁾.

2. سرعة الداوي عمر من أجل التفاوض، فلو أخر ذلك، لما تمكن الإنجليز من إحراز النصر، لأنه في اليوم الثاني نفذت الدخيرة الحربية وكان حجم الخسائر كبيرا لدى الأسطول المشترك. وهو ما ذهب إليه شالر عندما ذكر باعتراف الجزائريين بعجزهم عن المزيد من المقاومة. ثم قبلوا الشروط المهينة التي فرضها المنتصرون⁽⁶⁷⁾. أما المؤرخ الأمريكي وولف فيقول: "عندما سكنت المدفعية سارع الداوي عمر بعقد السلام بالشروط الإنجليزية الهولندية عمليا جميع ما عندها من بارود وقذائف. وكانت غير قادرة على القيام بهجوم آخر"⁽⁶⁸⁾.

لقد كانت شروط المعاهدة⁽⁶⁹⁾ التي فرضها المنتصرون، على الجزائر قاسية، إذ نصت على إلغاء نظام الرق، وتحرير الأرقاء المسيحيين الموجودين في الجزائر بمختلف جنسياتهم. ودفع تعويض حربي مقداره خمسمائة ألف فرنك، واعتذار الداوي علانية عما جرى للقنصل الإنجليزي⁽⁷⁰⁾.

ومن مجموع 3000 أسير كان موجودا بالجزائر تم تحرير نصف هذا العدد وهم يتوزعون على النحو التالي⁽⁷¹⁾:

جنسيات الأسرى	عدددهم
نابولي - صقلية	1.110
سردينيا - جنوة	62
بيدمونت	6
رومانيا	174
توسكانيا	6
إسبانيا	226
البرتغال	7
اليونان	7
هولندا	28
انجلترا	18
فرنسا	2
النمسا	2
المجموع	1.642

تجدر الإشارة هنا على أن هولندا هي أيضا عقدت معاهدة مع الجزائر، أورد الزهار نصها: "وكذلك عقد الصلح مع الفلامينك (الهولنديين)، ولم يدفعوا شيئا مما كانوا يطلبونه منهم، وهو غرامة سبع سنين. وكان الفلامينك يعتزمون أن يدفعوا غرامة ثلاث سنين ثمنا للصلح، تدفع في أجل معلوم"⁽⁷²⁾.

لقد اختلفت الكتابات في تقدير حجم الخسائر المادية والبشرية لكلا الطرفين خلال هذه المواجهة العنيفة. فبخصوص عدد الجرحى والقتلى فإن الوثائق الجزائرية تشير إلى 300 قتيل في صفوف الجزائريين و 3 آلاف انجليزي وهولندي⁽⁷³⁾. بينما يذكر شالر أن حوالي 600 قتيل وجريح جزائري

و 128 قتيل و 690 جريحا انجليزيا و 13 قتيل و 25 جريحا هولنديا⁽⁷⁴⁾. أما شاو فقد قدر القتلى والجرحى في صفوف الجزائريين بـ 600 قتيل وجريح. و 173 قتيل و 744 جريحا هولنديا وانجليزيا⁽⁷⁵⁾.

وتفيدنا وثيقة بمعلومات في غاية الأهمية، هي عبارة عن تقرير من القبطان باشا قائد الأسطول العثماني، يخبره فيها السلطان بأن هناك حصار عنيف على الجزائر فرضه الإنجليز والهولنديين كما أبلغه بتقرير القبطان الأمريكي سومر، الذي تحدث عن مقتل ثلاثة آلاف جزائري من جراء القصف، وتعرض نصف المدينة للهدم وإحراق الأسطول الجزائري⁽⁷⁶⁾.

كان حجم الخسائر المادية فكان كبيرا، إذ تحطمت معظم السفن الإنجليزية من جراء المدفعية الجزائرية⁽⁷⁷⁾. ويشير دوفال بأن هناك حوالي ثلاثة آلاف قتيل عن الجانب الجزائري، كما تضرر الميناء والتحصينات ومخازن الأسلحة والبارود من القصف المدفعي، كما تحطمت معظم بنايات مدينة الجزائر⁽⁷⁸⁾. لقد حمل الجيش الجزائري الداي عمر مسؤولية الأضرار المصائب التي تعرضت لها الجزائر، لذا تم اغتيابه من طرف عناصر الإنكشارية عام 1817م، ونستشف تاريخ حكم عمر باشا من خلال رواية الزهار: "كانت دولته وأيامه كلها مصائب: الجراد، والغلاء، ومصيبة حميدو ومصيبته الإنجليز"⁽⁷⁹⁾.

ومن البديهي أن تكون للحملة نتائج خطيرة على نشاط البحرية الجزائرية منذ مطلع القرن التاسع عشر، فبتحرير الأسرى المسيحيين دون فدية، ضيع على الجزائر فرصة انتعاش الخزينة

بحوالي مليونين من الريالات الفرنسية، والملاحظ أن الحملة الإنجليزية الهولندية لعام 1816م، قد أسهمت بإنهاء الحكم العثماني في الجزائر⁽⁸⁰⁾.

ج. الحملة الإنجليزية 1824م:

كانت العلاقات الجزائرية الإنجليزية ما بين 1816 و 1824م حسنة، حيث لم تسجل حملة 1816م النتائج التي كان يتوخاها المجتمع الأوروبي، حيث بدأ التحدي الجزائري واضحا من خلال استمرار النشاط البحري منذ 1817م، وهذا بفضل العوامل التالية:

▪ إعادة تجديد الأسطول البحري:

تمكنّت الجزائر من تحديد أسطولها البحري بواسطة الصناعة المحلية، والمساعدات العسكرية التي تلقتها من بعض الدول الإسلامية. وقد أورد الزهار نصا للمساعدة المغربية إذ كتب الداوي عمر باشا إلى مولاي سليمان يطلب إعانة عسكرية لتجديد الجيش والعمارة البحرية: "وعينه السيد الحاج محمد العنابي قاضي السادة الحنفية رسولا... أمر السلطان باستضافته... وأحسن إليه، وأعطاه مركبين من نوع كروفيت، و بلادنة وأعطاه أموالا وأمره بتسليمها للمجاهدين ورجع إلى الجزائر"⁽⁸¹⁾.

أما يوسف باشا طرابلس، فبعثت بسفينة من نوع بلاكرة لإعانة الجزائر، بالإضافة إلى المعدات العسكرية التي أرسلها الباب العالي للجزائر سنة 1232هـ (1817م). ويذكر الزهار أنه في هذه السنة ثار الإنكشارية على الداوي عمر وخنقوه بدار الإمارة.

▪ استمرار النشاط البحري:

منذ شهر سبتمبر 1817م، بدأ الأسطول الجزائري بشن غاراته على السفن الأوروبية، حيث تمكن من تسجيل عدة غنائم على سفن كل من بروسيا، وهولندا، وهامبورج، وإنجلترا⁽⁸²⁾. وفي نفس الفترة، ثارت قبائل ضواحي بجاية -كان أفراد لها يعملون خدما في القنصليات الأجنبية بمدينة الجزائر- على السلطة، مما جعل الداوي حسين يوجه مذكرة إلى

القناصل المقيمين في مدينة الجزائر، يطالبهم بأن يسلموا له الأشخاص الذين يشتغلون لديهم وينتمون إلى القبائل الثائرة⁽⁸³⁾. وكان رد القنصل الإنجليزي ماك دونالد (Mac Donell) بالرفض حيث اعتبر هذا الإجراء تدخلا صريحا في شؤون القنصليات الأوربية. وبسبب القبض على خدم القنصليات توترت العلاقات بين الجزائر وإنجلترا⁽⁸⁴⁾.

أورد الزهار في كتابه معلومات دقيقة عن أسباب توتر العلاقات بين البلدين، فأرجعها إلى تورط بعض الخدم في القنصلية الإنجليزية في الهجوم على إحدى السفن الأمريكية ونهبها عندما قدمت بها أمواج العواصف إلى سواحل بجاية، ورفض القنصل تسليم المتهمين في الحادثة إلى الداي لمعاقبتهم⁽⁸⁵⁾.

من المرجح أن يكون هذا الحادث هو السبب الرئيسي الذي أدى إلى انفجار الأزمة بين الجزائر وإنجلترا، لأن الحادثة التي أشار إليها الزهار وقعت في شهر سبتمبر 1824م⁽⁸⁶⁾. قام القناصل الأجانب المقيمين في الجزائر بعقد اجتماع في دار القنصل الأمريكي يوم 2 ديسمبر 1823م، وحرروا مذكرة احتجاج ضد أعمال الحكومة الجزائرية بخصوص التدخل في شؤونها الداخلية⁽⁸⁷⁾، وقد رد الداي حسين على هذا الاحتجاج بأن بلاده حرة في تصرفاتها مع رعاياها كما هو شأن سائر البلدان المتحضرة⁽⁸⁸⁾.

وبغض النظر عن جهود القناصل الأوروبيين في فض النزاع، وصلت البارجة الإنجليزية بقيادة القبطان سبنسر (Spencer) إلى المياه الإقليمية للجزائر في يناير 1824م، تحمل معها تعليمات الحكومة الإنجليزية إلى قنصلها ماك دونالد عن الأحداث التي جرت في أكتوبر 1823م. كما اشتملت على بنود إضافية للمعاهدة التي أبرمت بين البلدين بعد حملة اللورد أكسموث، ولكن الداي رفض التفاوض مع الانجليز واعتبر المعاهدة التي أبرمت معهم لمدة ثلاث سنوات قد انتهت آجلها، كما رفض التوقيع على البنود الإضافية بحجة أنها لا تحمل الختم الحقيقي للحكومة الإنجليزية⁽⁸⁹⁾.

وبعد هذه الحادثة أرغم ماك دونال في أواخر يناير من نفس السنة على مغادرة الجزائر⁽⁹⁰⁾. ولجأ إلى البارجة الإنجليزية الراسية في ميناء الجزائر، ليتخذها بعد ذلك مقرا له يملي منه شروطه على الداى، والدليل على ذلك ما أورده القنصل الأمريكي شالر في رسالة وجهها إليه ماك دونال من البارجة يقول فيها: "بأنه سيواصل مفاوضاته بعد الآن من البارجة من أجل التوقيع على البنود التي وجهتها حكومته إلى الداى، دون أن يتنازل عن شيء من مضمونها"⁽⁹¹⁾.

وقد ورد في رسالتين صحيح الداى حسين إلى السلطان محمود الثاني يخبره فيها عن الخلافات التي نشبت بين الجزائر وانجلترا: "رغم الصلح الذي أبرم بين البلدين بعد حرب 1816م، فإن الإنجليز مازالوا ينظرون إلى القصة نظرة غالب ومغلوب، ويعتبرون أنفسهم غالبين والجزائريين مغلوبين، على هذا الأساس يتصرفون بما لا يتفق مع الصلح المبرم بين البلدين حيث يأتون سفنهم إلى وجهة الميناء، ويظهرون توترهم أمام الجزائريين للضغط عليهم وتخويفهم. ولما رست سفنهم بالغرب من المدينة، خرج القنصل الإنجليزي من قصره، وذهب إليها، ثم بعد ذلك أرسل شخصا إلى الداى يعرض عليه شروطا قاسية... وبعد أن تلقى الأمير تلك التهديدات، عقد اجتماعا مع ديوانه... واتفق المجتمعون على رفض الشروط المعروضة عليهم"⁽⁹²⁾.

ولما تلقى ماك دونال رد الحكومة الجزائرية، انسحب الأسطول الإنجليزي من ميناء الجزائر. وبدأ في شن هجومات خاطفة على السفن الجزائرية الداخلة أو الخارجة من الميناء. وقد أدت هذه المناوشات إلى اشتباك إحدى السفن الجزائرية بقيادة الرايس قدور بالأسطول الإنجليزي في بداية شهر يناير عام 1824م، مما أسفر على إغراق السفن الجزائرية واستشهاد الكثير من بحارتها، كما أنهم ألقوا القبض على سفينة للحجاج وذهبوا بها إلى مالطة قاعدتهم العسكرية⁽⁹³⁾. حاول الإنجليز الدخول في مفاوضات مع الداى حسين بفرض الصلح، ولكنه رفض

وطلب منهم استبدال القنصل ماك دونالد، كما أن تدخلات بعض القناصل لتسوية النزاع القائم بين البلدين، إلا أن المحاولة باءت بالفشل⁽⁹⁴⁾.

وفي 23 فبراير 1824م، وصل الأميرال هاري نبال (Harry Neal) أمام سواحل مدينة الجزائر، حاملا معه تعليمات مفادها أن انجلترا تعتبر نفسها في حالة حرب مع الجزائر وكأقوى دولة في البحار، كما طلبت من الداي الاعتذار لها رسميا عما جرى من إهانة قنصلها بالجزائر. وفرضت بذلك حصار بحريا على الجزائر حتى تحمل الداي على التوقيع على تصريحات قنصلها⁽⁹⁵⁾.

تمثلت مطالب القنصل الإنجليزي في توسيع الحصانة الدبلوماسية، والاعتراف بالقنصل الإنجليزي لعمدة القناصل المسيحيين، وإعطائه جميع الامتيازات، وإعفاء الأهالي الذين يعملون في مصالح القنصلية الإنجليزية من الضرائب مع عدم مراقبة نشاط الدبلوماسيين الإنجليز⁽⁹⁶⁾. ولما يئس الإنجليز من الحصار البحري، طلب الأميرال مقابلة الداي حسين، والدخول معه في مفاوضات جدية بتاريخ 28 مارس 1824م، ثم توصل الطرفان في النهاية إلى الاتفاق على بنود السلم والصلح، ولكن الداي أعاد من جديد طلبه بعدم عودة القنصل ماك دونالد إلى الجزائر⁽⁹⁷⁾.

وفي هذه الظروف الحرجة، طلب الداي حسين من السلطان العثماني إمداده بالمساعدات العسكرية من خلال السماح بالتجنيد ومرورهم عن طريق تونس وطرابلس⁽⁹⁸⁾. وبالرغم من طول مدة الحصار الذي دام ستة أشهر، أجرى الإنجليز خلالها عدة مفاوضات مع الجزائر، باءت كلها بالفشل. وذلك بسبب تعنت الموقف الجزائري الذي صمم على عدم عودة القنصل ماك دونالد، ودفع الإنجليز للأتاوة كبقية الدول الأوروبية⁽⁹⁹⁾.

وبتاريخ 24 جويلية، أعاد الإنجليز هجومهم من جديد بقوة بحرية تمثلت في إثنان وعشرين سفينة. ولكنهم حينما اقتربوا من الميناء وجدوا المدفعية والأسطول الجزائري لهم بالمرصاد⁽¹⁰⁰⁾.

ويشير تقرير شهيندر ممثل الدولة العثمانية في مدينة ليفورنة بإيطالية إلى الباب العالي: "أن الجزائريين لم يتضرروا من الهجوم الإنجليزي لأنهم تمكنوا من إبعاد الأسطول الإنجليزي عن الميناء، إلا أنهم لم يقفوا عند هذا الحد، بل أعاد الإنجليزي الهجوم على الجزائر في اليوم التالي، الأمر الذي جعل جميع أهالي مدينة الجزائر يغادرون المدينة، ويصعدون إلى المرتفعات المحيطة بهم، ولم يبق في المدينة، إلا الجنود المجاهدون الذين دافعوا عن البلاد دفاع الأبطال، وصمدوا أمام الهجوم الإنجليزي ثلاث ساعات"⁽¹⁰¹⁾. ومما يلفت الانتباه أن هناك معلومات قيمة وردت في نص وثيقة مفادها أن الداوي حسين قد أرسل 2000 جندي لمساعدة الدولة العثمانية في حرب اليونان، وأن هناك تحضيرات أوروبية لعقد اجتماع للتباحث بخصوص المسألة اليونانية⁽¹⁰²⁾.

بعد هذه المعركة أرسل الأميرال الإنجليزي سفينة رفع عليها العلم الأبيض ليتفاوض مع الحكومة الجزائرية، حيث توصل الطرفان إلى عقد اتفاقية سلم بين الداوي حسين والملك جورج الرابع بتاريخ 26 جويلية 1824م، وقد قبلها الداوي حسين بعد استبدال القنصل ماك دونال⁽¹⁰³⁾. والملاحظ أنه في سنة 1825م، ألغى الداوي حسين هذه المعاهدة وأطرد القنصل العام الإنجليزي أودونيل O'Donnel⁽¹⁰⁴⁾.

وقد تسبب الحصار الذي فرضه الإنجليز على الجزائر في عام 1824م في إحداث انعكاسات سلبية على التجارة الجزائرية الخارجية، وحيث تغير خط التجارة نحو البر عن طريق تونس والمغرب⁽¹⁰⁵⁾.

الإحالات :

(1) مثل جمعية الإخاء الفرنسية وجمعية بالرمو حيث استطاع أنصار هذه الجمعيات الحصول على قرار من البابا بجمع التبرعات في جميع الكنائس اعتبارا من سنة 1778م.

T.Filesl, un secoto Di Rapporti (1734-1835), Tra, Napoll. E.Tripoli, Napolli, أنظر: 1983, PP.108-109

(2) Ibid., P.111.

(3) (Mgr), Pavy, « La piraterie barbaresque », in R.A, (N°2), 1857, PP.337-352.

(4) عبد الحميد، زوزو، "هدنة 1810م ومعاهدة 1813م بين الجزائر والبرتغال"، مجلة التاريخ، العدد 11، جامعة الجزائر، 1981م، ص21.

(5) شارل اندري، جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، (تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة)، الدار التونسية للنشر، 1983م، ج1، ص371.

(6) راي، أروين، العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (1776-1816م)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978م، ص270.

(7) فرسان يوحنا نظام ديني عسكري، طردوا من القدس أثناء الحروب الصليبية، واستقروا بجزيرة قبرص حيث عرفوا باسم الاسباتية، إلا أن طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرة رودس عام 1512م، فلجأوا إلى مالطة عام 1530م. كما فرق نابليون صفوفهم عند دخوله الجزيرة عام 1798م، للمزيد أنظر: Garrot, Histoire générale de l'Algérie, Alger, 1910., PP.466-467

(8) E.le Marchand, l'Europe et la conquête d'Alger d'après des documents originaux (8) tirés des archives de l'état, Paris, Perrin et Cie, 1913, P.21

(9) F.Charle-Roux, la France et l'Afrique du Nord avant 1830, les précurseurs de la conquête, Paris, F.Alcan, 1832, PP.496-498. (10) Le Marchand, L'Europe et la conquête d'Alger d'après des documents originaux tirés des archives de l'état, Paris, Perrin et Cie, 1913. , P.22.

(11) سيدني سميث هو الذي أسس جمعية الفرسان المحررين للرقيق الأبيض في إفريقيا. وقد عقدت هذه المؤسسة أول اجتماع لها سنة 1815م. للمزيد راجع:

Abbe G.T, Rainal, histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des européens dans l'Afrique septentrionale, Paris, P.Maurus et cie, 1826, T1, P.155.

(12) Le Baron de testa, Recueil des traités de la porte ottomane, Paris, 1864, T2, 413. PP.410-

- (13) بتاريخ 8 جويلية 1807م، وقعت معاهدة الصلح في تلسيت (Tilsit) بين فرنسا وروسيا.
- (14) A. Raynal, Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des établissements et Européens dans l'Afrique Septentrionale, Paris, P.Maunus et Cie, 1826. T1, PP.134-135
- (15) انعقد في النمسا، وقد حضر أعمال المؤتمر 140 وفدا وعلى رأسهم القرى الكبرى آنذاك، انجلترا، النمسا، روسيا، بروسيا، فرنسا، وقد اعتبره المؤرخون أعظم اتفاق دبلوماسي أوروبا أمكن الوصول إليه في أوروبا بعد صلح وستفاليا 1648م.
- (16) تتكون هذه الدويلات من نابولي - سردينيا - توسكانيا - جنوة.
- (17) عبد الجليل، التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1816-1871م)، ط2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، زغوان: مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، 1985م، ص 57.
- (18) حط هاميون، عدد 4887، تاريخ 1230 هـ.
- (19) تولى محمد خسرو وزارة الحرب العثمانية مرتين، الأولى من 1811 إلى 1817م والثانية من 1822 إلى 1826م.
- (20) عبد الجليل، التميمي، بحوث...، المرجع السابق، ص 57.
- (21) إبراهيم أحمد، شلي، مبادئ القانون الدولي العام، الرياض: دار المجمع العلمي، 1990م، ص 50.
- (22) نفسه.
- (23) شالر، مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر، (ترجمة: اسماعيل العربي)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1982م.
- ، ص 323-324.
- (24) نفسه، ص 326.
- (25) Garrot, op.cit. P.641.
- (26) محمد العربي، الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال (1792-1830م)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972م، ص 42.
- (27) محمد الهادي، أبو عجيل، النشاط الليبي في البحر المتوسط (1711-1835م)، وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، 1984، ص 605-610.

- (28) السلطان المغربي سليمان بن محمد بن عبد الله حكم ما بين (1792-1822م).
- (29) الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، (تحقيق وتعليق: جعفر ومحمد الناصري)، الدار البيضاء: دار الكتب، 1954-1956م، ج3، ص 133.
- (30) محمد العربي، الزيري، التجارة... المرجع السابق، ص 127.
- (31) راي، إروين، المرجع السابق، ص 114.
- (32) بدأت المفاوضات الأمريكية-الجزائرية في 3 سبتمبر 1793م مع المبعوث الأمريكي دونالدسون (Donaldson) الذي تفاوض مع الداوي حسن (1791-1798م). ووقعت المعاهدة بتاريخ 5 سبتمبر 1795م.
- للمزيد من التفاصيل أنظر: كاتكارت، مذكرات أسير الداوي كاتكارت قنصل أمريكا في المغرب، (ترجمة وتعليق: اسماعيل العربي)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م، ص 153.
- (33) جون (ب) وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830م، (ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله)، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م.
- ، ص 416.
- (34) كاتكارت، المصدر السابق، ص 168.
- (35) راي، إروين، المرجع السابق، ص 108.
- (36) جون (ب) وولف، المرجع السابق، ص 418-419.
- (37) راي، إروين، المرجع السابق، ص 238-239.
- (38) شالر، المصدر السابق، ص 140-141.
- (39) راي، إروين، المرجع السابق، ص 239.
- (40) شالر، المصدر السابق، ص 146.
- (41) نفسه.
- (42) راي، إروين، المرجع السابق، ص 247.
- (43) الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار : نقيب أشرف الجزائر 1168-1246هـ/1754-1830م، (تحقيق : أحمد توفيق المدني)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1974، ص 118.
- (44) راي، إروين، المرجع السابق، ص 248-249.
- (45) المرجع نفسه، ص 258.

Gramont, (H.D.de), Histoire d'Alger sous la domination Turque, 1515-1830, ⁽⁴⁶⁾ Paris, E.Leroux, 1887. op.cit., P.1.

⁽⁴⁷⁾ إلى جانب المعاهدة الأولى المبرمة بتاريخ 5 سبتمبر 1795م والمحررة باللغة العربية، جاءت معاهدة سلم وصداقة في 3 جويلية 1815م بين الداي عمر وجيمس ماديصون، والثالثة بتاريخ 23 ديسمبر 1816م، ولم يصادق عليها إلا في 11 فبراير 1822م، من طرف الرئيس الأمريكي جيمس مونرو. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الأمريكي إروين: " إن التأخر في المصادقة على تلك المعاهدة كان سهواً... للمزيد من التفاصيل راجع:

راي، إروين، المرجع السابق، ص 257-258.

⁽⁴⁸⁾ شالر، المصدر السابق، ص 149.

⁽⁴⁹⁾ نفسه.

⁽⁵⁰⁾ عبد الجليل، التميمي، بحث...، المرجع السابق، ص 59.

⁽⁵¹⁾ خط هامبون، عدد 22486، تاريخ 1231هـ.

⁽⁵²⁾ Le Marchand, op.cit, P.26.

⁽⁵³⁾ ibid, P.22.

⁽⁵⁴⁾ شالر، المصدر السابق، ص 150.

⁽⁵⁵⁾ خط هامبون، عدد 48979، تاريخ 1231هـ.

⁽⁵⁶⁾ Garrot, op.cit, P.632.

⁽⁵⁷⁾ خط هامبون، عدد 48979، تاريخ 1231هـ.

⁽⁵⁸⁾ شالر، المصدر السابق، ص 153-155.

⁽⁵⁹⁾

Arnault, Chabaud, « Attaque des batteries Algériennes

par Lord Exmouth en 1816 »,

in, R.A(N°19), 1875, P.195.

⁽⁶⁰⁾ خط هامبون، عدد 22486، تاريخ 1231هـ.

⁽⁶¹⁾ R.L, Playfair, « Episodes de l'histoire des relations de la Grande-Bretagne avec les

états barbaresque avant la conquête Française », in, R.A (N°23), 1879, PP.462-463.

⁽⁶²⁾ M.Belhamissi, Marine et marins d'Alger à l'époque Ottomane (1518-

1830), Thèse de Doctorat d'état, université de Bordeaux III, Mars, 1986, , T3, P.366.

- (63) خط همايون، عدد 22486، تاريخ 1231 هـ.
- (64) شالر، المصدر السابق، ص 156.
- (65) . Chabaud, « Histoire de l'Ouali Sidi Ahmed et Tedjani », in **R.A** (N°5), 1861,, P.196.
- وأيضا: Grammont, Histoire..., op.cit, P.377.
- (66) M.Belhamissi, , op.cit, , T3, P372.
- (67) شالر، المصدر السابق، ص 292.
- (68) جون (ب) وولف، المرجع السابق، ص 446.
- (69) حررت الاتفاقية بتاريخ 4 شوال 1231 هـ / 28 أوت 1816م، وهي أول معاهدة جزائرية مع دولة أجنبية تحرر باللغة العربية في العهد العثماني.
- أنظر: عبد الجليل، التميمي، بحوث...، المصدر السابق، ص 148.
- (70) شالر، المصدر السابق، ص 307.
- وأيضا: محمد العربي، الزبيري: "مقاومة الجزائر للتكتل الأوروبي قبل الاحتلال"، مجلة الأصالة، العدد 12، الجزائر 1973م، ص 124.
- (71) Playfari, « Episodes de l'histoire des relations de la grande Bretagne avec les états barbaresques avant la conquête Française », In **RA**, (N°24), 1880, P.32.
- (72) الزهار، المصدر السابق، ص 125.
- (73) خط همايون، عدد: 22486، تاريخ 1231 هـ.
- (74) شالر، المصدر السابق، ص 292-312.
- (75) Shaw, Voyage dans la régence d'Alger ou description géographique, physique, philologique, etc., et de cet état, Trad. de l'Anglais avec des nombreuses augmentations par J.Mac Carthy, Paris, Malin, 1830, P.277.
- (76) خط همايون، عدد 22556، تاريخ 1231 هـ.
- (77) A.Chabaud, op.cit, P.201.
- (78) Recueil de notices historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Pub. Par A.Devoulx, Alger, imp. Du gouvernement, 1852., P.14.

- (79) الزهار، المصدر السابق، ص 127.
- (80) عبد الجليل، التميمي، بحث...، المرجع السابق، ص 148.
- (81) الزهار، المصدر السابق، ص 127.
- (82) M.Belhamissi, op.cit, T3, P.375.
- (83) شالر، المصدر السابق، ص 193.
- (84) Grammont, Histoire..., op.cit, P.385.
- (85) الزهار، المصدر السابق، ص 151.
- (86) المصدر نفسه، ص 154-1853.
- (87) شالر، المصدر السابق، ص 200.
- (88) محمد العربي، الزيري، "مقاومة الجزائر..."، المرجع السابق، ص 128.
- (89) شالر، المصدر السابق، ص 202.
- (90) Grammont, Histoire..., op.cit, P.385.
- (91) شالر، المصدر السابق، ص 203.
- وأيضاً: Sir Harry Neal et Berbrugger(A), « Guerre de 1824 entre Alger et l'Angleterre », in, R.A(N°8), 1864, P203.
- (92) خط همايون، عدد: 22550، تاريخ: 1240 هـ.
- (93) الزهار، المصدر السابق، ص 153-152.
- (94) محمد العربي، الزيري، "مقاومة الجزائر..."، المرجع السابق، ص 128.
- (95) شالر، المصدر السابق، ص 215.
- (96) نفسه، ص 228-227.
- (97) نفسه، ص 223.
- (98) خط همايون، عدد: 22550، تاريخ: 1240 هـ.
- (99) الزهار، المصدر السابق، ص 154-153.
- (100) شالر، المصدر السابق، ص 236.
- (101) خط همايون، عدد: 46324، تاريخ: 1240 هـ.
- (102) نفسه.

(103) الزهار، المصدر السابق، ص 154.

E.Cat Petite histoire de l'Algérie, Tunisie, Maroc,
Adolphe Jourdan, Alger, 1889.
, P.337.

(104)

(105) محمد العربي، الزبيري "مقاومة الجزائر"...، المرجع السابق، ص 129.

الإيقاع البيولوجي للإنسان من زاوية الأهمية الوظيفية لعملية النوم

Human Biological Rhythm: Perspectives on the Functional Importance of Sleep Process

د. بقادير عبد الرحمن

جامعة غرداية.

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام: 2016/07/03

Abstract:

Sleep is necessary and vital part to human beings so that they can perform their physiological functions. It is also one of the factors that humans need in order to live, like air, water and food. Moreover, the lack of sleep may affect some physiological jobs. Hence the need to sleep, both qualitative and quantitative is considered necessary for warming-up and doing different physical actions. It is believed that reduction of two hours of the amount of sleep a day may have an impact on human performance in terms of mood and memory, taking appropriate decisions, reaction and other daily physical activities.

The extreme importance of sleep therefore requires a deep study and to identify its most important stages, functions, positions, as well as the disturbances that could be faced with.

key words:

Human Biological- Sleep Process- physical activities.

لا يختلف إثنان على أن كل الكائنات الحية معنية بالنوم حتى النباتات؛ ففي آخر النهار وبداية ظهور علامات الليل، تدلي النباتات أوراقها وتتوقف الأسماك عن السباحة وتنام الزواحف والطيور والحشرات والحيوانات، إلا أنه تختلف مدة النوم حسب الكائنات الحية، فالأبقار والغنم تحتاج إلى ساعتين أو ثلاثة من النوم في كل أربعة وعشرين ساعة، بينما تنام القطط أربعة عشرة ساعة، أما الإنسان فإن معدل نومه يتراوح بين سبعة إلى ثمان ساعات، وبعض الحيوانات تنام ناهراً وتنشط ليلاً مثل الخفافيش.

إن أهمية النوم الطبيعي أو عملية النوم الطبيعي تتضح أمامنا كثيراً إذا تذكرنا تعذر احتمال السهر لفترة طويلة من الزمن واستحالة ذلك إذا بلغ الحرمان من النوم حداً تنوء به طاقة الجسم الفيزيولوجية، مما يؤدي إلى تعطيل وظائف الجسم الحيوية فيتعرض للموت المحتم، وهذا يحدث للإنسان والحيوانات الراقية الأخرى. ولقد ثبت أن باستطاعة الإنسان والحيوانات الراقية تحمل الجوع والعطش فترة طويلة نسبياً، ولكن الحرمان من النوم أمر يستحيل تحمله لفترة زمنية ماثلة، كل هذا يجعلنا نتساءل ما النوم؟ وما أهميته، وما هي أهم عملياته؟ كل هذه الأسئلة وأخرى سنحاول الإجابة عنها من خلال هذه الورقة البحثية.

– مفهوم النوم:

جاء في قاموس المنجد في اللغة ولأعلام لجماعة من المؤلفين المعنى اللغوي لكلمة نوم بمعنى: نام ينوم نوماً أي غلبه في النوم، يقال ناومني فنامته، أي غلبته، ونام نوماً ونياماً أي نعس أو رقد.

01_ تعريف التهانوي محمد علي (1996)

يعرف هذا الأخير النوم كونه حالة عارضة للحيوان، فيعجز عن الاحساسات والحركات غير الضرورية وغير الإرادية، بسبب تصاعد أبخرة لطيفة سريعة التحلل إلى الدماغ، مغلفة للروح النفساني مانعة من نفوذه إلى الأعصاب. (التهانوي 1996)

02_ تعريف محمد نصر الدين ياحي

يوضح هذا الأخير في كتابه الأمراض الليلية أن النوم يعتبر نظاماً بيولوجياً غير إرادي، تتم من خلاله استراحة النفس والجسد، يتكرر كل أربعة وعشرين ساعة، بمعدل سبعة إلى ثمان ساعات. (محمد نصر الدين ياحي ص 21)

إذاً ومن خلال هذا التعريف يبرز لنا أن النوم هو عبارة عن نظام فطري بيولوجي لدى الإنسان، بواسطته نضمن الراحة لجسم الإنسان، وبهذا يمكن القول أن النوم يلعب دوراً أساسياً في استعادة النشاط والحيوية للجسم. لكن ما يمكن إبرازه في هذا الصياغ أن مفهوم النوم بهذا

الشكل يمكن أن يعبر فقط عن النوم الطبيعي لدى الإنسان أي النوم الاعتيادي، بحيث يمكن التمييز بين عدة أنواع مختلفة للنوم:

* فكما أشرنا سابقاً هناك النوم الطبيعي المؤلف، وهو نشاط فيزيولوجي نشط يحتاج إليه الجسم بعد العناء ليستعيد نشاطه، فهو بذلك يمكن تشبيهه كالترتيب أو التشحيم للسيارة.

* نوع آخر من أنواع النوم يمكن تمييزه وهو النوم الاستسلامي المنفعل الذي يحصل بفعل عوامل خارجية دون أن تستلزمه بالضرورة حالة تعب فزيولوجي، وتدخل ضمن هذا حالات نوم تحصل بفعل النشاط الانعكاسي الشرطي، كاعتقاد الشخص على النوم في ظروف معينة، وفي وقت معين، وشروط مكانية خاصة، وبهيئة نوم معينة، وهذا يشمل أيضاً -من بعض النواحي- تعذر نوم الطفل الرضيع (الذي اعتاد أن ينام في حجر والدته) في مكان آخر، حتى في حجر امرأة أخرى. (جعفر نوري 1977 ج2 ص32)

* كما يمكن أيضاً التمييز بين النوم الطبيعي المعتاد وبين حالات النوم الباثولوجية (حالات النوم المنحرف) -غير الطبيعي- كالإغماء، وحالات الرجة، وفقدان الوعي، وهي حالات يفقد فيها الشخص نشاطه اليومي المعتاد ويستسلم لحالات نوم منحرف يعود سببه الفزيولوجي إلى حدوث عملية تفكك حاد في نشاط المخ، فنوبات الإغماء مثلاً مردّها في الأصل الفزيولوجي الباثولوجي إلى نشوء حالة فقر الدم Animia مخي بصورة مفاجئة، وحالات الرجة تعود في الأساس على حدوث اضطراب شامل يعتري وظائف الدورة الدموية ويحبس التنفس ويؤدي إلى هبوط ضغط الدم، أما حالات فقدان الوعي فتتّشأ في العادة بفعل تعرض المخ لحالة تخدر حاد Intoxication. (جعفر نوري 1977 ص32)

في حين أن النوم الطبيعي هو حالة صحية سليمة وطبيعية يمر بها المخ والدماغ عموماً والجهاز العصبي المركزي ثم الجسم بأسره بعد ذلك وبتأثيره، ويعود الجسم بعدها إلى حالة اليقظة الطبيعية دون الحاجة إلى منبهات اصطناعية، وهذا عكس ما يحصل في حالات النوم الشاذ، المشار إليه حيث لا يستطيع الشخص أن يفيق منها إلا بوسائل التنبيه أو التنشيط الجسمي الاصطناعية.

2- مفهوم اليقظة:

في المعنى اللغوي يقظ بمعنى يقظ يقظاً، ويبقظ يقاظاً أي ضد نام أو حذر أو فطن وتنبه للأمور فهو يقظ. (المنجد في اللغة والأعلام لجماعة من المؤلفين ص 926). هذا فيما يخص المعنى اللغوي لمصطلح اليقظة أما في المجال الأروموني فإن مصطلح اليقظة لديه معنيين يجب التفريق بينهما رغم الارتباط الوثيق بينهما:

المعنى الأول:

النشاط الإجرائي للمفحوص المكلف باكتشاف الإشارات غير المتوقعة وذات الشدة المنخفضة.

المعنى الثاني:

حالة التيقظ أو الصحو المميزة من الناحية السيكلوجية لمستوى مرتفع من استقبال مثيرات المحيط وكذا القدرة على الاستجابة، ومن الناحية الفزيولوجية لمستوى مرتفع للنشاط المخي. وقد ثبت أن الجسم يستجيب برشاقة وخفة أثناء اليقظة للمنبهات البيئية التي يتعرض لها بصورة عديمة الانقطاع، ويكون الجهاز العصبي المركزي -لاسيما المخ- في حالة نشاط لا ينضب، حتى وإن بدا أحياناً كأنه هادئ لا يبدي أي نشاط ملحوظ، فالجسم ما دام حياً ويقظاً أيضاً -أي هو دائماً في حالة نشاط متواصل في ارتباطاته العضوية بالبيئة المحيطة- فهو يستنشق الهواء وتمارس أعضائه الداخلية (الرئتان، القلب... الخ) وظائفها بشكل أو بآخر، وتمر عبر أعضاء الحس مختلف التنبيهات البيئية (الأصوات، الألوان، الروائح... الخ) وفي حالة النوم أيضاً لا تنقطع صلة الجسم بالبيئة انقطاعاً تاماً ومطلقاً، ولا تتوقف عن العمل أعضائه الداخلية بل تتغير بعض تعبيراتها.

3- أهمية النوم:

أن أهمية النوم الطبيعي أو عملية النوم الطبيعي تتضح أماناً كثيراً إذا تذكرنا تعذر احتمال السهر لفترة طويلة من الزمن واستحالة ذلك إذا بلغ الحرمان من النوم حداً تنوء به طاقة الجسم

الفيزيولوجية مما يؤدي إلى تعطيل وظائف الجسم الحيوية فيتعرض للموت المحتم، وهذا يحدث للإنسان والحيوانات الراقية الأخرى.

ولقد ثبت أن باستطاعة الإنسان والحيوانات الراقية تحمل الجوع والعطش فترة طويلة نسبياً، ولكن الحرمان من النوم أمر يستحيل تحمله لفترة زمنية مماثلة. كما أن خبرة الأطباء تشير إلى أن من علامات تحسن صحة المريض استسلامه لنوم هادئ عميق بعد فترة من القلق وانحباس النوم، الشيء الذي يوضح دور هذا الأخير وأهميته. وقد توصل بافلوف -أثناء سعيه لربط الفيزيولوجيا بالطب- إلى الكشف عن أهمية النوم لأغراض علاجية، تتناول كثيراً من الإضطرابات الجسمية وبخاصة منها وفي مقدمتها الاضطرابات العصبية.

(جعفر نوري 1977 ص 27)

كما أنه للنوم فائدتان جليلتان إحداها سكون الجوارح وراحتها مما يعرض لها من التعب، فيريح الحواس من نصب اليقظة ويزيل الإعياء والكلال، والثانية هضم الغذاء ونضج الأخلاط، لأن الحرارة الغريزية في وقت النوم تغور إلى باطن البدن فتعين على ذلك، ولذلك يبرد ظاهره ويحتاج النائم إلى فضل دثار. (إبن القيم محمد بن ابي بكر 1418هـ).

ومن الجدير بالذكر أن النوم أستمحل بنجاح علاجاً لمرض ارتفاع ضغط الدم في مراحله الأولى، وبلاستعانة أيضاً بالمستحضرات الطبية ذات العلاقة، كما انه يستعمل في علاج كثير من الأمراض الباطنية وذلك لثبوت علاقة القشرة المخية بجميع أعضاء الجسم الأخرى، كونها المنظم الأعلى لجميع الوظائف الفيزيولوجية من ناحية، ولكون النوم يهيئ فرصة استراحة تامة للقشرة المخية التي أنهكها العمل الدائم أثناء اليقظة. (جعفر نوري 1977 ص 28)

كما أنه وجد أن النوم يقلل خلال الحياة من الأمراض المتعلقة بإصابة المراكز الدماغية، من جهة ومن جهة أخرى يجعل الإنسان جميلاً لأنه يضاد التجعدات (ليون جوزيت 1414 ص 22) وفي نفس السياق أكد نفس المؤلف أن الحرمان من النوم يجر إلى إضطرابات في الذاكرة وصعوبات في تعلم المفاهيم الجديدة وحفظ المفاهيم أو المفردات المكتسبة.

وجد كذلك أن للنوم دوراً أساسياً في استعادة النشاط والحيوية للجسم وقد تم إثبات هذا تجريبياً، كما وجد بأن قلة النوم لدى الإنسان تؤدي إلى انخفاض في الأداء (ماتز وجماعته Metz et al 1960)، وتظهر حالة من الضغط النفسي في حالة استمرار الحرمان من النوم، وفي نفس الإطار توصل (كاهن Kahn 1962) إلى ظهور اضطرابات في عملية الأيض، ويؤثر نقص النوم كذلك على الحيوان، حيث وجد أن هذا الأخير يمكنه أن يبدي مقاومة وصموداً عند غياب الغذاء، لكنه يظهر صبراً أقل من ذلك بكثير عند حرمانه من النوم (اندلاور 1977 Andlauer)، كما يرى قرانجين (1979) Grandjean أن النوم الجيد كمّاً ونوعاً يعتبر شرطاً ضرورياً للمحافظة على الصحة والفعالية لدى الأفراد باعتباره من أهم الوظائف التي يمر بها الإيقاع اليومي، ويرى ويلكنس (1969) Wilkinso أن نقصان النوم يعتبر عاملاً مهماً يمكن أن يؤثر على كفاءة العامل حتى عندما يخفض النوم بثلاث فقط خلال ليلتين. (حمو بوظيفة 1995 ص 90)

فلوقت غير بعيد كان الاعتقاد السائد يفسر النوم على أنه ظاهرة سلبية إذا ما قارناه بالنشاط المميز لمرحلة اليقظة، وبفضل الكثير من التجارب العلمية تمكن الوصول إلى فهم أعمق لهذه الظاهرة وكل ما تحويه من نشاطات حيوية ضرورية لتوازن العضوي للجسم، فجل النتائج المتحصل عليها علمياً تؤكد أهمية التعاقب بين النوم واليقظة عند الكائن الحي لسلامة كيانه الداخلي. (Magnin Pierre 1990. P6) وفي حديثنا عن القيمة الوظيفية للنوم فقد أثبت أن النوم ذو الحركات السريعة للعينين مهم للجهاز العصبي الإرادي. (إسماعيل 1990)

فلقد أشارت التجارب والبحوث العلمية إلى أن النوم ليس مرحلة ركود وخمول كما كان يظن الكثير، إنما هو مرحلة صيانة للجسم واستعادة لما فقدته من عناصر حيوية، وهو مرحلة يستطيع خلالها الجسم أن يحضر ما يلزمه من مواد يحتاجها في الفترة التالية من حياته، ووظيفة النوم الأساسية هي إعطاء الجسم الوقت ليستعيد قواه. (الدسوقي 2006). فالجانب اليقظ من حياتنا يستمد من النوم مادته الأولى وطاقته اللازمة لتأدية

وظائفه وأدواره المختلفة في الحياة. فإذا كان النوم يمثل ثلث حياة الإنسان فالثلاثين المتبقين منها مرتبطتين أساساً بنوعية هذا النوم.

(Fluchaire Pierre 1982. P31)

كما أن للنوم الجيد فوائد عديدة فإن لنقص النوم تأثير كبير على حياة الإنسان، ونفسية الأشخاص، فغالباً ما نجدهم أكثر نرفزة من الآخرين وأكثر قابلية للانزعاج والوحدة. كما تجدر للإشارة هنا إلى أن النوم في المعتقد الديني الإسلامي هو موت صغرى يجربها الإنسان كل ليلة إلى يوم مماته، وقد سُمي القرآن نوم الإنسان وفاة، حيث يقول الله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة الزمر، الآية رقم 42). ويعني أن النفس التي يتوفاها عند النوم يردّها إلى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة إلى أجل مسمى، وذلك الأجل هو وقت الموت، والأحاديث في هذا الشأن كثيرة منها ما روي مرفوعاً " عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، أَيَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ؟ ، قَالَ : " النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ وَلَا يَمُوتُ أَهْلُ الْجَنَّةِ " (ذكر روايته الدارقطني في العلل(13/337) ، كما أنه كان معروفاً أن الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أصبح يقول "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور". (شمسي باشا حسان 1991 ص)

4- عملية النوم:

يتعرض الدماغ أثناء اليقظة لتأثير المنبهات البيئية التي لا تحصى، الأمر الذي يجعله في حالة نشاط متواصل يبلغ أعلى مستوياته لدى المخ فتحتاج خلايا المخ في هذه الحالة إلى كميات كبيرة من الدم وإلى مقدار فائض من الهرمونات وسكر الكلوكوز الذي يمدّها بالطاقة، وتحتاج إلى الغذاء بالطبع والأكسجين والتخلص من الفضلات.

وينعكس الحال أثناء النوم حيث تعتري الجسم تبادلات فزيولوجية كبيرة وكثيرة فيشعر الشخص في أول الأمر أثناء فترة النعاس (المعبر عنه بالتثاؤب وهي إحدى علامات اقتراب النوم

(باسترخاء عام يحصل في عضلاته ابتداءً من عضلات الرقبة حيث ينحني الرأس إلى الأمام ويميل نحو الخلف وإلى الجانبين. (جعفر نوري 1977 ص33)

والنعاس في جوهره الفيزيولوجي هو تناقص النشاط الإيجابي الذي تمارسه القشرة المخية أثناء اليقظة التامة وذلك بفعل نشوء عملية نوم ضعيفة في الخلايا المخية، ويفقد الشخص في هذه الحالة قدرته على تركيز انتباهه في شيء معين بالذات ويتعذر عليه الاستمرار في العمل الذي بين يديه، وتنشأ في الجسم أثناء ذلك مواد كيميائية تساعد على الانتقال بيوكيمياوياً إلى حالة نوم، وتحجب آثار المؤثرات البيئية الخارجية من الوصول للمخ، فتكثر في الدم مثلاً أملاح المغنيسيوم وأملاح البوتاسيوم في السائل المخي النخاعي، وتتناقص كمية الهرمونات في الدم باستثناء الأنسولين الذي تزداد كميته، وتضعف القدرة على تكوين البول وإزالته وعلى تكوين العصارة المعوية، وتتضاءل الحركة الدورية في الأمعاء وتخففي كمية الكلوكوز في الدم، كل ذلك يهيئ الجسم بيوكيمياوياً للنوم. (جعفر نوري 1977 ص33-34)

يتضح أن هناك علامات فيزيولوجية واضحة تشير إلى اقتراب حدوث النوم وتدل على حاجة الجسم إلى الخلود للراحة، وفي مقدمتها النعاس الذي هو من هذه الناحية مثل الجوع الذي يعبر عن حاجة الجسم إلى الطعام ومثل العطش الذي يدل على حاجة الجسم للماء، وهذا يعني أن النعاس هو غير النوم بل تعبير عن قرب حدوث النوم، وهو أحد مقدماته تماماً كالتثاؤب واسترخاء العضلات وتشتت الانتباه وتعذر مواصلة العمل.

والنعاس ظاهرة فيزيولوجية طبيعية مثل الجوع والعطش، يعبر فيها الجسم عن إحدى حاجاته الحيوية البيولوجية، ولا بد من أن ينام الشخص في مثل هذه الحالة ليشبع تلك الحاجة، تماماً كما يفعل عند الجوع أو العطش، فكما أنه لا توجد وسيلة أخرى طبيعية لتغلب على الجوع غير تناول الطعام فكذلك لا يمكن استبعاد النعاس طبيعياً إلا بالنوم الذي يزيل الإرهاق الذي أدى إلى حصول النعاس الذي يشير إلى ضرورة النوم. والنعاس من هذه الناحية إجراء فيزيولوجي ذو طبيعة صيانة أو وقائية بنظر بافلوف، لأنه يحول دون استنزاف طاقة

الجسم الحيوية وبخاصة نشاط جهازه العصبي المركزي، لاسيما المخ. (جعفر نوري 1977، ص35)

5- مراحل النوم:

يمر الإنسان خلال فترة نومه بمراحل متتالية يتقاسمها النوم الخفيف والنوم العميق، إلا أنه قد اختلف عدد كبير من الباحثين في تحديد أهم هذه المراحل بدقة، حيث أوضح البياتي (2002) خمس مراحل للنوم، وهي: النعاس وهذه المرحلة قد أكد عليها كذلك الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد سنة 1984، والمرحلة الثانية هي الغفو ويليه النوم ثم السبات وأخيراً قبل اليقظة ويمكن أن نوضح هذه المراحل في خمسة مراحل أساسية يتم تبيانها عن طريق جهاز المخطط الكهربائي للدماغ (EEG)، وهذا حسب ما جاء به محمد نصر الدين ياحي في كتابه الأمراض الليلية، وهذه المراحل هي كالآتي:

المرحلة الأولى: نوم خفيف جداً *Sommeil très léger*

سجل حينها إيقاع بشكل ألفا (□) يمكن تكراره، وهذه المرحلة تأتي في مرحلة النوم مع بدايته.

المرحلة الثانية: نوم خفيف *Sommeil léger*

تمثله Δ حياناً موجات دلتا ()

المرحلة الثالثة: نوم عميق نسبياً *Sommeil profond*

تظهر موجات دلتا بنسبة 20%

المرحلة الرابعة: نوم عميق جداً *Sommeil très profond*

تكون فيه موجات ألفا (□) بنسبة 50%

أثناء النوم العادي يمر الفرد بالتدرج من المرحلة الأولى إلى المرحلة الرابعة، وترتبط مدة النوم العميق والنوم الخفيف بالسن، فكلما زاد السن كلما كان النوم خفيف، وتختفي ابتداء من

سن الستين المرحلة الرابعة نهائياً، وتصبح كل مراحل النوم ضرورية من أجل صحة جسمية ونفسية جيدة. (صليحة بلاش 1999)

المرحلة الخامسة: وهي المرحلة التناقضية Paradoxical أو مرحلة النوم المتناقض. وهي المرحلة التي يتم فيها تحريك العينين، ويكون الجسم حينها كله مرتخياً وهذه المرحلة من النوم تحدث فيها الأحلام والرؤى les rêves وتدوم حوالي 60 دقيقة مع تكرارها 6 مرات في الليل وبصفة متناوبة مع مرحلة النوم (N Mor) أي دون تحريك العيون، وتعد ضرورية لتوازن.

كما أجريت دراسات حول مراحل النوم المختلفة لتحديد أهم مرحلة وأجداها لاستعادة قوى الفرد، إلى أنها لم تتفق على مرحلة معينة، فالبعض يرجح المرحلة التناقضية (أي مرحلة حركات العين السريعة)، والبعض الآخر يرجح مرحلة النوم العميق، أو المرحلتين معا كما يذهب ويب W.B.Weeb، غير أنه حسب قرانجين Grandjean 1980 فإننا لا نعرف إلا القليل عن معنى مراحل النوم الخمس التي تتضح من خلال الرسم الكهربائي للدماغ (EEG) لكن ما يمكن قوله بصفة عامة أن المرحلة الثالثة والرابعة (مرحلتين النوم العميق) وكذا المرحلة الخامسة (المرحلة التناقضية) لها مميزات خاصة لتعويض نشاط الجسم، إلا أن باحثين آخرين أمثال جونسون (1974) Johnson، أنيو وآخرون (1966) Agnew et al يرون بأن أهمية النوم لا تكمن في طول كل مرحلة على حدة بل تكمن في المدة الإجمالية للنوم والتتالي أو التناوب بين مختلف مراحلها. وإذا من خلال مجمل ما توصلت إليه الدراسات في هذا المجال يمكننا القول بأن النوم يتميز بمدته الإجمالية وبمدة كل مرحلة من مراحلها والتنظيم أو التركيب المؤقت لكل مرحلة. (بوحفص مباركي 2004 ط2 ص118)

6- وضعية النوم:

بحسب ما جاء به الدكتور محمد نصر الدين ياحي في كتابه الأمراض الليلية، فإن الوضعية التي يجب اتخاذها كي يكون النوم في أحسن حالة هي الإستلقاء على الجهة اليمنى من الجسم ووضع الخد الأيمن على الوسادة. ويتجه الإنسان بوجهه للجهة الشرقية إن كان في البلدان

الغربية، وللجهة الغربية إن كان في بلدان المشرق. أما إذا كان من أهل الجنوب فيتجه بوجهه إلى المنطقة الشمالية والعكس، والتفسير العلمي لهذه الملاحظات هو أنه يوجد احتمال كبير لتأثير تيار مغناطيسي يتواتر بين 10 دورات في الثانية يساعد على ترتيب النوم. وبهذه الطريقة أيضا يكون الكبد والمرارة على جهة الفراش متجهين بفعل الجاذبية الأرضية، ويبقى القلب في مجال واسع، ويسهل تحريك عضلة التنفس (الحجاب الحاجز) وبذلك يكون التنفس أثناء النوم عاديا وصحيا. وفي حديثه عن النوم قدّم حسين بن عودة العوايشة في كتابه الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة (الوضوء والمسح على الخفين، ص38). وَعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ: "إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ...". (أخرجه الشيخان). إن هذا الحديث ليبرز معجزة الطب النبوي في كل ما أوردناه سالفا عن أهمية النوم على الشق الأيمن .

يقول الدكتور النسيمي: "والفائدة الحسنى من النوم أن يكون على الجانب الأيمن ولاسيما بعد الطعام، لأن ذلك أسهل لإفراغ ما في المعدة من الطعام بعد هضمه، وبذلك تفرغ أسرع مما لو نام على شقه الأيسر. وللنائم أثناء النوم أن يتقلب بحسب راحته، وأن يكون أكثر هذه الأوضاع راحة هو الجانب الأيمن، أيضا لأن الكبد هو أثقل الأحشاء تكون مستقرة لا معلقة وكذلك القلب يكون في وضع أخف حملاً إذ لا يكون فوقه إلا قليل من الرئة فيكون أنشط فعلاً، أما النوم على الظهر فيكون كثير الضرر لأن شراع الحنك واللهاة فيه يعرضان فرجة الخيشوم الداخلية ويعوقان مجرى التنفس، فيكثر بذلك عند المستلقين على الظهر الغطيط والشخير، كما أنه كذلك المفزات الأنفية تسيل إلى البلعوم وتخرشه . (محمد نصر الدين يا حي ص24).

7- نوعية النوم:

اعتاد البشر منذ أمد بعيد أن يأووا إلى مساكنهم عند ابتداء الليل بسبب أن فرص المساعي النشطة تقل بسبب الظلمة حين تزيد المخاطر أو الخطورة. بحيث خصصت الساعات التي تتلو غروب الشمس للبيت والأسرة، وكانت تقضى في الاستعداد للراحة بالليل، ثم اخترعت الأضواء الكهربائية الكاشفة التي لا تنير المساكن بمفردها فقط وإنما تنير مدناً بأسرها، وبذلك تحولت

حياة الإنسان فأصبح من الممكن أن يواصل القيام بأنشطة النهار في ساعات المساء، وهذا مثال من أمثلة التقدم. حيث يغري كثيراً من الناس بأن يزيدوا من أوقات فراغهم أو استمتاعهم في المساء على حساب نومهم. فالتلفاز يحمل التسلية إلى كل بيت حتى الساعات الأولى من الصباح، مما يجعل بعض الناس يشعرون بأنهم سوف يفقدون أموراً لو أنهم أوا إلى فراشهم، ويصبح النوم المبكر نوع من التخلي عن حقوق لهم، مما يؤثر سلباً على نوعية النوم لديهم .

وفي هذا الإطار يقول :س.و.هفلاند "كثيراً من الناس يرون بالفعل أنه من غير المهم. طالما ظفروا بالنوم سبع ساعات، أن يكون ذلك بالنهار أو بالليل. وهم يغمسون أو يستغرقون في دراساتهم أو متعتهم إلى وقت متأخر من الليل، ويظنون أنه لا بأس في أن يستكملوا في نوم الصباح ما كان قد ضاع عليهم من النوم في ساعات منتصف الليل. ولكني أتوجه إلى كل من يرى لصحته الطبية قيمة عنده بأن يحذر من الوقوع في هذا الخطأ أو الغواية". (ألكسندر بوريلي. ترجمة احمد عبد العزيز سلامة 1992 ص225). إذاً ومن هذا كله يمكن القول أنه ومن حيث النوعية يعتبر النوم ليلاً أحسن من النوم نهاراً، لاسيما إذا تعدت مدته الست ساعات وعندما تقل المدة عن هذا الحد فإن نوعية النوم تتدنى. أما النوم نهاراً فهو أقل عمقاً وعادة ما تكون مدته أقل بالمقارنة مع مدته أثناء الليل، وذلك بفارق يتراوح على العموم من ساعة إلى ساعتين .

كما أن النوم أثناء النهار عادة ما يكون متقطعاً، وقد نوصل ليل (1967) Lille في دراسته لمدة النوم ونوعيته لدى عمال الدوريات بالاعتماد على تقنية المخطط الكهربائي للدماغ (EEG) ، إلى أن النوم نهاراً أقصر من النوم ليلاً. وفي نفس الإطار ومن الناحية الفيزيولوجية بين واب وإنيو (1967) Webb et Agnew أن النوم ليلاً يختلف عن النوم نهاراً حيث يكون هذا الأخير قصيراً ويحتوي على أنماط قليلة من الموجات الكهربائية للدماغ التي عادةً ما ترافق النوم الذي يقتزن بالنوعية الجيدة. فوري ولانتا (1972) Foret et Lantil، وبالتالي فإنه قد يكون غير كافي أثناء النهار سواءً من حيث الكم أو الكيف . (حمو بوظريفة 1995 ص91).

كما ترى فرانسواز ليل Françoise Lille في هذا الصدد أن العامل ليلاً يتكون لديه نقص متراكم من النوم يعوضه خلال يومين من الراحة الأسبوعية. وبالتالي لا يجب أن تقل مدة الراحة

الأسبوعية عن يومين في هذه الحالة . وليس النوم بالنهار قصيراً فحسب، بل كذلك متقطعاً نتيجة حاجة الفرد للطعام، ووجود عوامل خارجية كضوء النهار، وضجيج الأطفال والسيارات والمارة... الخ

شيء آخر تجدر الإشارة إليه وهو أن نوعية النوم تتميز بالمدة الإجمالية له، ففي هذا الإطار وجد باحثون أمثال جونسون (1974)، Jahnson، إنيو وآخرون (1966) Agnew et al أن أهمية النوم تكمن في المدة الإجمالية له والتتالي والتناوب بين مختلف مراحل. (بوحفص مباركي 2004 ط 2، ص 118). إذا ومن خلال ما توصلت إليه مجمل الدراسات في هذا المجال، يمكننا القول بأن النوم يتميز بمدته الإجمالية وبمدة كل مرحلة من مراحل وكذا الوقت من اليوم الذي احتله، بمعنى هل كان هذا ليلاً أو نهاراً.

8- اضطرابات النوم:

لا يكون النوم عادياً في جميع الأحوال، وإنما يمكن أن تتخلله العديد من الاضطرابات، يمكن إدراج بعضها فيما يلي:

8-1- النوم المصطنع:

نقول عن النوم بأنه مصطنع عندما يحدث بصفة غير طبيعية أي غير فطرية، بعد تناول عقاقير منومة أو مخدرة. فنوعية النوم في هذه الحالة تكون سيئة وغير مريحة تماماً نظراً لأن الدواء المستعمل للنوم يمنع حدوث مرحلة النوم المتناقض الذي له دور ممتاز في استرجاع البدن لقوته واستعداده لغده، ومن جهة أخرى فإن هذه المنومات تسبب الاعتياد وتتطلب زيادة في الجرعات مما يؤدي إلى ظاهرة التسمم التي تأتي لتعقد الأمور فيصاب المدمن بأرق مزمن يصعب علاجه. إذاً فإذا اقتضت الضرورة إلى اللجوء إلى المنومات، فيجب استشارة الطبيب الذي بإمكانه أن يمنع الوصول إلى الارتباط بالدواء وذلك بتنقيص الكمية بصفة تدريجية.

8-2- الإفراط في النوم:

وهي الإكثار من النوم، فيوجد أشخاص ينامون بكثرة حتى في النهار خاصة وقت القبلولة، وذلك رغم الاستغراق في النوم العميق ليلاً. وسبب ذلك راجع إلى توقفات التنفس المتكررة ليلاً والتي قد تدوم من 10 إلى 20 ثانية، وهناك عوامل مساعدة لذلك أهمها إنسدادات المجاري الهوائية والبدانة. (محمد نصر الدين ياحي ص 53)

8-3- الأرق L'insomnie

وهو ظاهرة الحرمان من النوم وذهاب النعاس، ويوجد ثلاثة أنواع من الأرق يمكن إدراجها فيما يلي:

8-3-1- الأرق الأولي:

حيث يصعب حينه النوم في الساعات الأولى من الليل ويجب مرور وقت معين كي يأتي النعاس والسبب راجع إلى الإفراط في تناول المنبهات مثل الشاي، القهوة، التبغ... الخ.

8-3-2- الأرق الوسطي:

وفي هذه الحالة يصحو النائم من نومه مبكراً ثم يغفو بعد ذلك بعد أن يكون قد قضى مدة زمنية غير قادر فيها على النوم إطلاقاً.

8-3-3- الأرق النهائي:

وفي هذا النوع من أنواع الأرق يستيقظ النائم مبكراً ثم لا يستطيع بعدها الرجوع إلى النوم، وغالباً ما تدل هذه الظاهرة على إصابة الجهاز العصبي بالإرهاق. هناك عدّة أسباب من شأنها أن تؤدي إلى الأرق من ذلك يمكن ذكر: أمراض الغدة الدرقية، القلق، الأمراض العقلية، الخوف من عدم النوم، التعود على شرب المنبهات والمنومات، تغير وقت العمل ووقت النوم، النوم على سرير جديد أو تغيير مكان النوم، اضطرابات التنفس، الحزن على فقدان شيء عزيز، الضجيج... الخ، كما قد يكون الحرمان من النوم بسبب الإصابة أو علة جسمية أو ضرورة العمل أو السفر أو الدراسة (كمال 1989).

9- اضطراب النوم بالنسبة لعمال الدوريات:

بحسب ما جاء به الدكتور حمو بوظيفة في كتابه الساعة البيولوجية، فإنه يعاني ما بين 50% إلى 60% من عمال الدوريات من اضطراب النوم إذا ما قورنوا مع 5% إلى 11% من عمال النهار، كما يجد حوالي 20% من عمال الدوريات صعوبة كبيرة أو أقل استحالة لمواصلة العمل بنظام الدوريات لأنهم لا يطيقون تحملها بسبب عدم حصولهم على القدر الكافي من النوم، وقد تزداد المشكلة حدةً مع التقدم في السن فحوالي 70% من عمال الدوريات ممن يفوق سنهم 40 سنة، يشكون من اضطرابات النوم بالمقارنة مع 17% فقط ممن يقل سنهم عن 25 سنة، وهذا على الرغم من أنه كلما تقدم الإنسان في السن كلما نقصت حاجته إلى النوم، لكنه وجد كذلك بأن نفس الشيء يظهر أثناء النوم نهاراً، أي أن هناك فرقاً في كمية النوم ليلاً أو نهاراً بغض النظر عن السن وهذا رغم وجود فروق فردية شائعة. (ماكدونال ودويل 1981 Mcdonald et Doyle، اندلاور 1977 Andlauer).

ومن جهتهما وجدا كل من باهاردوبافنوت (1970) Bahard et Pafnote، أن قلة النوم ترجع إلى الأسباب الأسرية بنسبة 36%، كما توصلوا إلى أن اضطرابات النوم تظهر لدى 58% من عمال الدوريات، ومن بين أكثر هذه الإضرابات تكراراً ما يلي:

- ❖ زيادة الحساسية للضوضاء ← 58%
- ❖ الميل إلى الانزعاج ← 48%
- ❖ قلة الرغبة في العمل ← 59%
- ❖ الإضرابات الهضمية ← 47%
- ❖ صعوبة النوم ← 27%
- ❖ النوم الاصطناعي ← 28%
- ❖ غفوة نعاس خلال اليوم بعد العمل بدورية الليل ← 47%
- ❖ ردود الفعل الانفعالية ← 34%
- ❖ انخفاض القدرة على بذل الجهد الذهني خارج العمل ← 30%
- ❖ صعوبة تركيز الانتباه ← 20%

❖ الاستيقاظ الصعب ← 17%

❖ الأرق ← 12%

(حمو بوظيفة 1995 ص93)

بناء على ما يعانيه عمال مختلف الدوريات من جراء نقص النوم، انصبت انشغالات المختصين في تنظيمها أساساً على محاولة ضمان القدر الكافي من النوم للعامل، وهذا لوجود عوامل تنظيمية في هذا المجال من شأنها أن تحقق أو تزيد من حدة المشكلة، فعندما تكون مدة الدوران طويلة ويعمل بها العامل أثناء الليل فإن ذلك يؤدي حتماً إلى ما يسمى "بدين النوم" الناتج عن التناقض المستمر في كمية النوم التي يحصل عليها العامل، وهو ما يزيد من معاناته يوماً بعد يوم، إذ لا يمكن التخلص من هذا الوضع إلا بالحصول على راحة والنوم لمدة طويلة أثناء يوم أو أيام العطلة، الأمر الذي يؤكد دور الراحة بأنواعها وأهمية التنظيم الفعال لمختلف ساعات العمل وفترات الراحة.

تبدوا مظاهر سوء تكيف العمال بالدوريات نتيجة لنقص النوم، من خلال ما يقدمونه من شكاوى ولجوئهم للمهدئات والمنومات من جهة، وتناول المنشطات ومختلف المشروبات التي يعتبرونها مساعدة للحفاظ على مستوى اليقظة كالكحول والقهوة والشاي بشكل مفرط من جهة أخرى.

وقد أكد تيزافنسون (1958) Thiis-Evenson من جهته هذه الإضطرابات في النوم إذ وجد أن 60% من عمال الدوريات تظهر عليهم إضطرابات في النوم مقابل 11% من العمال العاديين، كما يتسبب تتابع الدوريات الليلية كذلك في تراكم التعب، الأمر الذي يؤثر سلباً على الجهاز العصبي، ويرجع موريس (1976) Maurice هذه الإضطرابات إلى عدم تمكن عمال الدورية الليلية من تعويض النوم أثناء النهار نتيجة الضوضاء أو عوامل أخرى.

كما أظهر تحليل الموجات الكهربائية للدماغ (EEG) أن معانات العمال ترتبط بالتنوع الرديئة للنوم لأنه لا يكون عميقاً نهاراً، كما تتخلله مراحل كثيرة وتطبعه حركات جسمية متعددة، وقد تم التأكيد على هذا من طرف نوت وروتنفرانز (1972) Knauth et Rutenfranz، في دراستهما على خمسة أشخاص يعملون في بعض الأحيان ليلاً، حيث لاحظا

تقلص مدة النوم أثناء النهار، بعد مقارنة الأشخاص الذين ينامون في مكان تكثر فيه الضوضاء بآخرين ينامون في أماكن هادئة وذات جدران عازلة للصوت، تم التوصل إلى أن الضوضاء ليست هي السبب الرئيسي في تقلص كمية النوم، إنما يرجع السبب إلى كون ذلك خاصة من خصائص النوم أثناء النهار. (حمو بوظيفة 1995 ص 96)

انطلاقاً من كل ما أوردناه سابقاً، يتضح لنا جلياً أن النوم نشاط فيزيولوجي ضروري لحياة كل كائن بشري، بالإضافة إلى ذلك، فهو ضروري كذلك لاستعادة النشاط والحيوية للجسم بعد أي نشاط بدنياً كان أو ذهنياً، وبذلك فإن الاهتمام بموضوع النوم عند الإنسان ضروري، لأن أي اختلال في كمية ونوعية النوم عند هذا الأخير يمكن أن تكون له انعكاسات عدّة تمس حياة الإنسان من نواحي مختلفة سواء فيزيولوجية، أو نفسية، أو اجتماعية.

قائمة المراجع :

أ- المراجع العربية والعربية :

- 01- ابن القيم، محمد بن أبي بكر (1418هـ) "زاد المعاد" المجلد 5 بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة.
- 02- الدسوقي، مجدي محمد (2006) "اضطراب النوم (أسبابه، التشخيص، الوقاية والعلاج)" مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة مصر.
- 03- الكسندر، بوريلي ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة (1992) "أسرار النوم"، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
- 04- التهانوي، محمد علي (1996) "كشاف اصطلاحات الفنون" المجلد الثاني الطبعة الأولى، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت.
- 05- إسماعيل، عزت سيد (1988) "سيكولوجية النوم والأحلام" وكالة المطبوعات الكويت.
- 06- بوحفص، أمباركي (2004) "العمل البشري"، الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.
- 07- بوظيفة، حمو (1995) "الساعة البيولوجية: سلسلة أعرف جسدك وافهم نفسك"، الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع برج الكيفان، الطبعة الأولى.
- 08- يحيى، محمد نصر الدين "الأمراض الليلية"، الجزائر: شركة دار الهدى لطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة، بدون طبعة.

09- يوسف ، دهب علي ومحمد جابر يرقع وغادة محمد عبد الحميد (1995) "موسوعة الإيقاع الحيوي" الجزء الأول، مطبعة الانتصار لطباعة الاوفست.

10- ليون، جوزيت ترجمة هيثم سرية وعمر النياحي (1414) "مئة نصيحة ونصيحة لنوم"، دمشق دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى.

11- نوري، جعفر (1977) طبيعة الإنسان في ضوء فلسفة بافلوف: النوم، الأحلام، الاضطرابات العصبية، الجزء الثاني، العراق: مطبعة الزهراء بغداد.

12- شمسي باشا، حسان (1991) "النوم والأرق والأحلام بين الطب والقرآن"، المملكة العربية السعودية: دار المنار للنشر والتوزيع.

ب- المراجع بالأجنبية:

13- Fluchaire (Pierre) (1982) "Bien dormir pour mieux vivre", France: Daylas.

14- Magnin (Pierre) (1990) "Le Sommeil et le Rêve", Poche: 128 pages; Editeur : Presses Universitaires de France - PUF

دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني في تحقيق الصحة النفسية للتلميذ

The role of guidance and vocational school guidance counselor in achieving the mental health of the pupil

أ. بن سعيد عبد القادر

جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/03

Abstract:

The study highlights the efforts made by the freelance advisor to support and accompany learners and follow their school progress; furthermore, it targets to diagnose and find solutions to some difficulties met in choosing the appropriate stream according to his/her interest and capacities. This will result in leading the learners towards employment world contributing efficiently to society growth.

Key words :

Advisor - Learners - Psycho health.

إن الاضطرابات النفسية تعد أحد العوامل المحبطة لعدم انخراط التلاميذ في بلورة مشاريعهم الشخصية. وعلى العكس من ذلك، فالاستقرار النفسي يعد العامل المحفز على البذل والعطاء والإنتاج والنظرة المستقبلية المتفائلة، ويزرع الثقة في النفس ويثبت قوة العزيمة على تجاوز الصعوبات والعراقيل لتحقيق التلاميذ للأهداف التي يرسومونها لأنفسهم.

ولا شك أن الممارسات الحالية للتوجيه المدرسي والمهني أبرزت ضرورة إعادة النظر بالنسبة لمفهوم التوجيه وأساليبه للخروج من مسار التسيير الإداري لتوجيه التلاميذ إلى مجال المتابعة والمرافقة النفسية والتربوية والإسهام الفعلي فقد أصبح دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي في النقاط التالية :

بتقديم المساعدة النفسية بالتعاون مع مختلف أعضاء الاسرة التربوية وذلك بإجراء المقابلات بالخصوص مع تلاميذ أقسام الامتحانات، حيث يعمل على التخفيف من حدة ضغط الامتحانات بواسطة تقديم استراتيجيات التغلب على التوتر والطرق الصحيحة للاستذكار والمراجعة المنتظمة، سيما التلاميذ المقبلين على الامتحانات الرسمية. وعلاوة على ذلك يتكفل على مدار السنة الدراسية بالتلاميذ الذين يظهرون صعوبات مدرسية والمستكشفون خلال مجالس الأقسام والمقترحون من طرف الأساتذة أو بطلب من التلاميذ أنفسهم.

1. الإطار النظري للدراسة :

لابد من تقديم توضيح لبعض المصطلحات الواردة في هذه الدراسة منها ما يلي :

1-مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني : هو المختص النفسي الذي يقدم خدمات الإرشاد والتوجيه للتلاميذ من مختلف المستويات الدراسية ويقوم بأعمال إدارية ، تربوية ، بيداغوجية ، وتقنية. (ياسين ، 2001 : 11) (1).

2-المتابعة : مهمة يكلف بها المستشار تتمثل في التكفل بالتلاميذ سيكو-بيداغوجيا عن طريق تحليل نتائجهم المدرسية ونتائجهم في الاختبارات النفسية واستبيان الميول والاهتمامات ، وكذا إجراء المقابلات الإرشادية على التلاميذ الذين يعانون من مشاكل خاصة . (ياسين ، 2001 : 11) (1).

3-المرافقة البيداغوجية النفسية :

تتمثل في جميع نشاطات مستشار التوجيه المدرسي والمهني من تقديم المشورة للتلاميذ و تقديم الفرص إليهم حتى يستطيعوا اتخاذ قراراتهم بأنفسهم وتفسير كل شيء للتلاميذ وتوضيح البدائل المتاحة أمامهم وتحديد السلوكات المطلوبة منهم ، ومساعدة التلميذ على شق طريقه بنجاح في بناء مشروعه المدرسي والمهني (زهران ، 2005 : 282)⁽²⁾.

يعتمد نظام المرافقة على طرائق وأدوات ملائمة تمكن التلميذ من استدراك ما قد يفوته أو علاج ضعفه ومعرفة مسار تعلمه بكيفية مباشرة.

4-الصحة النفسية: حالة دائمة نسبيا، يكون فيها الفرد متوافقا نفسيا (شخصيا وانفعاليا واجتماعيا) ويشعر بالسعادة مع نفسه ، ومع الآخرين ، وقادرا على تحقيق ذاته واستغلال قدراته وإمكانياته إلى أقصى حد، وقادرا على مواجهة مطالب الحياة وشخصيته متكاملة سوية، ويكون حسن الخلق بحيث يعيش في سلامة وسلام (زهران ، 2005 : 09)⁽³⁾.

5-البعد النفسي: ويتمثل في إدراك التلميذ لدور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني في تعزيز الثقة في الذات لدى التلميذ وحسن الإصغاء إليه ، ومتابعة التلميذ لنصائح المستشار، وتوجيهاته (المرافقة البيداغوجية النفسية) يحتوي على 5 خمسة فقرات مقتبس من استمارة قياس دور مستشار التوجيه في بناء المشروع المدرسي والمهني للتلميذ.

II. مشكلة البحث :

انطلقت الدراسة الحالية للإجابة على السؤال المحوري التالي: هل لمستشار التوجيه المدرسي والمهني دور في تحقيق الصحة النفسية للتلاميذ، والذي يظهر من خلال نشاطات مستشار التوجيه المدرسي والمهني من تقديم المشورة للتلاميذ وتقديم الفرص إليهم حتى يستطيعوا اتخاذ قراراتهم بأنفسهم وتفسير كل شيء للتلاميذ وتوضيح البدائل المتاحة أمامهم في تحديد نوع الشعبة التي يريدون الالتحاق بها التي تتوافق مع قدراتهم وتحديد السلوكات المطلوبة منهم، ومساعدة التلميذ على شق طريقه بنجاح في بناء مشروعه المدرسي والمهني؟

III. أهداف البحث : يهدف البحث إلى التعرف على النقاط التالية :

- أثر التفاعل الحاصل بين المستشار والتلميذ على اختياراته الراهنة والمستقبلية .
- أثر الخدمات التي يقدمها المستشار على المستوى النفسي للتلميذ من تعزيز الثقة بالنفس، والقدرة على مواجهة الصعوبات المدرسية .

IV. حدود البحث :

- زمنيا أجريت الدراسة في شهر نوفمبر من سنة 2015
- شملت جميع ثانويات مقاطعة سيدي بلعباس ويقدر عددها 21 ثانوية.

V-فرضيات البحث :

أ.الفرضية الأولى:

هناك فرق دال إحصائيا في درجات التلاميذ على البعد النفسي الذي تقيسه استمارة قياس دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني حسب متغير الجنس ب.الفرضية الثانية:

هناك فرق دال إحصائيا في درجات التلاميذ على البعد النفسي الذي تقيسه استمارة قياس دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني حسب متغير جنس مستشار التوجيه .

VI-عينة البحث :

عينة الدراسة الأساسية وخصائصها :

الجدول رقم (1) يوضح عينة الدراسة الأساسية .

الشعب الثانويات: 21 ثانوية										شعبة لغات أجنبية			شعبة تقني رياضي			شعبة علوم تجريبية		
										المجموع	إناث	ذكور	المجموع	إناث	ذكور	المجموع	إناث	ذكور
المجموع										391	242	149	200	86	114	605	371	234
مجموع الذكور										497								
مجموع الإناث										699								
المجموع الكلي للعينة										1196								

يوضح الجدول رقم (01) توزيع العينة الدراسة الأساسية حسب 21 ثانوية بمقاطعة سيدي بلعباس وحسب الجنس حيث بلغ المجموع الكلي للعينة 1196 منهم 497 ذكر و699 أنثى، بالنسبة لشعبة علوم تجريبية بلغ المجموع الكلي لعينة الدراسة الأساسية 605 تلميذا منهم 234 تلميذ و371 تلميذة، أما بالنسبة لشعبة تقني رياضي بلغ عدد التلاميذ لهذه الشعبة ب200 منهم 114 تلميذ و86 تلميذة، وبالنسبة لشعبة لغات أجنبية بلغ عدد التلاميذ في هذه الشعبة 391 منهم 149 تلميذ و242 تلميذة

7- منهج البحث : استخدم المنهج الوصفي لأنه ملائم لطبيعة الدراسة .

8- أدوات البحث : بعد التأكد من صلاحية الأداة المستعملة في جمع البيانات في الدراسة الاستطلاعية وذلك من حيث :

1-الصدق الأداة :

- صدق المحكمين .

- الصدق الذاتي للأداة.

2- ثبات الأداة :

- بطريقة ألفا كرومباخ .

- بطريقة التجزئة النصفية . (بن سعيد ، 2013)⁽⁴⁾.

وهذا ما تبرزه الدراسة الحالية، من خلال الإجابة على السؤال التالي :

ب.هل يوجد فرق دال إحصائيا في درجات التلاميذ على البعد النفسي الذي تقيسه استمارة قياس دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني حسب متغير الجنس؟

9.تحليل ومناقشة نتائج البحث :

1.9.عرض نتائج الفرضية الأولى

أ. هناك فرق دال إحصائيا في درجات التلاميذ على البعد النفسي الذي تقيسه استمارة قياس دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني حسب متغير الجنس.

الجدول رقم (2) يوضح المتوسط الحسابي والانحراف المعياري

نص العبارة	المتوسط	الانحراف
1-يزيد مستشار التوجيه من ثقتي بنفسي	2.78	0.51
2-يساعدني مستشار التوجيه على إثبات ذاتي.	2.68	0.55
3-أحرص على تنفيذ توجيهات وتعليمات مستشار التوجيه.	2.60	0.59
4-أرى أن إمكانياتي الذاتية تسمح لي بالتابعة في الشعبة التي ارجب في دراستها.	2.59	0.59
5-يصغي مستشار التوجيه إلى آرائني واقتراحي وأفكاري حول مشروعي المستقبلي.	2.54	0.63
مجموع البعد النفسي	11.87	2.82

من خلال الجدول رقم (02) نستنتج أن متوسط الفقرة الأولى أعلى المتوسطات في إجابات التلاميذ على هذه الفقرة وهذا ما دل على أن عمل المستشار مع التلاميذ له أهمية بالغة في تعزيز الثقة بالنفس لديهم ما يحفزهم على التوافق داخل المدرسة ، واحتلت الفقرة 04 ثاني متوسط كذلك تبرز دور المستشار في تحفيز التلاميذ على تجاوز الصعوبات داخل الأوساط المدرسية وتحقيق الذات التي يعتبر من أهم العوامل على تحقيق الصحة النفسية المدرسية خاصة ، ثم يليه متوسط الفقرة رقم 03 وهذا ما يدل على أم المستشار يقدم تعليمات وتوجيهات ونصائح للتلاميذ ليأخذوا بها في متابع دروسهم ونشاطاتهم المدرسية حتى يحققون مشاريعهم الخاصة المدرسية المتمثلة

في تحقيق مشروع مدرسي ناجح يتوافق مع القدرات والميول والرغبات ، وبالتالي تحقيق مشروع مهني ما يحقق الانسجام والمحيط الاجتماعي بصفة عامة .

الجدول رقم (3) يوضح نتائج اختبار (ت) لدراسة الفروق بين الجنسين في البعد النفسي :

أبعاد	جنس	العدد	المتوسط	الانحراف	قيمة	مستوى
البعد النفسي	ذكور	497	11.64	3.02	2.30	0.00 **
	إناث	699	12.02	0.67		

(**) دال عند مستوى 0.01 (*) دال عند مستوى 0.05

من خلال الجدول السابق يمكن أن نستنتج :

أن هناك فروقا جوهرية بين الجنسين في البعد النفسي و هذا ما يظهر من خلال ارتفاع متوسطات الإناث مقارنة بالذكور.

2.9. عرض نتائج الفرضية الثانية

ب.هناك فرق دال إحصائيا في درجات التلاميذ على البعد النفسي الذي تقيسه استمارة قياس دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني حسب متغير جنس مستشار التوجيه .

الجدول رقم (4) نتائج اختبار (ت) لدراسة الفروق بين الجنسين في البعد النفسي والدرجة الكلية :

أبعاد	جنس	العدد	المتوسط	الانحراف	قيمة	مستوى
الأداة	المستشار				(ت)	الدالة
البعد	ذكر	590	12.01	2.84	1.76	0.07

النفسي	أنثى	606	11.72	2.80		
الدرجة الكلية	أنثى	606	13.72	3.58	3.80	0.00
	ذكر	590	65.96	10.02		

(*) دال عند مستوى 0.01 (*) دال عند مستوى 0.05

–البعد النفسي : ليس هناك فروق بين جنسي مستشاري التوجيه وإجابات التلاميذ
–الدرجة الكلية : هناك فروق بين جنسي مستشاري التوجيه وإجابات التلاميذ .

أ.مناقشة نتائج الفرضيات

1.مناقشة نتائج الفرضية الأولى:

والتي تنص: هناك فرق دال إحصائيا بين الجنسين في إجابات التلاميذ على استمارة قياس دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني في بناء المشروع المدرسي والمهني للتلميذ في البعد النفسي.

فمن خلال الجدول أعلاه يتضح لنا أن هناك فروقا دالة إحصائية ولصالح الإناث في الأبعاد التالية: البعد النفسي بلغت قيمة (ت) 2.30 وهي دالة عند مستوى 0.00 وكذا وفي الدرجة الكلية كذلك دالة حيث بلغت قيمة (ت) 3.48 وهي دالة عند مستوى 0.00، أما بقية الأبعاد فلا توجد فروقا جوهرية بين الجنسين.

وتعود أسباب ذلك إلى بعض الملاحظات التي لاحظناها في الميدان ومن خلال تجربتنا المتواضعة في ميدان التوجيه المدرسي والمهني إلى ما يلي:

أما في البعد النفسي فيرجع هذا التفوق إلى عوامل تتمثل في حب الإناث للدراسة ومحاولة فرض أنفسهن، وأنهن أكثر اقترابا من المستشار وأن هذا الأخير عزز ثقتهم في أنفسهن وأنه أكثر إصغاءا لانشغالاتهن في الميدانين الدراسي من جهة وتصوراتهن

المهنية من جهة أخرى وأنهن منخفضي سلوك الشرود والتشتت وعدم التركيز وهذا ما اتفق مع دراسة (العثمانه، 2003) .

2. مناقشة نتائج الفرضية الثانية:

والتي تنص: ب. هناك فرق دال إحصائيا في درجات التلاميذ على البعد النفسي الذي تقيسه استمارة قياس دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني حسب متغير جنس مستشار التوجيه.

ولدراسة هذه الفرضية استخدم اختبار (ت) لدراسة الفروق بين جنس مستشار التوجيه في إجابات التلاميذ على مقياس دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني وأبعاده، وأسفرت النتائج على ما يلي:

من خلال قراءتنا للجدول رقم (4) أعلاه نستنتج ما يلي:

- البعد النفسي: ليس هناك فروق بين جنسي مستشاري التوجيه وإجابات التلاميذ.
 - الدرجة الكلية: هناك فروق بين جنسي مستشاري التوجيه وإجابات التلاميذ.
- وهذا يعود إلى العوامل التالية:

1. قدرة مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني الذكور على فرض أنفسهم في ميدان التوجيه المدرسي مقارنة بالإناث.
2. أغلبية مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي الذكور منهم يتصفون بعامل الخبرة الطويلة في ميدان التوجيه المدرسي والمهني.
3. إن مستشارات التوجيه قد يتعرضن لظروف كالعطل المرضية وعطل الأمومة مما يؤثر سلبا على فاعليتهم ودورهم في المؤسسات التربوية وهذا ما أكدته دراسة (القيسي، 1986)، والتي من نتائجها أنه توجد فروق دالة إحصائية لصالح الإناث نظرا لكونهن أكثر تعرضا للصعوبات في مجال العمل مع الأولياء، مجال العمل مع الوصاية

ومجال العمل مع مفتش التربية الوطنية واختلفت مع دراسة (الريحاني، 1995) في عدم وجود فروق في سمات الشخصية الإرشادية تعزى إلى التفاعل بين الجنس والفاعلية .

إن دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني في تحضير وبناء مشروعه المدرسي والمهني لا يتوقف عليه كفرد مستقل، بل إن التلميذ في حقيقة الأمر يعتبر عنصرا محوريا في إطار نسق من عدة عناصر منها: طبيعة التكوين الممنوح، الهيكلية المتوفرة، طبيعة الفرص المتاحة على مستوى المحيط الذي يتواجد فيه وطبيعة المنظومة التربوية بشكل عام. (بشلاغم، 2005) ⁽⁴⁾.

المراجع :

1. زهران ، حامد عبد السلام (2005) : الصحة النفسية والعلاج النفسي ، ط4، عالم الكتب ، القاهرة .
2. ياسين ، آمنة (2001) : الخدمات الإرشادية - التوجيهية وعلاقتها بتغيير ميول التلاميذ ومردودهم الدراسي ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية جامعة وهران .
3. بن سعيد ، عبد القادر (2013) : دور مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني في بناء المشروع المدرسي والمهني من وجهة نظر التلميذ ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية جامعة أبو بكر بلقايد ، تلمسان .
4. بشلاغم، يحي (2005): نحو إعداد نموذج توجيهي فعال ، دراسة تحليلية نقدية لفعالية أسلوب التوجيه المدرسي والمهني في الجزائر، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية ، قسم علم النفس وعلوم التربية ، جامعة وهران ، الجزائر.

نبوءات الموريسكيين بين الحقيقة التاريخية والمغامرة اللاهوتية

مختصر القاسم الحجري نموذجا

د. هشام بن سنوسي

جامعة جيجل.

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام: 2016/07/07

Abstract:

It should out of partiality be acknowledged that the heirs of one of the most glorious civilizations were the Andalusian Moors, who have, in turn, bequeathed a legacy that still attests to the demise of their hybrid cultural heritage during the 17th and 18th centuries. The Moorish manuscripts illustrate their civilizational conflict, their psychological turmoil, their ardent defence of their cultural identity, and their steadfast devotion to their Islamic faith. Hence, it can be argued that their legacy is the product of a spacio-temporal conflict in Spain between two distinct religions and civilizations.

Key Words:

Andalusian Moors, Christianised Muslims, The New Christians, Minority, Spain, Inquisition, Literary Legacy.

خلف الموريسكيون الأندلسيون تراثاً ظلّ شاهداً على احتضارهم النفسي والثقافي الهجين، طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر، حيث سجلت المخطوطات الموريسكية جوانب بالغة الأهمية في صراعهم الحضاري وارتجاجهم النفسي، ودفاعهم المستميت عن هويتهم الثقافية، وتمسكهم بمبادئ دينهم،¹ وعليه يمكن اعتبار هذا التراث، نتاج مرحلة مهمة ارتبطت زمانياً ومكانياً بالصراع الحاد في إسبانيا بين ديانتين ونظامين حضاريين يختلفان سياسياً واجتماعياً وثقافياً.² وهذا ما يجعل المشكل الموريسكي في رأي المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل Fernand Braudel صراعاً دينياً، أو صراعاً حضارياً، وهو بهذه الصفة يصعب حله، وبالتالي فهو كان مدعواً لأن يستمر.³

فكلّ طرف ظلّ متشبّثا بهويته الحضارية، محاولاً أن يستوعب الآخر في إطار مجابهة جدلية، ولأن الموريسكي ظلّ غير قابل للاحتواء، فإسبانيا لم تتصرف بحقد عنصري، بل بحقد حضاري وديني، وكان الطرد انفجاراً لهذا الحقد، وشهادة عجز للإسبان، بدليل أن الموريسكي بعد مُضي ثلاثة قرون، ظلّ المسلم السابق الذي حافظ على كلّ فنّ حياتي، ولذا تمّ رفضه في الحضارة الغربية، لأن قلبه ظلّ مرتبطاً بعالم آخر.⁴ هكذا كانت المشكلة الموريسكية تطرح بشكل من الأشكال غربتها عن المجتمع الإسباني، لقد شكل الموريسكيون الأندلسيون إطاراً ثقافياً وحضارياً مغايراً لما كان موجوداً في إسبانيا آنذاك، فعلى امتداد عدّة أجيال، عمل أفراد هذه البقية على انقاذ ذاتيتهم المتميزة، لتبقى دوماً في مأمن من الاندماج، وتلك كانت سيرورتهم التاريخية التي لا مفرّ منها.

ويبقى التراث الموريسكي كفيلاً بإبراز الذاكرة الجماعية لأقلية مضطهدة، عانت الشتات وتردي المستوى الثقافي المتبقي من الثقافة الأندلسية، التي خفت نورها وانحسر إلى الوراء بسقوط غرناطة عام 1492م؛ وهو السقوط الذي مثّل حداً فاصلاً بين حضارتين في إسبانيا، حضارة عربية إسلامية ظلت تصارع الموت لسنوات، وحضارة غربية مسيحية تكتسح ما تعتبره دخيلاً، وتقذف به خارج شبه الجزيرة الأيبيرية. ويبدو أن الأدب جاء هو الآخر مترابطاً متلاحماً مع هذه المرحلة التاريخية التي انتهت إليها الأندلس، فكان يُرى فيه نشاط إنساني، يعكس الواقع ويقدم العون، نشاطٌ يصاب بالمد والجزر بحسب مدّ الأحداث وانحسارها..⁵

لقد تناولت كتابات الموريسكيين مواضيع ذات طالع ديني وتشريعي وجدلي وقصصي، حيث تميزت بشكلها العامي الشعبي مما سهّل انتشارها وامتدادها عبر التاريخ،⁶ خاصة بامتناع مؤلفيها عن التنصيص على أسمائهم تحريراً وتقيّة.⁷

1-

الأدب الموريسكي وطابعه الشعبي:

أهمّ اعتبارين يرجحان كفة الطابع الشعبي لهذا الأدب: أنه أدبٌ جماعي لم يقوم بصياغته مؤلف متفردٌ معروف، بل تداوله الناس واعتبروه ملكاً مشتركاً، واعترف كاتبوه بهذه الملكية المشتركة فلم ينسبوه لشخص محدد. والثاني: أن روحه ورسالته مما لا يعكس منظوراً سلفياً تقليدياً مثقفاً غالباً ما يلتزم به الكتاب المعروفون، وإنما يعكس رؤية هذه الجماعة الموريسكية للماضي كما يتمنونه ويتصورونه، في محنتهم الماحقة، إنّه رؤية الماضي على نار واقعهم المعيش، ومن ثمّ فهو أدبٌ شعبي بالمفهوم العميق لهذا المصطلح، وفي ذلك تكمن خصوصيته وقدرته على التلقيح والانتشار، كما تكمن قيمته في الكشف عن الوجدان الجماعي للموريسكيين الأندلسيين، وبلورته لوعيهم التاريخي طبقاً لسلم القيم المتجسد لديهم، وكلما بعد عن منظومة (التراث) العادية، واستغرق في الخيال، دون مساس بالروح المثالي الإسلامي كلما كان أعمق تجذراً في هذا الوجدان، وأشدّ تمثيلاً لخواصه الشعبية الأصيلة.⁸

2- النبوءة بين الحقيقة التاريخية والمعطى البسيكولوجي:

لقد كانت فكرة النبوءة، من الحيل المدهشة التي اهتمت إليها موريسكيو القرن السادس عشر، ليتمكنوا من تحمل حالة اليأس وارتجاجاتها النفسية التي مروا بها، لذلك انغمسوا فيها كونها استطاعت أن تمنحهم شيئاً من الامتاع والموانسة، والملاذ الذي بحثوا عنه طويلاً، وهو أمرٌ يعدّ من الأبعاد المدهشة والمثيرة للاستغراب في الأدب الموريسكي الأندلسي، كما أنه يعدّ مثلاً مثيراً للمشاعر على التفكير الرغبي الجمعي، فكتب الجفر (Aljofores) المسماة أيضاً (Alguacias)، المكتوبة بوضوح في القرن السادس عشر، تتظاهر (بمظهرها العتيق) أنها مخطوطات قديمة، (رغم وجود استثناءات معينة تشذ عن القاعدة) تتنبأ بمستقبل زاهر مزده بالنصر لمسلمي إسبانيا.⁹

ويبدو أن تصنيف كتب الجفر أو ردها إلى أحد الأنواع الأدبية هو أمرٌ في غاية الصعوبة، ذلك أنها تدمج عناصر متنوعة من الرواية والأدب والتاريخ، وباستخدامها كان الموريسكيون يحاولون فقط إعادة كتابة تاريخهم والتأثير في مستقبلهم، بعد أن أجبروا على التعميد والانصهار الثقافي البطيء في الطابع المسيحي الإسباني لعصر النهضة، ومن النادر إيجاد تجربة موازية لهذه التجربة الأدبية والإنسانية (الصادرة عن اليأس)، التي حاول بها مسلمو الأندلس أن يعيشوا حياة مختلفة عن حياتهم.¹⁰

وقد دفع كثير منهم غالباً ثمن نبوءاتهم التي كانت تدافع عنهم، والذي يؤكد هذه الظاهرة دون شك، هو عدد القضايا المطروحة في دواوين محاكم التفتيش، التي آخذت أصحابها بالاعتقاد بصحة هذه التنبؤات.¹¹ ويبقى اعتقاد الموريسكيين والمسيحيين بصحة هذا الأدب التنبئي من عدمه، مثاراً للسؤال والجدل، ورغم ذلك فقد عمد الفريقان إلى استثمار معرفتهما بطريقة متفردة في هذا المجال، فكلٌ منها كان يمدُّ مجموعته بنبوءات مزيفة، تخدم صالحه السياسي والإنساني على حدٍ سواء.¹² إنَّ أكبر مثال يمكننا الظفر به، نجده في مختصر رحلة الشهاب الحجري،¹³ وتحديداً في الباب الأول،¹⁴ الذي خصصه للحديث عن الرق وصفائح الرصاص التي وجدت قرب مدينة غرناطة؛¹⁵ يقول في هذا الصدد:

«...في عام ست وتسعين وتسع مائة¹⁶ من الهجرة ومن حساب النصارى عام ثمان وثمانين وخمس مائة وألف أمر القسيس الكبير¹⁷ بمدينة غرناطة بهدم صومعة قديمة كانت في الجامع الكبير، وكانت تسمى من قديم الزمان تَرْبَانَه¹⁸ قبل الإسلام، وذلك بعد أن بنوا صومعة قريباً منها عالية جداً، ولما أن هدموا القديمة وجدوا في حَيْطِهَا صندوقاً من حجر وفي داخله صندوقاً من رصاص، وفيه وجدوا رقاً كبيراً مكتوباً بالعربية والعجمية المتصرفة في بلاد الأندلس، ونصف خمار الصالحة مريم عليها السلام أم سيدنا

عيسى عليه السلام، وعظما من جسد أَشْطَبَانَ¹⁹ الصالح عندهم، فأما ما كان في الرق بالأعجمية فقري وما كان بالعربية فنادوا الأندلس الكبار السن الذين يعرفون القراءة العربية، وأمرهم القسيس بترجمة ما في الرق من العربي، ولم يحيطوا بفهمه حقيقة.. وبعد أن وجدوا الرق بسبع سنين جاء رجل من مدينة جيان ببعض كتب بعثها له بعض الأسارى من بلاد المغرب فيها ذكر كنوز في بعض المواضع، فكان ذلك الرجل بقرب غرناطة على بعد ميل منها أو نحو ذلك، وكان الموضع يسمى بخندق الجنة، فحرك حجرا ووجد تحته غارا وفي ركن الغار رمادا ورصاصا مكتوبا باللطين يقول فيه: هذا الموضع أحرق فيه القسيس سِليوّه،²⁰ وهذا سِليوّه كان الذي كتب الرق، وذلك أن النصراني كان عندهم في كتبهم خبر بموت سِليوّه وأنه كان من تلميذ سيدنا عيسى عليه السلام، وأنه قتل على دينه، وأنه من الشهداء عندهم، ولا علموا بموضعه، فأمر القسيس الكبير بالدخول في الغار وينظرون فيه ويفتشون لعلهم يجدون كتبه المذكورة في رومة في دار دينهم، والخبر في ذلك أنه عندهم في كتبهم أن سِليوّه القسيس الكبير كان عنده أسرار وأمور ربانية من زمن سيدنا عيسى عليه السلام أو قريبا منه، وأنه أودعها مكتوبة في جبل يسمى بابيطان.. ولما فتشوا في الغار وجدوا بعض الحجار معقودة فكسروها ووجدوا في قلب كل حجر كتابا وورقة رصاصا (كذا) وكل ورقة قدر كف اليد أو أقل قليلا، وهي مكتوبة بالعربية فأمر القسيس الأندلس بترجمة الكتب فوجد في أحدها ذكر الرق الذي كان بأيديهم قبل ذلك العهد بنحو السبع سنين فاشتد حرصهم على فهم ما في الرق.²¹

ويذكر الحجري ما وقع له مع القسيس الكبير في شأن قراءة الرق، وما صح منه لديه؛ قائلا: «.. ثم أمر القسيس بإحضار الرق وكان في الطرة مكتوب بالعربية بحروف غير منقوطة: يا طالب اللغز اقرن وان لم تقرن لم تحط بفهم الجفر، فسألني عن المعنى

بالعجمية فذكرته له ، وكان في أعلاه مكتوب ((جفر المنجيل يوحنا في خرب الوجود))
 ..قال القسيس سسليوه عن نفسه أنه مشى في طلب العلم إلى مدينة أطيناش²² ببلاد
 اليونان حيث يقرأ العلم بكل لسان وأن بعد زمن مشى إلى زيارة بيت المقدس وأن الطريق
 بفساد الأزمنة والرياح أصابه ما شاء الله من زيارته بداء مرض العينين حتى غشي البصر
 بالبياض ، وأن الموكل ببيت المقدس أخرج إليه جفر الحوري يوحنا الذي كتب ربع
 الانجيل ، وقال له أن فيه سرا عظيما ،²³ واستشفى به ، وارتد عليه بصره ، ثم أخذ منه
 نسخة اليوناني وترجمه باللسان المتصرف باشبانيه (العجمي) وهي بلاد الأندلس ،
 وأدخله في جدول من تسع وأربعين بيتا ووضع في كل بيت حرفا من العجمي ثم وضع
 تحت الجدول شرحا بالعربية ، ولما ترجمت العربي الذي ذكر أنه الشرح ، فكنت آخذ
 من العجمي الذي هو المتن إلى أن أجد علامة الوقف ، ثم آخذ من العربي وهو الشرح ما
 يناسبه ، فجاء الكلام مطابقا ومفهوما وهو كما ذكر في الطرة (يا طالب الغز أقرن)
 والاقران لشيئين متباينين يجمعهما ، وأما ما ترجم به كل من سبقنا وكان فيهم أعلم مني
 فترجم الشرح وحده ولا فهم معناه ..ففرح القسيس فرحا عظيما بما ترجمت وعلم أنه
 الحق وأعطاني ثلاثمائة ريال وأيضا كتابا بالإذن للترجمة من العربي إلى العجمي
 وبالعكس ، وامتد الخبر عند النصارى حتى كانوا يشيرون إلي ويقولون هذا هو الذي فهم
 الرق الذي وجد في الصومعة ، وقد مضت نحو العشر سنين بعد أن وجد ، فأمرني القسيس
 الكبير أن أكتب نسخة من الرق ، وبعثها للبابا بالمدينة رومة .

وبعض ما تضمن الجفر قال في العجمي المكتوب في الرق شيئا مما يكون بعد
 كمال ستة قرون من ميلاد عيسى عليه السلام ، وقال في الشرح العربي القرن مائة سنة .

من غمرات الشرقين اتى ملك جاني بالانشرار

على الوجود قايم بتمام القدر قد انتصار

يا مالكا دايمنا من هذا الأمر أين الفرار

ودين يتقدم على من قد أمله من العيوب

فترجمت معنى هذه الأبيات والمفهوم منها عندهم، أن الملك هو النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم يقولون أنه ولد للإحدى وعشرين سنة وست مائة من ميلاد عيسى عليه السلام.. وفي معنى الجاني وقع الخلاف بين المترجمين، ولما ترجمت أن دينه يتقدم على من قد أمله من العيوب، قال القسيس كيف هذه الترجمة، وقد كره ذلك كثيرا، لأن الكفار هم الذين أملوه من العيوب وتقدم دين النبي صلى الله عليه وسلم، وهو موافق لآية في القرآن العزيز، قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)²⁴ وهو معنى والله أعلم أن دين النبي صلى الله عليه وسلم يتقدم على المشركين الذين أملوه من العيوب.

وكان في أسفل الرق مكتوب بالعربية أول ما صدر يوحنا في الانجيل كتبه بطريسي²⁵ قسيس خديم سسليوه، وقال أنه أمره أن يضعه في موضع خفي حتى يريد الله أن يظهره، وأنه وضع الصندوق في حيط الصومعة خوفا من السلطان نيرون... وأما الكتب التي وجدت في الغار في خندق الجنة فكانت اثنتين وعشرين كتابا، والورق كما قلنا من الاسرب^{26 27} «

هكذا تمّ توظيف خدعة النبوءة (في الرق وصفائح الرصاص) لخدمة بعض أغراض المسلمين في الفترة التي سبقت عملية طردهم بصورة نهائية من الأندلس عام 1609م، حيث أحبطت بعض الاجراءات التي كانت ستتخذ، والتي كانت ستسبب الضيق والحرع للكنسية، كما كانت ستوقع محنة بالمسلمين المنصرين، ومن هنا نشأت _ فيما يبدو _ محاولة دبلوماسية يائسة للوصول إلى تركيب بين العقيدتين، فألواح الرصاص

التي ذكرها الحجري، هي واحدة من أمثلة كثيرة عن مظاهر التوفيق بين المعتقدات الدينية، كما ترينا حقيقة المواجهة الحاصلة بين هذين المجتمعين خلال تلك الفترة،²⁸ ذلك أنّ ظاهرة التنبؤ تمثل إحدى موضوعات المجادلة بين الموريسكيين والمسيحيين، الذين تبادلوا في كثير من الأحيان حججهم حول ذلك.²⁹

وقد حام بعض الشك حول الذين شاركوا في الترجمة (الرسمية) لهذه الألواح الرصاصية، في أنهم كانوا في الواقع هم من كان وراء كتابتها، وقد ساعدهم في هذه المغامرة اللاهوتية ذات الآثار النفعية على الصعيد الحياتي اليومي، أشخاص كان لهم بعض الاهتمام بالدينين المتعارضين.³⁰ وربما كان ذلك أحد أشكال الحلول، التي جاءت لتجسد في بعض الضمائر، تلك المصالحة المثالية، التي عرفت أنها البديل الخيالي لما قد حدث في الواقع من قهر واجتثاث، وهو تضاد فادح بين الأصل التاريخي والمثال الأدبي.³¹

فالنّبوءات كمخطوطات تاريخية مزعومة، تبدو في الحاضر مثيرة للمشاعر بسذاجتها اللاهوتية، كما تبدو مأساوية بسبب إخفاقها التام في منع طرد مسلمي الأندلس، ومنح بعض الهيبة والاحترام للإسلام، الذي كان يعاني النزاع الأخير في إسبانيا الكاثوليكية، ومع ذلك يمكن عدّ هذه الكتابات، التي تركز موضوع اهتمامها حول التنبؤ بالمستقبل (أو بالأحرى التأثير بالمستقبل)، سابقة أدبية فريدة من نوعها.³²

ذلك أنّ مسلمي الأندلس استطاعوا أن يقدموا تفسيراً أدبياً لوجودهم، باختراع القدرة على البقاء كشعب من لا شيء، كما أرادوا من خلال ذلك أن يبجلوا هذا القدر التاريخي، ويرفعوا من شأنه بإضفاء بعض المظاهر الروحية الجدية الغامضة عليه، لكن الخيال الجامح منعهم من الرؤية الكاملة للحقيقة المؤلمة التي تقتل كلّ تفاؤل سعيد، فالتاريخ الذي برهن أنّه كان عقيماً وبلا طائل، أثبت أنّ التفاؤل المثير للمشاعر كان

مجرد خطأ، فتنبؤاتهم التي تُقرأ اليوم تثير الكثير من الشجن، بسبب معرفة المسار التاريخي لهذا الشعب.³³

ومن ثمّ تعكس هذه النصوص، حقيقة تاريخية مضبوطة لمجتمع متنازع يعيش في وضعية متأزمة، تجلت فيها ظاهرة التنبؤ في وقت حدث فيه ارتجاج مستديم للعقول، غلبت فيه اللاعقلانية على التفكير المنطقي،³⁴ فإحساس الموريسكي بنهايته القريبة، جعله يستمر في الصراع ضدّ مصيره المحتوم، عن طريق تبني تصوّر متهيج وياثس.³⁵ وهذا ما يجعل ظاهرة النبوءة تمثل إحدى المعطيات البسيكولوجية القارة لدى الموريسكيين وتفكيرهم الجمعي، الذي عبروا من خلاله عن أملهم في مصير أفضل، ومعارضتهم للمجتمع المسيحي.³⁶

وبإمكان هذه النصوص أن تعين على فهم العقلية الموريسكية، وتشرح طبيعة سلوكها من خلال تأويلها لأجل الوصول إلى معرفة أشمل بمن أنتجها كما يقول كاردياك.³⁷

لكن ذلك لا يعني بالضرورة أنّ هذه النصوص لم تكن خاضعة للحقيقة التاريخية من جانب آخر، فأحداث السقوط والتعميد وطرد المسلمين سنة 1609م، قد تمّ ادراكها بوعي على قاعدة مجازية بالنسبة للواقع الإسلامي المحتضر خلال العصر الذهبي لإسبانيا المسيحية،³⁸ ما يعني وجود أصداء من الواقع بالفعل رغم إغراقها في جوّ الخيال والخرافة. فليس من باب الصدفة إذا تكاثرت هذه النصوص في المناطق التي شهد فيها الإسلام تأثراً شديداً، وفي الفترات التي بلغ فيها توتر العلاقات بين المجموعتين حدّه الأقصى، خاصّة في زمن الثورات الموريسكية، وزمن الطرد.

3- النبوءة وطابعها الجدلي:

وتتضمن هذه النبوءات في الواقع، كلّ الخصائص المميّزة للنصوص الجدلية، فالهدف منها هو إبراز التفوق الشخصي على حساب الآخر، ذلك أنّ الموريسكي يسعى من خلالها إلى قلب الوضع المعاكس لصالحه،³⁹ ويظهر ذلك في بحثه عن الاستشهادات الموجودة في تراث العدو، واستغلالها في مثل هذه الحالات لصالح الفكرة التي يراد الدفاع عنها، كما هو الشأن بالنسبة لتنبؤات القديس ايزيدور، التي كثيرا ما قرأها الموريسكيون، واستعملوها كحجج دون حرج أو تردد.

وقد كان تزوير النصوص وجعلها ملائمة للصالح الخاص، مثارا لتبادل التهم بين الطرفين، وقد أشار الحجري إلى ذلك؛ قائلا: «..ولما ترجمت ابتداء الإنجيل وما ذكر فيما كتب قال لي القسيس: انظر هذه الكلمة، قال: لها معنى غير هذا؟ قلت: ليس لها إلا هذا المعنى، قال: فترك موضع الكلمة ايضا لأنه مخالف للإنجيل الذي بأيدينا، قلت في نفسي: هذا الذي كتب في زمن سيدنا عيسى أو بأثره فهو عندي أصح من الذي عندهم الآن».⁴⁰

وقال في موضع آخر: «..وقد قلت للقسيس نحب نطالع الكتاب الذي لم يقرأ المسمى بحقيقة الإنجيل لعلّي نستخرج منه شيئا، قال لي: لم يبلغ الزمن الذي يقرأ فيه الكتاب، وعلم ذلك من الكتاب المسمى بكتاب مواهب الثواب للصالحه مريم،⁴¹ وقد وجدت في تونس.. نسخة منه بالعربية وأخرى بالأعجمية أتى بالنسختين واحد من الأندلس الذي كان يترجم، ووجدت في الأعجمية الباطل والكذب ما لا كان في النسخة العربية».⁴²

4- النبوءة وفكرة المخلص:

إنّ عجز الموريسكي عن مواجهة أشكال الظلم والقهر، قد خلق حالة من اليأس، وهي الحالة نفسها التي كانت وراء ذبوع فكرة الاعتقاد بالمخلص الفرد؛ وهي

فكرة تتضمن (اغتراب الجماعة)، وربط خلاصها بالفرد المرجأ إلى زمن غير معلوم، يقترب ظهوره كلما ازداد غليان الأحداث ليقف الحيف، وهو تعويض عن النضال ضدّ القهر الحاصل في الزمان والمكان، ودفعه زمانيا ومكانيا أحيانا إلى عالم آخر،⁴³ فمجيبى البطل المنتظر الذي اكتسب معنى المنجي المخلص، كان يكشف آنذاك عن أحلام الجماعة، وكان لهذا التعبير ما يقابله على مستوى الواقع، حيث اندفعت هذه الأخيرة وراء زعماء ورموز، مثّلوا لها المخلص الذي يحقق المعجزة، أو القادر على اختراق الموت. ومهما تكن الأسماء التي تقنع بها المخلصون كالفاطمي، أو علي بن أبي طالب، أو الملك المنتظر.. فإنّ ثمة مهمة واحدة لهم جميعا، هي ملء الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، أو إقامة ملكوت الله، أو حكمه، أو دولته، أي إقامة فردوس أرضي لا موقع فيه للظلم والاستعباد.⁴⁴ ومن الأمثلة المثيرة حول نبوءة المخلص ما ذكره الشهاب الحجري في مختصر رحلته: «.. في الجفر مكتوب يقول: ((من أقصى المغرب على ماء البحر يأتي سريع القوام إلى بلاد النصارى وتصل الهملى⁴⁵ إلى رومة))»، وذكر مما ينزل بالنصارى من الشر والخسران شيئا كثيرا، وقال عن ذلك وعلامتها، أعني ما ينزل من البلاء والغلب، إذا يأتي الوقت بالانقصال مدينة البحر يملكها الشرقي بلا محال، ولم يشك أحد من سمع ذلك أن الشرقي هو سلطان المشرق وأنه سلطان الترك نصره الله.⁴⁶ ومن المثير أنّ تجد هذا الأجفار اهتماما لدى السلاطين والأمراء، الذين حاولوا استغلالها وقتئذ، وقد ذكر الحجري في هذا الصدد: «..وأما ما ذكر في الرق أن علامة النحاس الذي ينزل على النصارى يكون إذا أخذ المشرقي مدينة البحر فكنت قد أظهرت نسخة من الرق المذكور لمولاي أحمد سلطان مراکش رحمه الله، قال واحد من قواده لو كنت تبدل (القاف) (بغاء)، ليقول ان مدينة البحر يملكها الشريف، فيفرج بذلك

السلطان، قلت لا أبدل شيئا إن شاء الله.»⁴⁷ «...وكان في الرق أيضا يقول: من القبلة يخرج الحاكم العدل ولا يعود، انتهى.»⁴⁸

لقد شاعت فكرة الاعتقاد بالمخلص، وذاعت نبوءاتها في المغرب وتركيا وغيرها من البلاد الإسلامية، بعد أن وجدت طريقها بين السلاطين والأمراء، الذين اهتموا بالمشكل الموريسكي، بل وقابلوها بشيء من التصديق والتحري، وهذا يفسر الكثير من الأشياء، ذلك أن إيمان الأندلسيين بالرجوع إلى أرضهم لم يكن مجرد أمنية بعيدة المدى، فقد كانوا يعتقدون بإمكانية تحقيقه في أي وقت، فعندما كانوا بإسبانيا، اعتقدوا أول الأمر أن المقصود بالفتح في أجفاره هو سلطان المغرب،⁴⁹ ولدى بروز الأتراك كقوة بحرية بشمال إفريقيا اعتقدوا أن المقصود بالفتح هو سلطان الأتراك الذي كان يمثل الأمل الأكبر،⁵⁰ إلى أن وقع الطرد وحملوا معهم هذه النبوءات...⁵¹

ومن الجدير بالملاحظة، أن نجد في هذه النصوص التنبؤية سواء لدى الموريسكيين أو المسيحيين، نفس التصور الاستدلالي، ونفس الانتظار الضمني للمخلص، لكن في اتجاه معاكس، وبرؤية مغايرة تمامًا.⁵² وعليه بات من السهل أن نهتدي إلى الطريقة التي عبرت فيها فكرة المخلص عن نفسها في كتابات الموريسكيين، فالمخيلة الموريسكية لم تستغث بشخصيات مجهولة فحسب، بل عمدت إلى معاملة صفاتها معاملة مثالية، فكانت ضمن شخصيات أخرى ذات نزوع مثالي، يصنعها طابع الخرافة، بعد أن يغلفها الخيال الشعبي بذلك.

ويبدو أن أدب هذه الفترة، كان مندفعاً هو الآخر تحت رغبة جنونية إلى المبالغة والتعالي، فصور هذه الشخصيات المجهولة، وكأنها من عالم آخر غير هذا العالم، جاءت لمهمة واحدة هي تحقيق الخلاص المنتظر على شاكلة الإسكندر الأكبر.

لكن من مفارقات هذا الأدب الذي بالغ في الاحتفاء بتلك الشخصيات، أنها لم تكن شيئا يذكر في عالم الموريسكيين المنكوب.

إن جملة المتاهات الخيالية التي سبح فيها الموريسكيون، واعتقد بصحتها السلاطين والأمراء، كان لها منطلقات في التطلعات الأخيرة، فلم يفقد الموريسكيون أمل رؤية اخوانهم المسلمين يأتون للوقوف بجانبهم ضدّ مضطهديهم، لذلك كان الالتجاء إلى ما وراء الطبيعة لدى الكثيرين حلاًّ منهجياً للمشكل الراهن،⁵³ فالحاجة دفعتهم إلى قبول الحماية من كلّ من اقترب منهم.

5- ظاهرة التنبؤ كعلامة للهوية الموريسكية:

ويرى كاردياك أنّ ظاهرة التنبؤ، هي تعبير عن الهوية الموريسكية تجاه المسيحيين، أو بالأحرى هي علامة من علاماتها، فنصوصها ذات الصبغة الجدلية، تُظهر شخصية الموريسكي المناضلة،⁵⁴ ذلك أنّ الموريسكي يثبت هويته تجاه المسيحي بإثبات شخصه ككائن متعلق بالدين أساساً، فيضع قدره في مخطط مقرر سلفاً من عند الله لصالح مجموعته،⁵⁵ وحتى لو بدا له بأنّ المظاهر هي التي تثبت أنّ العدو هو المسير للأحداث والصانع للتاريخ، فلا بدّ من تجاوز هذه النظرة السطحية للأحداث، فالطرد ليس بانتصار لفليب الثالث، وما هزيمة الموريسكيين إلّا لحظة من المحن الضرورية التي تنبئ بمستقبل حافل بالأمل، فأمام الخوف الشديد المرتبط بالظرف الحاضر، يخلق التنبؤ حركية جديدة، محفزة للطاقت، فأمل الانتصار القريب والأخذ بالثأر، لا يكون إلّا بالتدخل الإلهي، وهو الضمان الأكيد الذي عبرت عنه هذه النصوص المتعلقة بالمحنة،⁵⁶ فرغم النزعة اليأسية والمعقدة لتنبؤات مسلمي الأندلس،⁵⁷ فقد كان لها جانب متفائل بصورة خاصة، يهدف إلى رفع الرّوح المعنوية للمضطهدين، وتخفيف بعض من آلامهم، التي سببها الواقع المعيش، وذلك بالارتداد إلى عوالم الخيال.

إنّ الحاجة الميؤوس منها في هذه النصوص، والتي كانت تمثل مجرد تسلية ذاتية (عابرة)، تسمح لنا باستشفاف عمق المأساة الجماعية التي عاشها الموريسكيون، ويبدو واضحاً كيف أنهم التجأوا إلى سرد انكسارهم التاريخي، وإلحاحهم على إضفاء الطابع الخرافي لإبادة شعبهم إبادة نهائية، فليس سهلاً لأيّ شعب أن يتوقف عن الحياة، بيد أنّ هذا النوع من النبوءة استمد أصوله من الانهيار، ومن الحسرة التي لا تنفد، كما تولد من قساوة فقدان الذاتية الثقافية التي تشكلت قبل ذلك.⁵⁸

وعلى الرغم من ضعف هذه النبوءات المجهولة المؤلف، وكثرة أخطائها، وضحالة أسلوبها، وغموض رموزها التي استعصى حلها، فهي تعتبر من أصدق الآثار الكتابية، التي التحم حولها موريسكيو القرن السادس عشر، فمدارها كان إسبانيا التي كانوا متشبثين بها من خلال الواقع الإسلامي، وهذا في قلب العصر الذهبي لإسبانيا الكاثوليكية.⁵⁹

لقد حاول بعض الكتاب الموريسكيين الاضطلاع بمهمة المؤرخين الياثسين،⁶⁰ لأجل كبح جماح القدر التاريخي، وإيقاف كرونولوجية الاجتثاث الحضاري لآخر بقية من الأمة الأندلسية القديمة، التي كانت تسعى لمواصلة انتسابها إلى الشرق في إسبانيا الكاثوليكية، «يقول العبد الفقير... أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي... من نعم الله تعالى أن جعلني مسلماً في بلاد الكفار... ببركة الوالدين وإرشادهما»⁶¹ ولذلك استحق هؤلاء وصف (المؤرخين المضادين)،⁶² فقد سمح لنا أدبهم المتنوي (المسكون بالتاريخ)، أن نلمح عملية الانقراض البطيئة لشعب وحضارة اختفت بكاملها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.⁶³

وحتى الاعتقاد بصحة هذه النبوءات، لم يكن فيما يبدو من باب التفاؤل الساذج، بل كان تعبيراً عن حالة الضعف والشتات، الذي آلت إليه أمة الأندلس،

والشعور بالكرب والتشاؤم، في عالم يذوب ويختفي ببساطة، هذا ما أدركه المثقفون، وجعلهم يصرون بإلحاح على عرض صورة شعاعية، وروحية مثيرة لبلاد الأندلس، «وفي أيّ موضع هي من معمور الدنيا والأقطار المجاورة إليها، والعرض والطول في صقعها، (وذكر) من سكنها من الأجناس القديمة قبل دخول المسلمين إليها، وفي أيّ سنة كان افتتاحها، وما اتفق في أخذها، (وذكر) بعض الملوك الصالحين المجاهدين، ورسائل لسان الدين»⁶⁴ التي كانت فيما يبدو في غرض الاستصراخ.

هوامش البحث:

¹ ينظر: عبد الله، حمادي: الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس 1492 – 1616، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989: 107 – 108.

² حنيفي، هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، ط1، دار الهدى، 2010: 156.

³ Fernand Braudel: La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Destins collectifs et mouvements d'ensemble, Armand Colin éditeur, Paris, 1966 et 1990. p. 515.

⁴ نفسه: 531 – 532.

⁵ ينظر: إحسان عباس: هل كان الشعر في الأندلس سببا في انحلال أخلاقها ثم سقوطها أم كان لهما مجرد مرآة وانعكاس؟ مقال بمجلة الأصالة الجزائرية، ع: 27، سبتمبر – أكتوبر، 1975: 206.

⁶ صلاح، فضل: ملحمة المغازي الموريسكية، دراسة في الأدب الشعبي المقارن، ط1، دار المعارف، 1989: 115.

⁷ ينظر: عبد الله حمادي: الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس: 115.

⁸ ينظر: صلاح فضل: المرجع السابق: 116.

⁹ لوسي لوباز، بارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني، ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999: 1/ 778.

¹⁰ نفسه .

¹¹ حول هذا الموضوع ينظر عدد القضايا التي يوردها لوي كاردياك في كتابه: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية (1492-1640)، ترجمة: عبد الجليل التميمي، ط1، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، تونس، 1983.

¹² بارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: 1/ 778. وأيضا النبوءة في الأدب الألفيادو _ الموريسكي للأندلس من خلال مخطوطة بالكتبة الوطنية بباريس، المجلة التاريخية المغربية، ع: 21 و22، أبريل 1981: 50.

¹³.. هو أحمد بن قاسم الحجري المدعو بـ: أفوقاي أو بيخارانو، تمكن من الفرار بدينه وبيده إلى المغرب في حدود سنة 1007هـ/ 1598م، أي قبل قرار الطرد بثلاثة عشر عاما، أواخر عهد المنصور الذهبي، حيث اشتغل بالترجمة لدى سلاطين مراکش من بعده، وهو صاحب المخطوط الموسوم بـ: ناصر الدين على القوم الكافرين: مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة، عدد: 1634ت، وتوجد نسخة منه بخط المؤلف، أتم كتابتها بتونس سنة 1051هـ/ 1641م، وقد قام بتحقيقه: محمد رزوق، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (1)، الدار البيضاء، 1987: 17... والمخطوط يقع في ثلاثة عشر بابا، فصل فيها صاحبها سفارته عن المولى زيدان إلى كل من فرنسا وهولندا ومصر، بل وبالمغرب نفسه. والمخطوط في الأصل مختصر لمخطوط سابق عنوانه (رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب)، وضعه الحجري بناءً على طلب من شيخ المالكية علي الأجهوري بالقاهرة سنة 1047هـ/ 1637م، (وهي رحلة مفقودة).

¹⁴.. وهو الباب الثاني عشر من الرحلة.

¹⁵.. عندما هدم برج توربين في غرناطة، لتوسيع الكاتدرائية عثر على صندوق مصنوع من الرصاص يضم كتابات منقوشة تنتبأ بالمستقبل ونهاية العالم، تنسب إلى القديس (يوحنا الإنجيلي)، ولقد قوبلت هذه الآثار المكتشفة بالتحري لأجل التحقق من صحتها، ويرى البعض أن القديس يوحنا الصليبي، الذي كان (آنذاك) رئيسا لدير الراهب ديسكاسيد الكرملتي (Disalced Carmelity) من بين علماء اللاهوت والقضاة والمتخصصين في الكتاب المقدس، الذين عينوا لدراسة هذا الاكتشاف الأثري، وبعد خمسة عشر عاما، سنة 1595م، عثر على اكتشاف لافت آخر أكثر أهمية، إذ وجدت ألواح رصاصية في ساكرومنتي في غرناطة مكتوبة بحروف عربية ذات زوايا (لكي تبدو عتيقة المظهر) وبلاطينية بسيطة غير متقنة، ويقال إن ما عثر عليه كان تسعة عشر لوحا دائريا مصنوعا من الرصاص على هيئة صفائح رقيقة، وقد صنعت الألواح لتبدو كأنها تعود إلى القرن الميلادي الأول وكتب عليها العديد من الكتابات: كالأحداث الغريبة التي شاهدها القديس جيمس، والأحاديث العجيبة الغامضة التي شاهدها العذراء، وعن الروح الهيبة المججلة، والمبادئ العامة للإيمان، وكتابات أخرى...، وجميعها منسوبة إلى تيسيفون ابن طيار (Tecifon Ebnatār) وأخيه سسيليو إبنالرابي (Cecilio Enalrabi)، وهما تلميذان مرعومان للقديس جيمس الرسول (James the Apóstle)، الذي كان يحمل اسم سانتياغو ابوستول (Santiago Apóstle)، القديس الراعي لإسبانيا، وقد أمر رئيس أساقفة غرناطة بيدرو فاكا دي كاسترو (Pedro Veca de Castro)، بحماسة كبيرة أن ينقب عن هذه الألواح الرصاصية، وتسبب العثور على هذه الألواح، كما يقول هارفي بحدوث ضجة هائلة، وتعطي هذه الألواح الرصاصية وصفا جسمانيا للمسيح ومريم العذراء، التي تجيب على أسئلة القديس بطرس بخصوص الأحوال والمعاصي، التي سترتكب في غرناطة خلال القرن السادس عشر، وعن الأهمية الخاصة للمسلمين في تلك الأيام، وقد نشأ نزاع لاهوتي استمر لمدة طويلة نتيجة لاكتشاف هذه الألواح، ورغم أن هذه (الآثار) قد صودق على صحتها بالفعل من قبل علماء لاهوت شبه الجزيرة في نيسان 1600م، إلا أن ذلك لم يمنع الاعتراض عليها،.. ونقلت الألواح في النهاية إلى مدريد ثم إلى روما، وكذبها آخرون في القرن التاسع عشر، ولم يعد يعترف بها إلى الأبد، وهي لا زالت توصف من قبل الكنيسة بأنها عمل من أعمال الهرطقة. ينظر: بالرت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: 1/ 779، 780.

¹⁶... بالضبط في 19 ربيع الثاني من سنة 996هـ/ 18 مارس 1588م.

- 17 ... وهو أسقف غرناطة Jean Menéndez de Salvatierra المتوفى سنة 1588م، وخلفه الأسقف Don Pedro Castro في نوفمبر 1589م لمتابعة القضية.
- 18 Torre turpiana
- 19 Stefano
- 20 San Cecilio
- 21 .. يجب مراعاة كون المؤلف موريسكيا تعلم العربية خفية، ولذلك تصادفنا أخطاء لغوية وكلمات عامية (مغربية) وأخرى مترجمة. الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق: 23، 24، 25.
- 22 Athènes
- 23 كتب في الطرة ونصف خمار الصالحة مريم.
- 24 سورة التوبة: الآية: 33.
- 25 Patrizio
- 26 كتب في الطرة: أعني رصاص.
- 27 الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين: 26، 27، 28، 30.
- 28 ينظر: بارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: 1/ 780.
- 29 كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: 67.
- 30 بارالت: المرجع السابق: 781.
- 31 صلاح فضل: ملحمة المغازي الموريسكية: 76.
- 32 بارالت: المرجع السابق: 781.
- 33 ا نفسه: 781، 783، 784. وينظر: النبوءة في الأدب الألفميادو _ الموريسكي: 60.
- 34 لوي، كاردياك: ظاهرة التكهن علامة من علامات الهوية الموريسكية، ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث عشر للدراسات الموريسكية الأندلسية حول: الأبعاد العقائدية والفكرية في الأدب الألفميادو وسياسة محاكم التفتيش تجاه الموريسكيين: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ماي، 2009: 118.
- 35 بارالت: النبوءة في الأدب الألفميادو _ الموريسكي: 57.
- 36 كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: 62، 63. وبارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: 778.
- 37 لوي، كاردياك: ظاهرة التكهن: 114.
- 38 بارالت: النبوءة في الأدب الألفميادو _ الموريسكي: 60.
- 39 كاردياك: المرجع السابق: 119.
- 40 الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين: 28.

41 .. لقد درس ميكال دي ايبالزا Mikel de Epalza هذه الأناجيل، وادعى أنها كتبت من طرف الموريسكيين، وسماها بالأناجيل المزورة، مؤكدا أنها حرفت لكي تؤيد ما ذهب إليه الموريسكيون فيما يتعلق بجدا لهم للمسيحيين... ينظر في هذا الصدد مقاله :

Le Milieu Hispano-Moresque de l'Evangile Islamisant de Barnabé (XVI-XVII) in Islamo christiana, Rome, 1982, 8, PP. 160 – 183.

42 الحجري: المصدر السابق: 33.

43 عبد الرحمن، بدوي: الإنسان الكامل في الإسلام، مكتبة دار النهضة المصرية، 1950: 88 – 89.

44 باسم، الهاشمي: المخلص بين الإسلام والمسيحية، ط1، دار البيضاء، بيروت، 1996: 50. وما بعدها

45 يقصد الحملة.

46 الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين: 28، 29.

47 نفسه: 29، 30.

48 نفسه: 30.

49 .. ففي سنة 1569م في غرناطة، اعترف موريسكي لمحاكم التفتيش أن العرب يأملون كثيرا في الانتقام: « لقد كانوا مسلحين وحسب كتبهم وقصصهم ان هذه الأرض (إسبانيا) سوف تفتح من جديد، وأن عرب المغرب سوف يفتحونها، إن ساعة النجاة قريبة وسوف تأتي من شمال أفريقيا وبجاية، ووهران وسيطة سوف تفتح أولا ثم بعد ذلك سيتم من جديد فتح إسبانيا، منتهجين اتجاه طارق، الذي سيفتح أمامهم بشكل خارق للعادة، «وأنة في مضيق جبل طارق سيظهر جسر من جديد وعن طريقه سوف يجتاز العرب ويتمكنون من فتح إسبانيا حتى قاليسيا Galicia» عن الأرشيف التاريخي الوطني التابع لمحاكم: الملف 2603، رقم: 1. نقلا عن كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: 64.

50 Cardaillac (Louis): Le Turc suprême espoir des Morisques, in Actes du 1er congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb, Tome 1, Tunis, 1979, pp. 37–

46.

51 محمد، رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط3، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998: 248.

52 كاردياك: ظاهرة التكهن: 120.

53 الحسين، بوزينب، البعد المغربي في السياسة الإسبانية تجاه الموريسكيين منذ عهد أحمد المنصور، ضمن أعمال ندوة الموريسكيون في المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2001: 48، 49.

54 كاردياك: المرجع السابق: 119.

55 يرى كاردياك أن المعنى الحقيقي لظاهرة النبوءة، يكمن في كونها عنصرا أساسيا للواقع الديني، ذلك أن العمل الإنساني مرتبط بالمشيئة الإلهية، التي يمكن أن تكشف تدابير عنايتها على مجرى الأحداث، وأن تكشف مصير الإنسانية وخاصة مصير شعب الله المختار، إلى بعض البشر الذين يقع اصطفاؤهم... ينظر: المرجع نفسه: 114.

- ⁵⁶ نفسه: 117-118.
- ⁵⁷ بارالت: النبوءة في الأدب الألفمبادو _ الموريسكي: 53.
- ⁵⁸ لمرجع نفسه: 61.
- ⁵⁹ نفسه.
- ⁶⁰ بارالت: التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: 1/ 774-775.
- ⁶¹ الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين: 17.
- ⁶² بارالت: المرجع السابق: 1/ 773.
- ⁶³ نفسه: 1/ 770-773.
- ⁶⁴ الحجري: المصدر السابق: 18.

مراجعة كتاب: "هويات مُسائلة: التعايش والصراعات المابين دينية في المتوسط (من القرن

14م إلى القرن 18م)"¹

Book Review: 'identities accountability: coexistence and religious conflicts
Almabin on average (from the 14th century AD to 18th century AD

حُسام الدين شاشية

مخبر التراث جامعة منوبة تونس

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/03

"هويات مُسائلة: التعايش والصراعات المابين دينية في المتوسط (من القرن 14م إلى القرن

18م)"، هو عنوان الكتاب الذي صدر عن جامعة بلنسية في ربيع سنة 2016، والذي ضمّ

أعمال المؤتمر الدولي الذي عُقد خلال شهر ماي من سنة 2015، وقد جمع هذه الأعمال وقدم

لها الأساتذة بورخا فرانكو، برونو بومارا، مانوال لوماس، بربرا رويث.

يحاول هذا الكتاب دراسة بناء الهوية وتطورها في المجتمعات المتوسطية، والعلاقات التي

تجمع مختلف الهويات المكونة لهذه المجتمعات، من تعايش وصراعات، اندماج أو إدماج قسري

في المتوسط، من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر.

هدف الباحثين في هذا العمل كان خصوصاً دراسة كيف تُبنى الهوية في علاقة بالآخر، أي

أن الهوية هي في الأساس وعي مجموعة مُعينة باختلافها الثقافي، الديني والاجتماعي...، عن

الجماعات الأخرى المكونة للمجتمع، بمعنى أن الاختلاف هو أساس تشكل الهوية، لكن مع

الإشارة إلى أن هذا الاختلاف كما يمكن أن يكون طبيعياً، تشكل عبر الزمن، يمكن أن يكون

كذلك مُصطنعاً أو قد ساهم في تشكله بعض الأفراد (رجال الدين، السياسيون، المثقفون...) أو

الدولة التي قد تلعبُ سياستها الإقصائية أو الإدماجية القسرية دوراً محورياً في وعي جماعة

مُعينة بتمييز هويتها.

حاول الباحثون المشاركون في كتاب "هويات مُسائلة" معالجة مُختلف القضايا التي ذكرناها سابقاً من خلال مُقاربات وزوايا مُختلفة، فاهتم البعض بالمسائل السياسية، الاجتماعية والدينية، في حين قام آخرون بدراسات جهوية مُتعلقة ببعض الجماعات والمناطق الإسبانية. كما خصص بعض الباحثين دراساتهم للبحث في موضوع الهوية من خلال كتابات جماعة بعينها، كما هو الشأن بالنسبة للموريسكيين، أو كتابات جماعات الأغلبية كالمسيحيين القدماء، في حين تم تخصيص الباب الرابع والأخير لموضوع حضور الهوية في الأعمال الفنية.

نلاحظُ بالنسبة للباب الأول الاهتمام خصوصاً بحضور الكونفارسوس والموريسكيين على الأراضي الإيطالية، كعمل سيسيليا طاسك التي عالجت حضور وإدماج الكونفارسوس في المُجتمع الصقلي، أو عمل برونو بومارا سافينو الذي بحث في حضور الموريسكيين البننسيين بإيطاليا خلال القرن السابع عشر، فقدم للقارئ العديد من المُعطيات الجديدة والوثائق النادرة التي وجدها في الأرشيفات الإيطالية.

اهتم الباحثون في هذا الباب "بالمُهتدين" في البحر الأبيض المتوسط خلال الفترة الحديثة، وأيضاً بما يمكن تسميته "الهويات المسحوقة"، كبحث فلانتينا أودراني حول وجود الأوروبيين بالأراضي الإسلامية، وصعوبة محافظتهم على ديانتهم المسيحية، أو بحث لويس فاي كانتو حول مصير سكان وهران من المسلمين بعد أن سيطر على المدينة الإسبان سنة 1732.

في الباب الثاني قدّم لنا الباحثون دراسات جهوية حول الهوية الموريسكية بمناطق إسبانية مختلفة، فمثلاً اهتم خافيير هنراندات روانو ببناء هذه الهوية بجهة خيفارت Xivert، ودرس سارجي سيلفيستر بارات من خلال دفاتر الديون علاقة المسيحيين القدماء بالموريسكيين في جهة كوستناينا Cocentaina، في حين قدمت ماريا لويسا ثورانيا دراسة طريفة حول الصور التي شكلتها جماعة المسيحيين القدماء حول كتابات الموريسكيين، حيث ربطتها دائماً بمحاولة هذه الجماعة إخفاء ثرواتها، ثم تدوين كيفية الوصول إليها بالعربية أو الألفاميديّة، من هنا وكما

تُبين المؤلفة شاع في جهة بلنسية البحث عن كنوز الموريكيين ومُحاولة الوصول لمن يمكنه أن يقرأ كتاباتهم.

أما في الباب الثالث فقد حاول الباحثون تحليل الهوية الموريكية من خلال كتابات أنتجت الجماعة نفسها، كالبحث الهام للأستاذ لويس برنبايه بونس الذي اعتمد مجموعة من النصوص الموريكية، أو شهادات هؤلاء أمام محاكم التفتيش، مُبيناً تعقيدات البحث في الهوية الموريكية، مؤكداً في خاتمة بحثه على أن تحديد المسيحيين القدماء لتمييزهم عن الموريكيين، كان يتم من خلال العبادات الكاثوليكية، ومجموعة من العادات التي جعلها المسيحيون ركيزةً لهويتهم، كأكل لحم الخنزير وشرب الخمر...، في حين شكّل الموريكيون هويتهم على أساس الاختلاف مع هذه العادات.

في نفس الإطار تُقدم لنا باربرا رويث بخارانو دراسة حول مُحاولة الموريكيين الأراغونيين المحافظة على هويتهم، والمجهودات التي كان يقوم بها قادة الجماعة وفقهاؤها لتحقيق هذا الهدف، حيثُ تلاحظ حضور هذا الهاجس بصفة واضحة في مؤلف "التفسير" لمانثيلو دي أرفالو Marcelo de Arévalo، فقد كان الموريكيون يحاولون المحافظة على هويتهم في وسط مسيحي معادي، يعمل من خلال حملات التبشير وقرارات محاكم التفتيش على القضاء على هذه الهوية، مُبرزةً أن الكتابات الموريكية هي التي حافظت على الهوية الموريكية من الضياع طيلة القرن السادس عشر وحتى قرار طرد الموريكيين الأراغونيين في شهر أفريل من سنة 1610.

في الباب الرابع والأخير قدم لنا المؤلفون دراسات طريفة، حاولوا من خلالها استقراء وتحليل موضوع الهوية وتفرعاتها من خلال الأعمال الفنية التي تعود في مُعظم الأحيان إلى الفترتين الوسيطة والحديثة، فبالنسبة للفترة الأولى يمكن أن نذكر بحث أميادو سارا ديسفيليس الذي حلل فيه مجموعة من الأعمال الفنية واللوحات الموجودة في متحف الفنون الجميلة بمدينة بلنسية، والتي تتعلق بعمليات التعميد، أو بحث ماريا بورتمان التي درست عدداً من الرسوم حول تعميد اليهود والمسلمين في إسبانيا خلال القرن الخامس عشر.

بالنسبة للفترة الحديثة فيمكن أن نذكر دراسة فرناندو مارياس حول الإشكاليات التي كان يتعرض لها الفنانون من الكونفارسوس في العصر الذهبي. أيضاً حول نفس الفترة نجد البحث الهام لبورخا فرانكو يوبيس حول رؤية المسيحيين القدماء للموريسكيين من خلال الأعمال الفنية، حيثُ طرح المؤلف العديد من الإشكاليات، وقارن بين "الصورة الرسمية"، "الصورة الأدبية"، "الصورة المرئية أو الفنية" التي رُسمت للموريسكيين، مؤكداً أن صورة الموريسكي وإن تطورت خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر نحو السلبية في الوثائق الرسمية الإسبانية وفي الكتابات الأدبية والإخبارية، فإنها في الأعمال الفنية لم تسلك نفس الاتجاه، بل هي كما يعبر عنها بقيت "صورة صامتة" أو صورة مُحايدة، لا يُمكن الحكم عليها بالسلبية أو الإيجابية. إجمالاً يمكن القول أن أهمية هذا الكتاب لا تتأتى فقط من تنوع الزوايا التي عولج منها موضوع الهوية في المتوسط خلال نهاية الفترة الوسيطة والفترة الحديثة، بل كذلك من القيمة الهامة للدراسات التي ضمها، والتي كانت في معظمها على درجة عالية من العمق والحرفية العلمية.

على الرغم من تنوع الزوايا، والقيمة العلمية العالية لكتاب "هويات مُسائلة"، فإن ما يمكن أن ننقده بالنسبة لعمل وعد مُحرروه في التقديم بطرح شامل لموضوع الهوية في المتوسط، هو تغييبه شبه التام للصفة الجنوبية، والتركيز فقط على الضفة الشمالية، فمثلاً كنا نحبز الوقوف بأكثر تفاصيل على كيفية تطور الهوية الموريسكية في مُجتمعات الاستقبال المغاربية، كما كنا نرغب في وجود دراسات مُقارنة حول الهوية وتشكلها بين المُجتمعات المسيحية والإسلامية خلال الفترة الحديثة، إلى غير ذلك من المسائل التي كان من الممكن أن تساعدنا في فهم الموضوع المطروح بصورة أدق وأشمل.

الإحالات :

-
- ¹ - Borja Franco, Bruno Pomara, Manuel Lomas, Barbara Ruiz (eds.), *Identidades cuestionadas. Coexistencia y conflictos interreligiosos en el Mediterráneo* (ss. XIV-XVIII), Valencia, Servei de Publicacions de la Universitat de València, 2016.

تحديات التعليم العالي في العالم: قراءة تحليلية

The challenges of higher education in the world: analytical reading

أ. طالي صلاح الدين

المركز الجامعي البيض

د. كاملي محمد

جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/11

Abstract:

Higher education in the world is facing many challenges vary nature and severity from one country to another and from one region to another depending on the circumstances and social, economic and political environments. These challenges are the sustainability of funding and accessibility justice for higher education Beside maintaining the quality, and adaptation with labor markets that its change from period to period. Most countries are trying to confront them through institutional reforms of the higher education systems As well the involvement of the private sector and encourage charitable work in order to achieve efficiency and effectiveness.

Key words:

Higher Education, Funding , Quality Of Higher Education, Accessebility Justice.

ينصب الاهتمام الرئيسي في العالم المتقدم عادة في تحسين جودة التدريس و البحث الذي يتم في المؤسسات التعليم العالي وكذلك توسيع نطاق الالتحاق للفئات المحرومة داخل المجتمع. أما بالنسبة للدول النامية حيث نصيب الفرد من الناتج المحلي أقل من 3000 دولار أو نحو ذلك، يتم التركيز حول كيفية توسيع التعليم العالي إلى نقطة التي تمكن من مواجهة الطلب الناشئ عن خريجي المرحلة الثانوية. وعموما تتمثل تحديات التعليم العالي في ثلاثة ، التمويل، الوصولية و العدالة ، و الجودة و الملائمة . و مما سبق يمكن طرح الإشكالية : ما هي أهم التحديات التي تواجه نظم التعليم العالي في العالم ؟

يتفرع عنها الأسئلة التالية:

– هل ما هي أهم التحديات الجديدة التي برزت؟ و هل لعبت العولمة دورا في ذلك ؟

- ما هي التحديات الأكثر حدة في يومنا الحالي؟
- ما هي العوامل التي تجعل التحديات تتباين من نظام تعليمي إلى نظام آخر و من منطقة إلى أخرى ؟

❖ الفرضيات:

- تتباين التحديات مكانيا و زمانيا .
- فرضت التغيرات السريعة في أسواق العمل و بنيتها تحدى المواءمة كتحدي الأكثر حدة .
- ❖ الإطار الزمني للدراسة: من نهاية الستينات إلى يومنا الحالي
- ❖ الإطار المكاني للدراسة: تتميز الدراسة بصيغة الشمولية أي اغلب أنظمة التعليم العالي في العالم

- ❖ الدراسات السابقة: لقد نال هذا الموضوع الاهتمام من العديد، فمنهم من تناوله بشكل مستقل ، منهم من تناوله بشكل غير مباشر خلال تطرقه لأحد مواضيع التي تمس اقتصاديات التعليم العالي سنستعرض أحدثها لأنها كثيرة:

● كتاب لـ إي جريدي بوج و كيمبرلي بنجهام هول (2012) حول الجودة و المسؤولية في التعليم العالي ،

- دراسة مهمة جدا للبنك العالمي (2014) ، بعنوان *تعادل أم اختراق : التوصل إلى الاستدامة المالية وفي نفس الوقت تقديم معايير جودة عالية في التعليم العالي في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا* ، حيث تطرقت بالتفصيل إلى أهم التحديات التي تواجه بلدان المنطقة ، و توصلت إلى أن تحدي الجودة لا يزال يطرح نفسه بقوة في الدول العربية ، و وضعت حلول أهمها إشراك القطاع الخاص و عقد الشراكات مع الجامعات الأجنبية لفتح فروع لها ، كما بينت أن تحدي التمويل و الوصولية يختلف درجته من دولة إلى أخرى.

● دراسة لـ Kom, A. (1996) بعنوان التعليم و الديمقراطية في افريقيا *Education et démocratie en Afrique : le temps des illusions.* حيث تناولت العلاقة التي تربط تطور

نظم التعليم بصفة عامة و درجة نضج الانظمة السياسية و توصلت الى تلك الانظمة تعاني من فوضى الاصلاحات و كذلك ان تحدي التمويل يطرح نفسه بقوة في القارة

● دراسة (2013)، Bridget Terry Long ، بعنوان

How Have Students And Their Families Responded? The Financial Crisis And College Enrollment? و التي تناولت تحدي التمويل و الوصلية في ظل الازمة المالية العالمية .

● دراسة (2006) ، Hauptman .Arthur M. بعنوان

Higher Education Finance: Trends And Issues ،

حيث يعتبر هذا الكاتب من اهم و ابرز الباحثين في قضايا التعليم العالي في العالم و يبرز في هذه الدراسة اهم نظم تمويل التعليم العالي في العالم و سبل زيادة الموارد المالية للدول و طرق التخصيص و المسألة .

وول فيما يلي بعض الدراسات على سبيل الذكر لا الحصر

● Maria Lung(Moladovan), IoanMoldovan , Nistor Lung Alexandra (2012) , *Financing higher education in Europe: issues and challenges*

● UNESCO Regional Bureau for Education Asia and Pacific(2012), *The Impact of Economic Crisis on Higher Education*, Bangkok.

● World Bank (2000), *Higher education in developing countries*,

المحور الأول : تحديات التمويل و الوصلية

أولا : تحديات التمويل

بدأت ملامح الأزمة العالمية للتمويل تظهر منتصف السبعينات، و أبرزت الأزمة المالية العالمية الأخيرة صعوبات تمويلية واضحة الأثر، تنبع أزمة التمويل من عدة عوامل نجمها في الآتي:

أ- عوامل ديموغرافية متعلقة بجانب الطلب :

- التوسع الكبير في التعليم بعد الحرب العالمية الثانية (نظرية رأس المال البشري العوائد

الاقتصادية للتعليم (Shultuz , Solow, Denison , Becker, Blaug)

حيث يدرك الناس في كل بلدان العالم القيمة الاقتصادية المتزايدة لمواصلة تعليمهم ما بعد المرحلة الثانوية ، و يتضح ذلك في التفاوت بين الدخول للأفراد الذين يحصلون على تعليم عالي وغيرهم ، وهذا ما يترجم الزيادة الملاحظة في الطلب المتزايد و سبب آخر تحول عدة جامعات في تركيزها على مجالات مثل التدريس و الخدمة العامة إلى مجموعة واسعة من البرامج التي تستجيب للسوق واليد العاملة . التحليل السابق صحيح في المدى القصير في جميع البلدان تقريبا ولكن المدى الطويل ضمان بقاء الفارق غير أكيد، لأن المبدأ الاقتصادي لتناقص العوائد الحدية يشير إلى انه في نقطة ما فان الأفراد الإضافيين الذين يتلقون تعليم عالي سيحركون إلى الأسفل الفرق في الأجور بينهم وبين سابقيهم ، أو بعبارة أخرى إذا تلقى الجميع التعليم العالي لن يكون هناك فارق بين أصحاب التعليم العالي و التعليم الأقل .

ب- عوامل اقتصادية:

- ارتفاع المستوى العام للأسعار.
- ارتفاع تكاليف المواد التعليمية.
- ارتفاع أجور ومرتببات العاملين.

ت- عوامل اجتماعية:

ث- زيادة الطلب بسبب العوائد الاجتماعية، يعد Edding من أشهر الذين تناولوا نفقات التعليم وتطورها عبر الزمن وقد أشار وليامز 1986 في دراسته - تمويل التعليم من موارد غير حكومية- إلى الخيارات المتاحة لزيادة رأس المال عن طريق تحقيق كفاءة الإنفاق الحكومي.

ج- توجه التمويل إلى الأطوار الأخرى بسبب ضعف معدلات العائد في التعليم

الجامعي مقارنة بالتعليم ما قبل الجامعي

أجمع أغلب الاقتصاديين الذين قاموا بقياس و دراسة عوائد التعليم، أنها في التعليم ما قبل الجامعي تفوق نظيرتها في التعليم العالي، ولعله بسبب ذلك تميل أغلب الدول الاستثمار أكثر في التعليم ما قبل الجامعي مقارنة بالتعليم العالي مفاصة بعدة طرق. و تفسر هذه النظرة الاقتصادية: لماذا ترى الهيئات الدولية مثل البنك العالمي إن زيادة الموارد الإضافية من الأفضل أن تخصص للتعليم ما قبل الجامعي. على الرغم من أن هذه النظرة قد تغيرت مع مرور الوقت على الأقل في البنك الدولي أين تم تخصيص المزيد من الموارد للتعليم العالي في السنوات الأخيرة .

أوجدت العوامل السابقة مشكلة أساسية تواجه أنظمة التعليم العالي في جميع أنحاء العالم في القرن الواحد والعشرين هي أن وتيرة الالتحاق أسرع من وتيرة الموارد، و أصبح واحد من المآزق التي تآرق صناع القرار في عديد من البلدان هو كيفية مواجهة هذه الزيادة في الطلب على التعليم العالي ، بالإضافة إلى ذلك فإن التضخم يمتص الزيادات السنوية في الموارد الإجمالية المخصصة للتعليم العالي.

ثانيا: العدالة في الوصول إلى التعليم العالي

حيث عرف العدالة تساوي الحظوظ في الولوج إلى التعليم العالي بأقل الموارد. كثيرا ما يتم تناول عدالة الوصول إلى التعليم العالي في الدراسات التي تهتم بتمويل التعليم العالي. عبر السؤال التالي : من الذي يجب عليه تمويل تكاليف التكوين ؟ الطلبة ، السلطات العمومية ، أو المستخدمين ؟

إن الوصول إلى التعليم العالي بصفة عامة و تحصيل درجات علمية متقدمة بالنسبة للطلاب يتم وفقا لعدة عوامل تختلف من دولة إلى أخرى ومن ثقافة إلى أخرى. ترى البحوث الامبريقية أن العامل المالي ليس هو الوحيد الحاسم في الالتحاق بالتعليم العالي و إنما التحصيل الأكاديمي

ذو أهمية بالغة ، ففي المملكة المتحدة يرى Tan Jun Jie انه على المملكة أن تعمل على تقليص القطاع العام و الابتعاد عن النموذج الأوروبي للرفاه و إلى نموذج أكثر تنافسية .

1- عوامل ذاتية: الموهبة و الذكاء و الإرادة لكل طالب.

2- عوامل متعلقة بالوصول: (أ) الدخل المحدود "ب" الإقليم ريفي أو حضري "ج"

العرق و الدين و الانتماء الإثني "د" النوع ((غير مقبول)).

بالتالي يمكن القول أن موصلية التعليم هدف سياسي موحد لكل دول العالم. في ظل انه يمكن بكل سهولة ملاحظة تزايد عدد الطلبة المسجلين في أنظمة التعليم العالي في السنوات الأخيرة في دول الشمال و الجنوب. ولكن تبقى تلك الأنظمة انتقائية لان مواردها تبقى ثابتة بل حتى في تناقص ، منذ أن طرحت مسألة التوزيع العادل للموارد بالشكل الذي يسمح للعديد من الأفراد الالتحاق بالتعليم العالي .

إن العوامل غير المقبولة لها تأثير كبير على التحاق الأبناء بالجامعات ذلك لأنها تؤثر على المرحلة السابقة للجامعات حيث يستفيد الأبناء من ذوي الدخل المرتفع والحضرين من تحضير جيد للولوج إلى الجامعة بل وحتى انتقاء الجامعات التي سيدرسون بها على عكس الآخرين وكذلك تكون أسرهم على استعداد حتى في المشاركة في تكاليف ومصاريف الدراسة ومدى احتمال مواصلتهم للدراسات العليا.

فمنذ أعمال (Bourdieu 1974)، و نحن نعلم أن الخلفية الاجتماعية تؤثر بقوة في اختيار الطلاب لشعب الدراسة و هذا ما يساهم في إعادة التكوين الاجتماعي لان عامل التهيؤ مهم و ضروري

و نأخذ الولايات المتحدة كمثال حيث توجد عوامل تساعد في ذلك منها :

1- العدد الكبير من المعاهد المتوسطة وسهلة المئال والمتواجدة في أغلب التجمعات السكنية وتدرس فيها مواد قابلة الاحتفاظ جزئيا عند تحصيلها.

2- الانتشار الواسع لمعاهد الأربع سنوات الخاصة والعامة بنظام القيد المفتوح

- 3- الخاصية الأمريكية في الاحتفاظ بالوحدة المكتسبة الذي يمنح فرصة التوقف والانقطاع عن الدراسة للعمل مثلا، أو التحويل من كلية باهظة إلى كلية اقل.
- 4- الاقتصاد الأمريكي يتوافر على فرص عمل .
- 5- توافر منح وقروض للطلبة (دون وجود ضمانات كافية).
- تطرح مسألة عدالة الالتحاق نفسها كذلك جغرافيا في دراسات على الدول ذات الأقاليم الريفية الممتدة، مثل البرازيل، استراليا وغالبا على علاقة بالتعليم عن بعد (Perez & Broyon 2003)
- لقد بين (James 2001) فيما يتعلق بالوصول إلى التعليم العالي أن الأفراد الذين يقطنون في المناطق الريفية المعزولة في استراليا هم محرومين من الالتحاق بسبب خلفياتهم الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية أكثر من عزلتهم الجغرافية .
- بين كل من Bayenet و Demeulemeester (2005) في دراسة مقارنة بان فحص لعدة طرق تمويل للتعليم العالي في الدول الصناعية، مكن من التمييز بين عدة نماذج حسب التوزيع بين التمويل العام و الخاص .
- و هذا ما يؤكد الاتجاه العالمي في المشاركة في التكلفة الذي أصبح أمر حتميا وهذا ليس انتصارا لأصحاب السوق أو اللبراليين أو سياسيات البنك الدولي ولكن كنتيجة لعدة عوامل :
- مستقبل التعليم العالي سوف يتطلب موارد إضافية كبيرة خاصة في الدول النامية .
 - أن البديل عن تحميل الطلاب وعائلاتهم العبء المالي هو زيادة الضرائب.
 - هناك توجد مشكلة التهرب من الضرائب خاصة الأغنياء وحتى لو زادت الضرائب فهناك قطاعات منافسة.
- إن الحفاظ علي موصلية التعليم العالي بدون توفير الموارد المالية الضرورية الكافية أو عدم اللجوء إلى المشاركة في التكلفة سوف يؤدي إلى تدني نوعية التعليم .
- المحور الثاني: تحديات الجودة و الملائمة**

يحظى التعليم العالي باهتمام متزايد في العالم منذ العقود الأخيرة من القرن كنتيجة للدور الكبير الذي تلعبه التكنولوجيا في المجتمعات البشرية انطلاقاً من أن التعليم بصفة عامة و التعليم العالي بصفة خاصة هو الطريق الأمثل إلى التنمية الاقتصادية و تراكم الثروة ، و لكن هذه الآليات الخالقة للثروة سريعة التغير و التأثير بالعملة . بالإضافة إلى عدد من التحديات .

جودة التعليم العالي هي قضية لا يمكن تجاهلها في الوقت الحاضر، فمثلاً دخول القطاع الخاص للتعليم العالي إلى جانب تعالي أصوات تحذر من تراجع التمويل العام ، هو استجابة للطلب المتزايد على التعليم العالي الذي تسبب في انخفاض جودة الخريجين.

و تتأثر جودة التعليم العالي في الدول النامية بمجموعة من العوامل اجتماعية و ثقافية ، أكاديمية ، اقتصادية ، سياسية ، متشابكة .

وقد شهد العقد الماضي زيادة في التركيز على ضمان الجودة، وعلى الاعتراف المتبادل بمؤهلات التعليم العالي مما سمح بزيادة الحراك الطلابي الدولي. لكن رغم ذلك تدهورت جودة التعليم العالي في جميع أنحاء العالم. وهذا أدى إلى انخفاض معايير الجودة، وبالتالي فإن ضمان الجودة لم يعد يعني بالضرورة تحسناً في نوعية التعليم.

من جهة أخرى، وقعت اتفاقيات عدة بين الجامعات لضمان الاعتراف المتبادل بالمؤهلات العلمية، لكن تنفيذها بقي تحت عرصة لعدم التطبيق. وبشكل مشابه، فإن الزيادة الكبيرة في منشورات البحوث العلمية على مدى العقد الماضي لا يعني بالضرورة أننا ننتج معرفة أفضل ، فإزدياد المنافسة والحاجة لتسويق التعليم العالي أوجدت معايير مختلفة لقياس أداء الجامعات مبنية خاصة على مدى مساهمتها في المجتمع أو رفد الاقتصاد الوطني.

إن ما تحقق في العالم خلال العقدين الماضيين كان توسعاً في أعداد خريجي الجامعات وطلاب الدراسات العليا ، وزيادة في المؤهلات التعليمية المرجعية المطلوبة في سوق العمل ، وتدهوراً في العائد على الاستثمار في التعليم العالي مع ارتفاع في التكاليف.

تتأثر جودة التعليم العالي بأربعة قوى :

- 1- تغيير خصائص
- 2- تزايد المنافسة
- 3- ارتفاع التكلفة
- 4- الأزمات المحتملة

لفهم هذه القوى، تحتاج مؤسسات التعليم العالي إلى التحسين و التعزيز بصفة مستمرة، و إلا فإنها سوف تفقد تميزها الأكاديمي (mpaata,2010)

كفاءة اليد العاملة (العمال و المواطنين) التي اكتسبت مهارات تتوافق مع متطلبات السوق من خلال انخراطها في التعليم العالي هي عملية صعبة في ظل بطة استجابة منظومة التعليم العالي للتغيرات البيئية في كثير من الأحيان.

الحقيقة انه حتى الفاعلين الاقتصاديين في السياسة العامة غالبا ما لا يكونون على يقين من المتطلبات الجديدة و المتغيرة للأسواق الناشئة، و تعتقدت هذه الوضعية بحالة عدم التأكد في المعادلة حول قدرة رأس المال على التنقل بأقل تكلفة أو اقل مواءمة مع أسواق العمل.

و نلاحظ من خلال الدوائر العالمية للإنتاج، الاستهلاك، الاتصالات، التقلب المتزايد الذي يميز أسواق العمل . تشير التقديرات في الولايات المتحدة إلى أن الأفراد تتغير وظائفهم ما يصل إلى 13 مرة قبل سن الثلاثين.

هذه التقلبات غير العادية و حالة عدم التأكد في احتياجات العمل تخلق صعوبات لمنظومة التعليم العالي في القيام بهذا الدور المتمثل في توفير قدرات العمل المؤهلة في ظل أفضل الظروف التي تلبي الاحتياجات الوطنية و لكن غالبا لا تتوفر تلك الظروف المناسبة و هذه هي العقبة الأساسية و التي تواجهها منظومة التعليم العالي ببرامج إعادة صقل المهارات و الدورات التدريبية و خلق مؤسسات متخصصة في ذلك توفر بيئات تعليمية مرنة.

في السنوات الخمسة و العشرين الماضية ، حدثت تغييرات كبيرة في ميدان تكنولوجيا الإنتاج ، و الاستثمار و تحول الإنتاج نحو الخدمات . و تشمل هذه المجالات تطوير تقنيات لم يكن من

الممكن تخيلها قبل ربع قرن و تزايد الارتباط و التعاون بين الجامعات و الصناعة و تسويق المزيد من الاكتشافات البحثية الخاصة و المزيد من التمويل و حظر التمويل للأبحاث في المناطق ذات التوتر السياسي ، و التحرك نحو المشاريع العلمية الكبيرة التي يشارك فيها المئات من الباحثين و المليارات من الدولارات .

المحور الثالث : تحديات التعليم العالي ، نظرة سريعة

I. التعليم العالي في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا

تواجه أنظمة التعليم في MENA تحديات التوسع و الجودة و العدالة و التواءم مع سوق العمل (المهارات السلوكية و المعرفية و الاجتماعية) حيث يصدر الطلب على العمل من القطاع العام بشكل رئيسي بالإضافة الى ؛ أنظمة اقتصادية ريعية (النقط بشكل كبير)، قيمة مضافة متدنية في منتجاتها؛ اندماج ضعيف في الاقتصاد العالمي؛ عدم التوافق بين عرض العمالة و الطلب عليها؛ البطء الشديد في مرحلة التحول من الدراسة إلى العمل؛ تدني نوعية التعليم ما بعد المرحلة الأساسية و أنظمة التدريب وملائمتها (تسرب التلاميذ إلى سوق العمل بمهارات متدنية).

❖ تحدي زيادة الموارد المالية و العدالة في توزيعها .

❖ طلب متزايد على التعليم العالي وبالتالي البحث عن مصادر تمويل جديدة وتتميز هذه المشكلة بالحدة في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا حيث زاد عدد الطلبة المسجلين بنسبة تتراوح من 20٪ إلى 30٪ بين سنتي 2000 و 2008. وهذا نتيجة لضغوط كثيرة منها:

أ- أموال عامة شحيحة؛

ب- أزمة مالية علمية؛

ت- الربيع العربي جلبت معها تحديات ولكن حملت معها فرصة تحقيق إصلاحات.

❖ تخصص بلدان MENA نسبة من الناتج الداخلي الخام أكثر مما تخصصه بلدان نامية أخرى لها نفس مستوى الدخل ولكن حصة الطالب من الإنفاق التعليمي تراجعت.

- ❖ الإنفاق على البحث و التطوير في بلدان منطقة MENA هو أقل من 0,39 % من PIB ، OECD 1,84 % أي حوالي أربعة أضعاف.
 - ❖ بعض البلدان مازالت تعاني من قيود مالية بالإضافة إلى الأزمة المالية و كذلك السياسية (الربيع العربي).
 - ❖ تحدي الاستدامة المالية
 - ❖ التمويل الحكومي غير قابل للزيادة في الفترة القصيرة و المتوسطة على الأقل لان منطقة MENA لديها حيز مالي يتراوح بين الضئيل و المتوسط.
- فيما يخص المواءمة هناك عدة معوقات التي تمنع الخريجين الحدد من الحصول على عمل:
1. ما تزال الاستثمارات في القطاع الخاص ضعيفة و تتركز على الاستخدام الكثيف لرأس المال و كذلك الفساد، الاحتكارات ، تقلبات الاقتصاد الكلي ، التعسف و عدم المساواة في تطبيق قواعد اللعبة (البنك العالمي).
 - التقدم المحرز في إصلاح القوانين يختلف من بلد إلى آخر
 - عدم مصداقية الحكومات في تغيير الوضع الراهن المتجذر من منح الامتيازات و عدم المساواة في معاملة المستثمرين
 - أفضل بلدان MENA تصدر 1500 سلعة هي في معظمها متدنية من حيث المحتوى التكنولوجي مقارنة مع 40 سلعة تصدرها بلدان مثل: بولندا، ماليزيا، تركيا.
 2. - تباين المهارات:
- تشكل مهارات العاملين و تعليمهم الأكاديمي حسب نتائج مسوحات المشاريع أهم خمس معوقات لمناخ الأعمال في MENA وخاصة البلدان العربية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط.
- وليس الخبرات التقنية و المهنية فحسب بل حتى المهارات الناعمة (ذات الصلة بمقياس الذكاء العاطفي) مثل الخصائص الشخصية، المهارات الاحترافية المطلوبة في مكان العمل، المهارات الوجيهة و التفاعلية، اللغة ، العادات الشخصية.

إضافة إلى أن نسبة كبيرة منهم يتخصصون في العلوم الإنسانية و الاجتماعية وهذا النمط من التخصصات مناسب للقطاع العام وغير مناسب لتلبية متطلبات التوسع الجديد في القطاع الخاص في مجالات التصنيع و الخدمات.

ج - لا يزال القطاع العام يشوه الحوافز:

تضعف الحوافز التي يقدمها القطاع الرسمي مثل (الخدمات الطبية و التقاعد، ساعات العمل القصيرة نسبيا، مزايا النقل) روح المبادرة بين العاملين المتعلمين من الشباب وتساهم في امتداد البطالة لفترات طويلة.

د- لا تزال لوائح العمل صارمة وضرائب العمل مرتفعة:

حيث عملية فصل العمال و الاستغناء منهم هي صعبة ومكلفة بالنسبة للمؤسسات في منطقة MENA بسبب عدم وجود برامج التأمين ضد البطالة في هذه المنطقة مؤشر تكلفة الاستغناء عن العاملين حيث يعادل راتب 50 أسبوعا في منطقة MENA مقابل راتب 28 أسبوعا في أوروبا و آسيا الوسطى و OECD .

تتطلب هذه التحديات زيادة الموارد المالية و الأهم من ذلك إعادة تخصيص الموارد المالية بالشكل الحسن، كما ان فرض ضرائب جديدة سيكون صعبا للغاية و بالتالي يجب إيجاد مصادر بديلة للتمويل العام و تحسين فعاليته وكفاءته.

اما بالنسبة للمواءمة فلا بد من تعزيز الروابط بين التعليم العالي و القطاع الخاص و وضع آليات مثل حاضنات التكنولوجيا، تشجيع مشاركة المغتربين من ذوي المهارات العالية في مشاريع البحث و الابتكار في المؤسسات الأكاديمية للشركات. وبصفة عامة النظر في الدروس المستفادة من البلدان الأوروبية ، الولايات المتحدة، كندا، أستراليا وغيرها من بلدان OECD.

II. التحديات الحالية للتعليم العالي في إفريقيا

يعاني التعليم العالي من التسييس في إفريقيا و ضياع الموارد و الوصول غير العادل. تعتبر معدلات الالتحاق الضعيفة في إفريقيا من أدنى المعدلات في العالم و لا تزال الحالة نفسها في

بعض الدول على ما كانت عليه قبل أربعين سنة. حيث هناك عدة عوامل مترابطة تفسر هذه الظاهرة :

أولاً: الاتجاهات الديمغرافية في القارة و اختلال بين العرض و الطلب في سوق التعليم العالي ، تضاعف عدد السكان بين سن 15 و 24 بأربع مرات .

ثانياً: السياسات العامة في إفريقيا و التي ركزت على التعليم الابتدائي و الثانوي و ذلك على حساب التعليم العالي بسبب موجة الدراسات حول العائد و التي أوضحت أن التعليم الأولي و الثانوي أكثر أهمية بالنسبة للتنمية مقارنة بالتعليم العالي .

و كان ينظر إلى للكليات و الجامعات في البلدان ذات الأنظمة الاستبدادية انها مكان خصب للمعارضة السياسية و الاحتجاجات.

ثالثاً: يعاني التعليم العالي من جمود مؤسساتي بالنسبة لضبط المناهج في مجال الاستجابة للتغيرات في سوق العمل العالمية في بعض البلدان مثل الكامرون ، تنزانيا و مدغشقر، الجامعات هي مركزية للغاية و تحت رقابة صارمة وزارات التعليم التي تستخدم معايير سياسية في التوظيف .

رابعاً: هناك قلق متزايد حول تدهور جودة التعليم في إفريقيا حيث ترى Matera ان الجودة مفهوم صعب الفهم و متعدد الأبعاد نظرا لعدم وجود معيار مشترك واضح .و هناك دليل على ان مشاكل الجودة لا تتعلق بالأفراد بل بالمؤسسات من خلال هجرة الأدمغة 50000 دكتور خارج القارة .

يرى Bennell ان عوائد التعليم في افريقيا قد تكون اقل من المقدرة و قد يكون ذلك سبب للمشاكل المنهجية في الدراسات السابقة و خاصة التحيز في اختبار المتغيرات.

III. التعليم العالي في دول منظمة OCED :

وفقا للتقرير الذي أصدرته المنظمة مؤخرا يحتاج التعليم العالي إلى التوسع بفعل الطلاب الجدد (23 مليون طالب جديد) هذا التقرير هو ضمن سلسلة Education Indicators In Focus

وارتفع القبول في الجامعات بسبب الطلب المتزايد في الدول وكذلك بسبب عملية "بولونيا" في الدول أخرى.

IV. أنظمة التعليم العالي الأوروبية

تواجه نظم التعليم العالي الأوروبية تغيرات عديدة في ظل أنها مدولة بشكل متزايد و أكثر تحررا و ليبرالية و أكثر توجهها نحو السوق ، ما له سلبيات وإيجابيات وأنصار ومعارضين ، هذه الاتجاهات تأتي ضمن جملة أمور أخرى نتجت عن تزايد الاستقلالية المالية للمؤسسات التعليمية العالي في الدول الأعضاء للاتحاد الأوروبي ، ومع ذلك فقد كشفت الأزمة الأخيرة العديد من نقاط الضعف في آليات تمويل التعليم العالي .

هدف كل دولة في الاتحاد الأوروبي هو توفير الظروف اللازمة للتعليم العالي يكون فعالا وكفؤا ، يوفر فرصا متعادلة ، تعليم ذو جودة وفرص عمل ملائمة للخريجين وكذلك دعم التنمية المستدامة للمجتمع .

فان تمويل أنشطة التعليم في مؤسسات التعليم العالي في أوروبا يتصف بما يلي :

- 1- يتم تخصيص الأموال العامة بأسلوب التمويل Lump Sum دفعة واحدة والذي غالبا ما يكون على أساس النتائج والقيم المستهدفة (مبالغ جزافية)
- 2- في اغلب البلدان الأوروبية يمكن للجامعات الرسوم الدراسية ولو من جزء من مجتمع الطلاب، ومع ذلك فان هناك اختلافات في أساليب تحديد قيمة الرسوم الدراسية وما هي النفقات التي يجب أن تغطيها.
- 3- توجد أيضا اختلافات كبيرة في ملكية الممتلكات إذ لا تعني الملكية الرسمية حرية التصرف التامة.
- 4- للجامعات استقلالية في تسيير المواد البشرية وغالبا ما تكون مقيدة عندما يتعلق الأمر بتحديد الأجور نظرا لأنها موظفيها موظفون مدنيون تسري عليهم القوانين الوطنية.
- 5- أنشأت وكالات التعليم العالي الأوروبية

ENQA: European Association for Quality assurance in higher education
EQAR: European Quality assurance Register for Higher education.

V. الطلاب الدوليين في العالم

يدرس قرابة ثلاثة ملايين طالب خارج بلدانهم ويسهمون بما يزيد عن 75 مليار دولار في الاقتصاد العالمي التي تدفع الطلاب لذلك هي :

1- الهجرة .

2- عدم الحصول على فرصة دراسة مناسبة .

3- زيادة فرص عمل مناسبة في السوق المحلي .

تتجه الجامعات في الآونة الأخيرة إلى استقبال الطلاب الدوليين بمنظور تجاري ، وفرضت رسوم أعلى عليهم مثلا : استراليا ، بريطانيا التي بدأت على الطلاب من غير الاتحاد الأوروبي ، وهناك ولايتان في الولايات المتحدة (واشنطن و نيوها مشير) تقومان بفرض رسوم أعلى على الطلاب الأجانب (اغلب الطلاب الدوليين يدرسون التخصصات التقنية) .

هناك وكالات عالمية تعمل كوسيط بين الجامعات والطلاب الراغبين في الالتحاق بها وتأخذ عمولة عن كل عملية قبول من الطالب. ولكن عمل تلك الوكالات انحراف عن مساره وأصبحت بعضها تقوم بأي شيء لقبول الطالب واخذ عمولة منه كالتزوير في الملفات المقدمة للجامعة و ظهرت هيئات اعتماد لتلك الوكالات كما في الولايات المتحدة AIRC ، والتي تطلب مساهمات كثيرة قد لا تستطيع الوكالات الصغيرة تقديمها مقابل الاعتماد مع العلم أن أعضاء AIRC هم من الجامعات.

إن هذه التحديات تفرض على الدول القيام بإجراءات و إصلاحات سريعة و فعالة و في هذا الإطار يمكن الوقوف على أهمها و أكثرها نجاعة في ذلك . بينت الدراسة أن هذه التحديات تختلف زمانيا داخل النظام التعليمي نفسه و تتباين من نظام تعليمي إلى آخر و هذا ما يتوافق مع فرضية البحث.

بالنسبة للتمويل و العدالة و الوصولية ، الحل الأكثر حضورا هو توفير تمويل إضافي لاستيعاب الطلب المتزايد غير أن معظم البلدان ليست في وضع مريح لزيادة التمويل العام لديها بما يكفي لمواكبة انفجار الطلب ولذلك يجب على صناع القرار أن يختاروا مزيجا من الأساليب الثلاثة التالية لتقليص الفجوة، بالإضافة إلى المزيد من المساءلة وزيادة التعويل على آلية السوق:

أ- تسقيف النمو في الطلبة الملتحقين.

ب- السعي وراء تحقيق الكفاءة عند تقديم التعليم والخدمات .

ت- الاعتماد أكثر على الرسوم الخاصة لتعويض الموارد العامة الشحيحة المخصصة للتعليم

العالي.

يذهب الكثير من المختصين في تمويل التعليم العالي إلى ضرورة الأخذ بعدة خطوات في المدى

الطويل منها:

● ضرورة المساءلة:

لقد أدت الفجوة المسجلة وتوجيه البلدان إلى البحث عن كفاءة الإنفاق إلى الاهتمام المتزايد بالمساءلة في التعليم العالي بسبب الإنفاق الكبير للحكومات على التعليم العالي و بالتالي الوقوف على أين تصرف تلك الأموال وان كانت تصرف بالشكل الجيد.

● زيادة الاعتماد على آليات السوق و الخصخصة :

غالبا ما يتم التحول نحو زيادة الاعتماد على آليات السوق والخصخصة والتي تتخذ عدة

أشكال:

1. الزيادة في الرسوم الدراسية.

2. إعطاء المؤسسات العامة مزيدا من الاستقلالية في كيفية صرف أموال الدعم مما يجعل

حوكمتها اقرب إلى المؤسسات الخاصة.

3. تشجيع المؤسسات للسعي وراء مصادر أخرى للأموال الخاصة مثل تسويق البحوث

وتلقي التبرعات.

تنبع مصلحة مسؤولي المؤسسات العامة في الخصخصة في تحقيق مزيد من الاستقلالية في صرف الأموال بدلا من الخضوع لعدة درجات من التنظيم الحكومي ، بينما مصلحة صناع القرار في الخصخصة في تخفيض التمويل الحكومي لتلك المؤسسات وتوجيه الأموال العامة لتمويل احتياجات أخرى في التعليم العالي أو عادة نحو مجالات أخرى للدعم الحكومي. في الحقيقة تتجه العديد من الدول أكثر نحو الاستراتيجيات القائمة على السوق و الخصخصة في ظل مزايا هذا المنهج في تحقيق قدر كبير من المساءلة التي يجب تميمها.

● البحث عن المقاربات الإبداعية:

كنتيجة أخرى للفجوة بين الموارد والنمو في معدلات الالتحاق هو البحث المكثف في العديد من البلدان لمقاربات التمويل الإبداعية و التي تسمح بزيادة فعالية استخدام الموارد في تلبية الطلب المتزايد و التي يمكن أن تأخذ عدة أشكال أكثر تطور كزيادة استخدام الصناديق التنافسية، كزيادة مستويات الرسوم الدراسية ، معدلات استرجاع التكاليف ، زيادة إجراءات الدعم المالي الطلابي بما في ذلك برامج القسائم التي تمويلها الحكومة . وباختصار البحث عن أساليب مبتكرة لتمويل التعليم العالي تساعد في تحقيق الوصلية إلى جانب المحافظة على الجودة .

بالنسبة للجودة و المواءمة فالتعلم مدى الحياة حل طويل المدى لمشاكل الجودة رغم تغيير السياق العالمي والإقليمي لمشهد التعليم العالي، فإن عملية إصلاح السياسات ما زالت تنحو باتجاه اللامركزية والتنوع وزيادة استقلالية الجامعات، إضافة للخصخصة والتمويل المبني على الأداء والالتزام بمعايير الجودة، وتطوير سياسات الالتحاق بالجامعات لتكون أوسع وأكثر إنصافاً. و هذا ما يدعم فرضيتنا في ان العولمة و تغيرات اسواق العمل فرضت الموائمة كتحدٍ الاكثر حدة و يجب ان تكون مقارنة مواجهته على المدى الطويل .

وفي أواخر التسعينيات بدأ التركيز على التعلم مدى الحياة، وكان من المفترض أن يكون بمثابة جسر نحو التعليم المستمر في مراحل الحياة المختلفة، لكنه طَبَّق فقط في سياق تعليم

الكبار، وأهمل جوهره الحقيقي ووظائفه. إضافة إلى أن التعلم غير الرسمي ما زال مهمشاً، والاعتراف بالتحصيل العلمي في مراحل سابقة غير موجود تقريباً.

المراجع باللغة العربية :

1. المالكي عبد الله (2013) ، بدائل تمويل التعليم العالي الحكومي في المملكة العربية السعودية، المجلة السعودية للتعليم العالي ، العدد العاشر ، نوفمبر.
2. إي جريدي بوج و كيمبرلي بنجهام هول، ترجمة: أسامة اسبر (2012) ، الجودة و المسؤولية في التعليم العالي ، الطبعة العربية الأولى ، العبيكان للنشر ، المملكة العربية السعودية .
- البنك العالمي (2014) ، تعادل أم اختراق : التوصل إلى الاستدامة المالية وفي نفس الوقت تقديم معايير جودة عالية في التعليم العالي في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ، تقرير.
3. المراجع باللغة الأجنبية :

1-Flacher David et al (2012) , *Régime par répartition dans l'enseignement supérieur: fondements théoriques et estimations empiriques*, centre d'économie de l'université de paris nord.

2- Tan Jun Jie (2011) , *Are we spending too much or too little on higher education?*, Norwich Economic Papers, Vol. 3.

3- Bourdieu Pierre (1974), *Avenir de classe et causalité du probable*. In: Revue française de sociologie, 15-1.

4-PEREZ S. (2003), *Minorités et Amérique andine : quelle chance pour une éducation bilingue*, dans A. Gohard-Radenkovic, D. Mujawamarija & S. Perez (dir.), *Intégrations des "minorités" et nouveaux espaces interculturels*, Bern, Berlin, Bruxelles, Frankfurt, New York, Oxford, Wien, Peter Lang.

5- Basheka B.C., Muhenda M.B., and Kittobe J. (2009) *Programme Delivery, Quality Benchmarks and Outcomes Based Education at Uganda Management Institute: A correlational approach*. NCHE, Kampala

6-International Labor Organization(2010), *Labor Market Trends and Globalization's Impact on Them*, Available at:

<http://actrav.ilo.org/actrav-english/telearn/global/ilo/seura/mains.htm>

7- Kom, A. (1996), *Education et démocratie en Afrique : le temps des illusions*. Paris: Yaounde : L'Harmattan, Editions du CRAC.

- 8- Shantayanan Devarajan et al (2011) , *Making Higher Education Finance Work for Africa*, Journal of African Economies, Vol. 20, AERC Supplement 3.
- 9-Hauptman .Arthur M. (2006) , *Higher Education Finance: Trends And Issues* , Springer International Handbooks of Education, Volume 18.
- 10-Bridget Terry Long (2013), *The Financial Crisis And College Enrollment: How Have Students And Their Families Responded?*, Paper Presented At The NBER Conference On The Effects Of The Great Recession On Higher Education , Harvard University.
- 11 -Gilpin, Robert (2000), *The Challenge of Global Capitalism: The World Economy in the 21st Century*, Princeton: Princeton University Press.
- 12-Maria Lung(Moladovan), IoanMoldovan , Nistor Lung Alexandra (2012) , *Financing higher education in Europe: issues and challenges* , Procedia - Social and Behavioral Sciences 51.
- 13-UNESCO Regional Bureau for Education Asia and Pacific(2012), *The Impact of Economic Crisis on Higher Education*, Bangkok.
- 14-World Bank (2000), *Higher education in developing countries*, Washington, DC: World Bank Task Force on Higher Education and Society.

ملامح الاتصال الوثائقي عند ابن بشكوال:

قراءة منهجية ببليوغرافية.

Fatures documentary contact with Ibn Bachkwal

د.ة. صورية ملاحم

جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام: 2016/07/03

Abstrat:

The book "relevant" to the son of Ibn Bachkwal To continue to book, "the scientists history" to the Ibn faradi, and an extension of what in the book of controls most important commitment by talking about the Andalusia scientists and arrivals of Andalusia from strangers and delinquency of exclusive data concerning scientific march translator them, mentioning the names of their elders and the names of their students and what they knew in their scientific and social. The importance of the book and "relevant" in the period in which they talked about.

key words:

Ibn Bachkwal- Ibn faradi- Andalus- Scientists

يعد كتاب "الصلة" لابن بشكوال⁽¹⁾ مواصلة لكتاب "تاريخ العلماء" لابن الفرضي،⁽²⁾ و امتداد لما في الكتاب من ضوابط أهمها الالتزام بالحديث عن العلماء الأندلسيين و الوافدين على الأندلس من الغرباء و الجنوح للاقتصار على معطيات تتعلق بالسيرة العلمية للمترجم لهم، بذكر أسماء شيوخهم و أسماء تلاميذهم و ما عرفوا به في حياتهم العلمية و الاجتماعية. و تكمن أهمية كتاب "الصلة" في الفترة التي تحدث عنها ، و هي النصف الثاني من القرن الرابع و كامل القرن الخامس و النصف الأول من القرن السادس للهجرة، و هي فترة اضطراب و محن و نكبات ارتبطت باسم "الفتنة".

و إذا كنا نجد في نهاية الجزء الأول و نهاية الكتاب ما يدل على أن الفراغ من كتابته كان سنة 534هـ، و هو ما ذهب إليه ابن أبي شنب و هويسى ميراندا⁽³⁾. فإن الكتاب ما ينم عن الفترة الزمنية التي يتصل بها تجاوزات هذا التاريخ، إذ نجد إشارات إلى سنة 536هـ. و سنة 537هـ، و سنة 538هـ، و سنة 542هـ، و سنة 544هـ، و سنة

546هـ، و سنة 547هـ، و سنة 551هـ، و سنة 564هـ/1169م، فهل هي من زيادات التلاميذ أو الوراقين، أم من زيادات المؤلف الذي توفي سنة 578هـ. و مهما يكن من أمر فإن عددا من المعطيات يتجاوز التاريخ النهائي المتفق عليه- و هو سنة 534هـ- بما يقارب ثلاثين سنة.

توفي ابن بشكوال سنة 578هـ/1183م، لكن تراجمه البيوغرافية وصلت إلى غاية 564هـ/1169م، و تناقصت في السنوات الأخيرة من الكتاب، (عشرات بعد سنة 545هـ). لذلك تم الاعتماد على الفترة التي تتراوح ما بين 525-545هـ/1131-1150م، لكي نحصل على كثافة من العلماء تكون قابلة للتحليل، إذ اعتمدنا على تراجم 300 عالم من مجموع : 1544، دون الاهتمام بالتراجم الأخرى التي تقتضي بيانات أوفر للمترجم لهم. ولكنها تظل محدودة نسبيا، و هذه الإجراءات المنهجية سادت في المجالين الزمني و المكاني للأندلس. لأننا إذا وظفنا جميع التراجم الموجودة "بالصلة"، و قتها سنكون أمام صعوبة منهجية، و بالتالي أمام بيبلوغرافيا أضخم. و عليه تم الصعود إلى مرحلة (525-545هـ/1131-1150م) لتأكيد التحليل البيبلوغرافي لعمليات الاتصال الثقافي والفكري بين العلماء.

إن الأزمة المرابطية بالأندلس جاءت بعد انهزامهم في شرق الأندلس عند قرية قليبيرة (Culera) سنة (523هـ/1129م) أمام القوات المسيحية، و تأسيس دويلات طوائف جديدة ما بين (539-549هـ/1144-1154م). لقد تم حساب معدلات الحياة عند علماء الأندلس على ضوء ابن بشكوال، مستبعدة حياة المشاق، و الجهاد و الحروب، و الفتن، و العلماء الشهداء، أو الذين تعرضوا للاغتيالات و السجن و النفي من طرف الحكام.

و على أساس ذلك قسمنا معدلات الحياة حسب تأريخ ابن بشكوال للعلماء و الحياة الفكرية التي عاشتها الأندلس إلى ستة مراحل، و هي مبينة حسب الجدول التالي :

جدول رقم(1) معدل حياة العلماء حسب الفترات الزمنية عند ابن
بشكوال :

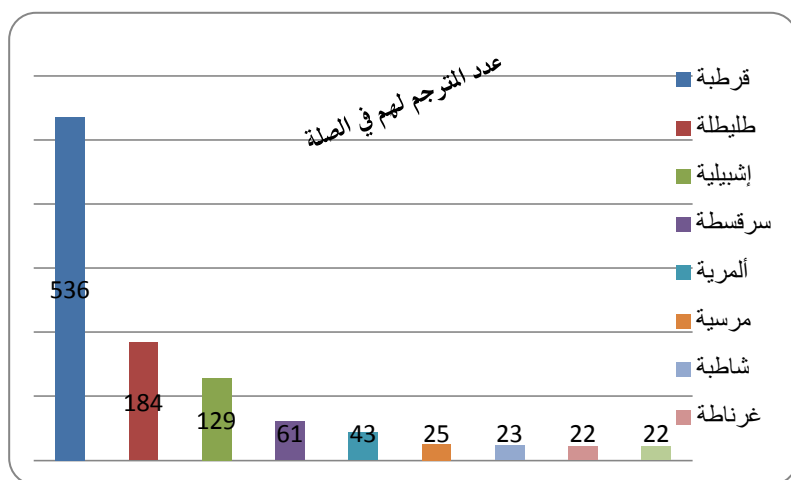
الفترة	السنوات	معدل الحياة
01	440-420هـ	79-78 سنة
02	460-440هـ	74-73 سنة
03	480-460هـ	73 سنة
04	500-480هـ	76-75 سنة
05	525-500هـ	75 سنة
06	545-525هـ	75 سنة
المعدل العام		75 سنة

هذه الأرقام ما هي إلا أرقام معلوماتية نموذجية، لأن ابن بشكوال لم يذكر في " الصلة" معطيات حول الاغتيالات السياسية للعلماء. من هنا نستنتج أن حياة العالم في الأندلس خلال القرن الخامس و أوائل القرن السادس الهجري كان معدل الحياة فيها يتراوح ما بين 70 و 75 سنة.

لقد وصل عدد العلماء الذين قام ابن بشكوال بالترجمة لهم إلى 1544 عالما، ما بين محدث و فقيه و قاض و أديب، و هذا الخليط يوضح أن ابن بشكوال كان له إدراك واسع و شمولي لمفهوم العالم. وقد وجه عنايته نحو الجانب الأخلاقي و السلوكي للعلماء، و قصص نشأته و مراحل دراسته و الشيوخ الذين روى عنهم، و الكتب التي ألّفها، و رتب المترجمين على حروف المعجم، و ختم مؤلفه ب 16 ترجمة للنساء العالمات. حاولت القيام بإحصاء لأصول المترجم لهم في الصلة رغم الصعوبات المنهجية، حيث احتل ذوو الأصول القرطبية مركز الصدارة قبل طليطلة و إشبيلية، نظرا لانتماء مؤرخنا لهذه المدينة، و نظرا للدور السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي الذي لعبته خلال هذه الفترة، و الأحداث الخطيرة التي عرفت المنطقة.

جدول رقم(2) نسبة أصول المترجم لهم في الصلة:

الدين	قرطبة	طليطلة	إشبيلية	سرقسطة	المرية	مرسية	شاطبة	غرناطة	بطلوس	بنسية	المجموع
عدد المترجم لهم	536	184	129	61	43	25	23	22	22	13	1058
النسبة المئوية	34.78	11.54	8.37	3.95	2.75	1.62	1.45	1.42	1.42	0.64	% 100



رسم بياني رقم(3) عدد المترجم لهم في الصلة :

ما تجب الإشارة إليه في هذا الصدد ، أن هناك صعوبات اعترضت هذا الإحصاء الكمي :

- غياب ذكر المكان سواء الولادة أو الوفاة في عدد كبير من التراجم.
- صعوبة تحديد مكان انتماء المترجم⁽⁴⁾.
- الاقتصار على ذكر مكان الوفاة دون ذكر مكان الولادة⁽⁵⁾.

- ذكر اسم العالم بصفة أندلسي من دون تحديد بلده، مما يحتم علينا البحث في مصادر أخرى⁽⁶⁾.
- إن محتوى كتاب الصلة من خلال هذا العرض أثبت صورة للتعبير التاريخي، و يرى ابن عبود⁽⁷⁾، " بأن كتب السير و التراجم تعد نوعا من الكتب التاريخية التي لم تعط العناية الكافية بصفاتها نوعا أندلسيا خاص." و السؤال الذي يطرح هو: ماذا قدمت لنا الصلة من معلومات حول موضوع العنف و المعارضة بالأندلس خلال الفترة التي أرخت للأندلس؟
- يقدم لنا كتاب " الصلة"، معطيات عن الأسر الحاكمة و صراعاتها حول السلطة.
- قدمت لنا معطيات عن السجن والنفي و التغريب و الفرار.
- تعرض كثير من الفقهاء و القضاة لمختلف أشكال العنف، بسبب معارضتهم لأنظمة الحكم أو ميولا تهم السياسية.
- إن تطبيق المنهج الكمي على مؤلف ابن بشكوال من خلال المنهج السابق في مجال متوسط عمر العلماء المترجمين لهم، و التمرکز السكاني، و معدل أمد الحياة، يجعلنا نقدم جدولاً يبين بالكم أنواع مظاهر العنف الواردة بالصلة:

جدول رقم(4) مظاهر العنف الواردة عند ابن بشكوال

نوع العنف	القتال	الاغتيال	الثأف	الذبح	السجن	النفي - الفرار	الجهاد
العدد	24	3	3	4	10	25	69

ما يلاحظ في هذا الجدول أن ابن بشكوال ركز على الجانب السلوكي و الأخلاقي للمترجم، فمظاهر العنف عند ابن بشكوال تمثلت في السجن: إذ تعرض لهذا النوع من العنف، حكاما و وزراء و قضاة و فقهاء، كابن الوليد بن جهور دون ذكر سبب الاعتقال و لا المدة⁽⁸⁾. و قدم لنا معطيات عن المنافسة التي جرت بين يعيش بن محمد و أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري، اللذان انتهت إليهما رئاسة طليطلة، فدبر الأول محاولة اغتياله كي ينفرد بالسلطة، فتم ذلك ، وذكر ابن حيان أنه مات معتقلا بشنترين مسموما سنة 403هـ⁽⁹⁾.

ذكر ابن بشكوال وفاة الوزير أبي الحسن مغيث⁽¹⁰⁾ سجيننا بإشبيلية سنة 469هـ/1077م في سجون بني عباد، عن سن تناهز 76 سنة. كما سجن بعض الفقهاء ليوالاتهم السياسية المخالفة لنظام الحكم القائم، ففي سياق عام لسياسة علي بن حمود و التي استهدفت التخلص من الفقهاء و القضاة الذي يساندون الخلافة الأموية يشير صاحب الصلة إلى سجن قاضي الجماعة بقرطبة أبي بكر يحيى بن وافد اللخمي(ت: 404هـ)⁽¹¹⁾. كما توفي منكوبا في السجن حسب ابن بشكوال الفقيه عبد الله بن سعيد بن المحتشم (403هـ/1012م) و أسلم إلى أهله في قيوده⁽¹²⁾. كما أن قاضي الجماعة بقرطبة حسن بن محمد بن ذكوان(ت: 451هـ/1059م) فرضت عليه الإقامة الجبرية من طرف أبي الوليد محمد بن جهور⁽¹³⁾، بينما سجن محمد بن أحمد بن مخلد⁽¹⁴⁾(ت: 470هـ/1077م) من طرف ابن عباد بعد طرد بني ذي النون من قرطبة.

نستخلص أن السجن مثل أحد مظاهر العنف التي تناولها صاحب الصلة و التي شملت مختلف الشرائح الاجتماعية، بل أكثر من ذلك أشار إلى حالات الوفاة التي تمت ، بالرغم من إغفال حالات، و عدم تفصيل حالات. لقد أورد ابن بشكوال 24 ترجمة لفقهاء و أدباء تعرضوا للقتل لا سيما أثناء الفتنة و بعدها خصوصا عند دخول البربر قرطبة سنة 403هـ/1012م. منهم: أبو عمران موسى الزاهد(ت: 378هـ)⁽¹⁵⁾،

و أحمد بن مطرف الجهني(ت: 400هـ)⁽¹⁶⁾، و أبو عثمان سعيد بن الفزاز(ت: 400هـ)⁽¹⁷⁾. و في عهد القاسم بن حمود قتل قاضي رية عريب بن مطرف من أهل قرطبة(ت: 409هـ/1018م)⁽¹⁸⁾.

تناول ابن بشكوال إحدى أكبر الجرائم التي ارتكبتها المعتضد بالله، و المتمثلة في قتله الفقيه العالم عمر بن الحسن الهزوني من أهل إشبيلية⁽¹⁹⁾ "كان متفنا في العلوم... قتله المعتضد بالله عباد بن محمد ظلما بقصره بإشبيلية و دفنه به ليلة السبت 16 ربيع الثاني 460هـ، و تناول قتله بيده، و دفنه بثيابه و قلنسوته و هيل عليه التراب داخل القصر من غير غسيل و لا صلاة رحمة الله." و من أشهر الاغتيالات التي أشار إليها ابن بشكوال و التي تمت في العهد المرابطي، اغتيال قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن الحاج⁽²⁰⁾ في 25 صفر عام 529هـ، حيث انتهب القاتل فرصة سجد جميع المصلين ظهر الجمعة، و قام بطعن الضحية ظلما.

نستخلص أن الصلة تقدم لنا معطيات لا بأس بها عن التصفية الجسدية التي شملت عدة فقهاء و قضاة بمختلف مناطق الأندلس كقرطبة و طليطلة و إشبيلية. لقد صارت القوى المتصارعة بحاجة إلى سند شرعي يدعم صلاحيتها في حكم البلاد، هذا السند تجلى في كثير من الأحيان في العنف و التنكيل و القتل.

في ضوء كتاب الصلة يمكننا استخراج عناصر أساسية في إطار الاتصال الوثائقي للحركة الفكرية في عالم الأندلس، بحث إذا لامسنا العناصر الهامشية في الصلة لا نجد ذكر أحداث العالم الديني غير السني إلا في محطتين هما نحلة برغواطة⁽²¹⁾. حيث ذكر ابن بشكوال أن خلفه بن تامصت بن يحيى البرغواطي قدم قرطبة سنة 476هـ في أيام المأمون يحيى بن ذي النون لأخذ العلم في مجال القراءات⁽²²⁾.

و المحطة الثانية ذكره لمذهب ابن مسرة⁽²³⁾، إذ ذكر عبد الوهاب بن منذر من أهل قرطبة⁽²⁴⁾، الذي كان من أتباع مذهب ابن مسرة و انحرف عن الفقهاء المالكيين.

إن التمثيل البياني الرقمي تم جمعه من خلال 300 ترجمة نموذجية منتقاة من مجموع 1544 ترجمة مدونة في كتاب "الصلة" لابن بشكوال. ولأنه من الصعوبة بمكان نظريا غزيلة كل التراجم بكمها الهائل، لمعرفة خصائص العلم و العلماء في الأندلس عبر قناة الاتصال الوثائقي في مجال الحياة الثقافية و الإنتاج الفكري. و بالنظر أيضا للتناقضات الموجودة داخل الصلة من جهة و التوزيعات الجغرافية للعلماء من جهة أخرى. لذا تم الاعتماد على هذا التجميع عبر مجال زمني محدد بفترات ما بين 420-545هـ، و لأن هذا التجميع البيبليوغرافي و تصنيف التراجم كان مبنيًا في ميدان الإجراء المنهجي على معطيات تم تحديدها حسب التجمع الجغرافي، و الرحلة ، و أماكن الاستقرار، و تاريخ المولد و الوفاة، و التخصص العلمي، على أساس التأليف و الإجازة. لذا كانت الاعتبارات التالية هي الإجراء الوحيد في هذه العملية :

- جمع و تصنيف المترجم لهم في جدول بيبوغرافي عام على أساس : الإجازة- العمر- مكان الإقامة- تاريخ الوفاة- الإنتاج الفكري(مؤلفات- تخصصات علمية)- رحلة- مهنة- البلد- مكان الولادة.

- القيام بفرز على أساس الترتيب الكرونولوجي وفق تأريخ الصلة من القرن الرابع إلى أوائل القرن السادس الهجري بمراحل زمنية حددت سابقا.

لقد ذكرت "الصلة" بعض شيوخ الأندلس⁽²⁵⁾ عدة مرات في مجال الإجازة و الرواية و السماع، و في مراحل مختلفة، منها محمد بن عبد الله بن إبراهيم المري، المعروف : بابن زمنين⁽²⁶⁾ من أهل ألبيرة، توفي سنة 399هـ. ذكر 8 مرات ما بين 420-440هـ، و 6 مرات ما بين 440-460هـ. و ذكر عبد الله بن أبي عمر بن لب الطلمنكي⁽²⁷⁾ 15 مرة خلال فترة 460هـ، و 24 مرة خلال 500هـ. أما الشيخ محمد بن مكي بن أبي طالب من أهل قرطبة(ت: 474هـ)، فذكر 8 مرات قبل 460هـ، و 26 مرة في 500هـ. و تكرر اسم العالم عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد البر النميري(ت: 450هـ) 4 مرات في سنة 4601هـ، و ما بين 13 و 18 مرة خلال فترة

525هـ. و من بين الأمثلة حول العناصر التي تم الاعتماد عليها في مجال أنموذج الترجمة لـ 300 عالم ، ، نورد النماذج التالية:

جدول رقم(5)الإجازات و الرحلة و البلد و المهنة و التخصص العلمي في ضوء ابن بشكوال:

الترجمة	الترجمة	الترجمة	الترجمة	الترجمة	الترجمة	الترجمة	الترجمة	الترجمة	الترجمة
أحمد بن عفيف بن مريول الأموي	قرطبة	348هـ -	420هـ -	وثائقي و إمام	72 سنة	له إجازة و سماع	له تأليف آداب المعلمين أخبار القضاة و الفقهاء بقرطبة	المرية أيام الفتنة	ابن بشكوال: ترجمة: 75، ص 47
حماد بن عمار الزاهد	قرطبة	//	432هـ -	قاضي قرطبة أيام الحموديين	100 سنة	//	//	المشرق	ابن بشكوال: ترجمة: 352، ص 140
سليمان بن محمد بن بطال	بطلوس	//	400هـ -	شاعر	//	//	المقنع في أصول الأحكام	البيرة	ابن بشكوال: ترجمة: 444، ص 172
عثمان بن سعيد الأموي	قرطبة	//	444هـ -	عالم في القراءات و الحديث	//	له إجازة و سماع	له تأليف كثيرة غير مذكورة	المشرق	ابن بشكوال: ترجمة: 879، ص 325

إضافة إلى ما ذكر عند دراسة الاتصال الوثائقي بين العلماء ، و الاعتماد على عمليات تجميع علماء الأندلس حسب مناطق توزيعهم الجغرافي وذكر تواريخ وفاتهم، وهذا بناء على ضوء تراجم ابن بشكوال. والجدول الذي بين أيدينا يبرز أعدادهم خلال الفترات الزمنية المذكورة في الصلة:

جدول رقم (6): توزيع عدد العلماء في الأندلس في ضوء ابن بشكوال:

تاريخ الوفاة المناطق	ابن بشكوال						
	420هـ	440هـ	460هـ	480هـ	500هـ	525هـ	545هـ
قرطبة	93	43	40	38	44	42	300
إشبيلية	63	26	19	12	18	17	135
غرناطة	6	2	7	8	7	8	38
مالقة	6	8	6	5	3	4	32
المرية	14	18	27	17	14	16	106
مرسية	4	4	4	6	9	8	35
الثغر الأعلى	18	6	16	16	20	3	79
الثغر الأدنى	12	5	11	10	14	6	58

180	3	18	19	50	42	48	الثغر الأوسط
49	13	10	12	5	3	6	المغرب
284	14	19	40	46	64	101	المشرق

تعتبر الأرقام الواردة في الجدول، بيانات خام، يمكن استنتاج عناصر أساسية منها: إن الاعتماد على تواريخ وفيات العلماء، بواسطة أرقام المبينة في الجدول تعبر عن مرحلة الخلافة وهي تساعدنا على عملية الاتصال بين العلماء وتمدنا بمعلومات في غاية الأهمية.

إن إحصاءات العلماء في هذا الجدول تبين اختلال التوازن في بيانات الأرقام لهجرة العلماء داخل و خارج الأندلس، إذ أحصى ابن بشكوال علماء كثيرين. وربما هذا راجع بالدرجة الأولى إلى ما نتج عن حرب الاسترداد المسيحية منذ القرن 5هـ-11م، حيث اقتلعت العديد من المناطق الإسلامية، يدخل في إطارها أعداد العلماء بالنسبة للإحصائيات الأخيرة. ومن خلال استقراء الإحصاءات الواردة في الجدول، نلاحظ كثرة العلماء المهاجرين نحو المشرق والمغرب بمجموع 333 وهذا في المرتبة الثانية بعد العاصمة قرطبة ب 300 عالم.


إن استقلالية الأندلس عن الخلافة العباسية منذ إعلان الخلافة الأموية سنة 316هـ/929م⁽²⁸⁾، قد أعطى القدسية الروحية للحضارة العربية الإسلامية في الأندلس حسب تعبير ابن خلدون⁽²⁹⁾. وخاصة الابتعاد الجغرافي عن باقي العالم الإسلامي، بالرغم من عدم التصدي لشرعية الخلافة العباسية من طرف علماء الأندلس. إن قراءة متأنية للأرقام بخصوص الفغور⁽³⁰⁾ تجعلنا نستنتج نقصان رجال العلم في هذه المناطق، بسبب الاسترداد المسيحي للأراضي الإسلامية وهجرة العلماء داخل الأندلس وخارجها⁽³¹⁾.

حاولنا رسم جدول للحياة الثقافية بالأندلس من خلال ما صوره لنا ابن بشكوال ، وهو ما يعبر عن اهتمامات الاتصال الوثائقي للحضارة العربية الإسلامية من خلال الحكم البيوغرافي للتراجم. وقد جمعنا في هذا الجدول حسب مخصصات المؤلفات الأندلسية مختلف العلوم السائدة وقتذاك، كالأدب، والحساب واللغة، والتاريخ والتراجم، وركزنا في هذا التجميع على كتاب الصلة بالدرجة الأولى.

و مما لا شك فيه أنه عند الدراسة الببليوغرافية للمؤلفين، نلاحظ سيطرت حقول علوم القرآن والحديث ثم الأدب في الدرجة الثانية، ومعها اللغة والشعر ثم التاريخ والحساب، وهناك تفضيل في العلوم التقليدية كأصول الفقه والتفسير ، ويلاحظ إهمال مطلق للتصوف والفلسفة والرأي والطب والحساب⁽³²⁾. ويبقى رجال علم الحديث في مقدمة العلماء بالأندلس.

ومن خلال جدول المؤلفات الأندلسية، يتضح غلبة علم الحديث في مجال التأليف والكتابة على غرار العلوم الأخرى التي ارتبطت دوما بالشيوخ وانتقالهم في الاشتغال بالوظائف الحكومية⁽³³⁾. والجدول التالي يوضح لنا أعداد المؤلفات عند ابن شكوال حسب التخصصات العلمية:

جدول رقم (7): أعداد المؤلفات الأندلسية على ضوء ابن بشكوال.

تراجم ابن بشكوال							تاريخ الوفيات
	525هـ	500هـ	480هـ	460هـ	440هـ	420هـ	التخصصات العلمية
	545هـ	525هـ	500هـ	480هـ	460هـ	440هـ	
115	56	28	9	16	3	3	الحديث

186	70	51	17	19	15	14	الفقه
167	73	47	20	14	6	7	القرآن
11	4	3	2	/	2	/	التفسير
22	6	9	3	1	1	2	أصول الفقه
16	9	3	1	1	1	1	الرأي
161	57	46	15	16	19	8	الأدب
87	24	22	10	14	14	3	الشعر
124	41	30	18	17	11	7	اللغة والنحو
14	1	5	4	/	3	1	التاريخ والتراجم
22	4	8	1	2	3	4	علوم الطبيعة
36	9	9	4	3	8	3	الحساب والفرائض
17	7	3	4	1	1	1	علم الكلام
44	17	10	7	2	3	5	الزهد

التصوف	1	/	2	1	1	2	07
الفلسفة	/	/	/	/	1	1	02
المجموع							1031

نستشف من البيانات الواردة في الجدول أعلاه تصاعد أعداد المؤلفات الأندلسية من فترة لأخرى وهذا من خلال ما صورته لنا تراجم ابن بشكوال. نلاحظ سيطرت علوم الحديث في مجال التصنيف بـ 115، يليها الفقه وأصوله بـ 208، ثم علوم القرآن بـ 167. أما الدراسات اللغوية والنحو والأدب والشعر فأخذ حصة الأسد بـ 372. أخذت العلوم والرياضيات قسطا لا بأس به إذ قدرت بـ 58، في الوقت الذي سجلت فيه التراجم والتاريخ بـ 14 مؤلفا. أما مؤلفات الزهد وعلم الكلام فقدرت بـ 61، تليها مؤلفات التصوف والفلسفة بـ 9. وقد سجلت تراجم "الصلة" بيانات وفيرة بهذا الخصوص منها: محمد بن خلف بن سعيد ابن المراتب من أهل المرية، له تأليف في شرح البخاري⁽³⁴⁾. ومطرف بن عيسى الغساني، من أهل غرناطة ألف للخليفة الحكم بن عبد الرحمن "المعارف في أخبار كورة ألبيرة وأهلها"⁽³⁵⁾. ومحمد بن يحيى بن قاسم من أهل قرطبة، من تأليفه: "التعريف بمن ذكر في موطأ مالك بن أنس من النساء والرجال" و " الأنبياء على أسماء الله" والبشرى في تأويل الرؤيا" و "الخطب و سير الخطباء"⁽³⁶⁾، وعبد الرحمن بن عثمان بن سعيد الصديقي، من أهل طليطلة، من تأليفه: "المناسك" و "الأمراض"⁽³⁷⁾.

من خلال هذه النماذج يتضح أن علماء الأندلس ألفوا في كل العلوم الدينية والدنيوية، و مما ذكرتهم التراجم التخصص العلمي دون ذكر المصنفات بأسمائها، مثل محمد بن يوسف⁽³⁸⁾، كان مقدما في اللغة العربية، شاعرا محسنا، و له مقامات من تأليفه. تشير كثير من كتب البرامج والفهارس النقاش والتساؤلات حول الأصول الفكرية والثقافية لها،

كما تطرح أمامنا عالما نراه مختلفا، تراوحت فيه النشاطات بين مد وجزر وقوة وضعف وهبوط وارتفاع. توفي ابن بشكوال سنة 578هـ/1183م، لكن تراجمه البيوغرافية وصلت إلى غاية 564هـ/1169م، وتناقصت في السنوات الأخيرة من الكتاب، (عشرات بعد سنة 545هـ). لذلك تم الاعتماد على الفترة التي تتراوح ما بين 525-545هـ/1131-1150م، لكي نحصل على كثافة من العلماء تكون قابلة للتحليل، إذ اعتمدنا على تراجم 300 عالم من مجموع : 1544 من أعلام الأندلس و16 امرأة عالمة، دون الاهتمام بالتراجم الأخرى التي تقتضي بيانات أوفر للمترجم لهم.

لكن التراجم تظل محدودة نسبيا، وهذه الإجراءات المنهجية سادت في المجالين الزماني والمكاني للأندلس لأننا إذا وظفنا جميع التراجم الموجودة "بالصلة"، وفتحها سنكون أمام صعوبة منهجية، وبالتالى أمام بيبيوغرافيا أضخم. وعليه تم الصعود إلى مرحلة (525-545هـ/1131-1150م) لتأكيد التحليل البيبيوغرافي لعمليات الاتصال الثقافي والفكري بين العلماء.

نقل لنا ابن بشكوال بصورة واضحة عناصر دورة الاتصال الوثائقي والفكري في الأندلس، عبر كم هائل من مصادر معلوماتية متنوعة، وهذا من خلال حضور رجال العلم في كافة أرجاء الأندلس (الدراسة-التعليم-الإقامة-الرحلة)، وممارسة العلماء لمختلف أصناف المعرفة (فقه-حديث-قرآن-أدب-شعر-تصوف-زهد-حساب-فلك-علم الكلام-طب). وعلى الرغم من تجانس وتطابق المعلومات التي رصدتها الصلة ما بين 420 - 545هـ، وانطلاقا مما تقدمه كتب تراجم الأندلس وبالأخص كتاب الصلة في هذا الشأن، تطل صورة المغرب الإسلامي وهو على اتصال مستمر بما يجري في المشرق وما يروج في مجالسه العلمية من مؤلفات وقضايا ومناقشات، بل إنه بفضل رصد هذا الوجه من التأثير يبدو الأندلس وهو يساهم من جهته في العمل على ازدهار تلك الثقافات الوافدة عليه، فيؤلف بمحاذاتها ويناقش قضاياها ويقيم الشروح على أعمالها ومتونها.

لذلك كانت الترجمة في كتب طبقات الرجال في الأندلس لا تكتفي بمجرد عرض أحوال الرجال من المولد والوفاة وعرض الخبر وإنما ترصد نشاط الثقافة الأندلسية وتسير

اتجاهها، فتصمم على معرفة هذه الثقافة في وقت وفودها من المشرق، علما ورواية وتصنيفا، وكيف وفدت؟ وعلى يد من؟ وكيف كان استقبالها؟ وما ردود الفعل الجارية عليها في مجالس علماء الأندلس؟ وهي خصوصية فريدة في أعمال الترجمة في الأندلس، وبخاصة فيما تحمله لنا تراجم العلماء ممن لهم عناية بالعلم في قراءته أو إقراءه أو الرحلة إليه أو الرواية فيه، وهي الشروط التي تأسست عليها كتب الصلات الأندلسية باعتبارها أوفى التراجم وأهمها في تراث الأندلس.

الإحالات :

(¹) أبو القاسم، خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال بن يوسف بن داحة بن نصر بن عبد الكريم بن وافد الخزرجي الأنصاري، القرطبي، الأندلسي محدث، حافظ، مؤرخ، شاعر، مشارك في أنواع العلوم ولد بقرطبة في ذي الحجة من عام 494هـ/1101م، في بيئة علمية فكان جريا به وقد نشأ في جو تجذبه الحركة العلمية الأندلسية وأن تدفعه بعد السماع والرواية والتحصيل إلى التصنيف والتأليف. كان عالما بالفقه والأصول، متكلمًا متبحرا في علم الكلام. وفي غمرة نشاطه العلمي تولي ابن بشكوال القضاء في جهات إشبيلية فتنامت قدراته الثقافية بلقائه المزيد من رجال الحديث والفقه والقراءة والحديث، ثم اعتزل القضاء، وعكف على الاشتغال بالعلم رواية واستماعا وتعلما، عمر طويلا وتوفي في شهر رمضان سنة 578هـ/1183م بقرطبة. لابن بشكوال تصنيفات كثيرة في التاريخ والفقه والحديث والأخبار والتراجم، بلغت الخمسين مؤلفا، نذكر منها:

أ- كتاب الصلة وذيل لكتاب "تاريخ علماء الأندلس لأبي الوليد بن الفرضي. ب- كتاب المستغنين بالله تعالى عند المهمات والحاجات.

ج- كتاب رواة "الموطأ" لمالك أنس (ت: 179هـ/795م). د- كتاب تاريخ في أحوال الأندلس.

ينظر: ابن بشكوال، أبو القاسم خلف، الصلة في تاريخ علماء الأندلس (اعتناء وشرح: صلاح الدين الهواري)، ط1، بيروت: المكتبة العصرية، 1423هـ/2003م. 599ص.

(²) ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي، تاريخ علماء الأندلس (تحقيق: صلاح الدين الهواري)، ط1، بيروت: المكتبة العصرية، 1427هـ/2006م. 2ج.

(³) Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition,
Leiden, Brill, 1965, 2.T3.p.756.

(⁴) مثل أحمد بن محمد الأنصاري الواعظ، توفي بشرق الأندلس في نحو خمسمائة: ابن بشكوال: ترجمة: 159، ج 2، ص 75.

- (5) أحمد بن قاسم بن محمد بن أصبغ البياني، محدث، توفي سنة ثلاثين وأربعمئة، ابن بشكوال، ترجمة: 98، ج 1، ص 54.
- (6) الحسن بن حفص أبا علي، أندلسي، ابن بشكوال: ترجمة 309، ج 3، ص 125.
- (7) محمد، بن عبود، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، تطوان: المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1408هـ/1987م، ص 238.
- (8) محمد بن جهور، رئيس قرطبة توفي معتقلا بشلطيش من قبل المعتمد على الله سنة 462هـ، و مولده سنة 391هـ، ابن بشكوال، ترجمة: 1198، ج 9، ص 429.
- (9) ابن بشكوال: ترجمة: 71، ج 1، ص 46.
- (10) نفسه: ترجمة: 1388، ج 10، ص ص 487—488.
- (11) نفسه: ترجمة: 1460، ج 10، ص 511.
- (12) نفسه: ترجمة: 575، ج 5، ص 219.
- (13) نفسه: ترجمة: 313، ج 3، ص 313.
- (14) نفسه: ترجمة: 1206، ج 9، ص ص 432—431.
- (15) ابن بشكوال: ترجمة: 1333، ج 10، ص ص 473.
- (16) نفسه: ترجمة: 28، ج 1، ص ص 31.
- (17) نفسه: ترجمة: 468، ج 4، ص ص 180—181.
- (18) نفسه: ترجمة: 969، ج 7، ص 357.
- (19) نفسه: ترجمة: 866، ج 7، ص ص 322—323.
- (20) نفسه: ترجمة: 1281، ج 9، ص 453.
- (21) بدخول المرابطين بالأندلس تم القضاء على نحلة برغواطة. و يرجع إتصال برغواطة بالأندلس في عهد الخليفة الحكم المستنصر حيث وفد إليه رسول برغواطة أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن وازدين البرغواطي من قبل أمير برغواطة أبي منصور عيسى بن اليسع بن صالح بن طريف البرغواطي سنة 352هـ/963م، انظر: عبد العزيز، الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية (جمع و تحقيق: أحمد ميلاد و محمد إدريس)، تقديم و مراجعة: حمادي الساحلي، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1410هـ/1990، ص ص 146—152.
- (22) ابن بشكوال: ترجمة: 417، ج 3، ص 159.
- (23) يورد العالم الأندلسي أبو بكر بن عربي (ت: 543هـ/1148م)، اسم محمد ابن مسرة(ت: 319هـ/931م)، كمثال على "قوم من الضلال، كان يعتقد أنهم من الباطنية"، للمزيد راجع: أبو بكر بن عبد الله بن العربي، العواصم من القواصم

- (تحقيق : عمار طالب)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر، 1981، ج2، ص 493. وكان محمد ابن مسرة أحد ثمانية أندلسيين، اتهموا بالزندقة بين القرنين الثاني والخامس الهجريين/الثامن والحادي عشر الميلاديين، وجاء اتهامه بالزندقة لأنه نادى بآراء المعتزلة، ولم يقد إلى المحاكمة، و صدرت ضدهم مراسيم في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث (300-350هـ/912-961م)،، و حفلت بكلمات من نوع: بدعة، هوى، فتنة، زيف، ظلال، وإلحاد. ومع أنه تم إحراق كتبهم، إلا أنهم منحوا فرصة التوبة، التي لم تكن تتاح للمتهمين بالزندقة، انظر: سلمى الخضراء الجيوسي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 1249-1250.
- (24) ابن بشكوال: ترجمة: 815، ج 6، ص 306.
- (25) من المسلم به أن شيوخ الأندلس في الفقه والحديث تمتعوا بمكانة مرموقة في المجتمع الأندلسي، وبخاصة في عهدي الإمارة والخلافة الأموية، فكان بنو أمية يستشيرونهم في أمور الدين والدنيا، ومن أشهر هؤلاء الشيوخ: يحيى بن يحيى الليثي (ت: 234هـ/847م)، وبقي بن مخلد (ت: 276هـ/889م)، ومنذر بن سعيد البلوطي (ت: 355هـ/970م). للمزيد حول شيوخ الأندلس، راجع: حسين، مؤنس، شيوخ العصر في الأندلس، ط2، القاهرة: دار الرشد، 1417هـ/1997، ص ص 59-65.
- (26) ابن بشكوال: ترجمة: 1049، ج 8، ص ص 383-384.
- (27) ابن بشكوال: ترجمة: 595، ج 5، ص 228.
- (28) أعلن عبد الرحمن بن محمد نفسه خليفة في 316هـ/929م، وتلقب بالناصر لدين الله، وامتد عصر الخلافة في الأندلس قرناً كاملاً حتى سنة 422هـ/1031م. راجع: أبو العباس أحمد المراكشي، ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس (تحقيق ومراجعة: كولان وليفي بروفنسال)، ط2، بيروت: دار الثقافة، 1400هـ/1980م، ج 2، ص: 198.
- (29) عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ط7، بيروت: دار القلم، 1409هـ/1989م، ص: 372.
- (30) في أواخر عصر الولاة، وبداية عصر الإمارة بدأت القوات الإسبانية تجمع نفسها، فأقامت لها إمارات صغيرة في الشمال الإسباني مستغلة سوء الأحوال في الأندلس، فظهر المارك الأسباني، وقامت إمارة النافار، وإمارة ليون، فظهرت إمارات حدودية أندلسية مقابلة لهذه الإمارات الإسبانية، تسمى بالثغور الأندلسية، وهذه الثغور ثلاثة هي:
- 1- الثغر الأعلى:
- ويشمل في الجغرافية الأندلسية ولاية سرقسطة وأعمالها، وتعتبر سرقسطة قاعدة لهذا الثغر، ويواجه هذا الثغر إمارة النافار. وتضم المدن التالية: سرقسطة، وأشق، ولاردة، وطروشة، وتطيلة، البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك (تحقيق: عبد الرحمن الحجي) ط1، بيروت: دار الرشد، 1387هـ/1968، ص 61-62.
- 2- الثغر الأوسط:

يشمل ولاية طليطلة، وكانت قاعدته الأولى مدينة سالم ثم أصبحت مدينة طليطلة، ويواجه هذا الثغر إمارة ليون. وتشمل: طليطلة، و مجريط، ووادي الحجارة، و إقليش.

3- الثغر الأدنى:

ويشمل المنطقة الواقعة بين نهر دويرة ونهر التاجة، ومن أشهر مدن هذا الثغر مدينة قورية ومدينة قلمرية، وأصبح مدلول مصطلح الثغور في الجغرافية الأندلسية، يعني هذه الثغور الثلاثة، ومن سكانها يطلق عليه لقب ثغري. وتأتي أهمية هذه الثغور من كونها أصبحت المراكز المهمة التي تنطلق منها الجيوش الأندلسية لمجاهدة الإمارات الإسبانية التي ظهرت في الشمال والتي أخذت تسترجع المدن الأندلسية تباعا. للمزيد راجع:

- شكيب، أرسلان، العلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، القاهرة: 1936م، ج2، ص: 113.

- خليل إبراهيم، السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، بغداد: 1976م، ص ص: 39-40.

(31) GAUTHIER, Dalché, « Islam et chrétienté en Espagne au XII^e siècle, contribution à l'étude de la notion de frontière », in, Hesperis, 1959, pp.183-218.

(32) كل من اشتغل بالفلسفة واتبع آراء المعتزلة، يتهم في الأندلس بالزندقة، وكان محمد بن مسرة أحد ثمانية أندلسيين اتهموا بالزندقة ما بين القرنين (2 - 5هـ/8-11م).

للمزيد راجع: ابن سهل، ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس (تحقيق: محمد أحمد خلاف)، القاهرة، 1981م، ص ص: 38-52.

(33) Mones, H, « Le rôle des hommes de religion dans l'histoire de l'Espagne musulmane jusqu'à la fin du califat », In studia islamica, T.XX, 1964, p.63.

(34) ابن بشكوال، ترجمة: 1227، ج9، ص 436.

(35) نفسه، ترجمة: 1370، ج10، ص 482.

(36) نفسه، ترجمة: 1105، ج8، ص ص 398-400.

(37) نفسه، ترجمة: 686، ج5، ص 258.

(38) نفسه، ترجمة: 1294، ج9، ص 457.

معهود العرب في تلقي الخطاب القرآني

قراءة في تفسير الظلال لسيد قطب

Arabs confided to receive Quranic discourse

د. إسماعيل نقاز

باحث جامعة وهران-2

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/07

Abstract :

Going to talk a lot in these years about the interpretation and understanding of the mechanisms inspired both in thought or jurisprudence in the modernist Western thought and the Arabic version of it, and in front of these challenges, which opened its theories and doctrines about the mechanisms of interpretation and understanding of the receiving and theories.

Key Wold :

Interpretation- mechanisms- jurisprudence- the modernist

يتوجه الحديث كثيرا في هذه السنوات حول آليات التأويل والفهم للوحي سواء في الفكر الأصولي البياني أو في الفكر الحدائي الغربي والنسخة العربية منه، وأمام هذه التحديات التي فتحت نظرياتها ومذاهبها حول آليات التفسير ونظريات التلقي والفهم، يقف الفكر الأصولي والمقاصدي ليستحضر قوته وبنائه التليد في استعادة وإحياء المناهج العميقة في استنطاق النصوص وتأويلها، عبر محورية اللفظ/المعنى، الظاهر/الباطن، التعليل/التعبد، عرف اللغة/عرف الشارع، وغيرها من المسائل المحورية التي شكل البحث في أعماقها بنية معرفية ومنهجية متكاملة في قشيب تداولي يحكي متانة وصلابة لا يمكن اختراقها.

ولعل أهم ما انبرى إليه الأصوليون والمفسرون بحثا وتعميقا للفكرة في كيانه، هو الوعاء اللغوي العربي الذي يعتبر القناة التي ينتقل بواسطتها الفهم والتأويل، أو كما نص عليه الإمام الشاطبي بمفهوم معهود العرب/ معهود الأميين، والمقصود بذلك عادات العرب وأحوالهم في مخاطبتهم ودلالات العلاقات اللغوية في اجتماعهم وحياتهم.

فلا يمكن أبدا استناد البحث في الفهم والتأويل والاستنباط دون الاستعانة بالقناة الوحيدة في تنتقل من خلالها المعاني وتتجلى، فكان البحث في هذا الوعاء أمرا لا يقل ضرورة عن البحث في مقاصد الشارع الحكيم ومراميه التي تغيتها نصوصه.

يأتي معهود العرب في مخاطبتهم دليلا عميقا يبحث في فك الشفرة بين الألفاظ والبيئة التي ولد ووظف فيها، أو ما يسمى بالمواضع والاستعمال في علم الوضع. فالتبينة للنصوص واستنادها إلى معطياتها وبيئتها اللغوية سبيل أكيد في معرفة نصوص الوحي، فالقرآن المجيد نزل بلغة العرب ولا نعرف الوحي حق المعرفة إلا بمعرفة هذه اللغة كما نص على ذلك الإمام الشاطبي في غير ما موضع من موافقاته.

وفي هذا البحث ارتأينا أن نعيش فسحة تأويلية لسانية تجمعنا مع ظلال الإمام سيد قطب رحمه الله، لنستشف من هذه الظلال تجليات العرف اللغوي ومعهود العرب في استنطاق النصوص وتقريبها، فسيد قطب رحمه الله كان أديبا لغويا قبل أن يكون مفسرا، فلا شك أن نظرية معهود العرب في تفسيره الظلال أخذت موضعا واسعا وشاملا في معانقة النصوص وتذليل صعابها.

ينطلق البحث كاشفا عن مضامين هذه القاعدة الكبرى، وآليات توظيفها لدى سيد قطب رحمه الله في تجربته التفسيرية، لنرى كيف يجتمع المقصد اللغوي مع المقصد الروحي لاستجلاء المعنى من النص القرآني؛ فقد أعطى لمعهود العرب بعدا لا يقل أهمية عن البحث في مضامين مقاصد الشارع الحكيم، بل إنه رأى أن معرفة مقصد الشارع الحكيم لا تتجلى إلا باجتماع عرف اللغة ومعهود العرب في مخاطبتهم مع نظرة استقرائية ثاقبة للنصوص.

بعد ذلك ومن خلال هذه التداولية المزدوجة عرف اللغة/عرف الشارع، يمكننا أن نصل إلى المراد، وأن نصيب عين الحق الذي ينفي عنه كل تأويل من شأنه أن يقلب النصوص عن عاداتها وتركيباتها. يندرج بحثنا تحت المفردات الآتية:

– مفهوم معهود العرب في الحقلين الأصولي واللغوي.

– آليات توظيف معهود العرب في تأويل النصوص عند سيد قطب.

– مفهوم معهود العرب في الحقلين الأصولي واللغوي:

إن البحث في ايتيمولوجيا المصطلح ينطلق من المدونة الأولى لأصول الفقه عند الإمام الشافعي، في كتابه الرسالة، حيث يعتبر أول من أولى المسألة اهتماما عميقا؛ بل إنه جعلها من أساسيات التأويل والقراءة الحقة.

يتوجه الشافعي في بيان مفهوم معهود العرب، إلى تحليل معنى أن القرآن المجيد نزل بلسان عربي مبين، حيث ينطلق من مسلمة اللسان فيجعلها الأساس، ويستدل بذلك على عربية القرآن.

ينطلق الشافعي من هذا التأسيس بقوله: «وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، واجتماع معانيه، وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها» ⁽¹⁾. وهنا تتأكد معيارية اللسان العربي لدى عملية التأويل عند الشافعي ليبين عن مظانها، ويستدل على مواردها عندما يتوجه نحو بيان أعراف اللسان العربي ومسلمة التأويل التي تقتضيه.

يتوجه في إثبات المسلمة الأساسية في عربية القرآن المجيد على موارد النصوص القرآنية ذاتها التي تجيب وحدها: «فإن قال قائل ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب، ولا يخلطه فيه غيره؟ أجيب فالحجة في كتاب الله، وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه» ⁽²⁾. وسرد كثير من الآيات والنصوص التي تبين ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: " وكذلك جعلناه حكما عربيا" [الرعد 38]. وقوله عز وجل: " وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين" [الشعراء 192/195].

وكذلك يستدل بالآيات التي تنفي عن القرآن أي لسان أعجمي، قوله تعالى: "ولقد أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين" [النحل 103]. إن هذه المسألة التي استثارها الإمام الشافعي قديمة، لكن دفاعه عن عربية القرآن وخلوه من أي لسان أعجمي، جاء بناء على التحديات التي كانت تواجهها الساحة الثقافية في زمانه، وأهم مقصد يرجع إليه في إثبات عربية القرآن، هو عدم التلاعب بالنصوص وادعاء أن بعضها

الأعجمي لا يفهمه العرب⁽³⁾، وهذا ادعاء يضرب في عمق العملية التأويلية التي تعتمد أساسا على سَنَنِ اللسان بالدرجة الأولى. ولهذا وجدنا الإمام الباقلاني يناصر قول الشافعي وينافح عنه.

لكن هناك من توجه إلى أنه لا إشكال أن يكون في القرآن المجيد بعض الألفاظ، وهذا لا ينفي عن القرآن عربيته، بل رأى أن القول النافي عن وجود بعض الألفاظ الأعجمية لا دليل له، ويعد ابن عباس وعكرمة من القائلين بذلك، إضافة إلى الغزالي والشوكاني.

هناك مذهب ثالث تجاوز هذه المعركة بأنه وإن وجد هناك ألفاظ أعجمية إلا أن العرب عربتها وجعلتها ضمن اللسان العربي ومن هؤلاء ابن رشد الحفيد بقوله: «وبالجملة إن كان في لسان العرب شيء من غير ألفاظها فقد عربته تعريبا وغيرته تغييرا استوجب به اللفظ كونه من لغتها ومنسوبا إليها»⁽⁴⁾، وبهذا أخذ الإمام الشاطبي في موافقاته⁽⁵⁾.

بعد تجاوز هذه المسئلة من طرف المفكرين الفقهاء الذين أثروا المعاني التي أوقدها الإمام الشافعي وهو يؤسس لقواعد القراءة والتأويل.

يعود الشافعي بعد تأكيده على مسلمته إلى بيان حقيقة معهود العرب عن طريق عرض لأهم المظاهر والأشكال التي ترد عليها الألفاظ في مخاطبات العرب وعاداتهم اللغوية، فيجمل الحديث في تقاسيم ذلك بقوله: «فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها. وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأول هذا منه عن آخره. وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص،

فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه. وعاما يراد به الخاص. وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره. فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره.

وتبتدئ الشيء من كلامها يبين أول لفظها عن آخره، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله، وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون إيضاح باللفظ كما تعرف الإشارة، ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها، لانفراد أهل علمها به، دون أهل جهالتها.

وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة»⁽⁶⁾. إن هذا العرض الطويل أجمل فيه الشافعي أهم الموارد التي يرد فيها النص، ولا يمكن بأي حال أن نصرف دروب التأويل عن هذه العلاقات اللسانية.

يعود الإمام الشاطبي ليؤكد على ضرورة كلام العرب ومعهودهم، وقد اصطلح عليها بمعهود العرب، وأحيانا بمعهود الأميين، وعن ربط معهود العرب في مخاطباتهم بعملية التأويل يؤكد الإمام الشاطبي ذلك بقوله: «لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثم عرف، فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه»⁽⁷⁾.

ويرد الشاطبي أهم الظواهر اللغوية التي يتوفر عليها اللسان العربي بقوله: «أنه أنزلَ عَلَى لسان معهود العرب فِي أَلْفَظِهَا الْخَاصَّةِ وَأَسَالِيبِ مَعَانِيهَا، وَأَنَّهَا فِيمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنْ لِسَانِهَا تُخَاطَبُ بِالْعَامِّ يُرَادُّ بِهِ ظَاهِرُهُ، وَبِالْعَامِّ يُرَادُّ بِهِ الْعَامُّ فِي وَجْهِهِ وَالْخَاصُّ فِي وَجْهِهِ، وَبِالْعَامِّ يُرَادُّ بِهِ الْخَاصُّ، وَالظَّاهِرُ يُرَادُّ بِهِ غَيْرُ الظَّاهِرِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْ أَوَّلِ الْكَلَامِ أَوْ وَسْطِهِ أَوْ

آخِرِهِ، وَتَتَكَلَّمُ بِالْكَلَامِ يُنَبِّئُ أَوَّلُهُ عَنْ آخِرِهِ، أَوْ آخِرُهُ عَنْ أَوَّلِهِ، وَتَتَكَلَّمُ بِالشَّيْءِ يُعَرِّفُ بِالْمَعْنَى كَمَا يُعَرِّفُ بِالْإِشَارَةِ، وَتُسَمَّى الشَّيْءَ الْوَاحِدَ بِأَسْمَاءَ كَثِيرَةٍ، وَالْأَشْيَاءَ الْكَثِيرَةَ بِاسْمٍ وَاحِدٍ، وَكُلُّ هَذَا مَعْرُوفٌ عِنْدَهَا لَا تَرْتَابُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ هِيَ وَلَا مَنْ تَعَلَّقَ بِعِلْمِ كَلَامِهَا»⁽⁸⁾.

إن هذه المسلمة اللسانية القائمة على حدود التأويل، تقف سدا منيعا أمام التأويلات المختلفة التي تخرج عن حد ما تقصده الشارع الحكيم، وهذا يؤدي إلى فساد التفسير؛ حيث :
 «إن كثيرا من الناس يأخذون أدلة القرآن بحسب ما يعطيه العقل فيها، لا بحسب ما يفهم من طريق الوضع، وفي ذلك فساد كبير وخروج عن مقصود الشارع»⁽⁹⁾، فقد أدرج الشاطبي معهود العرب من ضمن مقاصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام، وبين أن اقتضاء الإفهام متعلق بوعاء اللغة الذي انسابت من خلاله المعاني.

ونجده يؤكد ذلك في بيان ازدواجية اللفظ/المعنى، وأن الألفاظ وعاء المعاني، وأن معهود العرب في مخاطباتهم تقصدت منه الفهم: «أَنْ يَكُونَ الْإِعْتِنَاءُ بِالْمَعَانِي الْمُبْتَوِّتَةِ فِي الْخُطَابِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ إِنَّمَا كَانَتْ عِنَايَتُهَا بِالْمَعَانِي، وَإِنَّمَا أَصْلَحَتْ الْأَلْفَافَ مِنْ أَجْلِهَا، وَهَذَا الْأَصْلُ مَعْلُومٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ، فَالْلَفْظُ إِنَّمَا هُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، وَالْمَعْنَى هُوَ الْمَقْصُودُ»⁽¹⁰⁾.

فقد تبين لنا مما ذكرنا أن مفهوم معهود العرب لا يخرج عن كونه مسلمة مقاصدية تقصدها الشارع الحكيم في وضع الشريعة للإفهام بلسان العرب، وهذا الأخير يعتبر دعامة أساسية من دعائم العملية التأويلية التي يسلكها المجتهد.

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن معهود العرب هو " اتباع سَنَنِ اللسان العربي،
وتقرير المعاني وفق تراكيبه وأساليبه التي سارت عليها عادات العرب في مخاطبتهم
ولغاتهم"

_ آليات توظيف معهود العرب

في تأويل النصوص وقراءتها عند سيد قطب.

تعتبر تجربة سيد قطب في تفسير القرآن المجيد رائدة ونوعية، حيث إن كتابه في ظلال
القرآن نحى به نحواً فريداً، يبتعد به عن مناحي التقليد، والكتابة المعهودة، فقد توجه إلى
النص القرآني بروح خفاقة من الروحانية، فاستجلى من مكنون كنوزه أنورا وشعاعات المعرفة
الحقيقية، فأرأينا مقاصد القرآن مسلسلّة عذبة في قشيب منيع ومهيع رائق يحكي بهجة وولعا
بمراودة الكتاب، فالذي يبدأ قراءة أجزاء منه يود أنه لا ينتهي عند حد. وهذه الميزة التي أعطت
للظلال روحاً يسري في النفوس، إنما تأتت من وراء زجالة اللغة والتحكم في أبجدياتها وجمالها،
فسيد قطب قبل أن يكون مفسراً فقد كان أديباً ذواقاً للسان العربي وتراكيبه.

إن نورانية الظلال تتجلى من رواء كل ذلك في الأسلوب الدعوي الروحي الخفاق الذي
يخاطب العقل والقلب، بعد أن يلفت عنانها إلى الواقع المعيش الذي تعيشه الأمة، فقد كان
تفسيره قناة حقيقية، وصفحة جليلة من خلالها نستهدي إلى هموم الأمة وأزماتها، ومن ثم السعي
نحو علاجها وتدارك أدوائها.

إن اللسان العربي عند سيد قطب في تفسيره كان الأساس الذي منه يتوجه نحو آي الذكر

الحكيم، مبينا ومفسرا؛ بل ومبحرا في أغوار هذا النص المجيد.

يمكن القول بأن طريقة سيد قطب في توظيف الوعاء اللغوي، قد أخذت شكلا عميقا في استجلاء الإعجاز اللغوي القرآني، ويتمثل ذلك في النظرات الذكية التي استطاع من خلالها استصحاب النظر القرآني الغني في التراكيب ومظاهر الاستدلال، وطرائق التعبير، قد كانت مفازة وسُلماً نحو تعميق النظر الحقيقي في الإعجاز اللغوي القرآني. فخلفية قطب اللغوية الغنية، إضافة إلى النص القرآني المعجز لغويا، أهلت قطب إلى أن يسبح بنا في تفسيره بطرائق أسلوبية واستدلالية وتعبيرية، استطاع من خلالها أن يخترق كل الحجب التي تحول دون الغوص في مقاصد الكتاب المجيد.

إن سيد قطب لا ينظر إلى اللغة نظرة جامدة سكونية، تتبارى فيها الألفاظ والتراكيب الجامدة، بل إنه يرى فيها كائنا ينبض بالحياة والمعاني الإنسانية الرقيقة. اللغة عند سيد قطب كائن مشاعري يخاطب الحياة في نبضها، ويحاكي الإنسانية في مشاعرها وأحاسيسها المعقدة، فلا غرو إذا وجدنا قطب يجعل من المعاني النفسية والاجتماعية مسرحا وتربة خصبة في ترجمة النص القرآني الذي ينبض بكل التراكيب الإنسانية والحياتية المعقدة فيسايرها، بل ويتجاوزها ليقوم فيها جسرا منيعا يبصرها بحقيقتها، وما ينبغي أن تكون عليه، كل ذلك عن طريق هذه الروح الخفاقة، إنها اللغة.

يحدثنا سيد قطب عن قيمة الأداء اللغوي في بيان الدلالة وروعته بقوله: «إنَّ الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن

مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأرق تعبير، وأجمله وأحياء أيضا ! مع التناقص العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو. ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا يجوز الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال. ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلا. لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال. ومن ثم يدركون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً. وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني.. هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات. وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها. بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كل مرة أصيلاً في الموضع الذي استشهد به فيه، وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال ولهذا الموضع ! وهي ظاهرة قرآنية لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها⁽¹¹⁾. إن هذا الملمح العميق لسيد قطب يوقفنا على أهم الآليات التي وظفها في بيان المعاني واستجلائها، وطريقة توظيف المعهود العربي أثناء التحليل والتأويل، وفي هذا الصدد نعرض لأهم هذه الآليات على سبيل المثال لا الحصر.

أهم ما يلفت إليه سيد قطب في توظيف المعالم الإعجازية الذوقية التي تخرج من كيان لغة العرب، النظرية التصويرية التي جعلها معياراً أساساً في جمالية القراءة والنظر الفسيح نحو مقاصد القرآن المجيد، ونحن هنا لا نخرج عن هذه الفسحة الإبداعية التي يعتبرها كثير من

الباحثين أن سيد قطب قد حاز قصب السبق في تذليلها وتوظيفها⁽¹²⁾، والحديث عن توظيف معهود العرب كثير لا يكاد يحصى عند سيد قطب، لكن سيكون حديثنا مقتصرًا على النظرية التصويرية التي استجدها من وحي الوعاء العربي الزاخر.

إن أهم ما استوفاه من بنية اللغة وعادة العرب في مخاطباتهم يتجلى في المعاني النفسية والحسية التي كان يضربها العربي مثلاً في بيان مراده ومقصوده خطابيه، وقد توسع القرآن المجيد في توظيف هذه المظاهر اللغوية العميقة في التعبير عن المقاصد والمراد من الخطاب في وسط يزخر باستصحاب المعاني الشعورية والحسية وغيرها، يلخص ذلك كله سيد قطب في نظرية ظاهرة جعلها أساساً في الفهم والقراءة ألا وهي "التصوير الفني".

يحدثنا سيد قطب عن هذا الملمح البديع في تقرير المعاني القرآنية وبيان مقاصدها وتقريبها بقوله: «التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية، ثم يرتقى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة، أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها كل عناصر التخيل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يُحيل المستمعين نظراً، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو سيقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أنه كلام يُتلى، ومثل يضرب،

ويتخيل أنه منظر يُعرض ، وحادث يقع ، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من المواقف المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة ، إنها الحياة هنا ، وليست حكاية الحياة»⁽¹³⁾.

لقد أيقن سيد قطب قيمة البنية اللغوية التي يستخدمها القرآن المجيد في التعبير عن المعاني وتقريب المقاصد وتقريرها، حيث جعل من بنية التصوير البلاغية بوصفها قيمة عربية عريقة في مخاطبات العرب وأغراضهم، لكن هذه الأغراض التصويرية التي أبدع القرآن المجيد في تصويرها تحتاج إلى أديب ألمعي ومفسر لغوي ذواقة للوعاء العربي حتى يمكنه الوقوف على الآليات التي وظفها الشارع الحكيم من أجل توضيح المقاصد وتقريبها، وفي هذه الجولة سنقدم بين يدي هذا البحث أمثلة ونماذج يستلهمها سيد قطب من آي الذكر الحكيم ثم يوظفها في قراءة النص القرآني بعد أن يصوغ الظاهرة التصويرية العربية صياغة تستجيب مع طموح النص القرآني والحقل التداولي العربي.

فمثلاً في "في ظلال القرآن" يطالعنا سيد قطب منذ السطور الأولى بتطبيق عملي لنظريته: «التي تتجلى في قيام الكلمة مقام الحظ واللون، إذ سرعان ما ترتسم الصور من خلال الكلمات ، ثم سرعان ما تنبض هذه الصور وكأنها تموج بالحياة»⁽¹⁴⁾.

وذلك في افتتاحية سورة البقرة عند رسم القرآن ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس ، نكتفي بمشهد من الصورة الثالثة ، وهي صورة النفس المعقدة المتلوية المضطربة الحائرة. صورة المنافقين:

” أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق .. ” الآيتان (15).

يقول: «إنه مشهد عجيب حافل بالحركة ، مشوب بالاضطراب فيه تيه وضلال ، وفيه هول ورعب ، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء .. صيب من السماء هائل غزير فيه ظلمات ورعد وبرق ، كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، أي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون ، وهم مفرعون يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت.

إن الحركة التي تغمر المشهد كله من الصيب الهائل إلى الظلمات والرعد والبرق إلى الحائرين المفرعين فيه إلى الخطوات المروعة الوجلة التي تقف عندما يخيم الظلام ، إن هذه الحركة في المشهد لترسم - عن طريق التأثير الإيجابي - حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون ، بين لقائهم للمؤمنين ، وعودتهم للشياطين ، بين ما يقولونه لحظة ، ثم ينكثون عنه فجأة ، بين ما يطلبونه من هدى ونور ، وما يفيئون إليه من ضلال وظلام ، فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ، ويجسم صورة شعورية ، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس» (16).

ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ” إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصير ” (17)، فالتعبير القرآني: «يعبر في صورة، ويصور في مشهد حي نابض بالحركة والحوار... إن القرآن يعالج نفوسا بشرية، ويهدف إلى استجاشة عناصر الخير والمروءة والعزة فيها، وإلى مطاردة عوامل الضعف والشح والحرص والثقل، لذلك يرسم هذا المشهد. إنه

يصور حقيقة ولكنه يستخدم هذه الحقيقة في موضعها أحسن استخدام في علاج النفس البشرية، ومشهد الاحتضار بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية، وتتحفز لتصور ما فيه. وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافا وتحفزا وحساسية»⁽¹⁸⁾.

ويقول في تفسيره لقوله تعالى في سورة الكهف: "قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا" ⁽¹⁹⁾، والبحر أوسع وأغزر ما يعرفه البشر، والبشر يكتبون بالمداد كل ما يكتبون، وكل ما يسجلون به علمهم الذي يعتقدون أنه غزير، فالسياق يعرض لهم البحر بسعته وغزارته في صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه فإذا البحر ينفذ وكلمات الله لا تنفذ، ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله ثم إذا البحر الآخر ينفذ كذلك وكلمات الله تنتظر المداد، وبهذا التصوير المحسوس والحركة المجسمة يقرب إلى التصور البشري المحدود معنى غير المحدود، ونسبة المحدود إليه مهما عظم واتسع. والمعنى الكلي المجرد يظل حائرا في التصور البشري، ومائعا حتى يتمثل في صورة محسوسة، ومهما أوتي العقل البشري من القدرة على التجريد فإنه يظل إلى حاجة إلى تمثيل المعنى المجرد في صور وأشكال وخصائص ونماذج، ذلك شأنه مع المعاني المجردة التي تمثل المحدود فكيف بغير المحدود؟ لذلك يضرب القرآن الأمثال للناس ويقرب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها في صور ومشاهد ومحسوسات ذات مقومات وخصائص وأشكال على مثال هذا المثال»⁽²⁰⁾.

إن الحديث عن توظيف المعهود العربي بأبعاده النفسية وتجلياته التصويرية يعد مسرعا وأرضا خصبة استطاع سيد قطب أن يقرب من خلالها النص القرآني، ولا يسع الحديث في سرد

مزيد من الرؤى التأويلية والقراءة للنص القرآني، لكن لا شك بأن المعهود البلاغي اللغوي والفطري، يعد شقا أساسا في توضيح المعاني، وإن لفت النظر نحو التصوير والتعبير الحسي والنفسي، يعتبرها قطب خصيصة لغوية عند العرب، لكن لم تعط لها أولوية النظر في القاموس البلاغي من لدن الزمخشري والباقلاني وغيرهم مع أنها في اعتقاد سيد قطب سلما أساسا ومعيارا نقيا في فهم مقاصد التنزيل وبيان المعطيات النفسية والاجتماعية والحسية التي يراعيها النص القرآني في تقرير معانيه.

لا شك أن منهج سيد قطب في تجربته التفسيرية يحتاج إلى مزيد بعد النظر وعمق الدلالة، كل ذلك من وراء العبقرية التي استجاب بها في تناول النص القرآني ومعايشة مقاصده ومرامييه. خاصة الوعاء اللغوي عند سيد قطب وعلاقته بالفهم والتأويل، وقد لفتنا النظر إلى أهم تجل من تجليات التوظيف الدلالي لنوازع اللغة النفسية والسياقية والاجتماعية والحسية في النص القرآني وتقريبها.

الإحالات:

(¹) محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحق أحمد شاكر، دار الفكر، ص40.

(²) المصدر نفسه، ص45.

(³) يحي رمضان، القراءة في الخطاب الأصولي، عالم الكتب/ الأردن، ط2007:1م، ص77.

(⁴) ابن رشد، الضروري في أصول الفقه، تحق جمال الدين العلوي، دار الغرب الإسلامي/لبنان، ط1994:1م، ص65.

(⁵) الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تح عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، 50/2.

(⁶) الرسالة، ص52/51.

(⁷) الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تح حسن مشهور، 131/2.

(⁸) المصدر نفسه، 2/103.

⁽⁹⁾ الموافقات، 1/39.⁽¹⁰⁾ المصدر نفسه، 138/2.⁽¹¹⁾ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق/ القاهرة، ط7: 17، 1412هـ، 3\1787.⁽¹²⁾ سيد كشميري في بحثه: عبقرى الإسلام سيد قطب: 356. ومن هؤلاء صبحي الصالح، وصالح الخالدي، وعلي أحمد

باكثير، ونجيب محفوظ.

⁽¹³⁾ سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق/ القاهرة، ط16: 2002م، 35/34.⁽¹⁴⁾ في ظلال القرآن : 37/1.⁽¹⁵⁾ البقرة: 29 – 30.⁽¹⁶⁾ في ظلال القرآن : 46/1.⁽¹⁷⁾ سورة النساء: 97.⁽¹⁸⁾ في ظلال القرآن: 744/2.⁽¹⁹⁾ سورة الكهف: 109.⁽²⁰⁾ في ظلال القرآن: 2296/4.

ملف الدراسات التاريخية والفكرية

العالم مصطفى بن زرفة الدحاوي ورحلته القمرية

Mustafa Bin Mustafa Ibn Zarfa Aldhaoui and The lunar voyage

د.درعي فاطمة

جامعة معسكر

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/07

Abstract :

Mascara is considered the capital of capitals of science and culture in the modern era, and a beacon for science and a popular destination for students from around the country of Morocco areas thanks to the revival of the culture in which the emergence of a significant number of esteemed scientists who enriched the cultural and scientific life in the camp, which managed so that occupy a cultural niche prominent especially during the Ottoman era, a private in the period when it was the capital of Beilek the West since the days of the Bey Mustafa Bouchlaghem, that took the cultural prestige due to the role of Bey Muhammad El -Kebir which is one of the most prominent Beys who have contributed to creating a dynamic culture within Algerian society, and who were interested in cultural production which has grown on his watch movement authoring Among the most prominent scholars who lived through the period of Bey Muhammad big world, "Mustafa Ibn Zarfah Aldhaoui " His trip.

Key Wold :

Mustafa Ibin Zarfah Aldhaoui -Bey Muhammad El Kebir - capital of science
The tri- Beil- Ottoman.

تعتبر معسكر حاضرة من حواضر العلم والثقافة في العصر الحديث ،ومنارة للعلم ومقصدا للطلاب من شتى مناطق بلاد المغرب بفضل إنتعاش الثقافة فيها لظهور عدد هام من العلماء الأجلاء الذين أثروا الحياة الثقافية والعلمية بمدينة معسكر ،فاستطاعت بذلك أن تتبوأ مكانة ثقافية بارزة خاصة خلال العهد العثماني خاصة في الفترة التي كانت فيها عاصمة من بايلك الغرب منذ عهد الباي مصطفى بوشلاغم ، إلى أن أخذت مكانتها الثقافية بفعل دور الباي محمد الكبير الذي يعتبر من أبرز البايات الذين ساهموا في خلق حركية ثقافية داخل المجتمع الجزائري ،ومن الذين اهتموا بالإنتاج الثقافي حيث نمت في عهده حركة التأليف ومن أبرز

العلماء الذين عايشوا فترة الباي محمد الكبير العالم " مصطفى بن زرفة الدحاوي " صاحب الرحلة القمرية وسنحاول في هذا المقال تسليط الضوء على هذه الشخصية التي كان لها دور هام في هذه الفترة ، وكذا التعريف بالعالم ونسبه ومولده وتعليمه ، وعلاقته بالباي محمد الكبير وكذا الحديث عن مؤلفاته ومن أبرزها "الرحلة القمرية في السيرة النبوية".

- التعريف بالعالم مصطفى بن زرفة الدحاوي:

هو مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن زرفة الدحاوي ، وهو حفيد العالم الجليل عبد الرحمن بن علي المعروف بدحو بن زرفة المتوفي سنة 1065هـ / 1654م ، حيث عرّفه المشرفي بقوله: " هو عبد الرحمن بن علي بن عثمان بن عيسى بن عثمان الراشدي ² ، وهو من كبار علماء الراشدية في عصره ، ووصفه بالشيخ العلامة وبالولي الكبير والقطب الشهير ³ ، وقد كانت له مكانة رفيعة عند الحكام في عهده ، ومن تلاميذه عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني مؤلف كتاب " عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشرف غريس " الذي قدّم تعريفا له بقوله: " ومنهم شيخنا عبد الرحمن بن علي بن عثمان بن عيسى بن عثمان بن عيسى بن عقيل ... تفقه عن الشيخ عبد القادر بن خدة ، وعن الشيخ أبي علي ، وعن محمد بن علي أبهلول ، وعنه أخذ الطريقة ⁴ .

عن نسب شيخنا مصطفى بن زرفة عرّفنا المختار بن الطيب الغريسي حيث قال : " هو من الأشراف الذين لا شك في شرفهم ولا خلاف أولاد سيدي دحو بن زرفة وهذه القبيلة من أصح القبائل نسبا و أوضحها حسبا وأشدها بأسا وأعظمها في القديم جاها وأكثرها تعاطيا لله للعلوم وأولاها بتحقيق المنطوق والمفهوم ولجدهم إحترام عند ملوك الأتراك ⁵ . ويضيف قائلا حول أصولهم : "أن سلفهم من الأندلس وهم من بني حمود الذين كانوا ملوكا بها ... لذلك لم يخرجوا عن طريقة أهل الاندلس من تعاطي الشعر والتأنق في الكلام وارتكاب أبواب الفصاحة ، وكانت الرياسة فيهم زمن ولاية الأتراك ⁶ .

عرّفه أستاذه العالم الجليل أبي راس الناصري قائلا: " كبير العلماء العاملين والجهابذة الفاضلين الذي لا يتحرك إلا بقلب حاضر ، ولسان ذاخر عظيم القدر رفيع الذكر ، العالم الأصفى والتقي الأصفى تلميذنا مصطفى بن عبد الله بن دحو أنجب من كل من حثوا في طلب العلم ولحوا جليل متفنن جميل عدل ماجد كاتب بارع ، ناظم ثائر ذو المعاني والإعراب والفنون والآداب والكرم والفضائل ، مع الحسب الأصيل والمعارف والتحصيل ، نشأ على عفاف وطهارة ، وحسن سننها وبشارة ، مجتنب المواضع الأريبة ، حتى توفي في حال الشبيبة"⁷. كما عرّفه بن عودة المزاري في كتاب طلوع سعد السعود قائلا: " من علماء الراشدية الأذكياء ، السادات الكرام الأصفياء العلامة الأجل والقُدوة الأجل مؤلف كتاب فتح وهران ، النقاد الراوي الخالي من سائر المساوي ، أحد شرفاء غريس الشريف الحسنني السيد مصطفى بن عبد الله الدحاوي "⁸.

- تعليمه:

كغيره من أبناء عصره ارتكز تعليمه في المرحلة الأولى على حفظ القرآن الكريم واهتم بالفقه والحديث والتوحيد ، ثم انتقل إلى معسكر أين درس على أستاذه أبي راس الناصري ، وأخذ عنه العلم ، ونبغ في علوم عصره العلوم الدينية ، كما اشتهر أيضا بنظم الشعر وله قصائد في أغراض مختلفة ، المدح ن الرثاء ، التقريض ، ويقول عنه أستاذه أبي راس : " له كتابات على أسئلة كبار كأنها من الدرر (إشارة إلى كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا بن يحيى) أو المعيار (إشارة إلى كتاب المعيار المعرب عن فتاوي إفريقية والمغرب لمؤلفه أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي) . وله في مدح رسول الله قصائد فيها من البلاغة عجائب وغرائب ... فهو خاتمة ذوي التحقيق والتدقيق يعجز عن أوصافه الحميدة كل نطيق ، من عقل وديانة وعفاف وكفاف وصيانة ، وله مناظرات مع العلماء الكبار ومراجعات الجهابذة الأخيار "⁹.

يبدو أن معاصريه أو على الأقل المقربين منه كانوا يقدّرون قصائده ،ولهذا لما شيّد محمد الكبير قبة البرج الأحمر بوهراڤ في عام 1207هـ/ 1793م كتب على صالة مركز جلوسه أبيات أنشدها مصطفى بن زرفة وهي من البسيط¹⁰ :

يا غافلا عن أمور زانها ذهب	ولونها لجين وتمرها رطيب
ونورها مضيء وجوها دائم	وصوتها منشد بالحسن مرتقب
أقصد إيواء أمير المؤمنين أبي	عثمان تلقى الخيرات كلها كوعب
به تشارك من نوى لمقصده	فهو منافع للورى فما أرهب
به اشتباك الزهر في صفحته حكى	فكيف بالعشائر المقيم صوحب
وحكى كيف الأهالي به ينفنون	وكيف يسلكون بكلهم مذهب
فعند ذا خاطبوني وابتسامي بدا	منه جواب عند سنوى يظل المنحب
كيف انساب الأمور اللواتي ارتبطت	برضى من يسر قدرا وينتصب
أهكذا عقال عصري قد التصقوا	بالذي نصر التقدير علاه رجب
أظهر به كيف الذي ترونقه	محبة الصديق عند الأهالي ركب
نجدهم باختلاف في الدعاء إلى	من واحد لواحد بالندا رتب
إلى كمال العطا من غير مبتخل	لأحد ولعطائه قد قرب

للعالم مصطفى بن زرفة الدحاوي العديد من مؤلفات منها كما جاء ذكره مؤلفه عن فتح وهران " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية " ،وله مؤلف آخر هو "الإكتفاء في حكم جوائز الأمراء والخلفاء " ، موضوعه صحة منح الأمراء والخلفاء أراضي للناس من أجل تعميرها، كما له كتابات على أسئلة كبار العلماء إضافة إلى قصائد في أغراض مختلفة كما سبق ذكره.

— علاقته بالباي محمد الكبير :

عايش مصطفى بن زرفة الباي محمد الكبير الذي كانت له العديد من الإنجازات التي كان لها الأثر الإيجابي على معسكر وكل بايلك الغرب ، حيث كان حريصا على الثقافة حيث قام ببناء دور العلم والمساجد كبنائه للجامع العتيق سنة 1761م والجامع الكبير بمعسكر والذي يقول فيه ابن سحنون لأنه من أعظم ما أنجزه الباي محمد الكبير ، ولم يبن أمير مثله إتقانا وحسنا بعد أن قام بشراء الأرض التي أقيمت عليه من أصحابها ، وكان حريصا على الإنفاق عليه من طيب الكسب ومن خالص ماله الحر¹¹ ، وقد رتب للمسجد خطيبا وإماما وأربعة مدرسين إيماننا منه بحاجة الناس غلى ذلك ، وإلى جانب المسجد الكبير بنى الباي محمد الكبير المدرسة المحمدية التي ألحقت بالجامع الأعظم وقد جهّزت بخزانة كتب كانت من الأحباس التي أوقفها الباي محمد الكبير على هذه المدرسة ، وقد عيّن للإشراف على تأطير طلبتها نخبة من كبار العلماء على رأسهم محمد بن عبد الله الجلالي ، ومصطفى بن زرفة الدحاوي ، والظاهر بن حواء، وضمت هذه المدرسة مكتبة تحوي أنفس الكتب ، والمخطوطات التي اشتراها من ماله الخاص ، حيث يقول ابن سحنون في ذلك : " ولمحبة هذا الأمير للعلم والأدب كان يشتري كتبه بالثمن البالغ ويستكثر منها ويستنسخ ما لم تسمح نفس مالكة ببيعه ، وكثيرا ما كان يأمر بقراستها في حضرته في مجلس حكمه"¹².

يظهر من خلال مؤلف الرحلة القمرية العلاقة الطيبة التي كانت تربط الباي بالعالم مصطفى بن زرفة سواء قبل الفتح أو بعده ، حيث كان من العلماء المقربين للباي فقد كان كاتبه الخاص ، وكان يستشيريه في العديد من المسائل خلال الفتح ، وكان هناك مراسلات بينهما ، وقد ذكر ذلك في رحلته القمرية بقوله انه كان يرسل الباي ويقترح عليه الحلول ويشير عليه بما يجب فعله¹³.

يذكر الشيخ ابن زرفة أنه كان يستفيد من مكتبة الباي أثناء تقييد تقييده لأحداث الفتح فيقول: " لما عزمت على الغنطلاق وعقدت لتقييد الرحلة ، حبل النطاق دخلت إلى مجلسه

الرحيب ، وتطلعت بأفياء غصنه الرطيب فكان من سابغ فضله أن زودني من خزائن كتبه ، عمرها الله تعالى بطول عمره ودوام منصبه ، ما أستظهر به على ما أنا بصده¹⁴ .

كان مصطفى بن زرفة من بين العلماء الذين أرسلهم البايع محمد الكبير إلى رباط "يفري" فقد أحيى هذا الأخير الرباط بعد المناوشات التي وقعت بين القبائل العربية والإسبان بضواحي وهران سنة 1786م وعندئذ قرر البايع حصار وهران الذي استمر لغاية سنة 1791م فجمع القبائل للرباط ضواحي وهران لغاية تحقيق الفتح ، ووصل به الأمر إلى منع التدريس بالمدن واقتصرت على الرابات فشكّلوا بهذا فرقة علمية عسكرية كما أعفى كل من يلتحق بالرباط من الضريبة ، وقد مهدّ الرباط للجيش النظامي غزو وهران.

وإلى جانب مصطفى بن زرفة نجد علماء آخرين التحقوا بالرباط منهم العالم الجليل الذي كلفه البايع برئاسة الرباط وهو محمد بن عبد الله الجاللي ، وكان معه القاضي الطاهر بن حواء الذي توفي وهو في الرباط أثناء إحدى الصدامات مع الإسبان ، وأيضاً العالم محمد بن علي أبو طالب المازوني الذي التحق رفقة 200 من طلابه وعمره يتجاوز 80 سنة ، وقد قصد وهران من معسكر ماشيا وكذلك الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي الذي ألف رسالة شهّر فيها بالتعاونين مع الإسبان سمّاها "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان بوهران من الأعراب كبني عامر" وغيرهم من العلماء ، وقد كان دور العلماء المرابطين التحريض على الجهاد وتعبئة الأهالي ضد الإسبان .

عند إنزال الطلبة بـ "يفري" أمر البايع محمد الكبير العالم مصطفى بن زرفة بتقييد الحوادث الواقعة فيما يتعلق بالجهاد وما يصل الطلبة من رزق وغيره ، فقيّد قليلاً ثم اشتغل عن التقييد إلى أن حصل الفتح¹⁵ .

كان الطلبة في رباط يفري منشغلين بقراءة القرآن والفقه والنحو لا يتركون إلا في أوقات القتال وحتى في الليل كانوا يبيتون يتلون القرآن العزيز فكانوا كما قيل في سلفهم الصالح رهبانا بالليل أسودا بالنهار¹⁶.

ذكر ابن سحنون حادثة تتعلق بالشيخ مصطفى بن زرفة وهي حادثة إبعاده من رباط يفري بسبب خلافه مع أحد أبناء عمه الذي أدى إلى انقسام الطلبة حزبين أحدهما معه والآخر مع مقابله وصار كل واحد منهما يشكو صاحبه إلى الامير ويدّعي عليه أنه يسعى في تشتيت الطلبة والتضريب بينهم فلما أكثروا عليه أمر أن يذهباً معاً إلى أهليهما ، فتدخل أخ بن زرفة إلى الطلبة وطلب منهم أن يطلبوا من الأمير إعادة الشيخ مصطفى بن زرفة فاستجاب الباي وأعاد مصطفى بن زرفة دون بن عمه إلى الرباط¹⁷.

لقد عمل بن زرفة على تدوين أو تقييد أحداث الفتح في كتاب ورد في بعض المصادر باسم فتح "وهران" وهو المعروف ب"الرحلة القمرية في السيرة المحمدية" والذي سيأتي الحديث عنه . بعد الفتح عين العالم بن زرفة قاضيا بوهران وظل في منصبه إلى أن توفي عام 1215هـ/ 1800-1801م من جراء الوباء وهو في عز الشباب.

إن العلاقة الجيدة التي تربطه بالباي محمد الكبير ظهرت من خلال قصائد المدح التي ألفها العالم مصطفى بن زرفة منها القصيدة القافية التي هي من بحر الطويل ، فريدة القصائد ونفسية الجواهر في غاية التشكيل¹⁸ والتي جاء فيها:

عراي أجشى سهاد مورك	ومن ذلك السهاد قلبي يخفق
ورق فؤاد من حلول صباة	وعم دواخل المزاج تعلق
أتاني هوى نجد وطيب نسميها	وصرت كسيف البال ذا تشوق
ورمت انضمامها نحوها برياضها	بها غرف سلسبيل مدفق
وأزهارها ترن فيها بلابل	بمختلف الأصوات يرى التعسف

وأفنانها ملمة لفواكه	الأكل غصن منها غض مورق
فما شئت من ذوق لذيق ومنظر	تنعم فيها العين ثم موفق
وأعظم شيء في اشتياقي لكامل	يلوذ بأنسه المعنى المشوق
له في المعاني المجد أرفع رتبة	وأوفر حظ هو بالمدح أليق
وإثبات ذهب في العلوم بأسرها	وزان ارتفاع القدر منه تحقق
بطلعته وهران ثم نعيمها	وطاب بها النوى وبان التعانق
وطاب فرع الأمن طيب أصله	فنبت الثرى من طيبه متخلق
وعذب لذيق الماء صاف مهذب	بعنصره افتدأه فهو مغدق
وكيف لا وهو ناش من اصل ذي العلا	رئيس بني عثمان ذلك المروثق
أمير بلاد الغرب من خضعت له	رقاب كانت بالزعم أولى وأسبق
وشد بأعباء الخلافة كأهلها	وفوقاً لثريا بنده لمخل
وألقى السلاح كيف قيل معاند	وجر ذيول الذل وهو موثق
ونادى لسان الحال يا معشر الملا	أيدنوا إلى السباق من ليس يسبق
وهل ينوي ذو لب حلول مراثب	بها حط الرحال مصدق
وإذا الكوكب الدري بان نساؤه	فأي سناء للجواهر يبرق
وإن دنا نور الشمس أو حان ضوءها	فلم يبق ضوء للمطالع يشرق
هنا وستر للأمير وضيغه	ورب عظيم العفو يمحو أو يرزق

– الرحلة القمرية:

يتميز العهد العثماني بخصائص سياسية واقتصادية وعسكرية وظواهر دينية وثقافية جعلت منه عهداً متميزاً عن غيره من فترات تاريخ الجزائر بطابعه ،ومن عاش في هذه الفترة من

علماء وأدباء وفقهاء ومؤرخين تأثروا بطبيعة العهد واصطبغ إنتاجهم بصبغة خاصة تجلّى من خلال بصمة العهد فيه .

يحتوي العهد العثماني في الجزائر على رصيد هام من الرحلات التي يصعب حتى تعدادها، ويعود ذلك إلى كثرتها وسكوت المصادر عن ذكر أسماء الكثير منها، كما أن العديد من الرحلات قد ضاعت ولم يعثر لها على أثر. إلا أن كتب التراجم والسير والتاريخ والأدب تركت لنا كثيرا من أسماء هؤلاء، ومن بين هذه الرحلات نجد " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية" التي ألفها مصطفى بن زرفة الدحاوي خلال تحرير وهران

هي رحلة ذات طابع رسمي فرضتها أوضاع أمنية مرتبطة بالإحتلال الإسباني لوهران ،فهي بذلك تؤرخ لأحداث تاريخية وتخلّد سيرة الباي محمد الكبير الذي يظهر من خلال الرحلة أنه حصل على إجماع حول عظمة شخصيته وقد ظهر ذلك جليا في كتابات معاصريه من العلماء أمثال أبي راس الناصري حيث قال عنه: " الباي الأسعد الأمجد الأوحّد عزيز النصر ،ونخبة العصر ،وريحانة الدهر ،السادل على الرعية الأمن والأمان ،الباي السيد محمد عثمان تحفه الله بالرضى والرضوان وألحقه مطاريف التكريم في الجنان" ¹⁹ .

كلّف الباي العالم مصطفى بن زرفة بجمع الحوادث عن فتح وهران وتسجيلها فجمعها في كتاب سماه "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية" الذي أنهاه سنة 1206هـ/1792م ،ويذكر ابن سحنون أن الباي ومن حبه للعلم وإحسانه للعلماء الأخيار أن الكثير من التآليف نشأت بأمره حيث أمر بعض الطلبة بجمع فتاوي العلماء ،ويضيف بن سحنون أن الباي أمره باختصار الأغاني فاختصره في نحو الثمانين كراسة فأثابني بمائة سلطاني ثم أمرني أيضا بجمع طب القاموس فضممته وزدت عليه من كلام الأطباء ما صار به تأليفا بديعا حسن الترتيب فأثابني عليه بخمسين سلطاني ،وقد كنت ألقت باسمه كتابا في الأدب سمّيته عقود المحاسن ²⁰ ،ويقول أيضا أنه عندما أنزل الباي الطلبة ب"يفري" أمر السيد مصطفى بن عبد الله وهو إذ ذاك معهم

بتقييد الحوادث الواقعة فيما يتعلق بالجهاد وما يصل الطلبة من رزق وغيره ، فقيّد قليلا ثم اشتغل عن التقييد إلى أن حصل الفتح فهو الآن يتلقى الأخبار من أفواه الرواة ويجمعها من الرسائل وغيرها ويضمها إلى ما قيّده حتى يصير المجموع إن شاء الله كتابا²¹.

يقول العالم بن زرفة في تعريفه لمؤلفه "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية " : " جعلت أمام المقصود مقدمة تشمل أربعة فصول وخاتمة .

عنون الفصل الأول بـ" الترغيب في الجهاد والترهيب لمن تغافل عنه من العباد"، ويظهر اعتماده على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والتي تبين مستوى ثقافة بن زرفة وما اكتسبه من علوم ومعارف والتي كانت في الأساس علوم دينية .

الفصل الرابع خصّصه للتعريف بمدينة وهران حيث يقول عنها: " هذه المدينة كتلمسان كثيرة الأحوال تلاعبت بها أيد الدهور فغيّرت الاحوال ولذلك لم تدم على حال"²²، كما عرفها بقوله: " وهران مدينة كبيرة بناها ملوك مغراوة سنة تسعين ومائتين بالمعنى، ثم ملكها في جملة أمصار المغرب الأوسط ملوك الشيعة لما استفحل ملكهم بالقيروان ثم ارجع ملكها بنو خزر ، ملوك مغراوة"²³.

وبعد تعريفه لمدينة وهران ، يبدأ شيخنا بن زرفة رحلة إسترجاع وهران وتحريرها في متن الرحلة فقال: " ففي يوم الإثنين أول يوم من شهر صفر المذكور جاءت البشارة لسيدنا الأمير المنصور بعون من بيده مقاليد الأمور بأن مدينة وهران قد زلزلت أركانها ودكت دورها وحيطانها ، وأن النصارى أخزاهم الله قد خيموا خلالها بأبراجهم في الفساطيط والخيام ، رعب مما حل بهم من وابل الإنتقام ، فركب أيده الله فيمن حضر من جيشه في الحين".

يؤكد بن زرفة في هذه الرحلة أنه اعتمد على ما شاهده بعينه على أرض الواقع وما حضره من أحداث بالإضافة إلى ما أخذه من كتب التاريخ والأخبار ، حيث قال في ذلك : " لما عزمت على الإنطلاق وعقدت لتقييد الرحلة حبل النطاق ، دخلت على مجلسه الرحيب

، وتظللت بأفياء غصنه الرطيب فكان من سابغ فضله أن زودني من خزائن كتبه ، عمرها الله تعالى بطول عمره ودوام منصبه ما أستظهر به على ما أنا بصده ، فكان كالدليل المعين على السفر بزاده ، والطبيب إلى أتحف المريض بجميل أيديه ²⁴ .

اعتمد بن زرفة على كتب التاريخ للإستشهاد بها خلال كتابته لمراحل الرحلة ، والتي كان يذكرها بعناوينها وأسماء مؤلفيها وهو ما أعطى مصداقية أكثر للرحلة القمرية . تتبع بن زرفة في رحلته تحركات الباي محمد الكبير وتعامله مع عسكره ، وكيفية تفكيره في خطته وتوزيع جيشه قصد ضمان هزيمة العدو ، حيث يقول في ذلك : "ثم أن سيدنا الأمير فرق عساكره ترهيبا للكفرة ... و بقي هو أيده الله في دائرته المنيفة ، وذوي خاصته الشريفة بالمحلة الكبرى ²⁵ .

لقد حاول بن زرفة من خلال الرحلة إظهار دوره فيها وإبراز علاقته القوية بالباي ، ويظهر ذلك من خلال الرسائل التي كان يرسلها إليه بقصد تبليغ أوامره وملاحظاته للمجاهدين من جنده ، أو رسائل الرد التي تأتيه منه ، والتي في بعض الأحيان كان يطلب من خلالها مشورته ، بل أن الأمر يتعدى ذلك أحيانا حيث نجد بن زرفة يتدبر الأمور ويراسل الباي ويقترح عليه الحلول ، ويشير عليه بما يجب فعله ، وفي نفس الوقت يبرز له العواقب ويقول في ذلك : "وقد كنت دبرت في عاقبة هذا الأمر وكاتبت سيدنا الأمير أمد الله بالعون والتيسير ما حوزته بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان الطلبة لا يستقيم أمرهم في تعيين الأخبية ، واخذ القمح وطحنه ، وحمله لهم من البادية فدبرهم على القوت فيها ، وما هذه الأمور عليك بعسيرة وإلا فتخاف . وينقض بذلك من المرابطين عهدهم ²⁶ .

يعتبر العالم مصطفى بن زرفة من العلماء البارزين في الجزائر خلال العهد العثماني الذين كان لهم دور بارز في إثراء الثقافة من خلال كتاباتهم في مختلف المجالات ، وقد ظهر شيخنا سواء من خلال مؤلفاته أو من خلال تقديم علماء آخرين له ووصفه بأفضل الصفات . قدّمت

الرحلة القمرية تطورات الفتح من خلال سرد للأحداث بشكل منظم باعتبارها رحلة رسمية اعتمدت على وثائق أصيلة منحتها صداقية أكبر. لا زلنا نهمل الكثير حول هذه الشخصية التي أتمنى أن يتم تسليط الضوء أكثر حولها من خلال الملتقيات والأيام الدراسية للتعريف بها أكثر.

الإحالات:

- 1 - الباي محمد الكبير :هو محمد بن عثمان الكبير ابن اسحاق الحاج عثمان ابن إبراهيم، تولى شؤون بايلك الغرب سنة 1192 هـ / 1779، اشتهر بأعماله الحربية ومآثره العمرانية وقد تم على يده استرجاع وهران للمرة الأخيرة من يد الإسبان سنة 1206هـ / 1791 م ،نقل مقر بيلك الغرب إليها وافته المنية ببلاد أصبيح سنة 1213 (هـ 1798 م/ انظر: أحمد بن عبد الرحمن الشقراي الراشدي، القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط، ص72- أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق و تقديم محمد بن عبد الكريم، ط1، القاهرة، عالم الكتب، (1969) ، ص ص 15- 19 .
- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي ، تقييد في النسب المشرفي ، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، تحت 2رقم 13959، ص8.
- 3- نفسه، ص5.
- عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني ،عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشرف غريس ،دار الخليل 4القاسمي، الجزائر ،2005، ص15.
- الطيب بن مختار الغريسي ، القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم ،تقدم بلهاشمي بن 5بكارة، ط1، المطبعة الخلدونية، ص330 .
- 6- نفسه.
- 7 - محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، حققه وضبطه وعلّق عليه، محمد بن عبد الكريم الجزائري، 1986، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص72.
- 8- الآغا بن عودة المزارعي، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى اواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة :يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، ص63.

- 9 - محمد أبو راس الجزائري، المصدر السابق، ص73.
- 10- الآغا بن عودة المزاري ، المصدر نفسه نص 295.
- 11- محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ،تحقيق وتقديم :المهدي البوعبدلي ،ج1، ط1 ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2013 ،ص132.
- 12- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص155
- 13 - ابن زرفة، الرحلة القمرية ، تحقيق مختار حساني، جامعة الجزائر مخبر المخطوطات ،دط،2003،ص385.
- 14- نفسه، ص 155.
- 15 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 155.
- 16- نفسه، ص 249.
- 17 - نفسه، ص ص 252-253.
- 18 - محمد بن يوسف الزياني ،دليل الخيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران،تحقيق وتقديم :المهدي البوعبدلي ،ط1،عالم المعرفة للنشر والتوزيع،2013 ، ص ص 47-48.
- 19- محمد أبو راس الجزائري ، المصدر السابق،ص75.
- 20 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 155.
- 21 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 155 .
- 22- ابن زرفة ، المصدر السابق،ص156.
- 23 - نفسه، ص 210.
- 24- ابن زرفة ، المصدر السابق،ص155-.
- 25- نفسه، ص 267.
- 26- نفسه ،ص385.

التأثيرات الأندلسية في بلاد المشرق من القرن 7هـ إلى 15هـ م

.Andalusian influences in the Levant of the 13th century to the 15th century

د.سي عبد القادر عمر

جامعة تلمسان

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/15

Abstract :

This Study addresses the influences Andalus in the Mashreq cities . Therelations between al-Andalus and the Mashriq were extremely close throughout the Islamic period. Al-Andalus was subject to the Islamic state in the east for a long period. This political dependency encouraged cultural and economic exchange. A result of this closeness was the reciprocal influence of the Mashreq and al-Andalus in the religious, scientific, artistic, and architectural spheres. At first the direction of intellectual influence was from east to west. In later periods al-Andalus reaped the benefits from the spread of Islam, the Arabic language, and various sciences including the religious disciplines by the conquerors. Nevertheless, al-Andalus soon exerted influence on the east after it experienced a major flowering of culture in the intellectual, artistic, and architectural spheres

Key Wold:

Arabic language- the Mashreq cities -Andalus-

كانت علاقة الأندلس بالمشرق الإسلامي وثيقة للغاية طوال العصر الإسلامي فقد ظلت الأندلس بعد الفتح الإسلامي تابعة لمركز الدولة الإسلامية في المشرق مدة زمنية طويلة ، هذه التبعية السياسية شجعت على التبادل الثقافي والاقتصادي ، ونتيجة لهذا التبعية السياسية فقد حدث تأثير متبادل بين بلاد المشرق الاسلامي والأندلس في جوانب حضارية متعددة ، كان ابرزها الجانب الديني و العلمي ، وقد كان التأثير في البداية لصالح المشرق الإسلامي ، حيث استفاد الأندلس من المشرق الاسلامي في فترات متقدمة من خلال دور الفاتحين في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية وشتى العلوم خاصة الدينية منها ، إلا أن الأندلس سرعان ما صار مؤثرا في المشرق بعدما حقق ازدهارا حضاريا كبيرا جدا في مختلف المجالات العلمية و المعمارية والفنية ، عندما حدثت هجرة عكسية بعد تدهور الأوضاع السياسية و سقوط معظم المدن الأندلسية .

لقد ساعدت عوامل كثيرة على التقارب بين الأندلس و المشرق الإسلامي من أبرزها الرحلة خاصة العلمية منها ، حيث كان المشرق الإسلامي أكثر جذبا للرحالة و العلماء من بلاد المغرب و الأندلس بحكم أنه كان يضم الأماكن المقدسة مكة المكرمة و المدينة المنورة و بيت المقدس ، و تأتي بعدها عواصم الأمصار الشهيرة مثل القاهرة و الإسكندرية و دمشق و بغداد و البصرة ، و إن كان الحج وزيارة الأماكن المقدسة هو المطلب الأول و الأساسي من الرحلة فإن طلب العلم و الإجازة يأتي في مركز الثاني بعد الفريضة ، وهكذا أصبحت الرحلة من العوامل الرئيسية للتواصل و التلاقح الحضاري فتعددت المجالات التي مسها التأثير ومنها :

أولا : في المجال الديني

1 انتشار المذاهب السنية

لقد تميزت الأوضاع الدينية في مصر والأندلس في هذه المرحلة بوحدة المذهب السني وانتشاره فقد عرفت الأندلس بعد الفتح الإسلامي انتشار مذهب الأوزاعي⁽¹⁾ الذي أدخله إلى الأندلس صعصعة بن سلام المتوفى سنة 192هـ/807م وهو فقيه أندلسي من أصحاب الأوزاعي⁽²⁾ أما في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل فقد انتشر المذهب المالكي في الأندلس وكان أول من أدخله هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المتوفى سنة 193هـ/760م⁽³⁾

إن انتقال المذهب المالكي إلى الأندلس يعود بالدرجة الأولى إلى رحلة الأندلسيين إلى الحجاز وعودتهم بأخبار عن مالك بن أنس وفضله وجلال قدره، هذه الأخبار جعلت الأندلسيين يميلون أكثر إلى هذا المذهب، ومن أبرز الذين رحلوا إلى الحجاز وأخذوا عن الإمام مالك، الغازي بن قيس وهو أول من أدخل "الموطأ" وقراءة نافع إلى الأندلس، ومنهم سعيد بن أبي هند من طليطلة رحل ولقي مالكا وسمع منه⁽⁴⁾

أما في عهد الدولة الموحدية فقد عرف المذهب المالكي تراجعاً حيث عمل الموحدون على تشجيع المذهب الظاهري الذي ينسب إلى ابن حزم الأندلسي⁽⁵⁾ والذي أسس مذهبه على

مبادئ أساسية أهمها الالتزام بالنص قرآنا وسنة ثابتة وإنكار القياس الشرعي ومعارضة الفرق الإسلامية،⁽⁶⁾ وبعد سقوط دولة الموحدين وقيام دولة بني نصر في الأندلس عاد المذهب المالكي للانتشار من خلال إقامة المؤسسات التعليمية واستقدام كبار فقهاء المالكية، وأصبحت كتب المالكية هي أساس التدريس مثل الموطأ والتلقين لعبد الوهاب البغدادي والعتيبة للعتبي،⁽⁷⁾ والمدونة للإمام سحنون والرسالة لأبي زيد القيرواني المتوفى سنة 386هـ/966م.

أما في مصر فقد سادت المذاهب السنية الأربعة منذ بداية عهد الدولة الأيوبية حيث عمل الأيوبيون على محاربة المذهب الشيعي الذي استمر في بعض المناطق رغم سقوط الدولة الفاطمية وذلك عن طريق إقامة العديد من المدارس التي اهتمت بتدريس المذاهب السنية، وفي عهد المماليك استمر سلاطينها في نفس السياسة المتمثلة في محاربة المذهب الشيعي فقد قام السلطان الظاهر بيبرس بإصدار مرسوم يحرم فيه كل المذاهب ما عدا المذاهب السنية الأربعة مع عدم قبول الشهادة ولا يتولى القضاء والخطابة أو التدريس إلا من كان على المذاهب السنية،⁽⁸⁾ وفي الوقت نفسه قام بتعيين أربعة قضاة للمذاهب الأربعة.⁽⁹⁾

نتيجة لهذا الاهتمام بالمذاهب السنية فقد انتشرت مجموعة من الكتب يتدارسها الطلبة في المدارس ومنها كتاب مجمع البحرين والجامع الكبير ومختار الفتوى لطلبة الحنفية،⁽¹⁰⁾ أما كتب المالكية فهي مختصر ابن الحاجب ومختصر خليل⁽¹¹⁾، وكتب الشافعية مثل الوجيز للغزالي والمحرر لرفاعي، والمسند للإمام الشافعي، والروضة لجمال الدين الأسنوي، أما كتب الحنابلة فأهمها النهاية الصغرى لابن رزين والمسند للإمام أحمد.

ونتيجة لهذه السياسة التي اتبعها الأيوبيون والمماليك في مصر أو تلك التي اتبعها أهل الأندلس فقد اختلفت باقي المذاهب خاصة الشيعي رغم بعض المحاولات سواء في الأندلس أو مصر لنشر أفكار التشيع، إلا أن هذه الأفكار لم تلق تأييدا أو رواجاً مما فسخ المجال أمام استحواذ المذاهب السنية هذه الوحدة المذهبية جعلت علماء الأندلس يرتحلون إلى مصر ويزاولون

وظائف عديدة منها بالدرجة الأولى قضاء المالكية، كما ساهمت هذه الوحدة في تمتين الروابط الثقافية والدينية بين البلدي

2 انتشار الطرق الصوفية:

لقد نشأ التصوف في القرن الأول الهجري وهو بمعنى الزهد والانصراف عن الدنيا ومتاعها والعناية بأمور الدين وغايتها الظفر برضوان الله تعالى، وكان الزهد هو النواة الأولى للتصوف في القرن الثاني للهجرة، ثم تطور بعد ذلك حتى وصل في القرن السابع إلى مفهوم اجتماعي بعد خروجه عن مفهومه الديني المحض، وقد استخدم المتصوفون المؤسسات الدينية من مساجد وزوايا لنشر دعوتهم

دخل التصوف إلى الأندلس عن طريق المهاجرين المشاركة أو عن طريق الحجاج والرحالة الأندلسيين، فبعد اطلاعهم على حركة التصوف في المشرق نقلوا بعض مصنفات التصوف إلى الأندلس، وقد ازدهرت حركة التصوف في الأندلس بعد ضعف دولة الموحدين وقيام دولة بني نصر حيث زاد اعتقاد الناس برجال التصوف فوجد هؤلاء الظروف المناسبة لنشر دعوتهم خاصة وأن السلاطين قربوا إليهم هؤلاء

المتصوفة وقاموا بتشييد الزوايا والربط وتحبيس الأموال والغلات عليها⁽¹²⁾ ومن أبرز الطرق الصوفية التي انتشرت في مصر .

- الطريقة القادرية: التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني،⁽¹³⁾ والذي اعتمد على

التصوف السني وقد تفرع عن هذه الطريقة طرق صوفية أخرى عديدة في المغرب والمشرق

- الطريقة الرفاعية: أسسها الشيخ أحمد بن أبي الحسن بن أبي العباس المعروف بابن

الرفاعي المتوفى سنة 578هـ/1191م بالعراق ثم أدخلت إلى مصر ولقيت رواجاً كبيراً خاصة في عهد المماليك⁽¹⁴⁾

- الطريقة الأحمدية: أسسها السيد أحمد البدوي المتوفى سنة 675هـ/1276م ارتحل

من المغرب واستقر بمصر وأسس طريقته⁽¹⁵⁾ .

- الطريقة الشاذلية: أسسها الشيخ أبي الحسن الشاذلي الذي تعود أصوله إلى المغرب،

رحل إلى مصر

واستقر بالإسكندرية وأسس طريقته، توفي سنة 656هـ/1258م، وقد عرفت هذه الطريقة رواجاً كبيراً في الأندلس حيث اعتنقها العديد من الفقهاء وقاموا بنشرها ومنهم أبو العباس المرسى أحد تلامذة أبي الحسن الشاذلي، وابن عباد الرندي صاحب كتاب غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية.⁽¹⁶⁾

إن انتشار التصوف بمصر ووجود كبار شيوخ التصوف جعل الكثير من الأندلسيين وخاصة رجال التصوف يفضلون زيارة مصر أو الاستقرار بها، ومن هؤلاء ابن سبعين من أهل مرسية وأبو الحسن الششتري صاحب كتاب المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية،⁽¹⁷⁾ ومنهم كذلك أبو الحسن علي بن أحمد الحراني الأندلسي من أعمال مرسية كان أعلم الناس بمذهب مالك من مؤلفاته اللب المغفل على فهم القرآن المنزل توفي في بلاد الشام سنة 637هـ/1235م، ومن رجال التصوف الذين رحلوا إلى المشرق وكان لهم آثار بارزة، الفقيه علي بن أحمد بن حديدة الأندلسي الذي أخذ التصوف عن علماء الأندلس ثم رحل إلى بجاية ومنها إلى المشرق وقد عمل على وعظ الناس وإقامة الزوايا في أماكن عديدة، توفي بببيت المقدس سنة 719هـ/1319م.⁽¹⁸⁾

لقد أثر هؤلاء تأثيراً كبيراً في المجتمع المصري من خلال ممارستهم للتدريس في الزوايا والربط فزادت فكرة الاعتقاد في المشايخ والأولياء، ولم تقتصر ظاهرة التبرك على العامة بل حتى السلاطين أيضاً، ومثال ذلك الظاهر برقوق الذي كان له اعتقاد كبير في طلحة المغربي حيث أقامه في قلعة الجبل، توفي سنة 694هـ/1294م، ودفن في الموضع الذي هو الآن تربة الملك الظاهر برقوق، أما السلطان الظاهر بيبرس فقد كان له اعتقاد في الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهراني حيث بنى له زاوية وحبس عليها أرضاً زراعية، أما السلطان الملك الناصر بن محمد بن

قلاوون فقد أنشأ خانقاه سرياقوس وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي وبني بجانبها مسجدا وحمّاما .

أما في الأندلس فقد ساد هذا الاعتقاد أيضا حيث كان السلطان محمد الأول بن الأحمر يتوجه إلى الصوفي ابن مروان الياجنسي في وادي آش ليطلب منه أن يعينه بدعواته خلال نزاعه مع النصراني⁽¹⁹⁾

ومما زاد في التقارب بين الأندلس والمشرق في مجال التصوف هو انتشار نفس الكتب الخاصة بالتصوف والتي تداولها الطلبة والمريدون في البلدين منها رسالة القشيري وكتاب إحياء علوم الدين للغزالي وكتاب الشفاء للقاضي عياض.

هذا الانتشار الواسع للتصوف في البلدين زاد من توثيق العلاقات الروحية والدينية حتى أن بعض المتصوفة الذين رحلوا من الأندلس إلى المشرق شاركوا وأتباعهم في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم كما هو حال الششتيري الذي حارب الصليبيين في حملة لويس التاسع سنة 647هـ/1249م.⁽²⁰⁾

إن التأثير الأندلسي والمغربي كان واضحا في الحركة الصوفية في المشرق خاصة وأن كبار مشايخ التصوف ترجع نشأتهم إلى الأصل الأندلسي أو المغربي.

إن انتشار التصوف من الأندلس إلى المشرق كان عن طريق الهجرة بالدرجة الأولى ويؤكد عدم قدرة الحدود السياسية على الوقوف في وجه الانتشار الثقافي بصفة عامة والتصوف بصفة خاصة.

ثانيا: التأثيرات العلمية

لقد مثلت التأثيرات العلمية أبرز مظاهر العلاقات الثقافية بين الأندلس وبلاد المشرق في عهد المماليك، وقد ظهر هذا التأثير في جوانب عديدة من خلال حركة العلماء الأندلسيين إلى مصر وبلاد الشام، حيث شارك العديد منهم في وظائف مختلفة فقلما نجد مجالا يخلو من الأندلسيين الذين ترك بعضهم أثرا علمية خالدة في عدد من العلوم ومن أبرز تلك المجالات.

1. في مجال التدريس

كانت مدينة القاهرة تشهد حركة تعليمية نشيطة مما دفع بالأندلسيين إلى الارتحال إليها للاستفادة من علمائها، و كان من أبرز المرتحلين العلماء والفقهاء الذين أفادوا الطلبة بعلمهم الغزير ومعرفتهم الواسعة لشتى العلوم، خاصة وأن الأندلس كانت قد شهدت نهضة علمية رائدة فأصبحت قرطبة وغرناطة مراكز علمية معروفة بعلمائها، ونظرا للعدد الكبير من الأندلسيين الذين اشتغلوا بالتدريس في بلاد المشرق نحاول الاقتصار على بعض النماذج ومنهم.

أبو عبد الله محمد بن سراقه الشاطبي، رحل في طلب العلم فزار بغداد وحلب وتولى مشيخة دار الحديث بحلب ومشيخة دار الحديث الكمالية بالقاهرة، توفي سنة 662هـ/1263م. ⁽²¹⁾.

أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله الاندلسي ارتحل إلى الاسكندرية وزار دمشق كان مفتيا تولى التدريس بالرباط الناصري كما درّس بالفاضلية بمصر وكان شيخا بالتربة الصالحية، توفي سنة 685هـ/1286م. ⁽²²⁾

الشاعر النحوي محمد بن عبد الله بن لب من أهل ألمرية رحل إلى المشرق واتخذ من القاهرة موطنًا له تولى التدريس بالمدرسة الصالحية بالقاهرة ونال مكانة خاصة بين أهل العلم والصالح حتى صار يُدعى بأبي عبد الله النحوي، توفي سنة 734هـ/1324م
فتح الدين بن سيد الناس الأندلسي الأصل رحل إلى مصر ودرس الحديث بالمدرسة الظاهرية، توفي بمصر سنة 734هـ/1333م ⁽²³⁾

كما استقطبت بلاد الشام عددا هائلا من الأندلسيين الذين اشتغلوا بالتدريس ومنهم: محمد بن عبد الله بن مالك الطائي أبو عبد الله صاحب التسهيل والألفية أخذ عن علماء الشام العربية والنحو فامتزجت لديه الثقافة الأندلسية بالمشرقية كان على المذهب المالكي بالأندلس ثم تحوّل إلى الشافعية ببلاد الشام تولى التدريس بالمدرسة العادلية بدمشق، توفي سنة 672هـ/1273م محمد بن سعيد بن محمد بن هشام بن الجنان الإمام العالم فخر الدين

الشاطبي النحوي رحل إلى مصر وأخذ عن علمائها ثم أقام بالشام وتحول إلى المذهب الحنفي وتولى التدريس بالمدرسة الإقبالية الحنفية بدمشق، توفي سنة 675هـ/1276م⁽²⁴⁾.

زكي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز الإشبيلي المالكي محدث زاهد سمع بمصر ودمشق وحلب أفتى ودرّس وتولى مشيخة دار الحديث الظاهرية بدمشق توفي سنة 687هـ/1288م.

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرج اللخمي الإشبيلي كان من كبار أئمة الحديث رحل إلى دمشق وتولى التدريس بالجامع الأموي وأخذ عنه خلق كثير، توفي سنة 699هـ/1299م.⁽²⁵⁾ كما تولى بعض الأندلسيين ببلاد المشرق الإمامة والخطبة ومنهم الفقيه محمد بن أحمد بن أبي الوليد بن أبي عمرو الذي هاجر إلى بلاد الشام واستقر بدمشق وتولى إمامة المالكية بالزاوية المالكية بالجامع الأموي، توفي سنة 747هـ/1342م

2. في مجال القضاء

لم يقتصر دور الأندلسيين على التدريس والإمامة بل تولّى البعض منهم منصب القضاء خاصة قضاة المالكية نظرا لان هؤلاء المهاجرين كانوا على المذهب المالكي المنتشر في بلاد الأندلس ومن هؤلاء عبد الرحمن بن خلدون والذي تولى منصب القضاء بمصر سنة 786هـ/1384م

أبو عبد الله محمد بن علي بن الأزرق الذي كان قاضيا للجماعة في كل من مالقة وغرناطة ثم رحل بعد سقوط هذه الأخيرة لطلب النجدة واستقر بمصر وتولى القضاء المالكي سنة 896هـ

إسماعيل بن محمد بن محمد بن علي بن هاني اللخمي الغرناطي، أخذ عن شيوخ غرناطة ثم ارتحل إلى المشرق وأخذ عن ابن حيان بالقاهرة ثم توجه إلى الشام وأقام بمدينة حماة وتولى القضاء المالكي بها، توفي سنة 771هـ/1369م.⁽²⁶⁾

محمد بن يحيى الأندلسي اللبسي، أخذ عن الحافظ بن حجر إمام علوم الفقه والنحو وأصول الدين تولى قضاء المالكية بحماة وتوفي ببرسا من بلاد الروم سنة 884هـ/1487م

شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن مهاجر الوادي آشي الحنفي سكن طرابلس الشام ثم رحل إلى حلب وأقام بها وتولى القضاء توفي سنة 739هـ/1340م.⁽²⁷⁾

3 - في مجال الطب :

لقد اهتم الأندلسيون بالعلوم العقلية اهتماما كبيرا وبرز منهم العديد من العلماء وخاصة في مجال الطب والصيدلة ، وقد هاجر الكثير من هؤلاء الأطباء إلى المشرق وساهموا بشكل كبير في ازدهار العلوم الطبية بل وصل بعضهم إلى رئاسة المستشفيات ومنهم من عمل كمعتمد عند السلاطين ومن هؤلاء الطبيب عبد المنعم الجلياني الذي خدم صلاح الدين الأيوبي لفترة زمنية طويلة ، ومن الأطباء الذين قدموا خدمة كبيرة للمجتمع المصري الطبيب ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن البيطار الذي كان أوحد زمانه في معرفة النبات ، و أبو تمام غالب بن علي بن محمد اللخمي الشقوري الذي عمل بالبيمارستان بالقاهرة ، وأبو العباس أحمد المعروف بابن الرومية من أهل إشبيلية أتقن علم النبات ومعرفة الأدوية خدم بمصر الملك العادل أبا بكر.⁽²⁸⁾

ومن الاطباء الرئيس أبو مروان موسى بن ميمون القرطبي اليهودي الذي أسلم في المغرب وحفظ القرآن ثم رحل إلى مصر وخدم الملك الناصر صلاح الدين وولده الملك الأفضل علي ، ومنهم الطبيب يوسف بن يحيى الذي تحول إلى تاجر طاف بالعراق والهند وفارس وجمع أموال طائلة خصصها لبناء مركز لتعليم الطب والمداواة.⁽²⁹⁾

إن دور الأندلسيين لم يقتصر على هذه الجوانب بل تعدت اهتماماتهم إلى مجالات أخرى كالجانب السياسي ومن الذين ساهموا في هذا المجال سلمان بن عبد الله بن يوسف الإيبيري ثم الحلبي الشافعي من أصدقاء ابن جابر وأبو جعفر الرعيني الغرناطي ، انظم في خدمة الوزير الجمال الاستادار والسلطان يلبغا الناصري ، ولما قبض على الوزير فر إلى اليمن وتوفي سنة 833هـ/1429م.

أما في الميدان العسكري فإن مساهمة الأندلسيين والمغاربة كانت كبيرة جدا ، فقد شارك العديد منهم في محاربة النصارى من خلال الحملات الصليبية وحملات المغول ، فقد شارك في جيش

صلاح الدين أكثر من ثلاثة آلاف رجل، أما في عهد المماليك فقد قاد حملة لفتح جزيرة قبرص في عهد الظاهر بيبرس قائد من أصول أندلسية وهو جمال الدين مكّي بن حسون وذلك سنة 669هـ/1270م⁽³⁰⁾،

إنّ التأثير الأندلسي في بلاد المشرق لم يقتصر على مصر وبلاد الشام بل تعدّاه إلى أقاليم أخرى إسلامية كانت تابعة للدولة المملوكية ومنها بالدرجة الأولى الحجاز خاصة مكّة المكرمة والمدينة المنورة باعتبارهما أماكن مقدسة، وكان الأندلسيون يقصدون هذه الأماكن للمجاورة ونعني بها البقاء بجوار الحرمين الشريفين وكان أغلب هؤلاء من العلماء والطلبة وقد مارس بعضهم وظيفة التدريس والإمامة ومنهم أبو جعفر بن الزبير والفخري التوزري الفقيه الذي ناظر علماء مصر والحجاز استوطن المدينة المنورة حتى وفاته سنة 715هـ/1315م.⁽³¹⁾

ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الشهير بابن غصن الإشبيلي الإمام الزاهد المقرئ العارف بمتون الحديث وأحكامه أقرأ القرآن بمكة والمدينة، توفي سنة 723هـ/1323م. ومنهم أبو بكر محمد بن يوسف ابن مسدي المتوفى سنة 677هـ/1274م رحل إلى الحجاز وتولى التدريس بمكة والمدينة وتخرج على يده عدد من الفقهاء منهم علي بن خليل المالكي، له كتاب "البشارة بثواب الحج والزيارة"

ومن الأندلسيين الذين درسوا بالمسجد الحرام أبو عبد الله محمد بن غالب بن يونس الحيناني المتوفى سنة 702هـ/1301م وأبو بكر محمد بن حجاج أبو مطرف الإشبيلي والذي كانت له حلقة بالمسجد الحرام توفي سنة 704هـ/1302م.⁽³²⁾

لقد ساهم علماء الأندلس في الحياة العلمية في بلاد الحجاز خاصة وأنهم كانوا يرتحلون شهورا عديدة قبل الحج من أجل المجاورة والحرص على أخذ العلم ومجالسة العلماء.

وصفة عامة فقد ضمت الهجرة الأندلسية إلى المشرق فئات مختلفة منهم العلماء والطلبة وحتى أصحاب الحرف والمهن وبالتالي فقد مارسوا وظائف مختلفة منها التدريس والقضاء والإمامة و

أثروا هؤلاء الأندلسيون وتأثروا بالطبيعة التي نزلوا بها فمنهم من تحول إلى المذهب الشافعي أو المذهب الحنفي المنتشرين بالشرق.

إن تولى الأندلسيين لهذه الوظائف ذات الأهمية كبيرة يدل على التسامح والتعاون والتعاطف الذي كان يتلقاه أهل الأندلس من اخوانهم في البلاد الإسلامية ، كما يدل أيضا على المكانة و المستوى العلمي الذي وصل اليه أهل الأندلس رغم الظروف السياسية الصعبة التي مر بها الأندلس و المتمثلة في التهديد الصليبي المستمر .

ثالثا: التأثيرات الفنية والمعمارية

1 :التأثيرات الفنية :

لقد شهدت بلاد الأندلس تطورا و ازدهارا كبيرا في المجالات فنية مختلفة ،قد انتشرت الموشحات و الأزجال وتعددت مجالس الغناء و الموسيقى .

فالموشح هو فن جديد نشأ في الأندلس تخلص من الأوزان الشعرية والقافية المعهودين ،وقد ظهر هذا النوع بعد اختلاط العرب بغيرهم من سكان الأندلس وتعرفهم على آدابهم وأغانيتهم الشعبية المتحررة من القوافي ، وقد انتشرت الموشحات بعد أن لقيت الاستحسان والقبول من أهل الاندلس ، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "وأما أهل الأندلس كلما كثر الشعر في قطرهم استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه الموشح"، هذا النوع الشعري رغم أنه أندلسي النشأة إلا أنه يحتوي على مؤثرات شرقية وغربية⁽³³⁾

لقد ظهر بالأندلس العديد من الوشاحين ساهموا في تطور هذا الفن وإخراجه من منطقته الضيقة إلى باقي بقاع العالم الاسلامي ، حيث انتقل إلى المشرق بعد بلوغه مرحلة النضج وذلك عن طريق المهاجرين الأندلسيين ، وقد كان القاضي ابن سناء الملك الانطلاقة الحقيقية لفن الموشحات في المشرق ومن نظمه:

حبيبي ارفع حجاب النور عن المدار

تنظر المسك على كافور في جلنار .⁽³⁴⁾

والشيخ صدر الدين محمد بن الوكيل ومن نظمه

بحرُ الهوى يُغرق من فيه جهدهُ عامٌ

وناره تُحْرِقُ من همَّ أو قد هامَ

وربما يُقْلَقُ فتى عليه نعام⁽³⁵⁾

التي في شعر الأندلسيين والعكس كذلك.

فقرات تسمى أبياتا ويمتاز بتكرار القافية في نهاية كل بيت ،⁽³⁶⁾

أوائل القرن التاسع الهجري في عهد السلطان برقوق و من نظمه في مدح الأشرف شعبان

ضم الأشرف قبر لبيت شعري هو لقنديل نور ضياه جامع

أو صدف فيه خالص الجوهر أو فلك فيه غاب قمر طالع⁽³⁷⁾

ومن الزجالين علاء الدين بن مقاتل الحموي وبدر الدين الزيتوني الذي شهد عهد قايتباي والغوري، توفي سنة 924هـ/1527م، ومنهم أحمد بن عثمان اللامشاطي الأديب شهاب الدين كان قيم الشام في وقته في الأرجال توفي سنة 725هـ/1426م.⁽³⁸⁾

أما في مجال الغناء والموسيقى فقد كان للمشاركة دور بارز في تطور الموسيقى في الأندلس وذلك بعد انتقال عدد من رجال الموسيقى والغناء إلى الأندلس بعد الفتح الإسلامي وكان من أبرزهم "زرياب" الذي حل بالأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط حيث ساهم بشكل كبير في تطور الموسيقى خاصة بعد أن أسس مدرسة لتعليم الغناء ومعالجة الأصوات،⁽³⁹⁾

ومع التطور الحضاري الذي شهدته الأندلس وخاصة في مجال الفن والموسيقى وبعد أن هاجر العديد من الأندلسيين إلى بلاد المشرق فإن التأثير الأندلسي انتقل أيضا إلى المشرق خاصة وأن بين هؤلاء المهاجرين عددا من أهل الفن والموسيقى، ورغم أنهم لم يتخذوا من الموسيقى مصدرا للرزق إلا أنهم ساهموا في تطورها في البلاد التي حلوا بها ومن هؤلاء الطبيب الأندلسي أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الحكيم والأديب من أهل ألمرية رحل إلى المشرق وإلى جانب مهنته الطبية كان يعزف الموسيقى ويضرب على آلة العود، ومنهم أبو زكرياء يحيى بن إسماعيل البياسي رحل إلى المشرق وسكن دمشق كان عارفا بالموسيقى وتمكن من صنع آلة تسمى الأرغن كما اشتغل بتدريس علم الموسيقى.⁽⁴⁰⁾

إن بعد المسافة بين الأندلس وبلاد المشرق لم يمنع من وصول التأثير الأندلسي خاصة في مجال الموسيقى الأندلسية هذا النوع انتشر في مناطق الحوض البحر المتوسط بما فيها بلاد المشرق الاسلامي والذي أخذ صبغة عالمية.

2. التأثيرات المعمارية

لقد تميزت العمارة في الأندلس وبلاد المشرق بالتطور والازدهار وذلك بفضل حركة البناء والتشييد في المجالات المختلفة كالقصور والمساجد والمدارس والقباب والأترية وغيرها، حيث كان السلاطين يتنافسون في تخليد أسمائهم من خلال تلك المؤسسات وقد بدأ التأثير الأندلسي يتدفق على المشرق وخاصة مصر منذ بداية الهجرة الأندلسية، فقد تحول ميناء الإسكندرية إلى محطة رئيسية للسفن القادمة من الأندلس بعد استيلاء النصارى على بعض المدن الأندلسية.

وقد انتقلت خصوصيات العمارة الأندلسية إلى المشرق عن طريق هؤلاء المهاجرين الذين كان هدفهم الزيادة في العلم أو زيارة الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج، أو الفرار بدينهم بعد سيطرة النصارى على مدنها، كما كان للتجار الأندلسيين أيضا دور في نقل تلك الخصوصيات الأندلسية إلى بلاد المشرق الإسلامي من خلال رحلاتهم التجارية المتكررة.⁽⁴¹⁾

وقد زادت التأثيرات الأندلسية في عهد المماليك بعد أن نشطت حركة الهجرة و التي ضمت عددا من الحرفيين والمهندسين والفنانين، ونظرا لاهتمام سلاطين المماليك بالعمارة فقد استخدموا هؤلاء المهاجرين في البناء والزخرفة والصناعات المختلفة مما ساعد على انتقال الخصوصيات المعمارية الأندلسية خاصة في مجال الزخرفة، ومن أهم التأثيرات الأندلسية في العمارة المملوكية العقود المنفوخة المتجاورة والعقود التوأمية في الواجهات والمآذن الموجودة في قبة فاطمة خاتون وضريح المنصور قلاوون وفي جامع جاي اليوسفي.⁽⁴²⁾

كما تظهر التأثيرات أيضا في القباب التي تظهر في جامع ابن طولون وكأنها منقولة من قرطبة و تظهر أكثر في الترميمات التي أجريت على هذا المسجد في العهد المملوكي خاصة المئذنة وهي نفس الطابع للعقود القرطبية.⁽⁴³⁾

ومن مظاهر هذا التأثير مئذنة مدرسة المنصور قلاوون التي تحتوي على بعض العقود المتجاورة وهي شبيهة بتلك الموجودة في مئذنة جامع إشبيلية وفي بعض مآذن الموحدين⁽⁴⁴⁾، ومن التأثيرات الأندلسية في المساجد المملوكية نوع من القباب قسمت القبة إلى تقاسيم هندسية متعددة تشعبت خطوطها من كل ركن من أركان القبة وهذا الشكل يظهر في قباب قرطبة وسرقسطة

وطليطلة.⁽⁴⁵⁾ كما تظهر الزخارف الجصية الأندلسية في مئذنة الناصر محمد بن قلاوون وضريح الأميرين سلالر سنجر الجاولي. إن التشابه المعماري يبرز تلك التأثيرات الأندلسية التي وصلت الى بلاد المشرق عن طريق المهاجرين الذين وظفوا مهارتهم الفنية في بناء المساجد والمدارس والقباب وتركوا فيها بصماتهم الفنية الأندلسية والتي تمثل مظهرا من مظاهر ذلك الترابط الثقافي بين المغرب والمشرق الاسلاميين.

ومن خلال هذه الدراسة للتأثيرات الأندلسية في بلاد المشرق يتضح لنا أن حركة التواصل كانت مستمرة ولم تقتصر على فترة زمنية معينة، إنما أصبحت ظاهرة متميزة لعلماء الأندلس في زيارة بلاد المشرق حيث استقر بعضهم يمارسون وظائف وحرفا بينما عاد البعض الآخر الى بلادهم. إن هؤلاء المهاجرين وخاصة العلماء ساهموا في إثراء الحياة الفكرية في البلاد التي رحلوا إليها من خلال تقلدهم وظائف مختلفة في التدريس والقضاء والإمامة غيرها.

ومن جهة أخرى فقد ساهم بعض الحرفيين في نقل بعض المهارات والمميزات الأندلسية في المجال الفني والمعماري الى بلاد المشرق وبالتالي فإن التأثير الأندلسي كان واضحا في جميع المناطق التي حلوا بها الاندلسيين فقد أثروا وتأثروا.

الإحالات:

¹ - الأوزاعي: هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي، إمام أهل الشام ولد سنة 88هـ/707م بضواحي دمشق ورحل إلى اليمن والحجاز والعراق، توفي سنة 157هـ، ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، ج18، تح أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، ط1 دار إحياء التراث العربي بيروت 2000م، ص 123- ابن العماد الحنبل، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، ج2، دار ابن كثير بيروت 1986م ص 156 - عبد العزيز سيد الأهل، الأوزاعي فقيه أهل الشام، دار التحرير، القاهرة 1966 م، ص 28.

² - الحميدي أبو عبد الله، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، تح: صلاح الهواري، المكتبة المصرية، بيروت 2004 م، ص 236..

³ - المقرئ أبو العباس، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، تح احسان عباس، دار صادر بيروت، ص 60- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج4 مطابع فضالة المحمدية، المغرب 1986م ص 55.

4. أحمد بكير محمود، المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب، دار قتيبة، بيروت 1990 م ، ص32-حوالف عكاشة، جهود فقهاء المالكية بالأندلس إلى نهاية القرن الرابع هجري، أطروحة الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران 2007، ص .
- 5 - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم فارسي النسب ولد بقرطبة سنة 384هـ/914م صاحب المصنفات العديدة توفي مشردا في بلده سنة 456هـ/1064م ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 565- ابن العماد، شذرات، ج5، ص239- عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي، زهرة الإعلام العربي، القاهرة 1988 م ، ص
- 6- جودت هلال ومحمد صبح، قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة المغربية للكتاب 1988 م ، ص 99.
- 7- العتيبي: محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عتيبة، فقيه ومحدث له عدة كتب في الفقه توفي سنة 255هـ، ينظر: المقرئزي تقي الدين ، المقفى الكبير، ج5، تح محمد العلاوي ، ط1 دار الغرب الاسلامي بيروت 1991 م ، ص206- الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص30- الحميدي، جذوة المقتبس، ص46
- 8- المقرئزي، المواظ و الاعتبار في الخط و الآثار ، ج2، تح محمد زينهم و مديحة الشرقاوي ، مكتبة مدبولي القاهرة 1998 م ص344- سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمالكي في مصر و الشام ، دار النهضة العربية القاهرة 1966 م ، ص319
- 9- القلقشندي ابو العباس ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج4، المطبعة الاميرية القاهرة 1913 م ص 36
10. المقرئزي، الخطط، المصدر السابق ج2، ص312
- 11- أُلّفه الشيخ خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المالكي المصري، وهو مصنف في الفقه المالكي استغرق في تأليفه 25 سنة، ينظر: ابن مريم أبو عبد الله ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، تح محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعلبية الجزائر 1907م ص56.
- 12- سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 321
- 13- ابن كثير ابو الفداء ، البداية والنهاية، ج12، دار التقوى ص 268- ابن العماد، شذرات، ج4، ص198- عبد الكبير الفاسي، تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996 م ، ص131032.
- 14- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة ، ط1 تح محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت 1992 م ، ج6، ص 92
- 15- ابن تغري بردي، النجوم، المصدر السابق ج7، ص252- ابن العماد، شذرات، المصدر السابق ج7، ص602- أحمد عيس، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت 1981م ، ص04.
- 16- هو كتاب شرح فيه حكم ابن عطاء الله السكندري والتي أُلّفها تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري المتوفى سنة 709هـ/1309م تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسى، ينظر ابن العماد ، شذرات ، المصدر السابق ج8 ص 36- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج1، دار الجبل بيروت (دت) ص 273.

17. - الغبريني لأبو العباس ، عنوان الدراية فمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تح ابن أبي شنب ط 1 دار البصائر الجزائر ، 2007 م ، ص 110-المقري، نفع الطيب، المصدر السابق ج2، ص185
18. -ابن حجر، الدرر الكامنة، المصدر السابق ، ج3، ص 12.
19. - أحمد الطوخي، مظاهر الحضارة في عصر بني الأحمر ، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية 1997 م ، ص 344.
20. - ابن الخطيب، اللحة البدرية في الدولة النصرية ، تح محي الدين الخطيب ، المطبعة السلفية القاهرة ، ص97- أحمد الطوخي، المرجع السابق، ص 310.
21. - المقري، نفع الطيب، المصدر السابق ج2، ص 63- الصفدي، الوافي بالوفيات، ج1، ص 167- ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص 533
22. - المقرئزي، المقفى الكبير تح محمد العلاوي ، دار الغرب الاسلامي بيروت 1991 م ، ج5، ص 268- ابن القاضي المكناسي، درة الحجال في اسماء الرجال ، ج2 تح محمد الأحمدى ، ط1 دار التراث القاهرة 1970 م ، ص244
23. -جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة ، ج1تح محمد ابو الفضل دار إحياء الكتب العربية 1968 م ، ص 358- ابن العماد، شذرات، ج8، ص 189.
24. - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج1، ص 145 - المقرئزي، المقفى الكبير، ج5، ص 675.
25. - ابن جابر، برنامج الوادي آشي، تح محمد الحبيب الهيلة تونس 1981 م ص 116- المقري، نفع الطيب، ج2، ص 528- المقرئزي، المقفى الكبير، ج1، ص 561،
26. - ابن حجر، الدرر الكامنة، المصدر السابق ج1، ص380- أحمد الطوخي، المرجع السابق، ص 231.
27. - ابن حجر، الدرر الكامنة، المصدر السابق ج1، ص 182- الصفدي، الوافي بالوفيات، المصدر السابق ج7، ص 91
28. - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الاطباء ، تح نزار رضا ، دار مكتبة الحياة بيروت (دت)، ص588- المقري، نفع الطيب، ج2، ص596.
29. - أحمد الطوخي، المرجع السابق، ص 310.
30. - أحمد مختار العبادي، دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ندوة الحضارة الإسلامية 1976 م ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2000 م ، ص90
31. - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص 96.
32. - حسن الوركالي، شيوخ العلم وكتب الدرس بسبته ، منشورات جمعية البحث الاسلامي ، تطوان المغرب 1984 ، ص 100.
33. -عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، في الاندلس ،ج1 مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ، ص184- حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ط1 المطبعة البوليسية لبنان 1990 م ، ص 215.
34. - ابن خلدون عبد الرحمان ، المقدمة ، دار الفكر للطباعة و النشر بيروت 2001 م ص825

35. -المقري، نفح الطيب، المصدر السابق ج1، ص 632،- عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ط1 مكتبة العباسية، دمشق، 1972 م ص 539
36. -عبد العزيز سالم، قرطبة، المرجع السابق، ص 187.
37. -محمود رزق سليم، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، دار الكتاب العربي مصر 1957م، ص 89.
38. - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص 201
39. -المقري، نفح الطيب، ج3، ص122.
40. -علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، دار طلاس للدراسات والترجمة دمشق 1989م ص 253
41. -محمد الغوثي بن سنوسي، الأصول العميقة لمعايير التناسق في العمارة الدينية الإسلامية بالمغرب العربي، أطروحة دكتوراه، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان 2000 م، ص277
42. -عبد العزيز سالم، قرطبة، ج2، المرجع السابق، ص 63 .
43. -حر عبد العزيز سالم، بحوث مغربية ومشرقية في التاريخ والحضارة الإسلامية، ط1 مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية 1997 م، ص 201.
44. - سحر عبد العزيز سالم، نفسه، ص202.
45. - عبد العزيز سالم، قرطبة، ج2 المرجع السابق، ص64.

ملاحظات حول كتاب أبو القاسم سعد الله*

بحوث في التاريخ العربي الإسلامي

Notes on the Book of Abu al-Qasim Saadallah Research in the Arab-Islamic history

أ.د. حنفي هلايلي

جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/03

Abstrat

Notes on the Book of Abu al-Qasim Saadallah Research in the Arab-Islamic history
Book Abu al-Qasim Saad Allah book ambition, aspired owner to achieve accumulation on two levels: at the level of his expertise as a historian accumulate historical knowledge for decades, and at the level of historical time chosen field of history and research, a long time without his studies on several Jyotarueh and demographic levels, economic and social The cultural and political heritage, can not absorb and understand the stages and its stations and transformations.

Saadallah offers in his book is rich in a series of statements and themes that focused on the Arab-Islamic history in two contrasting historical periods are the mediator and talk.

key words:

Abu al-Qasim Saadallah- Research in the Arab-Islamic history- Historical research methods- Communication-

كتاب أبو القاسم سعد الله كتاب طموح، طمح صاحبه إلى تحقيق تراكم على مستويين: على مستوى خبراته كمؤرخ يراكم معرفة تاريخية منذ عقود، وعلى مستوى الزمن التاريخي الذي اختاره حقلا للتأريخ والبحث، وهو الزمن الطويل الذي من دون دراسته على عدة مستويات جيوناريخية وديمغرافية واقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية وتراثية، لا يمكن استيعاب وفهم مراحله ومحطاته وتحولاته.

يقدم سعد الله في كتابه سلسلة غنية من البيانات والمواضيع التي اهتمت بالتاريخ العربي الإسلامي في فترتين تاريخيتين متباينتين هما الوسيط والحديث. ⁽¹⁾ يحمل الكتاب جهدا تنقيبيا وبحثيا، امتد على سنوات نشرها في حقل التراث العربي الإسلامي، بدأ معالجتها حول وسائل الاتصال والتواصل بين المسلمين من خلال اللغة العربية، والتعليم، والمساجد والمدارس والزوايا،

والمكتبات والترجمة والوقف، و الحج و الرحلة، التجارة و الزكاة، و هي كلها من القيم الإسلامية و خاصة لدى المجتمع المسلم.

يبدأ سعد الله ببحوث استطلاعية حول مناهج البحث التاريخي عند ابن خلدون، وعند العلماء المغاربة ⁽²⁾. فدرس سيرة ابن خلدون خلال نهاية القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر للميلاد، وأبرز مراحل كتابة ابن خلدون لكتابه العبر في قلعة ابن سلامة، وعد سعد الله هذه المرحلة الخلدونية بأنها لحظة الإبداع و الإلهام، إذ تفوق على المؤرخين السابقين و وضع أسس لعدة علوم مساعدة للتاريخ، و هي كلها تدخل في حركية التاريخ الخلدوني. ⁽³⁾ و الحقيقة التي أراد سعد الله توضيحها في مقاله أن ابن خلدون اكتشف علم التاريخ كعلم مستقل، و هذا راجع بالأساس إلى حصيلة جهود كثيرة تراكمت في حقل تاريخ الأمة العربية التي استخدمت لأغراض دينية و سياسية و لجهود منهجية ضخمة في نقد الروايات و الأخبار و ضبط الأسانيد.

أمر لافت للنظر في مسألة قضية القدس التي لم تكن غائبة في كتابات سعد الله، إذ ذهب إلى ما كتبه مجلة العالم الإسلامي ⁽⁴⁾ ما بين سنوات 1907-1924. فمن خلال ما ورد في

المجلة من تحليلات ندرك أبعاد المخططات الغربية المبكرة لتهويد القدس بواسطة الدعاية و الصحافة و الطباعة ⁽⁵⁾. وقد قام سعد الله بتقسيم مادة القدس في بحثه إلى تسعة محاور. ⁽⁶⁾

لقد تعرضت مجلة العالم الإسلامي أيضا إلى موضوع الجمعيات التبشيرية الكنسية في فلسطين، و لخص المؤلف جهود الإرساليات التي بلغت أحد عشر مؤسسة، و 48 حلقة

(سيمنار) و بين خفايا الهجرة اليهودية المنظمة نحو فلسطين، مشيرا في الوقت ذاته إلى ماكتبه المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (1883-1962) حول عروبة فلسطين و ردود الفعل على مؤتمر سان ريمو ⁽⁷⁾ و وعد بلفور ⁽⁸⁾ و أشار إلى اتفاقية سايكس بيكو، و تصريحات جيل كامبون (Jules Cambon) (1845-1935) في جوان 1917، ووزير خارجية فرنسا بيشون (Stephen Pichon) في فبراير 1918. و خلص المؤلف بأن التصريح الفرنسي الرسمي لصالح الصهيونية هو الذي ساهم في إصدار التصريح البريطاني المعروف بوعد بلفور.

لقد ساد الاعتقاد في أن المشهور تاريخيا هو وعد أو تصريح بلفور الإنجليزي، و ليس تصريح جول كامبون و بيشون الفرنسيين. فالسجال الذي أوضحه سعد الله بخصوص مسألة الوعد الفرنسي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ارتكز على الوثائق الفرنسية التي ترجع بداياتها إلى الحرب العالمية الأولى و التي فتحت بعد خمسين سنة. فالبحث الذي قدمه سعد الله يكشف بوضوح الوعود الفرنسية للصهاينة بتعاطف فرنسا مع إنشاء المستوطنات اليهودية و بعث الدولة العبرية في فلسطين.⁽⁹⁾

يستعين سعد الله في تناوله لمناهج التأليف عند علماء المغاربة بكتب الوفيات و البرامج و الموسوعات و الطبقات و التراجم⁽¹⁰⁾. و قد توصل إلى أن أساليب و مناهج البحث العلمي عند علماء المغرب الإسلامي تعود إلى فترة القرن السابع و الثامن الهجريين التاسع و العاشر الميلاديين، و هي تنم على ظاهرة التأليف الموسوعي. و خلال هذه الفترة كان الفكر الغربي حسب سعد الله لا يزال عالمة على الفكر العربي و الإسلامي، و يبدو أن المناهج و المعارف الإسلامية قد أفادت الفكر الغربي في كتابة التقاويد و الحوليات و التراجم و الموسوعات. كما حرص المؤلفون المسلمون على الدقة و هو خدمة العلوم الدينية.

يعالج سعد الله في موضوع آخر بالدرس و التحليل و التحقيق موضوع الحركة الإصلاحية المشرقية من خلال مجلة المنار و شيخها رشيد رضا، من خلال زيارة محمد عبده لتونس سنة 1884، و الجزائر سنة 1903.⁽¹¹⁾ و في السياق نفسه قدم سعد الله التجربة المغاربية في الفكر السياسي ببلاد الشام منذ نشاط الأمير عبد القادر سنة 1855، و إطفائه لفتنة الشام الطائفية سنة 1860، و اسهامات علماء الجزائر أمثال الشيخ طاهر الجزائري و أبو يعلى الزواوي.⁽¹²⁾

أثار رحلة العياشي إلى القدس خلال الفترة العثمانية اهتمام سعد الله و هي تدخل في اطار وصف الرحالة المغاربة لثالث المقدسات الإسلامية (مسجد الأقصى). و تحدث سعد الله عن الرحلة القدسية كفاعل سياسي بدل الرحلة الحجازية التي كانت في الأغلب وجهة الرحالة المغاربة. لقد

بين سعد الله من خلال نصوص الرحلة أن العياشي اكتفى كرجل مهتم بالتصوف و الحياة العلمية، بمخالطة رجال الدين و التصوف و الحصول منهم على إجازات و تبادل القصائد معهم. تحدث سعد الله عن التضامن المغربي في المنطقة. كما خص العياشي المسجد الأقصى بأوصاف كثيرة. (١٣) ومعلوم أن الرحالة كانوا ينتقلون لأغراض متنوعة تتراوح بين الحج و التجارة و طلب العلم و السفارة، مما ساهم في انتقال الأمتعة و الكتب و الأفكار و التقنيات بين مغرب العالم الإسلامي و مشرقه، و ساهم في تعميق المعرفة بالذات، و من ثمة كانت الرحلة أداة للتواصل بجميع أشكاله.

ما يثير الانتباه عند سعد الله هو تلك المقارنات التي يعقدها حول فرنسيان في الحجاز، و المقصود بهما رحلة ليون روش (Léon Roches) (1809-1901) الذي كان وراء تعليق الإدارة الفرنسية على جدران بعض المدن الجزائرية الكبرى، نسخاً من فتوى علماء الحرمين الشريفين التي حصل عليها سنة 1842. و قد ذهب روش إلى مكة للحصول على مصادقة علماء الحرم على فتوى تحرم على الجزائريين الجهاد و المقاومة ضد الفرنسيين. (١٤)

و رحلة جيرفي كورتيلمون (Jules Gervais-Courtellemont) (1863-1931) إلى الحجاز سنة 1894. إذ تمثلت مهمته في الحصول على مصادقة علماء الحرم على نص فتوى تمنع الجزائريين من الهجرة من بلادهم على أساس أنها تحت الاحتلال الفرنسي و تعتبر دار إسلام و ليست دار حرب، و هي سياسة كان من ورائها الحاكم العام جول كامبون (1891-1897) (Jules Cambon) (١٥).

من الأمور التي أشار إليها سعد الله مسألة بلاد الحجاز إذ يورد مسائل حول اليقظة العربية في الحجاز ما بين 1916-1922، و الحجاز أثناء الحرب العالمية الأولى، و الأمير عبد القادر الحفيد و الثورة العربية. (١٦) ويستعين المؤلف حول موضوع اليقظة العربية في الحجاز على أحد عشر نصاً، (١٧) هي عبارة عن مناشير لملك الحجاز الشريف حسين (1853-1931). و قد نشرت لأول مرة في جريدة القبلة. (١٨) و إثراء للتاريخ العربي الحديث، قام سعد

الله بترجمة النصوص و العودة إلى مصادرها الأولى من خلال مجلة العالم الإسلامي (RMM). لقد رحبت فرنسا بقيام الثورة العربية سنة 1916، بالرغم من توقيعها مع بريطانيا على اتفاقية سايكس بيكو.⁽¹⁹⁾

أرسلت فرنسا بعثة عسكرية و دينية و سياسية إلى الشريف حسين بقيادة إدوار بريمون (Edouard Bremond) الذي نشر كتابا بعنوان (Le Hedjaz dans la guerre 1914-1918)، الحجاز أثناء الحرب العالمية الأولى، الذي نشر في باريس سنة 1931. أما البعثة الدينية و السياسية فقد ترأسها الجزائريان: قدور بن غريبط، و مصطفى الشرشالي.⁽²⁰⁾

لقد خصص سعد الله، بحثا مهما عن امكانية إبراز التراث الإباضية من خلال كتاب إبراهيم أطفيش (الدعاية إلى سبيل المؤمنين)، و ذكره لعلماء الإباضية كالورجلاني و الشماخي و أطفيش القطب. بيد أن سعد الله اضطر لاستعراض مقاربة بين عالمين متعاصرين من أعلام الإباضية هما: محمد يوسف أطفيش من الجزائر، و عبد الله السالمي من عمان، و نوه بغزارة علميهما و انتاجهما الفقهي و اهتماماتهما بقضايا العالم الإسلامي و بالمصير المشترك للأمة الإسلامية من خلال الإصلاح و النهوض بهمم الأمة، و التسامح المذهبي و التغلب على الخلافات و أسباب الافتراق بواسطة الشورى و العدل و الالتزام بتعاليم الشريعة.

من خلال التوقف عند المحطات البارزة في القضاء نفسه عرف سعد الله بالعالم سليمان الباروني الإباضي الليبي الذي تتلمذه بوادي ميزاب على يد علماء المذهب. و كان مهتما بتاريخ الدولة الرستمية و الكتابة عنها، فكانت مناسبة لدراسة عدد من القضايا. و من بين هذه المحطات التعريف بسليمان الباروني الإباضي الليبي و تتلمذه بمدن ميزاب على علماء المذهب الإباضية، و مدى اهتمامه في مجال التأليف بأهمية الدولة الرستمية و أئمتها.

اهتم سعد الله بعمان وعاصمتها مسقط و التواجد العثماني بشرق أفريقيا و دور العمانيين في نشر الإسلام. و هذا من خلال ما كتبته مجلة العالم الإسلامي. و عند تصفح أعداد المجلة اتضح أنها تناولت بالتفصيل عناصر و تركيبة السكان و المجتمع العماني و الحياة الثقافية، و علاقة

العمانيين بالعثمانيين و الإيرانيين مع مطلع القرن العشرين. كما أشارت المجلة إلى جهود المستشرق الألماني كارل بروكلمان الذي وجد تسعة مخطوطات إباضية حول التاريخ و العقيدة و الفقه في مدينة مسقط. ⁽²¹⁾.

قد يصعب اختزال تاريخ مدينة بحجم الجزائر التي قدم لها سعد الله عرضا خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي من خلال المصادر العربية، فأشار إلى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ⁽²²⁾، و كتاب النفحة المسكية في السفارة التركية لعلي التيمقوتي ⁽²³⁾. أما المصادر الغربية التي تناولت تاريخ الجزائر في هذه الفترة فتمثلت في كتاب مرمول كربخال (وصف أفريقيا)، ⁽²⁴⁾ و كتابات هايدو ⁽²⁵⁾، و كتابات تركية عثمانية مثل بيري رايس ⁽²⁶⁾ و غزوات عروج و خير الدين لمؤلف مجهول ⁽²⁷⁾. أما البيانات التي قدمتها هذه المصادر حول تاريخ مدينة الجزائر فقد رسمت الصور التالية حسب سعد الله:

- الموقع الجغرافي والاستراتيجي للمدينة.
- عناصر تركيبة السكان والتواجد العثماني بالمنطقة في إطار عثمنة الفضاء الجغرافي السياسي للجزائر.
- المجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية.
- المراكز والمنشآت الثقافية.
- الحملات البحرية الخارجية.

لقد استطاع سعد الله أن يجعل القارئ يتحسس أهمية تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية من خلال أسطولها البحري (1518-1830)، وصورتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية خلال القرن السادس عشر. وهذا بفضل منهجية دقيقة من خلال تصدير كتاب (بحرية وبحارة الجزائر) بالفرنسية لمؤلفه مولاي بلحميسي ⁽²⁸⁾. شمل الكتاب خمسة وعشرين فصلاً في ثلاثة أجزاء، تضمن الجزء الأول البحرية و البحارة، و الجزء الثاني الجزائر في مواجهة أوروبا، و الجزء الثالث عظمة الأسطول البحري الجزائري و عوامل انهياره.

و ضم الكتاب دراسة تحليلية نقدية للمصادر و قائمة مصطلحات و نشر وثائق باللغة الأجنبية، يضاف إليها مخطوطات متنوعة. عالج بلحميسي موضوع الصراع الجزائري الأوروبي من زوايا عديدة منها: الدفاع عن الثغور و تحريرها، التصدي للحملات الأوروبية، التضامن الإسلامي الذي شمل إنقاذ الأندلسيين الموريثيين و مساندة الدولة العثمانية في حروبها البحرية.

أشاد سعد الله بجهود الباحث الجزائري بلحميسي في التأريخ للبحرية الجزائرية خلال العهد العثماني وأعتبره من رواد الدراسات العثمانية في الجزائر، كما نوه بقيمة الكتاب من الناحية المعرفية والتوثيقية والمنهجية. وتمنى أن يترجم الكتاب إلى اللغة العربية لتعميم الفائدة التاريخية لقيمة العمل.

تحدث سعد الله عن مقارنة تاريخية لعالمين مغربيين سافرا ومكثا فترة من الزمن في شبه القارة الهندية وهما عبد العزيز الثعالبي⁽²⁹⁾ ومحمد البشير الإبراهيمي.⁽³⁰⁾ وأوضح سعد الله في هذا البحث أن القارة الهندية منذ القرن العشرين جذبت أنظار علماء الإسلام و على رأسهم زعماء المغرب العربي الذين بدأوا يشعرون بثقل قضايا العالم الإسلامي. اختط الثعالبي رحله عن الهند منذ زيارته لها سنة 1924، فاهتم بشعبها و تاريخ الإسلام منذ عهد الأمويين، و ركز على مسائل المنبوذين في الهند، ودور الإسلام في خلاص أغلبية ساحقة منهم. و قارن سعد الله بين أوليات الثعالبي و الإبراهيمي في حياة الاضطهاد و الهجرة و التغريب و البحث عن أماكن لتحقيق الطموحات، فكان الشرق في البداية مهد الحضارات و مهبط الأنبياء، فكانت زيارة الإبراهيمي لباكستان سنة 1952، و 1956، فلخص انطباعاته حول المنطقة فاهتم بالسياسة و الأوقاف و التعليم خاصة في باكستان التي استقلت عن الهند، و هي سياسة أقرها الاستعمار البريطاني منذ 1947. و خلاص سعد الله أن الفارق بين رحلة الثعالبي و رحلة الإبراهيمي هو خمسة عشر سنة، حدثت تطورات كثيرة مثل الحرب العالمية الثانية و انقسام الهند، و دور الحرب الباردة في تباعد الهوة بين الطرفين. كما اختلف، الرجلان في بعض المقاربات نتيجة

اختلاف التكوين الشخصي و اختلاف الزمن و الظروف ، فأهداف الثعالبي لم تكم معلنة ، بينما أهداف الإبراهيمي كانت معلنة.

يحاول هذا الكتاب استعراض أهم مظاهر الاتصال و التواصل الثقافي بين عوالم الإسلام من خلال رصد مناهج التأليف عند علماء المغاربة و اسهام علماء المغرب في الفكر السياسي ببلاد الشام منذ القرن 19م. لن نخوض في التفاصيل الدقيقة لكتاب سعد الله بل نكتفي بتسجيل ما يلي من ملاحظات :

- إبراز دور علماء المغرب العربي في الفكر السياسي بالشرق الإسلامي.
- دور المستعربين الفرنسيين في استصدار فتاوى و المجيء بها من بلاد الحرمين الشريفين لتدعيم التواجد الاستعماري بالجزائر.
- اهتمام علماء المذهب الإباضية مغربا و مشرقا بقضايا العالم الإسلامي و همومه.
- اهتمام المجالات الفرنسية بقضايا القدس و فلسطين قبل و بعد تصريح بلفور.
- صورة الجزائر السياسية و الاقتصادية و العسكرية من خلال الأطروحات الجامعية و الكتابات العربية و الأوروبية.

هذا عرض موجز ، توخينا من خلاله إبراز أهم ما في محاور كتاب بحوث في التاريخ العربي الإسلامي ، على أن المراجعة تبقى جزءاً من قراءة ذاتية لا تلغي أهمية التفاصيل و الشروحات الكثيرة ، و كذلك أهمية المصادر و الوثائق المعتمدة ، سواء باللغة العربية أو باللغات الأجنبية. فعلى صعيد التوثيق يقدم المؤلف إنجازاً توثيقياً على قدر كبير من التنوع و التعدد ، و استخداماً جيداً لمعطيات الوثيقة و المعلومة لدعم أفكاره المطروحة. في حقيقة الأمر فإن هذا الكتاب هو تحقيق في مسار الكتابة التاريخية الجزائرية من منظور تشكل إبداعي للتأريخ ، و إنجازاً في مضمار المعرفة التاريخية ، و في أسلوب التحقيق و النقد و الاستقراء و إعادة البناء. والدكتور سعد الله مؤرخ متميز ، ومرب فاضل من الطراز الأول . أنتج عديد الكتب و البحوث

على صعيد التاريخ العربي والإسلامي، والتكوين التاريخي للأمة الجزائرية ردحا من الزمن، فكان له دور فاعل في تطويرها ووضعها في مكان لائق بين جامعات العالم.

والأستاذ أبو القاسم سعد الله، بحق، علم من أعلام التاريخ الإسلامي، وصاحب مدرسة تتميز بالدقة والعمق واسعة الموضوع، والأهم من ذلك هو تركيزه في دراساته على (العوامل الاقتصادية و السياسية و الثقافية) في فهم حركة التاريخ والمجتمع. يعتمد منهج سعد الله أيضا في تدوين التاريخ على الرجوع إلى المصادر الأصلية كالوثائق و المخطوطات ومحاكماتها محكمة منطقية، واستخلاص الحقائق التاريخية منها. لذلك اتسمت كتاباته بالدقة والعمق. وقد اهتم بالتاريخ الاقتصادي و الثقافي منذ بواكير حياته العلمية وهو يرى بأن موضوع التاريخ، موضوع حي، ولذلك ينتظر أن تختلف الآراء حول مفهومه، وأسلوب كتابته وتفسيره، هذا فضلا عن أنه موضوع يتصل بصورة وثيقة بالاتجاهات الفكرية والتطورات العامة، فيتأثر بها وقد يكون له أثره في بعضها. ويؤكد بأن ثمة صلة بين المؤرخ وحقائق التاريخ، فالمؤرخ دون حقائق لا جذور له والحقائق دون مؤرخ مجردة من الحياة والمعنى.

لقد تمتع الأستاذ سعد الله بمكانة متميزة، حتى أنه لقب بـ (شيخ المؤرخين الجزائريين)، إذ كان سعد الله في كل كتاباته، يؤكد بأن تاريخ الأمة الجزائرية كل، متصل، مترابط، يكون سلسلة حلقات يؤدي بعضها إلى بعض. أما حاضر الأمة فهو نتاج سيرها التاريخي وبداية طريقها إلى المستقبل، ولذا فلا انقطاع في التاريخ ولا ظاهرة تبدو فيه دون جذور وتمهيد. كما أن الاتصال في تاريخ الأمة لا يعني ان التاريخ حركة رتيبة، أو أن الأمة سارت بالخطوات نفسها خلال تاريخها، بل أن فيها فترات تزخر بالحيوية والتوثب وأخرى تتصف بالحركة التدريجية والتطور الهادئ. ولكل أمة فترات الثورية، هي في الواقع انطلاق صاحب لقوى تجمعت خلال فترات من الكبت أو من التطور السريع الواسع أو هي تعبير عن غليان داخلي انفجر في ثورة صاخبة، وقد تكون لهذه الفترات آثارها البعيدة في الفترات التي تعقبها أو في فترات تالية

. ومن هنا تتباين فترات تاريخ الأمة في مسيرتها عبر العصور ، فقد يكون أثر فترة بعيدة أقوى في حاضر الأمة من فترة قريبة من هذا الحاضر .

الإحالات :

- * أبو القاسم، سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1424هـ/2003م، 558 ص. في شهر فبراير سنة 2008 اتصل بي أبو القاسم سعد الله هاتفيا و طلب مني أن أقدم له بعض الملاحظات حول كتابه بحوث، وقتئذ قدمت له انطباعاتي، و فرح كثيرا، وفي هذه الدراسة أسجل ملاحظاتي حول الكتاب لتكون احتفاءً بنشاطه العلمي المتميز.
- (¹) شمل الكتاب على ثمانية و عشرون (28) دراسة متنوعة في الكم و المعرفة و المنهج.
- (²) سعد الله، المرجع السابق، ص ص 60-105.
- (³) حول موضوع العلوم المساعدة للتاريخ، ينظر: ليلى، الصباغ، دراسة في منهجية البحث التاريخي، ط13، دمشق: منشورات جامعة دمشق، 1428-1429هـ/2007-2008م، ص ص 120-193. و قد ذكرت المؤرخة السورية 24 علما ساعدا للتاريخ منها: الفنون، علم الإحصاء، علم الاجتماع، علم الاقتصاد، علم الشفرة، علم الأختام...
- (⁴) أضيف إلى عنوان مجلة العالم الإسلامي البعثة العلمية المغربية.
- (⁵) حفلت مجلة العالم الإسلامي بموضوعات عديدة حول القدس، و فلسطين عامة. و ظهرت المجلة في باريس بإشراف مديرها ألفريد لوشاتيليه (A. Le Chatelier)، (1855-1929) الذي أمدها بأبحاثه، كان مسؤولاً للشؤون العربية (الأهلية) في عهد إدارته للمجلة صدر منها 58 عددا. و استقطبت المجلة كتاب متخصصين في التراث الإسلامي أمثال بوبا (Buva) المتخصص في شؤون المغرب العربي، و لويس ماسينيون (Massignon) المتخصص في شؤون المشرق العربي، و سلوش (N. Slouch) المتخصص في شؤون اليهود و كان هذا الأخير متحيز في كتاباته و أحكامه.
- (⁶) محاور المواد هي: مدن فلسطين- لهجات القدس- الحياة الثقافية- العرب المسيحيون- الإرساليات- الحجاج- الهجرة اليهودية- عروبة فلسطين- نشاط المؤتمر السوري الفلسطيني.

(⁷) مؤتمر سان ريمو، هو مؤتمر دولي عقده المجلس الأعلى للحلفاء فيما بعد الحرب العالمية الأولى، في سان ريمو، إيطاليا، في الفترة من 19-26 أبريل 1920. وحضره الحلفاء الرئيسيون في الحرب العالمية الأولى يمثلهم رئيس وزراء المملكة المتحدة جورج لويد، رئيس وزراء فرنسا ألكسندر ميلران، رئيس وزراء إيطاليا فرانسيسكو سافاريو نيتي (وسفير اليابان ك. ماتسوي. في 25 أبريل 1920 تم توقيع معاهدة سان ريمو التي حددت مناطق النفوذ البريطانية والفرنسية في المشرق العربي. وأكد المؤتمر على وعد بلفور بتأسيس دولة يهودية في فلسطين. وقد حضر مؤتمر سان ريمو وفداً يهودياً مكوناً من حاييم وايزمان وناحوم سوكونوف وهيربرت صمويل.

(⁸) في الثاني من نوفمبر 1917 صدر الوعد البريطاني الشهير بمنح اليهود وطناً قومياً في فلسطين؛ حمل الوعد توقيع وزير الخارجية في ذلك الوقت آرثر بلفور. آمن بلفور كما أوضح في كتابه العقيدة والانسانية (Theism and Humanity) أن الله اغدق على اليهود وعداً بالعودة إلى أرض الميعاد، وأن هذه العودة هي شرط مسبق للعودة الثانية للمسيح. وأن هذه العودة الثانية تحمل معها خلاص الانسانية من الشرور والمحن ليعم السلام والرخاء مدة ألف عام تقوم بعدها القيامة وينتهي كل شيء كما بدأ. اكتسب بلفور هذه الثقافة من عائلته، وخاصة من والدته التي تركت في شخصيته الدينية بصمات واضحة من إيمانها بالعقيدة البروتستنتية المرتبطة أساساً بالعهد القديم وما فيه من نبوءات توراتية. ولذلك فإن بلفور عندما صاغ الوعد بمنح اليهود وطناً في فلسطين، كان يعتقد أنه بذلك يحقق إرادة الله.

(⁹) ينظر تصريح جول كامبون في جوان 1917، و تصريح وزير الخارجية جزييف بيشون في 14 فبراير 1918، سعد الله، بحوث...، ص ص 453-459. تمكنت مجلة العالم الإسلامي من نشر وثائق ودراسات حول فلسطين منذ تأسيس المجلة سنة 1907 إلى غاية 1925، ينظر:

Revue du monde musulman, n°1, 1907-n°62, 1925.

(¹⁰) تفرعت المؤلفات التي تناولها سعد الله في بحثه إلى: التراجم (عنوان الدراية للغبريني) و نيل الابتهاج لأحمد بابا التمبكتي و الوفيات (لابن قنفذ)، والطبقات للدرجيني الخاصة بعلماء و سير المذهب الإباضية، و برنامج الوادي آشي و هو برنامج خاص بالأندلسيين فهرس الفهارس للكتاني، و المعيار المعرب للونشريسي، و بدائع السلك لابن الأزرقي تاريخ الدولتين للزركلي. سعد الله، المرجع السابق، ص ص 71-102.

(¹¹) يعتبر محمد رشيد رضا (1865-1935) مفكراً إسلامياً من رواد الإصلاح الإسلامي الذين ظهروا مطلع القرن الرابع عشر الهجري. كان صحفياً رشيد رضا كاتباً وأديباً لغوياً. وبعد أحد تلاميذ الشيخ محمد

عبده. أسس مجلة المنار على نمط مجلة "العروة الوثقى" التي أسسها الإمام محمد عبده. صدر العدد الأول من مجلة المنار في مارس 1898. وحرص الشيخ رشيد على تأكيد أن هدفه من المنار هو الإصلاح الديني والاجتماعي للأمة وبيان أن الإسلام يتفق والعقل والعلم ومصالح البشر وإبطال الشبهات الواردة على الإسلام وتقنين ما يعزى إليه من الخرافات. و عن زيارة محمد عبده إلى الجزائر، يراجع: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، ص ص 583-594.

(¹²) عن أعيان الجزائر في المشرق العربي ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، ص ص 521-582.
(¹³) عن أدب الرحلة عند المغاربة، ينظر: محمد، ماكمان، الرحلات المغربية ق: 11-12هـ/17-18م، ط1، منشورات كلية الآداب، الرباط، 2014، 552 ص.
(¹⁴) مستعرب فرنسي، تعلم العربية في الجزائر، لقد مكث بشمال أفريقيا 32 سنة، وعمل قنصلاً لفرنسا في طرابلس الغرب و تونس و طنجة

و اليابان. كما تولى الترجمة في الإدارة الفرنسية في عهد فالييه (1837-1841) ثم عينه بوجو مترجم رئيسي للجيش الإفريقي في الجزائر. دخل في خدمة الأمير عبد القادر في نوفمبر 1837، وأصبح أحد كتابه الخاصين، وأعلن إسلامه. وفي سنة 1839 هرب ورجع إلى قومه بعد أن عرف أسرار الأمير، وأعلن أنه لم يكن مسلماً. قام روش برحلة إلى الحجاز خلال 1841-1842 متنكراً في زي حاج مسلم يدعى (عمر بن عبد الله) وذلك بغرض الحصول من علماء الحرمين على الموافقة على نص فتوى شرعية تجعل الجهاد ضد الفرنسيين من باب إلقاء النفس إلى التهلكة، وضرورة الرضي بحكم الفرنسيين وعدم شرعية مقاومة الأمير. لقد جمع مذكراته و نشرها في باريس سنة 1884 بعنوان: اثنتان و ثلاثون سنة في الإسلام.، تحدث في الجزء الأول عن أوضاع الجزائر و حياة الأمير عبد القادر، أما الجزء الثاني فخصه لمهمته الرحلية إلى الحجاز و حياة المارشال بوجو(Bugeaud). كما نشر نص الفتوى في هذا الجزء.

Léon, Roches, Trente-Deux ans a travers l'Islam (1832-1864), Librairie de Firmin-Didot et Cle, Paris, 1884, 2 Tomes.

وعن أسطورة ليون روش كما صورها الكتاب الفرنسيون، راجع:

EMERIT, Marcel, « La légende de Léon Roches », In, R.A, n° 91, 1947, p p. 81-105.

حول رحلة ليون روش إلى الحجاز راجع: أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، 1، ص ص 322-345. أيضاً:

يوسف ، مناصريه ، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832 – 1847، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، 103 ص.

(¹⁵) رحلة إلى مكة المكرمة في سنة 1894م” للرحالة الفرنسي جول جرفيه كورتيلمون. هو مصور فوتوغرافي فرنسي كان مقيماً في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر، وكان واحداً من الفرنسيين الذين هاموا بالشرق وأحبوا حياته الرومانسية العابقة بصدق المشاعر وأصاله الأخلاق والقيم الإنسانية. فقرر في سنة 1894م القيام برحلة مماثلة على خطا روش ، ليختبر بنفسه هذه التجربة الروحية الفريدة. وسافر بجواز سفر يحمل اسم عبد الله بن البشير. وصل كورتيلمون مكة المكرمة عام 1321هـ – 1894م من الجزائر، أخذ صاحبنا عدة صور لمكة المكرمة والبيت الحرام بلغ عددها 34 صورة.

يرى كورتيلمون في هذا الكتاب (رحلتي إلى مكة المكرمة في سنة 1894م) المتع وقائع رحلته إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، وكذلك إلى المدينة المنورة للصلاة في المسجد النبوي الشريف. ويصف إعجابه الشديد بالإسلام وفضائله ، فقام بإعلان إسلامه ومارس شعائر الصلاة والصيام والحج بكل تقى ، وتفاعل مع أصدقائه من الجزائريين ومن أهل الحجاز بكل مودة، وإن كان خشى من الاعتراف بإسلامه في كتابه هذا الذى نشر بفرنسا عام 1896م، فادعى أنه ”يحب الشرق ويحب الإسلام ببساطته ومعتقداته الراسخة دون أن يكون له الجرأة على اعتناقها“. لكن مع ذلك يبقى الكتاب وثيقة وجدانية شفافة تدل على تفاعل إيجابي حميم من مثقف غربي تجاه الحضارة الإسلامية . ولا يخفى المؤلف افتتانه بالشرق فيقول: ”إن جميع اللغات والأديان وأسمى أجناس البشر قد انطلقت من هذا الشرق العظيم، فهو جدير بأن يكون مهد الإنسانية جمعاء“. ترجم الكتاب إلى اللغة العربية: أحمد إيبش، عن دار الكتب الوطنية ، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة.

لمزيد من التفاصيل ينظر: GERVAIS-Courtellemont, Mon voyage à la Mecque, Paris Hachette et Ce, 1896, 236p.

(¹⁶) سعد، الله، بحوث ...، ص ص 321-321.

(¹⁷) نشرت في مجلة العالم الإسلامي: ينظر:

Textes historiques sur le réveil Arabe du Hedjaz, ,In Revue du Monde Musulman,n°47, Août 1921,pp.1-24/n°47,Octobre 1921,pp.1-28.

(¹⁸) حسين بن علي الهاشمي مؤسس المملكة الحجازية الهاشمية وأول من نادى باستقلال العرب من حكم الدولة العثمانية.

(¹⁹) وقعت اتفاقية سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا على اقتسام الدول العربية الواقعة شرقي المتوسط عام 1916. وتم الوصول إليها بين أبريل وماي من ذلك العام على صورة تبادل وثائق بين وزارات خارجية الدول الثلاث (فرنسا وإنجلترا وروسيا القيصرية). عينت الحكومة الفرنسية "جورج بيكو" قنصلها العام السابق في بيروت مندوبا ساميا لمتابعة شؤون الشرق الأدنى، ومفاوضة الحكومة البريطانية في مستقبل البلاد العربية، ولم يلبث أن سافر إلى القاهرة، واجتمع بـ"مارك سايكس" المندوب السامي البريطاني لشؤون الشرق الأدنى، بإشراف مندوب روسيا، وأسفرت هذه الاجتماعات والمراسلات عن اتفاقية عُرفت باسم "اتفاقية القاهرة السرية"، ثم انتقلوا إلى مدينة بطرسبرغ الروسية، وأسفرت هذه المفاوضات عن اتفاقية ثلاثية سُميت باتفاقية سايكس بيكو وذلك لتحديد مناطق نفوذ كل دولة على النحو التالي:

- استيلاء فرنسا على غرب سوريا ولبنان وولاية أضنة.

- استيلاء بريطانيا على منطقة جنوب وأواسط العراق بما فيها مدينة بغداد، وكذلك ميناء عكا وحيفا في فلسطين.

- استيلاء روسيا على الولايات الأرمنية في تركيا وشمال كردستان.

- حق روسيا في الدفاع عن مصالح الأرثوذكس في الأماكن المقدسة في فلسطين.

- المنطقة المحصورة بين الأقاليم التي تحصل عليها فرنسا، وتلك التي تحصل عليها بريطانيا تكون اتحاد دول عربية أو دول عربية موحدة، ومع ذلك فإن هذه الدولة تقسم إلى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية، ويشمل النفوذ الفرنسي شرق بلاد الشام وولاية الموصل، بينما النفوذ البريطاني يمتد إلى شرق الأردن والجزء الشمالي من ولاية بغداد وحتى الحدود الإيرانية.

- يخضع الجزء الباقي من فلسطين لإدارة دولية.

- يصبح ميناء إسكندرون حرا.

تم الكشف عن الاتفاق بوصول الشيوعيين إلى سدة الحكم في روسيا عام 1917 مما أثار غضب الشعب السوري الذي يمسه الاتفاق مباشرة وأخرج فرنسا وبريطانيا. تم تقسيم المنطقة بموجب الاتفاق فحصلت فرنسا على الجزء الأكبر من بلاد الشام وجزء كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل في العراق، أما بريطانيا فامتدت مناطق سيطرتها من طرف بلاد الشام الجنوبي متوسعا بالاتجاه شرقا لتضم بغداد والبصرة وجميع المناطق الواقعة بين الخليج العربي والمنطقة الفرنسية. كما تقرر وضع المنطقة التي اقتطعت فيما بعد من جنوب سوريا "فلسطين"

تحت إدارة دولية يتم الاتفاق عليها بالتشاور بين بريطانيا وفرنسا لاحقاً (وبموجب وعد بلفور لليهود، أعطيت فلسطين للصهاينة لبناء دولة إسرائيل).

(²⁰) عبد القادر بن غبريط ينحدر من أسرة كان أهلها من أعيان تلمسان. ولد بسيدي بلعباس سنة 1868 و توفي بباريس سنة 1954. موظف سامي لدى الإدارة الاستعمارية الفرنسية، تقلد مهام مترجم ثم عميد مسجد باريس سنة 1921، و هو أحد مؤسسيه. يعتبر من أبرز الكتاب الجزائريين خلال الفترة الاستعمارية. أرسلته فرنسا ليساعد الشريف حسين في ثورته ضد الأتراك سنة 1916. ينظر:

Pouillon François, Dictionnaire des orientalistes de langue française, Paris, IISMM-Karthala, 2008, 1007 p.

Achour, Cheurfi, Petite Encyclopédie de l'Algérie, Editions

Dalimen, Alger, 2013, pp. 611-612.

أما الجزائري الثاني مصطفى الشرشالي (توفي سنة 1930) الذي ارتبط اسمه بمسألة تدوين الفقه الإسلامي أصدر الفرنسيون مجلة الأحكام التي أشرف عليها هذا الأخير برئاسة المستشرق الفرنسي دومينيك لوسيان (1851-1932) (Jean-Dominique Luciani) الذي كان على رأس إدارة الشؤون الأهلية (إدارة شؤون الجزائريين) ما بين سنوات 1901-1919، كما ترأس الجمعية الجزائرية التاريخية ما بين 1927-1932. حول هذه الشخصية، راجع:

ESQUER (G.), "Dominique Luciani [1851 + 1932]", In, R.A, n° 73, 1932, pp. 161-181.

Alain, Messaoudi, Les Arabisant et la France coloniale, Annexes, ENS éditions, Lyon, 2015, pp. 228-229.

اسم المجلة التي اهتمت بالفقه: مجلة الأحكام السارية الجزائرية و صدرت ما بين 1907-1913. وكان الهدف من وراء ذلك هو اتمام اندماج الشريعة الإسلامية في القانون الفرنسي، و فتح أبواب التجنس و الزواج المختلط. و تألفت اللجنة سنة 1906 من ستة عشر عضواً فرنسياً و خمسة جزائريين، منهم الشرشالي. للمزيد حول تدوين الفقه الإسلامي، يرجى مراجعة، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص ص 105-106، و أيضاً: سعد الله، المرجع السابق، ج4، ص ص 528-538.

(²¹) Revue du monde musulman ; T4, 1908, pp. 160-161.

(²²) الحسن بن محمد الوزان والمشهور بليون الأفريقي أو يوحنا ليون الأفريقي أو يوحنا الأسد الأفريقي. ولد بمدينة غرناطة سنة 1483م. انتقل إلى المغرب للعيش بفاس وأصبح سفيراً لسلطانها محمد البرتغالي اللطاسي (1504-1525). سقط في الأسر (1519) خلال توقف سفينته في جزيرة جربة واقتيد للبابا ليون العاشر الذي حملته على اعتناق المسيحية، والبقاء لتدريس العربية في روما، اختفى في ظروف غامضة

سنة 1550 ، ترك لنا كتابا في فن الرحلة نحا فيه منحى علميا و سلك فيه منهجا بعيدا عن الحشو و الاستطراد ، فكان اهتمامه منصبا على البيئتين الطبيعية و البشرية ، فجمعت كتابته بين الجغرافيا و التاريخ و علم الاجتماع.

(²³) أبو الحسن علي التمقروتي (1534-1594)، الفقيه المغربي المطلع على التاريخ و كتب المسالك و الرحلات. للمزيد راجع: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، (ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم)، القاهرة، 1957ج1، ص 459. و أيضا: التمجروتي أبو الحسن علي، النفحة المسكية في السفارة التركية، (تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي)، الرباط: المطبعة الملكية، 2002.

(²⁴) مؤرخ إسباني ولد بغرناطة سنة 1520 وتوفي سنة 1600، شارك في الجيش الإسباني المرباط بالحاميات الإسبانية بوهرا و المرس الكبير ما بين (1573-1599).

(²⁵) ولد المؤرخ الإسباني فراي ديبغو دي هايدو في وادي كارانسا Carança في جبال البرانس على الحدود الفرنسية الإسبانية و توفي في الجزء الأول من القرن 17م. أمضى سنوات في الأسر بالجزائر في الفترة من 1578 إلى 1581. من مؤلفاته: **طوبوغرافيا الجزائر و تاريخها العام** (Topografía e historia general de Argel). تاريخ ملوك الجزائر (Epitomé de los Reyes de Argel).

(²⁶) أحمد محيي الدين بيرري بالتركية (Ahmet Muhiddin Piri): الشهير بالتركية بيرري ريس بالتركية: Piri Reis)

(ولد ما بين 1465 و 1470 وتوفي ما بين 1554 و 1555م). هو قبطان وراسم خرائط عثماني، أول من اكتشف الأمريكيتين قبل كريستوفر كولومبوس، واكتشف القارة القطبية الجنوبية، ورسم لسواحل كلاهما خارطة. خارطة بيرري ريس الأولى التي رسمها بيرري رئيس للعالم وانتهى منها عام 1513 م ثم قدمها للسلطان سليم الأول في مصر عام 1517 م تضم - في الجزء الذي وصلنا منها إسبانيا وشرق أفريقيا والمحيط الأطلسي والأقسام التي عُرفت آنذاك من أمريكا وجزر الأنتيل. ويدلنا ضياع قسم منها على أنها كانت خريطة للعالم. ومن أكثر الملاحظات المدونة إثارة للاهتمام تلك الملحوظة الخامسة الخاصة باكتشاف أمريكا.

الخريطة الثانية فهي خريطة للعالم تحمل تاريخ 1528 م، ويضم القسم الذي وصلنا منها الجزء الشمالي للمحيط الأطلسي وشواطئ الشمال في أمريكا الشمالية من جرينلاند حتى شبه جزيرة فلوريدا. وأهم ما يميز تلك الخريطة أن الجزر وبعض الشواطئ رسمت بشكل يقرب للواقع، مقارنة بالخريطة الأولى.

وأهم ما وضعه بييري رئيس كان "كتاب بحرية" الذي ألفه 1520 م، ثم قام بتوسيعه عام 1525 م، ثم قدمه للسلطان سليمان القانوني (1520-1566).

(²⁷) مؤلف مجهول، غزوات عروج وخير الدين، (تحقيق: نور الدين عبد القادر)، الجزائر: المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، 1353 هـ - 1934 م.

Histoire d'Aroudj et de Khaïr Ed Din : Fondateurs de la régence d'Alger, chronique arabe au XIVe siècle .A.Rang-Ferdinand denis, Paris, 1857. 2Tomes.

Moulay ,Belhamissi, Marine et Marins d'Alger 1518-1830, Bibliothèque (²⁸) nationale d'Algérie, Alger, 1996.

و أصل الكتاب أطروحة جامعية نوقشت بفرنسا سنة 1986:

- Belhamissi (Moulay), Marine et marins d'Alger à l'époque Ottomane (1518-1830), Thèse de Doctorat d'état, université de Bordeaux III, Mars, 1986, 4 vol.

(²⁹) عبد العزيز الثعالبي (1876 - 1944 م) زعيم تونسي سياسي وديني. من القليلين الذين زاوجوا بين السياسي والديني، وبين المحلي والإقليمي والعالمي في عملهم؛ للتخلص من الاحتلال وظلمه والرفعة بالمجتمع والرفي به في الوقت ذاته.

(³⁰) محمد البشير الإبراهيمي (1889-1965) من أعلام الفكر والأدب في العالم العربي ومن العلماء العاملين في الجزائر. وهو رفيق النضال لعبد الحميد ابن باديس في قيادة الحركة الإصلاحية الجزائرية، ونائبه ثم خليفته في رئاسة جمعية العلماء المسلمين سنة 1940، وكاتب تبنى أفكار تحرير الشعوب العربية من الاستعمار. حول شخصيته، يراجع: أحمد، الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص ص 151 - 155

سكيكدة (Rusicade) خلال عهد الإحتلال الروماني Skikda (Rusicade) during the reign of the Roman occupation

أ.د. عبد القادر صحراوي

جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/14

Abstract :

The Phoenicians built several Punic trading posts, including Skikda, which took the name of Rucicade during the Roman period. It was part of the Cirtan confederation. Several archaeological excavations have shown the ruins of Rucicade as the Roman theater and arches. This city has lived more than 450 years.

Key words:

Phoenicians - Skikda - rucicade - Roman period - numidia

تعتبر منطقة الشرق الجزائري من أكثر المناطق التي خضعت للإحتلال الروماني، فقد ترك فيها الرومان العديد من الآثار والنقوش التي تدل على سيطرتهم وهيمنتهم عليها، وكان هذا الجزء من الوطن آهلا بالسكان وكثير المدن وهو ما تكشفه الآثار التي عثر عليها بمناطق تم التعرف على اسمها القديم، أو تلك التي لا تزال أسماؤها مجهولة¹.

وتحتل منطقة سكيكدة سلسلة جبلية تعد آخر تفرع لمرتفعات بلاد القبائل، بحيث تنتهي بسهل سوننجة وبحيرة فتزارة، وترتفع هذه السلسلة باتجاه الجنوب حتى تدرك القمم التي يحدها سبوا وجبل الوحش ومتاية. كما تخترق هذه المرتفعات العديد من الوديان التي تصب في البحر مثل واد القبلي، والصفصاف وفندك. ولا تمثل المناطق المجاورة باستثناء السهول، إلا كثباناً رملية ومنحدرات تغطيها أشجار القلين. بينما نلاحظ سهولا خصبة ومياه كثيرة وحقول أشجار الزيتون بالمنطقة الجنوبية للمدينة.

ويظهر من هذا العرض أن السكان فضلوا الاستقرار بالمدن الساحلية التي منها سكيكدة، بالإضافة إلى السهول والمرتفعات الجنوبية المحاذية لها²

1- جذور مدينة سكيكدة (Rusicade) ودورها خلال عهد الإحتلال الروماني:

يعتبر بطليموس « Ptolemée »³ الجغرافي القديم الوحيد الذي ذكر خليج نوميديا، والذي ينقسم إلى قسمين شرقي وغربي، ففي عمق القسم الأول أقيمت مدينة سكيكدة التي تم التعرف عليها بفضل العديد من النقوش مثل هذا الجزء من نقيشة حملت إسم المدينة: (Genio coloniae veneriae rusicadis)⁴ ويعتقد أن كلمة (Rusicade) بونيقية الأصل تعني الرأس الحامي الذي تعلوه منارة بحرية، أما (veneria) فقد تكون ترجمة لفينوس (venus) الفينيقية أستوارات أو استورا، ولا تبعد ستورا حاليا إلا بحوالي 4 كيلومتر إلى الشمال الغربي من سكيكدة⁵، وما تجدر الإشارة إليه أن الدولة الفينيقية قد أسست العديد من المعابر على طول الساحل المتوسطي، إستعملتها كأسواق أو محطات تجارية والتي تعتبر سكيكدة الواقعة إلى الغرب من راس بوهارون أحداها.⁶

وتضمنت لائحة بوتينغر « Peutinger »⁷ العديد من أسماء المدن الساحلية الرومانية لشرق الجزائر كالقل (Chullu) وسكيكدة (Rusicade) وقد كتبت سكيكدة القديمة بعدة طرق منها (Rusicada) و (Rusicadis)، إلا أن هاتين الطريقتين لا تتطابقان مع ما احتوته لائحة بوتينغر حيث كتبت المدينة بالشكل الآتي (Rusicade) والتي ربما تكون اسما أو مفعولا فيه، ونفس الامر يلاحظ بالنسبة لنقيشة سبقت الإشارة إليها وتضمنت ما يلي (Genio rusicadis) ولا يمكن اشتقاق المضاف إليه (rusicadis) إلا من الاسم (Rusicas) أو (Rusicade)، ولذلك تبني الكثير من المؤرخين القدامى والمحدثين الإسم الثاني أي (rusicade)⁸.

ويذكر الكثير من أصحاب المصادر القديمة كبطليموس « Ptolemée »⁹ وبلينوس « Pline »¹⁰ مدينة سكيكدة (Rusicade) كمستعمرة رومانية، من دون الإشارة إلى أنها من

تأسيس الرومان. ويحتمل أن تابسة (Tapsa) التي ذكرت في رحلة سيكلاس «Scylax» التي شيدت في عهد الفينيقيين ، وجدت في نفس موقع سكيكدة، وأنها حملت إسم الواد المجاور صفاف¹¹. كما أن هناك العديد من النصوص التي يعود تاريخها إلى الفترة التي أعقبت الملك ماسينيسا، والمعطيات الأثرية الدالة على وجود المدينة القديمة¹². هذا ويعتقد كذلك أن سكيكدة القديمة بنيت من طرف الرومان في سنة 45 ق.م ، خلال عهد الإمبراطور يوليوس قيصر «Julius Caesar» إثر إكتساح القوات الرومانية لنوميديا، والذي أعقب هزيمة الملك يوبا الأول والبوبيين في سنة 46 ق.م¹³.

وحول الرومان نوميديا إلى مقاطعة غمبراطورية، تخضع لحكم عسكري مباشر من روما، واصبحت سكيكدة بوابة للإتصالات بين عاصمة الإمبراطورية ومقاطعة نوميديا مما يعكس أهميتها الإستراتيجية والتجارية، وقد سمح موقعها البحري ونشاطها التجاري باستقرار العديد من الناس سواء من السكان الأصليين أو من المهاجرين، كما إشتهرت بيد عاملة غنية. وقد ذكر هذا النشاط التجاري واليد العاملة من خلال النصوص التي إحتوتها آثار المدينة كالمسارح والخزانات¹⁴. وتشكل النقوش أهم هذه النصوص، فهي تشير أن المحتلين الرومان أسسوا الكونفدرالية السرتية، التي تضم إلى جانب سكيكدة (Rusicade)، كلا من قسنطينة (Cirta)، القل (Chullu) وميلة (Milev)¹⁵، والتي تعرف أيضا بكونفدرالية المستوطنات الأربعة (Respublica coloniarum cirtensium)، وقد سلمت هذه المدن الأربعة وأجزاء أخرى من المقاطعة إلى معاون الإمبراطور قيصر «Ceasar» المرتزق سittiوس «Sittiوس» وقدماء محاربيه، الذين أسسوا العديد من البلديات والمقاطعات الفلاحية التي تتمتع باستقلالية كبيرة¹⁶.

لقد أعقب احتلال نوميديا وتأسيس الكونفدرالية السرتية، إكتساب مدن قسنطينة (Cirta)، و القل (Chullu)، وسكيكدة (Rusicade)، وميلة (Milev) صفة بلديات رومانية¹⁷. وتعتبر سكيكدة والقل المنافذ البحرية الرئيسية للمقاطعة على الخارج¹⁸، كما تشير

بقايا أثرية عثر عليها بسكيكدة يعود تاريخها الى القرن 3 ق.م ، أن للمدينة صلات قوية بقسنطينة الواقعة في الداخل¹⁹

وتبرز هذه الصلة أيضا من خلال الطرق التي ربطت سكيكدة بمختلف مدن المقاطعة وخارجها ، وضمن هذا السياق نشير إلى ثلاثة طرق، الأول ساحلي غربي يخترق بجاية (Saldae) وجيجل (Igilgili) ليصل إلى سكيكدة (Rusicade) ثم يمتد إلى عنابة (Hyppo regius) ، أما الثاني فداخلي يربط سكيكدة بعنابة، في حين يمتد الثالث نحو سيرتا²⁰. وكان آثار هذا الطريق الثالث واضحة خلال الحملة الاستعمارية الفرنسية على مدينة قسنطينة، كما عثر على بقاياها على بعد حوالي 18 كيلومتر منها ، أما عرضه فيتراوح ما بين 3 و4 أمتار، تغطية حجارة دائرية مجمعة بين خطين متوازيين من الحجارة المنحوتة²¹.

وسمح الطريق الرابط بين لامبيز (Lambaesis) قسنطينة و سكيكدة بجلب الإمدادات العسكرية الضرورية بسرعة كبيرة لمعسكر "كتيبة او غسطوس الثالثة (Legio 3 augusta) بلامبيز، أفضل من أن تجلب قوات عسكرية من قرطاجة (Carthago) أو تبسة (Theveste)²² ويجرنا الحديث عن آثار الطرق التي ربطت سكيكدة ببقية المدن ، إلى ذكر البقايا الأثرية التي عثر عليها بسكيكدة وخاصة المسرح الروماني وخزانات المياه.

2- أهمية الآثار الرومانية بسكيكدة:

خلف الرومان العديد من الآثار التي تم الكشف عنها خلال القرن 19م من طرف الإستعمار الفرنسي، جراء عمليات التنقيب والحفر التي عرفتتها مدينة سكيكدة أو فيليب فيل (Philippeville) كما سماها الفرنسيون، وتضم هذه الآثار المسرح الروماني وخزانات المياه والأقواس الطويلة والمجرى المائي العظيم المكتشف في سنة 1850م. وقد عثر على أرضية المدينة على عمق 4 أمتار، بزوايتها الجنوبية الشرقية درجات سلم روماني، الذي من المحتمل أن يكون محاطا بسور يحتوي على أبراج أو هو محمي بقلعة²³.

وجه هذا السور نحو البحر، وقد شوهد به خلال القرن 19م آثار أبراج بنيت من الدبش والحجارة المنحوتة. كما تعتبر الخزانات أهم أسس المسرح الروماني الذي يعد أعظم بناية بسكيكدة (Rusicade)²⁴، وقد ساد الإعتقاد مدة طويلة أن المسرح الروماني عبارة عن سيرك، إلا أن النقوش أكدت أن البناية هي فعلا مسرح روماني. وتبلغ مساحته حوالي 4900م²، بينما تقارب مساحة الآثار التي عثر عليها خلال القرن 19م حوالي 2740م²، ويسع لحوالي 6 آلاف متفرج، وبذلك فهو أكبر من مسرحي مدينتي جميلة (Cuicul) وتيمقاد (Thamugadi)²⁵. ويصل عرضه إلى حوالي 82.60 متر، بينما يصل عرض المسرحين المذكورين إلى 62 متر على التوالي، وربما يعود تاريخ بنائه إلى فترة حكم الإمبراطور هادريانوس «Hadrien» الممتدة ما بين سنتي 177 مو 138 م²⁶. وقد عثر أثناء التنقيبات به على 21 سلم وفسيفساء جميلة تمثل شخصيات مختلفة²⁷، وقد شهد عملية ترميم وتزيين في العديد من المرات خلال القرنين الثاني والثالث الميلادي²⁸. ثم عرف نفس مصير المدرج الموجود قرب المقبرة في جنوب شرق مدينة سكيكدة جراء الهدم الذي لحق به، وحلبات صراع الثيران، وإستعمال حجارة هذه البنايات لبناء مدينة فيليب فيل من طرف الإستعمار الفرنسي خلال الفترة الممتدة من 7 أكتوبر 1838 إلى 1845م²⁹.

كما عثر على آثار خزانات المياه فوق مرتفع يعلو آثار المسرح الروماني بحوالي 119م فوق مستوى سطح البحر، وهي عبارة عن خزانات كانت تزود العيون والحمامات العمومية. وقد زودت هذه الخزانات التي تسع لحوالي 8 ملايين لتر بواسطة مياه واد بني مالك التي جلبت عن طريق قناة عثر على جزء من تخطيطها. وبذلك لم يكن الماء ينقص مدينة سكيكدة الساحلية التي وفرت الماء أيضا للبواخر التي ترسو بها، وفي نفس الوقت زودت حمامات وموارد سفن البحرية.

ولوحظ كذلك احتواء كل منزل بسكيكدة (Rusicade) على خزان خاص، أما بوسطها فقد تم العثور على آثار حمامات جميلة، زينت أرضها بالرخام³⁰ وعلى الرغم من نفي شارل اندري جوليان «» العثور على آثار للموانئ الرومانية لكل من سكيكدة والقل المشهورة بمصانعها الأرجوانية³¹، إلا أنه لوحظ في سنة 1851 م تدمير بعض أجزاء مرافئ الميناء القديم، في حين بقيت جزاء أخرى في حالة حفظ جيدة³². وعثر في سكيكدة أيضا عللا قبور هي عبارة عن بنايات صغيرة مربعة الشكل، طول جهتها الخارجية ما بين 4 و5 أمتار تغطيها قبة، ووجدت قبور كثيرة في أعالي الطريق الرابط بين سكيكدة وستور، بالإضافة إلى فبرين أو ثلاثة فوق قمة توزيع مياه بني مالك إلى الغرب من الطريق الرابط بين سكيكدة وقسنطينة، وبنفس الطريق عثر على قطعة سيفساء جميلة ونقيشة وعمود معلم ميلوي يعود تاريخه إلى فترة حكم الإمبراطور هادريانو «Hadrien»³³.

3- مصير سكيكدة الرومانية:

تعتبر فترة حكم الأباطرة الأنطونيين وخاصة المدة الممتدة بين 96م إلى 192م من أعظم المراحل التاريخية التي شهدتها مدينة سكيكدة، التي يحتمل أن يكون عدد سكانها قد قارب 100 ألف نسمة³⁴ وقد وضع الوندال حدا لفترة الإزدهار التي عرفتها المدينة بتدميرهم في سنة 429م، العديد من مدن المغرب القديم. ويمكننا التعرف على التاريخ التقريبي لتدمير المدينة من خلال كتابة الكنائس الإفريقية، ففي سنة 256م أي في عهد الأباطرة فالريان وغليان «Valerien et Galien» حضر أسقف سكيكدة فرولوس «Verulus» إجتماعا بقرطاجة وآخر بسيرتا³⁵.

أما في سنة 305م، فقد ذكر أسقف آخر يدعى فكتور «Victor» بينما حضر إجتماع قرطاجة في سنة 411م أسقفين للمدينة، الأول كاتوليكي هو فاوستينوس «Faustinus» والثاني دوناتي هو جونيو «Junior»، وتعتبر وثيقة الحضور هذه آخر مصدر ذكرت فيه سكيكدة، فلم

تحتو قائمة الأساقفة المدعويين من طرف هونوريك «Hunerik» الوندال إلى قرطاجة في سنة 484م أي أسقف المدينة. ومن ثم يمكننا القول أن سككيدة كانت لا تزال قائمة في سنة 411م بينما أصابها الدمار والإندثار في سنة 484 م خلال عهد إمبراطور الشرق زينون «Zenon» ، ومن ثم تكون قد عمرت حوالي 450م سنة³⁶.

الإحالات:

1. De marcilly, Notice sur les vestiges de l'occupation romaine dans le cercle de Philippeville, R.S.A.C., 1853,pp.20-21.
2. Ibid,p.21.
3. Ptolemee, Geographie,iv,3,Paris,ed,Muller,1901.
4. Feraud (L.ch), Documents pour servir l'histoire de Philippeville R.A.f., 1875,p.81 ;Renier (L),Les inscriptions romaines de l'Algerie,N 2174,d'après Bertrand (L), Monographie du théâtre romain de Philippeville, R.S.A.C,1908,p3.
5. Feraud (L.CH), op,cit.p.87.
6. Julien (Ch.A), Histoire de l'Afrique du nord, des origines a la conquête arabe, Alger, Sned, 1978,p.80.
7. Table de Peutinger, d'après de Marcilly, op,cit,p.21
8. De Marcilly, op, cit, pp.21-26.
9. Ptolemee,iv,3.
10. Pline,Histoire naturelle,v,22,texte établi et traduit par Jehan Desange.Paris, les Belles lettres, 1980
11. Feraud (CH),op,cit,p82.
12. Benabou (M) La résistance africaine a la romanisation, paris, Maspero,1976, p.407.
13. Bertrand (L),op,cit,pp.9-10
14. Feraud (L CH),op,cit,pp.82-83.
15. C.I.L, 7041, 7610,7611.
16. Julien (Ch.A),OP,P.145
17. Benabou (M),op.cit,p.40
18. محمد الهادي حارش، التاريخ المغربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة،1995،ص.213.
19. محمد الصغير غانم، المملكة النوميديّة والحضارة البونية، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع،1998،ص.97.
20. Feraud (L. Ch),op, p.86.

- De Marcilly, op,pp32-36.
Rachet (M), Rome et les berbères un problème militaire d'Auguste à dioclétien,²¹
Bruxelles, Latomus,1978,note3,p.166.
De Marcilly, op, p.26.²²
Ibid, p,27.²³
Bertrand (L), op,cit,pp.8-9,21 ;Renier (L),op.cit,n 2174,2175.²⁴
Bertrand (L),op.cit.,p9.²⁵
De Marcilly,op.cit.,p.27 ;Roger (J).Théâtre romain de Rusicade .²⁶
Bertrand (L),op.cit.,p.10.²⁷
Ibid,p.6; Roger (J),op,cit,pp389-390.²⁸
Feraud (L.Ch),op.cit.,p84.²⁹
Julien (Ch.A),op.cit.,p.71.³⁰
Roger (J), op.cit., p.390.³¹
De Marcilly,op,cit,p28 ;Roger(J),op.cit.,p.392.³²
De Marcilly,op.cit.,p28.³³
Feraud (L.Ch), op.cit.,p.85.³⁴
Ibid,p.85; Bertrand (L),p.10.³⁵
(Philippeville),R.Af, 1865,p391.³⁶

علاقة الأمير شكيب أرسلان بالوطنيين المراكشيين

Prince Chakib Arslan relationship Moroccan patriots

عيسى حمري

جامعة بخميس مليانة

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/07

Abstrat :

The Emir Chakib Arslan of the great thinkers of his time, he grew up in an intellectual environment that allowed him to maintain contact with thought, politics, literature Highlighting the impact of Emir Shakib Arslan Moroccan national movement, which has been linked to contemporary Arab Islamic thought and Islamic University of ideas, and extended its effects Maghreb countries..

Key Wold :

Emir Chakib Arslan- Moroccan national- Maghreb countries

يعد الأمير شكيب أرسلان من كبار المفكرين في عصره، فقد نشأ في بيئة مثقفة أتاحت له الاتصال برجال الفكر والسياسة والأدب، وهو ماساهم بدور أساسي في نضوج فكره، وانعكس على توسيع أفقه في السياسة والأدب والتاريخ والصحافة، فساهم في دعم حركات التحرر في العالم العربي الإسلامي منها بلاد المغرب عموما ومراكش خصوصا، حيث نجد الأمير يقوم بدوره الفعال في الحركة الوطنية المراكشية.

وعليه قمت بهذه الدراسة التي جاءت تحت عنوان : "علاقة الأمير شكيب أرسلان بالوطنيين المراكشيين" والتي حاولت من خلالها إبراز مدى تأثير الأمير شكيب أرسلان على الحركة الوطنية المراكشية، حيث ارتبط اسمه بالفكر الإسلامي العربي المعاصر وأفكار الجامعة الإسلامية، وامتدت تأثيراته إلى بلاد المغرب، ولا يمكن بأي حال من الأحوال فصل الحركة الوطنية المراكشية عن سياقها التاريخي وحضنها الطبيعي الذي نشأت فيه، حيث تبلورت بالارتباط التام معه في إطار الإسلام الإصلاحي، حيث كان الأمير رائده وناشره بفكره ومنهجه، فعلى الرغم من ضغط المدرسة المالكية

التقليدية في عزلة المغرب جغرافيا إلا أن هذه التأثيرات قد وصلته ، وفي هذا الموقف الفكري والعلمي وجد المغاربة في الأمير رمزا لهم في نضالهم ، الذي بفضل ثلة من الوطنيين و على رأسهم علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني وأحمد بلافريج في المغرب (منطقة الاحتلال الفرنسي) وآخرون في المنطقة الخليفية (منطقة الاحتلال الإسباني) التي كانت بزعامة أب الحركة الوطنية المراكشية الشيخ عبد السلام بنونة وطلبته من أمثال عبد الخالق الطريس والطيب بنونة والمكي الناصري وغيرهم ، وهؤلاء جميعا كانوا على إتصال بالأمير وكاتبوه واتبعوا توجهياته في كثير من القضايا. نحاول بناء على الكتابات العامة التي أرخت لعلاقة الأمير بالحركة الوطنية المراكشية الإجابة على بعض الأسئلة منها:

– الحثيات التي دفعت الأمير إلى الاتصال بالحركة الوطنية المراكشية، وطبيعة نشاطه و دعمه لهذه الحركة، وفيما تمثلت.

– مدى تأثيره في الحركة الوطنية المراكشية ومدى تعلق المراكشيين بأفكاره.

1 – اتصال الأمير بأقطاب الحركة الوطنية المراكشية:

تقول الكاتبة بسيس جوليت Juliette BESSIS أن الأمير شكيب أرسلان¹ لم يهتم بمراكش قبل عام 1930 ، و أنها لا تجد أي أثر لمواقف الأمير معلنة خلال حرب الريف² ، و يبدو أن كلام بسيس يفتقر إلى الدقة و الإنصاف ، حيث نجد أن الأمير استحوذت عليه هذه الثورة و زعيمها محمد بن عبد الكريم الخطابي³ ، و أخذت كل اهتمامه ، و إعجابه بتصنيف عبد الكريم زعيم هذه الثورة في مرتبة كبار القادة الإستراتيجيين في العالم ، و فضّله عنهم ، كما أنه دعا من خلال مراسلاته و مقالاته إلى مساندته ، و كتب في رسالة إلى السيد رشيد رضا بتاريخ 08 سبتمبر 1923 عن بطولة الخطابي القائم بشمال المغرب و تحدث فيها عن مواجهته للجيش الإسباني 1921 ، و ذكر بأنه سيكتب عنه في جريدة البيان ، و نصح بضرورة التنويه بهذا البطل في الجرائد العربية.⁴

كما كتب الأمير في تعليقاته وحواشيه في كتاب حاضر العالم الإسلامي عن محمد بن عبد الكريم الخطابي قائلاً: "لا نبالغ إذا قلنا أن الأمير محمد بن عبد الكريم متولي كبر الثورة على الإسبانيول في شمال سلطنة المغرب ، هو في الثورة الحاضرة بطل الإسلام و أسده الضرغام و العلم المفرد الذي سار بذكره القاضي و الداني و الخاص و العام بين جميع الأمم لا بين المسلمين وحدهم"⁵، كما دعا المراكشيين إلى دعمها و التبرع بالمال لشد أزرها لتتمكن من الإستمرار في مقاومة الأسبان في منطقة الريف ، فجمعت مساعدات مادية قدرت ب 1500 جنيه⁶، كما استنكر الأمير مواقف بعض القبائل و الأفراد الذين ساندوا الإسبان و الفرنسيين ضد الثورة الخطابية.⁷

ولحقن دماء الثوار الريفيين ، أرسل الأمير رسالة إلى عصبة الأمم في أوائل حزيران 1925 طالبا منهم التدخل لإنقاذ الأبرياء ، فقال "إن كانت هذه الجمعية المرصدة لحقن الدماء في العالم لا تتدخل في حقن الدماء التي تسيل نهرا في الريف، فما محلها إذن من الإعراب؟ فلتجرب الجمعية على الأقل السعي في الصلح بين فرنسا و إسبانيا و بين عبد الكريم لعل هذا السعي يثمر، أما عدم التجربة من الأصل فعلامة سيئة".⁸

ودافع الأمير عن مراكش ، ففي 14 أكتوبر 1925 أرسل رسالتين إحداهما إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية و الأخرى إلى رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي، شرح فيها المآسي الاستعمارية في مراكش، و طالب أمريكا بالتحرك لوقفها ، و حثها على إرسال بعثة طبية لمساعدة الأبرياء من الشيوخ و النساء و الأطفال المعرضين للموت بآلات الحرب الفرنسية⁹، اذ يقول مالك بن نبي حول صدى ثورته "بأن أحداث 1925 و معاركها هزت جبلي في الجزائر مع صدى معارك الريف، و كانت فيه يد لشكيب أرسلان"¹⁰، و من خلال رسائل الأمير إلى الجزائر ، بدأ الحديث في الجزائر عن موضوع حرب الريف و أضحي إسم الأمير عبد الكريم يشار إليه بوضوح.

يذكر محمد حسن الوزاني¹¹ الذي يعتبر أحد أقطاب الحركة الوطنية المراكشية ، الذي عمل لدى الأمير سكرتيراً عاما لمجلة الأمة العربية la nation arabe ما بين 1930 – 1933 ، قائلا عن الأمير: "كان وثيق الصلة بثورة الريف و أبطالها، خصوصا و قد كان منهم بجنيف و قد حاول لدى عصبة الأمم لمدة سنة التدخل لصالح قضية التحرر فمن المحتمل أن يكون هناك اتصال و تعامل بين الأمير و ثورة الريف"¹²، إذ دعم الأمير ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي بكل العون من قول و كتابة و عمل.¹³

تعرف الأمير على النخبة المراكشية من خلال جمعية طلبة شمال إفريقيا التي تأسست في باريس 1927 ، و يقول في هذا الصدد محمد الفاسي ، رئيس جمعية الطلبة و أحد رواد الحركة الوطنية المراكشية: "كنت منذ أن ولعت بمؤلفاته و كتاباته و أنا لا أزال تلميذا... و أقرأ كل ما يصدره فيزيديني إعجابا و لم يكن هذا الإعجاب خاص بي بل كان يشاركني فيه كثير من الزملاء"، حيث قدم الأمير مساعدات مالية لهذه الجمعية الطلابية المغربية عموما و المراكشية خصوصا و التي كان يمثلها كل من محمد الفاسي و أحمد بلافريج و عبد الخالق الطريس¹⁴ و قد تعزز نشاطهم بدعم الأمير حيث زادها قوة و سندا.¹⁵

يعتبر إتصال الشبان المراكشيين بالأمير ، عندما تنصّر أحد الطلبة و إسمه محمد شفيق عمر بن عبد الجليل، حيث كتب الطلبة المغاربة إلى الأمير في جنيف و طلبوا منه المساعدة في إرجاعه إلى العقيدة الإسلامية ، وفضل مراسلاته و قوة حجته تم إرجاع الطالب إلى العقيدة الإسلامية.¹⁶ أسس الأمير مكتب للاستعلام و الإعلام عن قضايا العرب و المسلمين بجنيف ، و كانت له علاقة شخصية مع علال الفاسي¹⁷ وكذلك المكي الناصري (1906 – 1994) و الشيخ عبد السلام بنونة¹⁸ و أحمد بلافريج ، و احتج ضد نفي علال الفاسي إلى ليبروفيل سنة 1937. فباسم الأمة العربية حارب الأمير الاستعمار و الاستبداد و العنصرية و الطائفية.¹⁹ كما امتد تأثير الأمير ليشمل الطلبة المغاربة في القاهرة و نابلس ، حيث لعب هؤلاء الطلبة إلى جانب إخوانهم في باريس دورا فائق الأهمية في نشر المقالات و الكتابات بتوجيهات من الأمير ، و بفضل هذه

الإتصالات أمكن للأمير زيارة مراكش في 1930، و من خلال المراسلات بين الأمير و الشيخ عبد السلام بنونة تبدو علاقة الطلبة المبعوثين إلى نابلس بالأمير لتؤكد علاقات جرت في 1928.²⁰

تدخل الأمير في سائر الحركات الوطنية في العالم العربي الإسلامي ، بجميع وسائل التأييد و التشجيع و النضال شرقا و غربا ، إذ يقول الكتاب الفرنسيون إن مصدر حركات العالم الإسلامي كلها من لوزان ، يسرها قائدهم الأمير شكيب أرسلان و الذي يستطيع قيادة هذه الحركات من خلال مقالة صحفية.²¹

2- زيارته لمراكش :

اهتم كل من كتب في تاريخ الحركة الوطنية المراكشية بالإشارة إلى زيارة الأمير أرسلان لتطوان سنة 1930، و التي كان لها الأثر البالغ في نضج و بلورة مسار الحركة الوطنية المراكشية.²² إذ بعد صدور الظهير البربري الذي حرر بالرباط في 17 ذو الحجة 1348 الموافق لـ 16 ماي 1930، فقد سجل هذا الظهير الشريف في الوزارة الكبرى تحت إمضاء كل من الوزير محمد المقرري و المقيم العام سان لوسيان ، و هو ظهير "يصبح بموجبه قانونيا مطابقا للأصول المرعية سير الشؤون العدلية الحالي في القبائل ذات العوائد البربرية التي لا توجد فيها محاكم مكلفة بتطبيق القواعد الشرعية"²³، و كان الاستعمار الفرنسي يحاول من خلاله استدراج البربرية لضرب الإسلام و خلق صراع إثني بين المسلمين العرب و البربر.²⁴

اتفق كل من درس تاريخ الحركة الوطنية المراكشية على أن سنة 1930 هي سنة حاسمة، حيث كانت الانطلاقة الأولى لها، و على أن انطلاقتها كانت تتزامن مع صدور الظهير البربري الذي وحد كل الفئات في صفوف الجمعيات السرية التي كانت تنشط في كل من تطوان و فاس والرباط وسلا وغيرها، واستشعر المراكشيون أن الهدف من وراء هذا الظهير هو ضرب وحدة العقيدة و وحدة القومية و الشعور الوطني، وعلى إثره عمت حركة واسعة في جميع مراكش و بدأوا يقرأون دعاء اللطيف.²⁵

و يلاحظ محمد بن الحسن الوزاني أنه لا يمكن أن يؤرخ للحركة الوطنية المغربية دون الحديث عن الدور السري والعلني الذي كان للأمير في مجالها وخاصة في التأثير على قادتها في الداخل والخارج، وفي 1930 أتاح له الظهير البربري، فرصة للتدخل دفاعا عن الإسلام و شريعته و تضامنا مع الشعب المغربي المعتدى عليه في وطنه و كيانه و مقدساته الدينية و القومية.²⁶ وتبين أن زيارة الأمير لمراكش كما يزعم البعض لم تكن من أجل السياحة، بل جاء إلى مراكش في مهمة سياسية، حيث جاء في تقرير للمقيم العام الاسباني بتطوان إلى حكومته في 5 سبتمبر 1930 ما معناه: "...إن زيارة الأمير لتطوان لم تكن مجرد سفر من أجل الفسحة و إنما كانت تخضع لبرنامج وضعه الأمير نظرا للمركز الذي يحتله بصفته المرشد لجميع الحركات الوطنية..."²⁷.

ومن الإرهاصات و المقدمات التي سبقت الزيارة و العلاقة بين عبد السلام بنونة وبعض الوطنيين أنه حين سافر الأمير من لوزان قاصدا باريس قد التقى بأحمد بلافريج من الرباط و محمد الفاسي من فاس حيث زار الأمير اسبانيا ثم عرج إلى المغرب.²⁸ وقبل زيارة الأمير بأشهر قام السائح العراقي يونس بحري بجولة في المغرب، و الذي بدوره كانت له علاقة شخصية بالأمير فكان سببا في ربط الصلات الروحية بين الأمير و عبد السلام بنونة حيث نجده يحدث الأمير عن مراكش و أهلها وذكر له من بينهم عبد السلام بنونة، وقد أرسل الأمير أول عدد من مجلته "الأمة العربية" إلى بنونة ليربط بذلك العلاقات الشخصية بينهما.²⁹

و كان أحمد توفيق المدني الوسيط بين الأمير و المراكشيين في زيارته إليهم حيث نجد في رسالة من عبد السلام بنونة إلى ابنه الطيب في 09 أوت 1930 جاء فيها " بأن الأمير يتفصح بإسبانيا حسبما رأيت في جريدة "الشورى" و لو علمت مقره لتوجهت لمقابلته و التعرف بسيادته، لقد استبشرنا من كتاب أحمد توفيق المدني إلى الأستاذ داود بأن الأمير في عزمه و نيته زيارة تطوان فيا حبذا لو يصح الأمر."³⁰

وصل الأمير إلى طنجة في 10 أوت 1930 الموافق لـ 14 ربيع الأول 1349 و في نفس اليوم وجه السيد محمد أقلعي، برقية إلى عبد السلام بنونة يخبره بقدومه،³¹ حيث أرسل عبد السلام بنونة إلى أخيه محمد في طنجة للسلام على الأمير و الترحيب به، أما القنصل الإسباني في تطوان السيد إسيدورو ذي لاس كاخيلاس، الذي سمح للأمير بزيارة تطوان، وعلى اثرها طالبت السلطات الفرنسية بطرد الأمير من طنجة، بناء على ذلك سافر عبد السلام بنونة إلى طنجة في 11 أوت فكان له أول لقاء مع الأمير، الذي أقام بطنجة من 10 أوت إلى غاية 14 أوت 1930³²، ثم عاد عبد السلام بنونة إلى تطوان في 12 أوت 1930 ليقوم بترتيب و استقبال الأمير ، و بقي مع الأمير كل من محمد بنونة و محمد المعمودي ليرافقا الأمير إلى تطوان.

و صادفت زيارة الأمير لطنجة الاحتفالات بمناسبة المولد النبوي الشريف ، و هذا ما جعل الأمير يتأثر لتلك المشاهد و دعاهم للمحافظة عليها ، حيث أقيمت على شرفه عدة حفلات ، حضرها بعض زعماء الحركة الوطنية من الجنوب المراكشي الفرنسي ، حيث قدم من الرباط محمد بن العباس القباج ، و أحمد بلافريج و محمد بن أحمد الزيدي ، و من تطوان محمد المعمودي و غيرهم و التف حوله الشعب ، ثم قابله عبد الحميد الصفريوي و هو أحد المجلدين بفاس و حكى له القضية حيث أوصاه الأمير بالثبات ، و أمره برفع سلامه إلى الشبيبة المغربية.

وصل الأمير إلى تطوان يوم الخميس 14 أوت 1930 الموافق لـ 18 ربيع الأول 1349 مصحوبا بزعماء الحركة الوطنية ، و نزل الجميع بدار عبد السلام بنونة، و توافد عليه جمع غفير و بعض الوطنيين، على غرار عمر بن عبد الجليل و محمد الغالي الفاسي من فاس و أبو بكر المالغي من سلا و حتى القنصل الإسباني كاخيلاس، في هذه الأثناء تقدمت فرنسا بطرد الأمير من تطوان بواسطة قنصلها العام، و رغم ذلك فإن الإقامة الإسبانية أرسلت يوم 14 أوت 1930 رسالة إلى نيابة الأمور العامة في تطوان تقول فيها بوجود القيام بتمثيلية ، و إزاء ذلك تم استدعاء الزعماء الوطنيين الوافدين من المنطقة السلطانية (أي المغرب الفرنسي) إلى إدارة الأمن بدعوى مراجعة جوازاتهم ، و كان ذلك في 15 أوت 1930، أما الأمير فاكتفت بطلب جواز

سفره فقط.³³ و ما يؤكد أن الإحتجاج الفرنسي لم يكن له أي تأثير على موقف الحكومة الإسبانية بخصوص تواجد الأمير بتطوان ، هو أن القنصل الإسباني لم يكتف بزيارة الأمير و الترحيب به فحسب بل استدعاه لبيته و أقام على شرفه حفلة شاي على الطريقة المغربية، استدعى لها عدة شخصيات إسبانية و حوالي عشرة من المغاربة كان من بينهم باشا المدينة و الشيخ عبد السلام بنونة.

تكمن الأهمية التاريخية لزيارة الأمير لتطوان في تسابق الأهالي لدعوته، الأمر الذي أدى إلى تأليف لجنة وطنية خاصة لتكريم الأمير ترأسها التهامي الوزاني و من أعضائها محمد داوود(1901 – 1984) و عبد الخالق الطريس، و محمد المعمودي، و محمد الوزاني ، و عبد السلام الطنجي، و محمد باغوز، و الحسين عبد الوهاب، و عبد السلام الحاج، و محمد عزيما، و محمد عيود، و كاتبها محمد بنونة و التي وضعت بدورها برنامج الحفلات على شرف الأمير حيث نجد عبد الخالق الطريس في 16 أوت يقيم مأدبة غداء بمنزله³⁴ ، ثم تأتي الحفلة العمومية الكبرى يوم 17 أوت في منزل محمد داوود، حيث كانت حفلة وطنية شارك فيها نخبة من زعماء الحركة الوطنية، و خلالها أوصى الأمير الحاضرين بالنهضة الاقتصادية و العمل لنيل حقوقهم³⁵، و دعا كذلك إلى الجرأة و التضحية بالمال و النفس للوصول إلى حياة العز ، و نصحهم كذلك باقتباس العلوم الأوروبية مع المحافظة على العقيدة و الشخصية الإسلامية و زيارة الأمير فتحت أبواب عدة للوطنيين في الاتصال بالشعوب العربية ، و نصحهم بالتعبير عن غضبهم و استيائهم من فرنسا بالمظاهرات و إرسال الرسائل و الإحتجاج إلى عصابة الأمم.

غادر الأمير تطوان يوم 18 أوت 1930 الموافق لـ 22 ربيع الأول 1349هـ متوجها إلى طنجة، حيث حضر لوداعه عبد الرحمان المنبهي و المختار أحرسان و محمد العرفاوي و محمد داود و فيها استدعته الشرطة التي أعلمته بطرده و بأنه يجب مغادرة طنجة فاعترض الأمير عن ذلك ، و قال بأنه سيغادر بمحض إرادته،³⁶ و في هذا الصدد ، كان بإمكان الإدارة الدولية أن

تمنع الأمير من الدخول إلى طنجة، و سمحت فرنسا بدخوله خوفا من انتشار طرد الأمير من طرف فرنسا أو خوفها من ردة فعل الأمير إزاء ذلك، أو شعوب في المغرب العربي.³⁷

3- الأمير ملهم الحركة الوطنية المراكشية:

تشير كل البحوث في تطور الحركات الوطنية في المغرب عموما و مراكش خصوصا ، بين الحربين العالميتين إلى شخصية الأمير أرسلان و دوره المؤثر ، و الذي يعد مرجعا لهذه الحركات³⁸، و هنا يجمع الباحثون على أن عام 1930 شهد تحول الأمير نحو المغرب ، و بأن عام 1930 شهد إنشاء مجلة الأمة العربية من جهة ، و حصول تطورات خطيرة و مهمة في المغرب من جهة أخرى ، و مجيء الأمير إلى مراكش الذي أوجد ظروفًا ، و نجد كذلك مساهمة الأمير المميزة في بلورة مسار الحركة الوطنية المراكشية بقوة و عمق.³⁹

و من خلال الزيارة استطاع الأمير الوقوف على أبعاد السياسة البربرية التي تطبقها الإدارة الفرنسية في مراكش و في عموم المغرب العربي،⁴⁰ اذ يقول علال الفاسي: " سأكون منكرا لجميل الأمير إذا خليت حديثي عن قوميته من موقفه إزاء القضية المغربية عموما و المراكشية بالخصوص ، و قد كان لحركتنا الوطنية ، فضل الاتصال الأول مع الأمير، حتى كان واحداً من رجالنا، و عمدة من أهم العمدة التي تستند إليها في الحصول على تأييد العرب و المسلمين لقضيتنا...وكان كثير الإعجاب بسير حركتنا الوطنية وتنظيمها ، وكان يعلق آمالا كبيرة عليها لإذكاء الروح العربية في المغرب ، وكانت صلته بي وبأصدقائي صلة الأب الحنون بأبنائه الأبرار والأستاذ العظيم بتلامذته الأحرار ولا أعتقد أنه أحب رجالا كمثلي ما أحب أبناء المغرب ، خاصة محمد الفاسي وأحمد بلافريج".⁴¹

و في تقرير المقيم العام الإسباني لحكومته في 5 سبتمبر 1930 " بأن اللقاء الذي جمع الأمير بزعماء الحركة الوطنية المراكشية، و التي كانت بمثابة مؤتمر وطني اتخذت فيه عدة قرارات"⁴²، و يؤكد المؤرخ جولييان بأن الأمير أسس بتطوان رفقة عبد السلام بنونة القسم المغربي للجنة السورية الفلسطينية لتصبح لجنة سورية فلسطينية مغربية⁴³، رغم أن الأمير أكد للصحافة

في أن هذه الأخيرة لم تحمل أبدا هذا العنوان الثلاثي⁴⁴، حيث أن في زيارته التي دامت عشرة أيام لم يكتف بالبحث و الإطلاع على أحوال البلاد بل أعطى تعليماته و إرشاداته للوطنيين الذين توافدوا عليه من الرباط و فاس ، و هكذا أصبح الأمير المرشد الروحي لأعضاء كتلة العمل الوطني الذين أصبحوا يتمتعون بتأييده و يعملون حسب إرشاداته ، إذن تقلد الأمير لقب مرشد الحركة التي كانت قبل الزيارة حركة سلفية فأصبحت بعد الزيارة حركة سياسية سلفية إصلاحية.⁴⁵

و أصبح عبد السلام بنونة هو أكبر مساعدي الأمير أرسلان نشاطا بالمغرب، كما أصبحت تطوان صلة بين الوطنيين بفاس و الأمير بجنيف منذ 1930.⁴⁶ حيث أصبح موضوع الظهير البربري وسيلة للتظاهر و القيام بأعمال أكثر جرأة واسعة النطاق تحت إشراف الأمير و توجيهاته و في هذا يقول الأستاذ غلاب " أصبح الأمير شكيب بمثابة موجه للحركة الوطنية المغربية يتصل به أفرادها و يكتبونه و يطلبون توجيهاته في كثير من المشاكل ... كما كانوا يكتبون إليه رسائل مطوّلة عن تصرفات الإستعمار الفرنسي و نشاط الحركة الوطنية ".⁴⁷

وافتح الأمير بعد عودته إلى جنيف في أيلول 1931 مكتبا سياسيا أصبح ملتقى الوطنيين المراكشيين الهاربين من السلطات الفرنسية، فانظم إليه أحمد بلافريج، و محمد الوزاني ، و أخذت زيارات قادة الحركة الوطنية مثل بنونة و علال الفاسي و الطريس و مكي الناصري⁴⁸، اذ أصبح دور الأمير في هذه المرحلة هو التثقيف السياسي لعدد من عماد المراكشيين الشباب الذين كانوا يدرسون في أوربا كمحمد الوزاني و بلافريج، و بفضل الأمير انتقلت إليهم أفكار الجامعة العربية.⁴⁹

أصبح مختار أحرسان بائع الكتب في طنجة كوسيط بين الأمير و الوطنيين المراكشيين في كل من فاس و الرباط و تطوان ، حيث كان بلافريج يزوره بانتظام في جنيف⁵⁰، إضافة إلى هذا شمل النظام البريدي الآمن، بالاتصال بين هؤلاء الوطنيين ، بكل حرية كون بريطانيا قامت بإنشاء نظام بريدي منفصل في المغرب غير خاضع للرقابة الفرنسية ، كما سمح الانتشار الواسع

لوسائل الإعلام و الصحافة الأوربية بتسهيل عملية التنسيق و الاتصال، رغم محاولات سلطات الاحتلال إيقافها أو عرقلتها.⁵¹

في 5 سبتمبر 1930 تأسست " الهيئة الوطنية الأولى " المعروفة بالهيئة السرية و كانت تتألف من عبد السلام بنونة و محمد داود، أحمد غيلان، محمد طنانة و محمد بنونة⁵²،

و بإعلان نظام الجمهورية بإسبانيا شارك المغاربة في نضالهم ففي 1 ماي 1930 حررت بتطوان عريضة مطالب الأمة و التي كانت تحتوي على مطالب سياسية⁵³، و تمكن محمد حسن الوزاني رفقة الوطنيين المغاربة من التعاون مع الأمير لحمل حكومة مدريد على توجيه سياستها للتقارب مع العرب في اسبانيا و في شمال المغرب حيث وُفِّقوا في ذلك بدعم من الأمير⁵⁴، و من خلال توجيهات الأمير أصدر الوزاني جريدته "عمل الشعب" باللغة الفرنسية في فاس 1932 و التي أصبحت بدورها منبراً لطرح القضية المراكشية و تعبر عن مطالبهم في المدخل.⁵⁵ وبتوجيه من الأمير قام عبد السلام بنونة بالتنسيق مع أحمد مكار بتأسيس مجلة المغرب في باريس للدفاع عن القضية المراكشية و إمدادها بالمال، و أسندت تحريرها إلى أحمد بلافريج و محمد الوزاني، و تحمل مسؤولية إصدارها جان لونغي⁵⁶، و في هذا الصدد دعا الأمير بتدعيم الطلبة في باريس الذين استمالوا العديد من رجال السياسة و الصحافة لصالح القضية، و بتشكيل لجان و شركات و صحف و دعم و تكثيف طرق الاتصال.⁵⁷

بتأسيس الجمعية الإسبانية العربية في 12 يونيو 1932، والتي عرفت ب "البيت الإسلامي في مدريد" و بالإسبانية Association Hispana islamica Madrid و التي كان من أعضائها الأمير أرسلان و عبد السلام بنونة و بعض المراكشيين، حيث ترأسها رئيس المحكمة الدستورية و كاتبها العام: رافولس و انظم إليها الكثير من رجال السياسة و المثقفين و اتخذ المراكشيون من "البيت العربي" مركز لنشاطهم الذي كان يهدف إلى التقارب العربي الإسباني الذي انعكس بالإيجاب على القضية المراكشية، و بفضل هذا النشاط أسس كرسي الدراسات العربية الإسلامية في جامعة مدريد، و يعود الفضل إلى الأمير الذي ساهم في البعث العربي

الإسلامي في إسبانيا حيث كان يأمل المراكشيون من هذا في تحرير المغرب ابتداء من شماله⁵⁸، و هذا ما جعل عبد السلام بنونة يزور الأمير في جنيف 26-29 يونيو 1932 الذي كان الوسيط بين الأمير و زعماء الحركة الوطنية و الذي يعود له الفضل في إخراج القضية الوطنية إلى الخارج من خلال نشاطه في أوروبا⁵⁹، و من خلال تأسيس الكتلة الوطنية بالشمال 1933 من طرف عبد السلام بنونة و فيها قال الأمير "نجما في أفق المغرب" حيث نجد الإستعمار الفرنسي من خلال صحافته يقول "بأنهما العدوان الكبيران لفرنسا" و يقصد الأمير و بنونة ، و بعد و فاته رثاه الأمير حيث قال قصيدة عنوانها "لو كان مثل بنونة كثير لتحررت هذه الأمة من زمن طويل" فبدأ الأمير يرسل الأستاذ داود صهر بنونة ثم عبد الخالق الطريس الذي خلف بنونة في الزعامة⁶⁰، حيث أسس جمعية الطالب المغربية بتطوان في 23 مارس 1932.

ردا على مراسلات الوطنيين و جمعية الطالب من خلال تنظيمهم حفلة في ذكرى زيارة الأمير لتطوان بمرور 3 سنوات، حيث و صفهم الأمير بنخبة شباب النهضة و دعاهم للإتحاد و الوحدة و شكرهم على تقليده مرشد لحركتهم، و من خلال هذا يتبين الأثر الذي تركه الأمير في نفسية الطريس الذي تعلم منه بأن الحق يؤخذ و لا يوهب،⁶¹ الأمر الذي اهل الطريس بان يصبح محور الحركة الوطنية، و الذي كان يأمل بتزعمه للحركة الوطنية، فكان عليه بأن يتصل بمرشدها الأمير أرسلان بجنيف، لذلك سافر الطريس متوجها إلى جنيف في 6 ماي 1933 حيث كانت محادثاته مع الأمير و التي استمرت إلى غاية 9 ماي 1933⁶²، و يقول المكي الناصري في هذا الصدد "اهتمت بسفركم إلى جنيف جميع الدوائر و الهيئات الإسلامية و الإسبانية و الفرنسية و هو محمول على أنه سفر سياسي"، و في رسالة من مديرية المغرب و المستعمرات رقم 275 بتاريخ 4 يونيو 1932 " بأن الشاب التطواني الطريس سافر إلى جنيف لاستلام تعليمات الأمير الذي منذ زيارته لتطوان 1930، أصبح يتزعم الحركة الوطنية المراكشية و بعد هذه الزيارة أصبحت الحركة تتطور و تصبح أكثر نشاط على غرار ما يقع في المنطقة الفرنسية".⁶³

و من خلال إصلاحات الجنرال نوجيس الذي ألحق بمكتبه عضوين من كتلة العمل هما محمد التازي و محمد عمر الحجوي، و الذي وسع اختصاص الشعبة المغربية في مجلس الحكومة، و تشجيعا للوطنيين في سير سياسة الإصلاح كتب الأمير أرسلان في جريدته الأمة العربية و وصف أعمال نوجيس بأنها مكاسب حقيقية و خطوات إلى الأمام في طريق تحقيق ما ظل الشعب المراكشي يطالب به،⁶⁴ و من خلال الانشقاق في كتلة العمل الوطني حاول الأمير التوفيق بين الزعيمين لكنه فشل، علما بأن عبد الحميد بن باديس قد دعا إلى الوحدة بين الرجلين.⁶⁵ و يقول عبد الخالق الطريس 1935 " من اليوم الذي زار فيه تطوان و الأمير شكيب أرسلان متصل بالمغرب و المغرب متصل به، و بين الجهتين محبة و إخلاص و تعاون و قدر لي أن أكون أحد من يقوم بمهمة الربط بين الوطن العزيز و المركز الذي تتوحد فيه الجهود الإسلامية، و لي بتلك المهمة شرف و فخر".⁶⁶

و من خلال الدور القوي للأمير حيث يتذكر المغاربة نشاط في سير حركتهم قال محمد بن عبود، رئيس الوفد المراكشي بمصر، حيث قال " يتذكر المغاربة ما قدمه إليهم من خدمات و يذرفون دمعاً حاراً على رجل الذي فكر فيهم و عمل لقضيتهم، يوم نسي الكثيرون أن المغرب جزء لا يتجزأ من العالم العربي، يوم لم يكن في الدنيا صوت يدافع عنه سوى صوت الأمير"، و لم يكن خدمات الأمير مقتصرة على الجانب السياسي فقط بل تعدت إلى الناحية الأدبية و العلمية من خلال كتاباته.⁶⁷

اعتبرت علاقة الأمير شكيب أرسلان مع الأقطار المغربية لدى المغاربة من أهم المؤثرات في استنهاض الوعي العربي في المغرب العربي عموماً ومراكش خصوصاً، إذ نجد موقفه المدعّم لثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي وموقفه المعادي للاستعمار الإسباني للريف المراكشي، وكان الأمير من المشاركة الأوائل الذين اهتموا بالمنطقة على أمل استنهاضها وتحريرها، وهكذا نجد العلاقة الفريدة التي نشأت بين الأمير وأقطاب الحركة الوطنية المراكشية، والأثر الذي تركه في أوساطهم، حيث شكلت زيارة الأمير نقطة انطلاق جديدة بالنسبة لعلاقته بمراكش، حيث كانت

أول لقاء للنخبة الوطنية المراكشية و أصبحت تتبلور في ذهن الوطنية المراكشية الفكر القومي العربي في بعده السياسي الصريح ، و كانت لزيارته دور في تمتين النخبة السياسية الوطنية المراكشية مع الأمير، و التعرف على أفكاره عن قرب ، والتي فتحت الباب أمام علاقة أمتن مع الفكرة القومية ومكنت الأمير من الوقوف على أحوال المراكشية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، وبالمقابل تأثر المراكشية بكتاب الأمير لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم ، حيث كان له الأثر البالغ في الأوساط المغربية في النهوض و توعية الشعب، إذ يعتبر حقا في نهج الدعوة، حيث ساهم الشيخ عبد السلام بنونة في نشر هذا الكتاب.

وهكذا نلاحظ الأثر الذي تركه الأمير في مسار الحركة الوطنية المراكشية في كونها كانت سلفية دينية لتتحول بعد الزيارة إلى حركة سلفية سياسية لتباشر نشاطها السياسي ، وكانت لهذه الزيارة تداعيات منها عمل المراكشية بتوجهات الأمير من خلال وفود أقطاب الحركة الوطنية المراكشية لزيارته بجنيف كل من عبد السلام بنونة ، وبعد وفاته نجد الزيارة التاريخية لعبد الخالق الطريس الذي تزعم الحركة الوطنية بعد هذه الأخيرة، وعلال الفاسي محمد بن الحسن الوزاني وغيرهم من الوطنيين. وكانت الرسائل المتبادلة بين الأمير و الوطنيين المراكشية، وسيلة لها أهمية في دعم وإرشاد الحركة الوطنية بتوجيهاته ويتضح ذلك من خلال نشاطاته و لعل أبرزها نجد موقفه المعادي للسياسة الفرنسية البربرية التي كانت تهدف من خلالها فرنسا إلى تنصير البربر، حيث جعل من هذه الأخيرة نقطة انطلاق الحركة الوطنية المراكشية وإرشاداته و توجيهاته تمكن الأمير بالترويج للمسألة البربرية و القضية المراكشية، وإيصالها إلى المحافل الدولية، وعمل الأمير مع كل من عبد السلام بنونة و عبد الخالق الطريس و طلبة المغرب سواء في فرنسا أو في نابلس أو مصر، بإرشاداته في تأسيس "مجلة المغرب" التي خدمت كثيرا القضية المراكشية، وكذلك عن طريق مجلة "الأمة العربية" التي اتخذها الأمير منبرا في الدفاع عن القضايا العادلة في العالم الإسلامي عموما والقضية المراكشية خصوصا.

الإحالات :

- ¹ - ولد الأمير شكيب أرسلان، يوم الاثنين أول ليلة من رمضان المبارك عام 1286 هـ الموافق لـ 25 ديسمبر 1869 م، بالشويفات حارة الأمراء، و الشوف مقاطعة من مقاطعات لبنان و هي تبعد عن بيروت قرابة عشرة أميال، أي حوالي 16 كم و هي فوق ربوة قريبة من البحر أنظر أحمد الشرباصي ، أمير البيان شكيب أرسلان ، ج1، دار الكتاب العربي، مصر 1973، ص.67
- 2- Juliette BESSIS, « Chekib Arslan et les mouvements nationalistes au Maghreb », In **Revue historique**, n°52, juin, 1978, Paris. P.475
- ³ - ولد في 1882 بأجدير في بيت علم وجهاد، تزعم ثورة الريف المعروفة بإسمه في شمال المغرب، أنشأ جمهورية الريف، وإزاء ذلك تحالف الفرنسيون والإسبان عليه وإستسلم ونفي إلى جزيرة ريونيون في بحر الهند توفي بالقاهرة 1963 .
- 4 - أحمد الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و النشر، مصر د.ت.ط، ص.644.645
- ⁵ - محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1939، دمشق 1982، ص.435-436⁵
- أحمد عمايرة، شكيب أرسلان دراسة في فكره السياسي، دكتورا كلية الدراسات العليا الأردن 2000⁶، ص.148.
- ⁷ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.ط، ص. 59
- ⁸ - نفسه، ص.128
- ⁹ - الشرباصي، مرجع سابق، ص.128.129.
- ¹⁰ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، ط2، دار الفكر، سوريا 1984، ص.250
- ¹¹ - ولد عام 1910 م بفاس من أسرة محافظة تعلم في جامعة القرويين ثم التحق بالمدرسة الوطنية للعلوم السياسية بباريس أصدر جريدة عمل الشعب وترأس مجلة المغرب، توفي في فاس يوم 9 سبتمبر 1987
- ¹² - محمد حسن الوزان، مذكرات حياة وجهاد التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحرير المغربية مرحلة الانطلاق والكفاح 1930-1934، ج3، مؤسسة محمد الوزاني 1984، ص.313

- ¹³ - أحمد توفيق المدني، "شكيب أرسلان بطل الجهاد في كل الميادين"، مجلة الثقافة، ع76، وزارة الثقافة الجزائر 1989، ص.73
- ¹⁴ - أحد رواد الحركة الوطنية المراكشية، ولد بتطوان في 1910 م أصدر عدة جرائد منها الحياة والحربة والأمة، وبعد الإستقلال شغل منصب وزير العدل وتوفي بالرباط في 1970. - أنظر الزركلي، مصدر سابق، ج3، ص.291
- ¹⁵ - مولود عويمر، أعلام وقضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر، دار الخلدونية الجزائر 2007، ص. 33
- ¹⁶ - الوزاني، مصدر سابق، ص.314
- ¹⁷ - ولد في 1910م تعلم العلوم الشرعية و اللغوية والقران الكريم، ثم ؟أصبح مدرسا 1932 وياشر نضاله السياسي والذي يعتبر من رواد الحركة الوطنية المراكشية، توفي في 1974.
- ¹⁸ - ولد في 14 فيفري 1888 م بتطوان، تقلد العديد من الوظائف السامية منها وزارة المالية، توفي في مدينة الرندة بإسبانيا في 9 يناير 1935
- ¹⁹ - علال الفاسي، "شكيب أرسلان بين القومية العربية والجامعة الإسلامية"، مجلة دعوة الحق، السنة 03، ع1، إصدار وزارة عموم الأوقاف الرباط 1959، ص.17
- ²⁰ - الطيب بنونة، نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان و الحاج عبد السلام بنونة، ب.ت.ط. 1980، ص.107، 108
- ²¹ - نجيب البعيني، من أمير البيان شكيب أرسلان إلى كبار رجال العصر، دار المناهل بيروت 1992، ص. 256
- ²² - خالد فؤاد طحطح، "نشأت الحركة الوطنية في المغرب"، مجلة كان التاريخية، السنة الثانية، ع04، يونيو 2009، ص.31
- ²³ - الظهير البربري 1930، أنظر، الجريدة الرسمية للدولة المغربية الشريفة المحمدية، ع919، السنة 19، الرباط 6 يونيو 1930، ص ص.1-2-3
- ²⁴ - صالح الخرفي، "عروبة المغرب العربي"، مجلة العربي، ع 322، سبتمبر 1985، وزارة الإعلام الكويت، ص.51

- ²⁵ - حكيم محمد بن عزوز، وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب، مطابع الشويخ 1980، ص.12
- ²⁶ - الوزاني، مصدر سابق، ج3، ص. 310، 313
- ²⁷ - بن عزوز، مصدر سابق، ص.15، 20
- ²⁸ - شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا و سويسرا و إيطاليا و جزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت 1983، ص.09، 10
- ²⁹ - بنونة، مصدر سابق، ص.17
- ³⁰ - نفسه، ص.18
- ³¹ - بن عزوز، مصدر سابق، ص.22
- ³² - نفسه، ص. 24
- ³³ - نفسه، ص.33
- ³⁴ - نفسه، ص.37
- ³⁵ - نفسه، ص.41، 42
- ³⁶ - بنونة، مصدر سابق، ص.26
- ³⁷ - بن عزوز، مصدر سابق، ص.48
- ³⁸ - julitte BESSIS, op, cit, p.467
- ³⁹ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث و أراد في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 120
- ⁴⁰ - كفاح كاظم الخزعلي، "الظهير البربري 1930"، مجلة المؤرخ العربي، ع 36 السنة 14، 1988، ص.123
- ⁴¹ - الفاسي، "شكيب أرسلان بين القومية العربية والجامعة الإسلامية"، مصدر سابق، ص.18
- ⁴² - بن عزوز، مصدر سابق، ص.63
- ⁴³ - نفسه، ص.64

- ⁴⁴ - Charles Rebert AGERON, « la politique berbère du protectorat marocain 1914-1934 », revue **d'histoire moderne et contemporaine**, tome x v 3, paris, janvier – mars, 1971, p.50
- ⁴⁵ - بن عزوز، مصدر سابق، ص. 64
- ⁴⁶ - Robert REJETTE, **les partis politiques marocains**, Edition N :2, librairie Armand, paris, 1955, P.72
- ⁴⁷ - بن عزوز، مصدر سابق، ص. 65
- ⁴⁸ - علال الفاسي، "شكيب أرسلان بين القومية العربية والجامعة الإسلامية"، مصدر سابق، ص. 18
- ⁴⁹ - محمد خير فارس، مرجع سابق، ص. 442
- ⁵⁰ - julitte BESSIS, op, cit, p.480
- ⁵¹ -Jonathan WYRTZEN, **constructing morocco, thecolonial struggle to define the nation 1912-1956**, copyright by jonathan wirtzen all rights reserved, washington, 2009, p.160
- ⁵² - بن عزوز، مصدر سابق، ص. 65
- ⁵³ - نفسه، ص. 68
- ⁵⁴ - الوزاني، مصدر سابق، ج3، ص. 315
- ⁵⁵ - دوجلاس أي أشتفورد، التطورات السياسية في المملكة المغربية، ترجمة: عائدة سليمان عارف و أحمد مصطفى أبو حاكم، دار الثقافة، بيروت، 1963، ص. 47
- ⁵⁶ - بنونة، مصدر سابق، ص. 46
- ⁵⁷ - البعيني، مصدر سابق، ص. 243
- ⁵⁸ - الوزاني، مصدر سابق، ج3، ص. 315
- ⁵⁹ - بنونة، مصدر سابق، ص. 49
- ⁶⁰ - نفسه، ص. 62
- ⁶¹ - نفسه، ص. 49
- ⁶² - بن عزوز، مصدر سابق، ص. 88
- ⁶³ - نفسه، ص. 90
- ⁶⁴ - محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1939 دمشق 1982، ص. 489

⁶⁵ - نفسه ، ص. 483.

⁶⁶ - بن عزوز، مصدر سابق، ص. 1.

⁶⁷ - محمد علي الطاهر، ذكرى الأمير شكيب أرسلان، مطبعة عيسى البائي الحالي و شركائه، مصر 1947، ص. 34.

قائمة المصادر والمراجع :

- أحمد الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و النشر، مصر د.ت.ط.
- شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.ط.
- أحمد الشرباصي، أمير البيان شكيب أرسلان، ج1، دار الكتاب العربي، مصر 1973
- Juliette BESSIS, « Chekib Arslan et les mouvements nationalistes au Maghreb », In **Revue historique**, n°52, juin, 1978, Paris
- محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1939، دمشق 1982
- أحمد عمايرة، شكيب أرسلان دراسة في فكره السياسي، دكتورا كلية الدراسات العليا الأردن 2000
- مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، ط2، دار الفكر، سوريا 1984
- محمد حسن الوزان، مذكرات حياة وجهاد التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحرير المغربية مرحلة الانطلاق والكفاح 1930-1934، ج3، مؤسسة محمد الوزاني 1984
- أحمد توفيق المدني، "شكيب أرسلان بطل الجهاد في كل الميادين"، مجلة الثقافة، ع76، وزارة الثقافة الجزائر 1989
- مولود عويمر، أعلام وقضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر، دار الخلدونية الجزائر 2007
- علال الفاسي، "شكيب أرسلان بين القومية العربية والجامعة الإسلامية"، مجلة دعوة الحق، السنة 03، ع1، إصدار وزارة عموم الأوقاف الرباط 1959
- الطيب بنونة، نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان و الحاج عبد السلام بنونة، ب.ت.ط. 1980
- نجيب البعيني، من أمير البيان شكيب أرسلان إلى كبار رجال العصر، دار المناهل بيروت 1992

- خالد فؤاد طحطح ، "نشأت الحركة الوطنية في المغرب"، مجلة كان التاريخية، السنة الثانية، ع04، يونيو 2009
- الجريدة الرسمية للدولة المغربية الشريفة المحمدية، ع919، السنة 19، الرباط 6 يونيو 1930
- صالح الخرفي، "عروبة المغرب العربي"، مجلة العربي، ع 322، سبتمبر 1985، وزارة الإعلام الكويت
- حكيم محمد بن عزوز، وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب، مطابع الشويخ 1980
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا و سويسرا و إيطاليا و جزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت 1983
- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراد في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996
- كفاح كاظم الخزعلي، "الظهير البربري 1930"، مجلة المؤرخ العربي، ع 36 السنة 14، 1988
- Charles Rebert AGERON, « la politique berbère du protectorat marocain 1914-1934 », revue **d'histoire moderne et contemporaine**, tome x v 3, paris, janvier — mars, 1971
- Robert REJETTE, **les partis politiques marocains**, Edition N :2, librairie Armand, paris
- Jonathan WYRTZEN, **constructing morocco, the colonial struggle to define the nation 1912-1956**, copyright by jonathan wyrzten all rights reserved, washington, 2009
- دوجلاس أي أشتفورد، التطورات السياسية في المملكة المغربية، ترجمة : عائدة سليمان عارف و أحمد مصطفى أبو حاكم، دار الثقافة، بيروت، 1963
- محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1939 دمشق 1982
- محمد علي الطاهر، ذكرى الأمير شكيب أرسلان، مطبعة عيسى البائي الحالي و شركائه، مصر 1947

بصمات الأمير عبد القادر الجزائري

في القانون الدولي الإنساني

Emir Abdelkader Algerian fingerprints In international humanitarian law

د. عبد القادر دوحة

جامعة مليانة

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/14

Abstract :

Highlighting the vulnerability of the current international humanitarian law, foundations and rules set by the Emir Abdelkader since 1837 .. retains. History of the Emir Abdelkader. It marked. During the resistance against the French colonization of Algeria, on promulgating and applying a set of rules about how to treat prisoners of war prisoners from the enemy's army

Key words:

international humanitarian- the Emir Abdelkader- the French colonization of Algeria

حفل سجل البشرية بالحروب و الصراعات ، حتى غدت الحرب سمة من أبرز سمات التاريخ الإنساني . وقد اتسمت الحروب والصراعات في العصور القديمة بالوحشية والمغالاة في سفك الدماء . وبمرور الزمن بدت الحاجة ماسة إلى نوع من القواعد التي ينبغي مراعاتها في أتون تلك الصراعات ونشأت الحاجة والاقتناع المتبادل بضرورة إخضاع القتال لبعض القواعد التي تمليها الاعتبارات الإنسانية.

ورغم أن الجذور الأولى لقانون الحرب وجدت في ظل الأديان السماوية رغم اختلاف مواقفها ، إلا أن المعالجة القانونية لهذه المسألة وتنظيم أبعادها المختلفة بدأت منذ القرن التاسع عشر ، وكانت اتفاقية باريس سنة 1857 م من بين النصوص الرئيسية الحديثة المتعلقة بالحرب ، حيث ألغيت بموجبها القرصنة ومهاجمة سفن العدو و الاستيلاء عليها ، ثم تلت ذلك معاهدة جنيف لسنة 1864 م ، والتي كانت تتعلق بالجنود الذين يصابون بالجروح في ساحة القتال .

وعلى اثر الحرب التي نشبت بين فرنسا وبروسيا في عامي 1870 و1871م ، والتي أظهرت عدم كفاءة الأنظمة العادية القائمة للقانون ، عقد في بروكسل مؤتمر دولي كانت الغاية منه وضع مجموعة شاملة من الأنظمة و القوانين المتعلقة بالحروب . ثم عقد في لاهاي مؤتمرين الأول في سنة 1899م والذي أدى إلى توقيع اتفاقية تتعلق باحترام قواعد وعادات الحرب على الأرض ، والثاني عقد في سنة 1907م في لاهاي أيضا والذي أعاد النظر في الاتفاقية السابقة⁽¹⁾. واعتبرت نصوص هذه الاتفاقيات من أبرز العلامات للرغبة في تخفيف حدة شرور الحرب ، وفي نفس الوقت تكوين قواعد عامة تتصرف بموجبها الدول المتحاربة بالنسبة لعلاقاتها المشتركة وعلاقاتها مع السكان⁽²⁾.

شكلت هذه الاتفاقيات لبنات القانون الدولي الإنساني الذي يهدف إلى حماية الإنسان باعتباره إنسانا ، وصيانة حقوقه لاسيما أثناء المنازعات المسلحة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المسار الطويل كان تحت رعاية اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، التي اتخذت تقليديا مبادرة تدوين قواعد هذا القانون ، وتحت رعاية هذه اللجنة أعدت اتفاقيتي لاهاي السابقتين لعام 1899م وعام 1907م ، ثم بروتوكول جنيف لسنة 1925م و اتفاقيات جنيف الأربعة المؤرخة في 12 أغسطس 1949⁽³⁾ ، لتكتمل بذلك عملية وضع إطار قانوني دولي للحروب بين الدول.

إن استعراضنا لهذه المسيرة الطويلة للنضال الإنساني من أجل أنسنة الحروب ، ووضع قواعد دولية ملزمة تحكم النزاعات الدولية ، يكشف لنا بوضوح أن المفهوم المعاصر لحقوق الإنسان هو في جزء كبير منه ، تراث مشترك للإنسانية ساهمت مختلف الشعوب في تشكيله وصياغته . تكرست المساهمة العربية والجزائرية -على الخصوص -في ممارسات بعض القادة التاريخيين وعلى رأسهم الأمير عبد القادر الجزائري . وهنا نطرح السؤال التالي : بماذا تميزت ممارسات الأمير عبد القادر ، وكيف أثرت في القانون الدولي الإنساني ؟

سنحاول الإجابة على هذا السؤال ، من خلال استعراضنا لعلاقات الأمير عبد القادر ومختلف معاملاته العسكرية مع القوات الفرنسية ، هذه المعاملات التي تميزت بميزة خاصة في تلك الفترة ، لنصل إلى إبراز مدى تأثير القانون الدولي الإنساني الحالي ببعض الأسس والقواعد التي وضعها الأمير عبد القادر منذ سنة 1837 م ، وهذا حتى قبل أن يؤسس هنري دينان (Henri Dunant) لجنة الصليب الأحمر، بل حتى قبل إبرام معاهدة جنيف التي لم تكتمل إلا في عام 1864 م . هذا وسيرتكز تحليلنا على ستة جوانب .

1- معاملة الأمير للأسرى

ما يحتفظ به التاريخ عن الأمير عبد القادر، هو أنه قد عمل أثناء معاركه ضد الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر، على سن وتطبيق مجموعة من القوانين حول كيفية معاملة الأسرى المعتقلين من جيش العدو ، في الوقت الذي هللت فيه فئة المتعلمين والمثقفين الفرنسيين لاحتلال الجزائر ، ووضعت قيم الثورة الفرنسية والقيم الديمقراطية التي كانت تنتجج بها وراء ظهرها ، ويتجلى ذلك بوضوح في تبرير إلكسي توكفيل (Ilexi Tokvil) المعروف بإعجابه بالديمقراطية الأمريكية لجرائم الجيش الفرنسي⁽⁴⁾، وتغاضيه عنها باعتبارها شر لابد منه : غالبا ما سمعت رجالا أحترمهم ولكن لا أتفق معهم يقولون إنه ليس من الأخلاق حرق المحاصيل والمخازن أو الهجوم على رجال ونساء وأطفال عزل ... ، وأكثر من ذلك فقد دعا إلى تخريب ممتلكات الجزائريين لإرغامهم على الاستسلام، فحالة الحرب في رأيه تعطينا حق تخريب البلاد بأن نحرق المحاصيل في وقت الحصاد ، و أن نقوم بغارات مفاجئة لنخطف الرجال والأغنام.⁽⁵⁾

ولقد كان يتم ذلك ، في الوقت الذي كان الأمير عبد القادر يدعو إلى أن أي فرنسي يتم أسره في المعارك يجب أن يعتبر أسير حرب ، وأن يعامل كذلك إلى أن تتاح فرصة تبادلته مقابل أسير جزائري ، كما حرم تحريما قاطعا قتل أسير مجرد من السلاح . ولعل هذا يتوافق مع ما تضمنته المادة الثالثة من اتفاقية جنيف الثالثة التي جاءت بعد أزيد من قرن من الزمن ، والتي

أشارت إلى واجب معاملة من أبعادوا عن القتال بسبب المرض أو الجروح أو الأسر معاملة إنسانية ، دون أن يكون لعنصر اللون أو الدين أو العقيدة أو الجنس أو النسب تأثير على هذه المعاملة .

وهنا نستشهد بما جرى في عام 1841م من تبادل للأسرى بين الأمير عبد القادر وأسقف الجزائر (ديبوش) ، عندما طلب هذا الأخير من الأمير إطلاق سراح أحد السجناء ، وقد رد عليه الأمير بالقول : لقد كان أجدى بك بوصفك عبد الإله وصديق الإنسان ، ليس فقط أن تطلب مني إطلاق سراح أسير واحد ، بل أن أطلق سراح كل الأسرى المسيحيين ، وأضاف مستشهدا بما جاء في إنجيل العهد الجديد ، عامل الآخرين بمثل ما تريد أن تعامل ، موضحا في الأخير قد يكون الأسقف قد أدى مهمته على أحسن وجه ... لو قام بجميل في هذا القبيل ... لصالح عدد مماثل من الأسرى المسلمين القابعين في السجون الفرنسية . وقد تمخض عن هذه المراسلات التي جرت بين الرجلين عام 1941م ، عملية تبادل شهيرة للأسرى بين الجيشين في مكان يسمى سيدي خليفة⁽⁶⁾.

لقد آمن الأمير عبد القادر بوجود قواعد وأسس راسخة للحرب - وهي لا تختلف عن القواعد والأسس الحالية - في رسالة وصلته من (ديميشال) سنة 1833م ، يلتبس فيها من الأمير تحرير بعض الأسرى وقبوعا في أسره ، إن وضعي كما هو لا يسمح لي أن أفعل ذلك (أي مراسلة الأمير) ، لكن شعوري الإنساني يحملني على الكتابة إليك⁽⁷⁾ ، وقد أجابه الأمير بما يلي :

إنك تخبرني أنك بالرغم من مكانتك رضيت أن تكون البادئ في الاتصال بي ، لقد كان من الواجب عليك أن تفعل ذلك بناء على قواعد الحرب⁽⁸⁾.

ويبرز لنا الأمير قاعدة هامة من قواعد الحرب التي ترسخت في ما بعد ، والتي لم يصل إليها المجتمع الدولي رغم التطورات المختلفة ، عندما رغب في عقد صلح من جديد (هدنة) مع الفرنسيين وتعرضه لمعارضة من بعض أفرادهم . حيث دعا إلى مؤتمر عام حضره كل شيوخ القبائل الكبار، وزعماء الفرسان العسكريين والمرابطون ... من أهم ما قاله الأمير في هذا المؤتمر ، أنه

يجب التفريق بين سلام مقبول وسلام مطلوب مبينا بأن القرآن لم يقر أبدا هدر الدم بدون جدوى ، بعد أن استسلم الكفار ونادوا بوضع السيف في غمده ثم عقد معاهدة تافنة .

وتظهر صورة أخرى لإنسانية الأمير، فيما أورده تشرتشل على لسان الأمير حيث قال : كان يظهر لي أن العلم ⁽⁹⁾ هام جدا فعملت على تشجيعه ، حتى لقد عفوت أكثر من مرة على أناس مجرمين محكوم عليهم بالموت لمجرد أنهم طلبه ، ثم أورد مقارنة هامة تجلت في قوله : إن الساكن في كوخ قد يقطع نخلة لا تريحه، ولكن كم سنة يجب عليه أن ينتظر قبل أن يكون في استطاعته أن يذوق ثمار نخلة أخرى يغرسها⁽¹⁰⁾. وقال في موضع آخر: لله الحمد إذا جعل إذا بكنكم في أحبابكم شرا من أعدائكم ، وظفرنا بسببهم رغبتهم في عفونا غنيمة أولئكم ، لو كان الغدر منا عيانا ووثاقتكم بخيانتنا بيانا لكان كلامك وافيا بالمراد ، خاليا من التوهين والعناد ⁽¹¹⁾. وفي ذلك كله إشارة واضحة إلى أخلاق الحرب التي كان يتحلى بها الأمير.

وينطبق نص الفقرة الثانية من المادة (13) من اتفاقية جنيف الثالثة والتي تتعلق بمعاملة أسرى الحرب وعدم تحقيرهم وسبهم ، مع ما أورده تشرتشل بشأن معاملة الأمير للأسرى في قوله : إن العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التي أبداها الأمير عبد القادر نحو الأسرى ليس لها مثال في تاريخ الحروب ، فكلما كان حاضرا كان الفرنسيون الواقعون في قبضته يعاملون كضيوف لا كأسرى حرب ، فقد كان كثير ما يرسل إليهم سريا كميات من النقود تختلف قيمتها من خمسة إلى عشرين دولارا من جيبه الخاص ، وكان يوصي لهم أن يكسوا ويطعموا جيدا⁽¹²⁾.

وإذا كانت المادة (15) من معاهدة جنيف الثالثة تلزم الدولة الحائزة للأسرى أن تتكفل دون مقابل لمعاشهم والعناية بحالتهم الصحية ، فقد ذهب الأمير عبد القادر وأتباعه أبعد من ذلك ، إذ صادفه وأتباعه في إحدى المرات وأن كانوا في شدة من أمرهم وكان من الصعب الحصول على الغذاء ، وأثناء ذلك حدثته نفسه عن الأربع والتسعين سجينا فرنسيا الذين كانوا مرميين في

معسكره وهم في أشد حالات البؤس ، فأطلق سراحهم جميعا بدون فدية أو مقابل ، بل إنه أمر بمرافقتهم إلى المراكز الأمامية حيث سلموا إلى رفقائهم وهم مندهشون من هذا التصرف الكريم . إن الأمير عبد القادر بإنسانيته قد فعل أكثر من مجرد افتتاح عهد جديد في معاملة الأسرى ، فهو الذي بفضلله أصبحت حياة الجنود تنقذ في الميدان ويؤسرون بدل أن يقتلوا ، ذلك أن كلمة أسير في حد ذاتها لم تكن معروفة

ومن مظاهر إنسانيته وسماحته أن أعطى رسالة إلى أحد الأسرى ، وقد كانت رسالة من ضابطه الفرنسي يخبره فيها أنه قد منح وسام شرف لشجاعته وتضحيته من أجل أمن ضباطه ، إذ أشار عليه الأمير أن يتقدم فتقدم ... بوضع خطوات وقام الأمير بنفسه بوضع الوسام المذكور على صدر الأسير⁽¹³⁾ . وقد انطبق ذلك كله مع ما جاء في المادة (71) من الاتفاقية الثالثة ، التي كرست السماح لأسرى الحرب بإرسال واستلام الخطابات . وتتوافق كذلك مع ما جاء في الفصل السابع من المادة (43) من نفس الاتفاقية ، والتي تقر بالزامية الدولة الحائزة على الاعتراف بالترقيات التي تمنح لأسرى الحرب.

هذا ولقد كرس الأمير عبد القادر كذلك ما جاءت به المادة (12) ، والتي جعلت أسرى الحرب تحت سلطة دولة العدو لا تحت سلطة الأفراد ، وذلك من خلال المرسوم الوطني الخاص بمعاملة الأسرى ، والذي أصدره الأمير بعد عقد مؤتمر⁽¹⁴⁾ ضم كل الخلفاء والأغوات والقواد ورؤساء القبائل .

ومما جاء في مضمون هذا المرسوم ، أن كل فرنسي سواء قبض عليه في الميدان أو غيره يجب اعتباره سجيناً ومعاملته بطيبة فائقة إلى أن تحين الفرصة لتبادلته . كما تقرر أيضا في هذا المرسوم الذي قنن المعاملات الحربية ، أن كل من يحضر جنديا فرنسيا أو مسيحيا آمنا سالما فإنه سينال جائزة قيمتها ثمانية دولارات على الذكر وعشرة على الأنثى ، وأن كل من وقع في حوزته فرنسي أو مسيحي فإنه مأمور أن يقوده دون تأخير إلى أقرب خليفة و إلا سيواجه أقسى العقوبات ، وفي حال شكوى الأسير من سوء المعاملة تسقط المكافأة ويرافق ذلك عقوبات.

وقد حدث بعد نشر المرسوم الذي تمخض عن المؤتمر، أن علم الأمير أن أحد جنوده النظاميين قد ضبط وفي يده رأس أحد الفرنسيين فطلب بإحضاره ، ثم سأله بعد أن وضع رأس الفرنسي أمامه : هل كان صاحب هذه الرأس ميتا أو حيا قبل أن تقطع رأسه ؟ فأجابه ميتا ، إذن فإنك ستضرب مائتين وخمسين جلدة لعصيانك أوأمري ، إن هذه العقوبة ستعلمك أنه من الجبن والقسوة أن تمثل بالميت ما دام لم يعد عدوا لأحد... (15)

2- الحرية الدينية للأسرى

فيما يخص حرية الأسرى في ممارسة شعائرهم الدينية والتي كرستها اتفاقية جنيف في مادتيها (34) و (37) ، إذ تحدثت المادة الأولى إضافة إلى حرية الأسرى في ممارسة واجباتهم الدينية ، على حريتهم في حضور الاجتماعات الدينية الخاصة بعقيدتهم ، في حين أكدت المادة (37) على هذه الحرية عندما اشترطت تعيين رجل دين من مذهب الأسرى أو من مذهب مشابه له عندما لا يتوفر في هؤلاء الأسرى رجل دين ، وفي هذا الجانب ، نجد أن الأمير عبد القادر كتب إلى أسقف الجزائر كلمات تستحق أن تكتب بالذهب فقد قال : أرسل قسيسا إلى معسكري فسوف لن يحتاج لشيء ، وسوف أعمل على أن يكون محل احترام وتبجيل لأنه سيكون له وظيفة مزدوجة وهي أنه رجل دين وممثل لك .

وفي هذا الإطار دائما يروي تشرتشل ، أنه ذات مرة صاح سجين فرنسي كان يتقد بالغضب من مجرد الإشارة إلى الردة بحضور الأمير عبد القادر قائلا : أما بالنسبة لي فلن أتخلى عن ديني ، قد تقطعون رأسي ولكنكم لن تقدروا على جعلني أرتد عن ديني ...فرد عليه الأمير : هون عليك فإن حياتك محرمة علي إنني أحب سماع هذه اللهجة ، إنك رجل شجاع ومخلص وتستحق تقديري ، فأنا أحترم الشجاعة في الدين أكثر من الشجاعة في الحرب (16).

3- معاملة الأمير للمرأة الأسيرة

جاء في نص المادة (14) من الاتفاقية السابقة : لأسرى الحرب في جميع الأحوال حق احترام أشخاصهم وشرفهم ، ويجب معاملة النساء من الأسرى بالاعتبار الواجب لجنسهم ، وفي جميع الأحوال يجب أن يحصلن على نفس المعاملة الجنسية التي يعامل بها الرجال . وجاء في الفقرة الثانية من المادة (88) أنه : لا يحكم على النساء من أسرى الحرب بعقوبة أشد ، أو يعاملن أثناء تنفيذ العقوبة معاملة أشد من المعاملة التي يعامل بها النساء في قوات الدولة الحازجة لذات الفعل.

وعند استنطاقنا لمختلف المواقف التاريخية لنستجلي بعض الصور عن معاملة الأمير عبد القادر للنساء الأسيرات ، لم نعثر على أبلغ مما قاله تشرشل في وصفه للأمير، فقد ورد على لسانه أن الأمير عبد القادر كان شديد الإباء من رؤية السجينات ، ذلك أن التفكير في أن تصبح المرأة ضحية للحرب كان في حد ذاته مصدر قلق دائم له . فذات يوم أحضر له فرسان أحد خلفائه أربع فتيات كغنيمة هامة ، فأدار وجهه اشمئزا وقال في سخرية إن الأسود تهاجم الحيوانات القوية أما أبناء آوى فتسقط على الضعيفة منها .

هذا ولقد كانت والدة الأمير (لالة الزهرة) ، هي التي تتولى أمور النساء السجينات وترعاهن فقد كن يقمن في خيمة قريبة من خيمتها تحت حراسة اثنان من حراسها ، ولم يكن أحد يسمح له بالاقتراب منهن بدون رخصة ، وكن يتناولن في كل صباح الزبدة والزيت ومواد أخرى ، وإذا حدث وأن مرضت إحدى السجينات فكانت تواسيها وتعطي لها كل ما من شأنه أن يخفف المرض عنها ، ويوفر لها الراحة من شاي وقهوة ... (17)

4- معاملة ذوي المراتب من الأسرى

أما في ما يخص معاملة الأمير عبد القادر لذوي المراتب من الأسرى ، والمتضمن في نص المادة (44) من الاتفاقية السالفة الذكر فقد قال : إننا لم نميز أبدا بين الأسرى ورجالنا بخصوص الطعام والمأوى ، وحالما رأينا أن بين الأسرى رجالا ذوي مراتب وشرف يزدرون باللجوء إلى الفرار، ميزناهم عن غيرهم بما يتناسب وقد كانوا معترفين بالجميل ... (18) .

كما أن هناك عدد لا يحصى من الأعمال الباهرة التي لا يعرفها إلا الضباط الفرنسيون الكبار الذين اجتمع بهم أو الذين تراسل معهم ، والتي تشهد كلها على سمو همته حتى أن بعضهم كانوا يحرصون على إخفاء تلك الأشياء بقدر استطاعتهم على جنودهم ، لأنهم كانوا يعتقدون أن إطلاع الجنود عليها سينقص من عزيمتهم وحماسهم في محاربة الأمير .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن قواد الأمير وممثلوه ، استلهموا منه تلك المعاملة المهذبة نحو الأسرى إلى درجة أن خليفته ابن علال على مليانة⁽¹⁹⁾ ، كان أسراه يتبرعون بسلاحهم بعد إطلاق سراحهم تكريما له.

5-احترام الأمير للعهود والمواثيق

وينبغي كذلك أن نشير إلى انطباق أعمال الأمير عبد القادر مع ما جاء به البروتوكول الإضافي في بابهِ الثالث ، والذي يوضح ما يجب أن يكون عليه سلوك المقاتلين في أثناء العمليات العدائية ، أي حق أطراف النزاع في اختيار وسائل القتل ليس حقا مطلقا لا تحده قيود ، إذ يحظر قتل الخصم أو إصابته أو أسرهِ باللجوء إلى الغدر ، ويعتبر من قبيل الغدر تلك الأفعال التي تثير ثقة الخصم مع تعمد خيانة هذه الثقة .

ويظهر ذلك بجلاء في عدم خداع الأمير عبد القادر للرسل والوافدين ، واحترامه للعهود والمواثيق ، فقد ذكر في رسالته إلى (ديميشال) قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ...إن وقوع المودة و المداعة بالخير معكم لها شروط في شرعنا ، و أي شرط يشرط علينا لا تحل لنا مخالفته ولو ننقطع دونه عن آخرنا ...حتى إن من تمام الوفاء بالشرط أن المسلم الأسير في يد النصارى ، إذا أمنوه وأطلقوا قيده لا يجوز له الهروب بغير إذنهم في شريعتنا⁽²⁰⁾.

ويبرز الدليل أكثر على احترامه للعهود ونبذهِ لمظاهر الخداع في رده على (ديميشال) دائما الذي بعث إليه برسالتين يطلب فيهما منه وقف القتال ، بعد ذلك رد عليه الأمير :يمكنك أن تثق بأن أي التزام يمكن أن نتوصل إليه سيكون محل احترام من جانبي ... ويمكنك الاعتماد علي لأنني لم أخل أبدا عن كلمتي .حتى أن نابوليون الثالث اعترف بذلك قائلا له عندما كان

في السجن : لقد كنت عدوا لفرنسا ولكنني مع ذلك مستعد أن أقوم نحوك بالعدل الشامل لشجاعتك وشخصيتك وصبرك في الشدة ، وكذلك أشعر بأن الشرف يقتضي أن أضع حدا لسجنك وأن أعتد تمام الاعتماد على كلمتك⁽²¹⁾. وللإشارة فإن مراسلات الأمير مع (ديميشال) توجت بعقد معاهدة سميت باسم القائد الفرنسي نفسه في 1834/12/26م ، نصت على احترام الدين والعادات إلى جانب التمثيل الدبلوماسي ، كما نصت كذلك على تبادل الأسرى وحرية التجارة⁽²²⁾.

6- الأمير والتسامح الديني

لا يوجد أبلغ -في رأينا- على إنسانية الأمير عبد القادر وتسامحه الديني ونبذه للحروب والصراعات ، مما قام به عندما اندلعت الأحداث الدموية صيف سنة 1860م في دمشق ، بعدما قام بعض السكان من (الدروز) بتدبير مؤامرة احتجاجا على فرض الدول الأوروبية على الدولة العثمانية منح بعض الامتيازات للمسيحيين في الشام . وتحولت الأمور بصفة متسارعة إلى مجزرة حقيقية ، فتدخل الأمير عبد القادر وأرسل الرسل إلى بعض أصدقائه من مشايخ الدروز في بداية الحرب الأهلية داعيا إياهم أن يكونوا رحماء معتدلين ثم ذهب إلى العلماء وترجاهم أن يستخدموا نفوذهم لدى الأهالي لتبريد المشاعر وتفادي مثل هذه النكبة المهولة ، بعد ذلك تدخل على رأس فرسانه وأنقذ حياة خمسة عشر ألف نسمة ينتمون إلى الكنيسة الشرقية من الموت . ومما يذكره التاريخ أنه لما طالبوه بتسليم المسيحيين رد عليهم قائلا : إنني لن أسلم إليكم مسيحيا واحدا ، إنهم إخوتي ، فتقهقروا و إلا أمرت رجالي بإطلاق النار. فظهر الأمير حينئذ فوق كل الاعتبارات الضيقة والأنانية للإنسان ، وأن دفاعه عن دينه ووطنه لا يعني كراهيته للآخرين ، ونال إعجاب الدول الغربية التي وجهت له رسائل الشكر والتقدير على شجاعته ومنحه قاداتها الأوسمة اعترافا بإنسانيته ، من بين هذه الدول بريطانيا وفرنسا وروسيا والدولة العثمانية⁽²³⁾...

. كما بعثت له الجمعية الماسونية الفرنسية أكثر من رسالة طلبت منه الانخراط في صفوفها ، إلى أنه لم يوافق على ذلك⁽²⁴⁾.

و تلقى الأمير من الإمام (شاميل) ، الذي قاد ثورة الداغستان ضد روسيا رسالة شكره فيها على إنقاذه للمسيحيين بعد حوادث دمشق ونقلهم إلى داره لحمايتهم⁽²⁵⁾ ، من أهم ما جاء في الرسالة : إلى من اشتهر بين الخواص والعوام ، وامتاز بالمحاسن الكثيرة عن جملة من الأنام ، الذي أطفأ نار الفتنة... واستأصل شجرة العدوان... سمعت أنك خافض جناح الرحمة والشفقة لهم وضربت على يد من تعدى حدود الله... كذلك رضيت عنك والله تعالى يرضيك...⁽²⁶⁾.

وفي الأخير وبعد كل هذا التحليل ، نخلص إلى القول أن مبادئ القانون الدولي الإنساني تستقي نظرتها الشاملة من مصادر القانون الإسلامي وخصوصا ممارسات الأمير عبد القادر، الذي كان مضرب المثل في إنسانيته آنذاك ، ولذلك فمن الخطأ اعتبار بداية القانون الدولي الإنساني مع معاهدة جنيف ذلك أن بعض القوانين التي سطرها الأمير لم تفقد قيمتها حتى اليوم ، فقد صاغ بحكمته وفكره أصول وأسس وقواعد تكفل احترام آدمية الإنسان مهما كان انتماءه العرقي والديني ، وهو ما يتوافق مع إنسانية الإسلام التي تقتضي أن تكون هذه الإنسانية أسرة واحدة ، ولا مطعم في حضارة تلغي المفهوم الإنساني للإنسان.

الإحالات:

(1) عبد الكريم علوان، القانون الدولي العام - حقوق الإنسان والمنظمات الدولية ، ج 2 ، منشأة المعارف، الاسكندرية 2007، ص 227.

(2) المرجع نفسه، ص 228.

(3) عبد العزيز قادري، حقوق الإنسان في الدولي والعلاقات الدولية - المحتويات والآليات ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2004، ص 20.

(4) Paul ,Azan.L Emir Abd-el-Kader du fanatisme musulman au patriotisme français, Edit Hachette,Paris 1925,P20.

(5) أوليفي لوكور غرانميرزون، الاستعمار الإبادة ، تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية ، ترجمة : نورة بوزيدة ، دار الرائد للكتاب، الجزائر 2007، ص 127.

- (6) شارل، هنري تشرتشل (2004). حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر 2004، ص 260.
- (7) رسالة من ديميشال إلى الأمير عبد القادر مؤرخة في 1833/10/12. أنظر: عبد الحميد زوزو، 2006:251
- (8) تشرتشل، مصدر سابق، ص 107.
- (9) الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق: ممدوح حقي، دار البقطة العربية، بيروت 1966، ص 40.
- (10) تشرتشل، مصدر سابق، ص 200.
- (11) رسالة من الأمير عبد القادر إلى ديميشال مؤرخة في 1833/10/30. أنظر: عبد الحميد زوزو، 2006:47
- (12) تشرتشل، مصدر سابق، ص 261
- (13) نفسه، ص 267.
- (14) نفسه، ص 44.
- (15) نفسه، ص 269.
- (16) نفسه، ص 261
- (17) نفسه، ص 264
- (18) نفسه، ص 304
- (19) يحيى، بوعزيز (2002). الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، مطبعة ابن خلدون، تلمسان 2002، ص 79.
- (20) رسالة من الأمير عبد القادر إلى ديميشال مؤرخة في 1833/10/30. أنظر: عبد الحميد زوزو، ص 50.
- (21) تشرتشل، مصدر سابق، ص 110.
- (22) إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية في عهد الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص 28.
- (23) الشيخ أبو عمران، "الأمير عبد القادر والتسامح الإسلامي"، مجلة الدراسات الإسلامية، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، العدد الخامس، الجزائر 2004، ص ص 50-60.
- (24) سامية أبو عمران، "الأمير عبد القادر الجزائري رمز المقاومة الجزائرية"، مجلة المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ص 23.
- (25) Chikh, Abouamrane, Edit Hammouda, Emir Abd-el-Kader résistant et humaniste, Alger 2000, P.106.
- (26) الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية، الإسكندرية 1903، ص 140.

قائمة المصادر والمراجع:

- الأمير عبد القادر، الجزائري (1966). ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق: ممدوح حقي، بيروت، دار البقطة العربية.

- الأمير محمد بن عبد القادر ،الجزائري .(1903) . تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ،الاسكندرية ، المطبعة التجارية .
- اسماعيل ،العربي.(1982). العلاقات الدبلوماسية في عهد الأمير عبد القادر ،الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- الشيخ، أبو عمران .(2002) "الأمير عبد القادر والتسامح الإسلامي" .مجلة الدراسات الإسلامية ، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى،الجزائر. العدد الخامس ، ص ص.50-60.
- أوليفي لوكور ، غرانميزون (2007) ، الاستعمار الإبادة ، تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية ، ترجمة :نورة بوزيدة ،الجزائر، دار الرائد للكتاب.
- عبد الحميد ، زوزو .(2006) . مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشال ، ط3 ،الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع .
- عبد الكريم ،علوان .(2007) .القانون الدولي العام -حقوق الإنسان والمنظمات الدولية ، ج2 ، الاسكندرية، منشأة المعارف.
- عبد العزيز، قادري.(2004).حقوق الإنسان في الدولي والعلاقات الدولية -المحتويات والآليات ،الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع .
- سامية، أبو عمران .(2005) "لأمير عبد القادر الجزائري رمز المقاومة الجزائرية" . مجلة المصادر ، منشورات المركز الوطني للدراسات في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 م ، الجزائر. العدد 11 ، ص ص.17-42.
- شارل، هنري تشرشل .(2004) . حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة وتقديم وتعليق : أبوا القاسم سعد الله ،الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية .
- يحيى، بوعزيز.(2002) .الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري ،تلمسان، مطبعة ابن خلدون .
- Paul ,Azan. (1925).L Emir Abd-el-Kader du fanatisme musulman au patriotisme français, Paris ,Edit Hachette.
- Chikh, Abouamrane.(2000). L Emir Abd-el-Kader résistant et humaniste, Alger,édit Hammouda .

الشهادة الشفوية كمصدر لتاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية

بين الإمكان والضوابط

Oral testimony as a source for the history of the national movement and the Algerian Revolution

أ. بن يغازي أحمد

جامعة خميس مليانة

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام: 2016/07/14

Abstract :

The oral testimony is an important source for the history of events from here Jaect importance of oral testimony in the history of Algerian National Movement and the revolution, for the year 1954-1962.an acceptance of testimony oral history as a source not only an option, but the methodology imposed by the logic of "document deficits" for knowledge of every need historical context and details.

Key Wold :

Certificate Alhvoah- National Movement Algerian- revolution Algerian- historic document

رغم أن اعتماد الشهادة الشفوية في الكتابة التاريخية ليس جديدا⁽¹⁾ لكن الاعتراض على ذلك ولعقود قريبة كان كبيرا، كما أن التشكيك في مصداقية وعلمية توظيف الشهادات الشفوية في عملية التأريخ ظل قائما في المدرسة التاريخية الكلاسيكية، بل: "أن شريحة عريضة من المؤرخين، لاسيما أولئك المنتسبين إلى المدرسة المنهجية، ظلوا حتى وقت قريب جدا يرفضون الاعتراف بالرواية الشفوية مصدرا للمعرفة التاريخية واصفين أياها بالتفاهة والهزال".⁽²⁾

لكن حجم هذا الاعتراض بدأ بالتقلص تدريجيا إلا أن انتفى تقريبا، فقد نجحت نظرية "التاريخ الشفوي"⁽³⁾ في إثبات حجيتها وجدواها، خصوصا مع الجهود العلمية التي بذلت في هذا الشأن من قبل الباحثين في التنظير الفكري، والتأسيس المنهجي لهذا التوجه في الولايات المتحدة الأمريكية وأروبا تحديدا، ومع مرور الوقت غدت الرواية الشفوية إحدى المصادر المعتبرة في

المدارس التاريخية المختلفة، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالفترات التاريخية القريبة وهو ما يسميه البعض ب: "التاريخ الراهن"⁽⁴⁾.

بطبيعة الحال ليس هدف هذه المداخلة هو المناقشة المنهجية للتاريخ الشفوي كأحد حقول المعرفة التاريخية، ولكن هدفها فقط الوقوف عند الشهادة الشفوية باعتبارها مصدرا لتاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، بين الإمكانية الواقعية لها من جهة، وبين الضوابط التي تحتاجها لتتلبس بالمصداقية والقبول، وتساهم في تجلية واستكمال بناء الأحداث التاريخية وقراءتها.

تحديد المفهوم

من المهم ابتداءً تحديد مفهوم الشهادة الشفوية في ظل تعدد المصطلحات التي تنتمي إلى نفس عائلة هذه الأخيرة، كالتاريخ الشفوي، والذاكرة، والتراث الشفهي... وهو ما من شأنه أن يحدث التباساً، أو تداخلاً مفاهيمياً. فالشهادة الشفوية تقوم أساساً على استقاء المؤرخ لمعلومات، أو روايات عن حادثة تاريخية ما ممن كان شاهداً عليها، أو طرفاً فيها، سواء بشكل مباشر من خلال المقابلة، أو بشكل غير مباشر من خلال تسجيلات مكتوبة، أو مسموعة، أو مرئية، يفحصها الباحث ولو لم يكن هو من كتبها أو أجراها.

وقد يندرج تحت هذا التعريف ما يكتبه بعض الفاعلين أو الشهود على شكل مذكرات شخصية، أو ما تجريه الصحف والمجلات ووسائل الإعلام المختلفة من مقابلات وحوارات، رغم التحفظ الذي يمكن أن يبديه البعض من الشهادات التي لا تكون نتاج إشراف مباشر من المؤرخ، ليس باعتباره محاوراً فقط—وهو ما يمكن أن يقوم به أي صحفي—ولكن باعتباره يقيم حواراً على قاعدة فرضيات بحثية مسبقة، تساهم الشهادة الشفوية في تأكيدها أو تعديلها أو نفيها، أي أن: "المؤرخ في هذه الحالة يعيش الأحداث التاريخية التي يدرسها عبر بعض المشاركة فيها أو ممن سمعها من المشاركة، وله إمكانية الحوار المباشر معهم واستيضاحهم في جوانب كثيرة من

الماضي ، كما يستفيد المؤرخ بطريقة مباشرة من الانطباع العام الذي تركته الأحداث اللاحقة في نفس الفرد الذي شارك في صنع الحدث أو شاهده أو سمعه ممن شاهده ⁽⁵⁾.

ولا شك أن هذا التعريف وإن كان يتقاطع مع ما يعرف بالتاريخ الشفوي ، ولكنه لا يتطابق معه ، باعتبار أن هذا الأخير لا يقتصر على المقابلة بل يمتد إلى كل الأشكال التعبيرية الأخرى كالأغنية ، والحكايات المنقولة عبر الأجيال ، وكذا الأمثال الشعبية ، والفلكور ، والتراث عموما ، كما أنه يتجاوز الحدود الزمنية للشهادة الشفوية التي تقتصر على الأحداث القريبة على عكس التاريخ الشفوي الذي يمتد لفترات زمنية أطول ، فضلا عن أنه يتداخل مع حقول معرفية أخرى كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع .

أهمية الشهادة الشفوية :

تبدأ أهمية الشهادة الشفوية من عجز الحصيصة الوثائقية "الوثائق الرسمية المكتوبة" في إكمال إعادة بناء الحادثة التاريخية ، سواء لعدم وجود الوثيقة أصلا ، أو لضياعها ، أو لصعوبة التأكد من صحتها ، أو لعدم كفايتها التفسيرية... وفي هذه الحالة يقف المنهج التاريخي الصارم الذي يأخذ بمبدأ - لا تاريخ بدون وثائق - عاجزا غير قادر على الاستمرار لأنه سيتناقض مع مبدأه.

فالقبول بالشهادة الشفوية كمصدر تاريخي لم يكن فقط خيارا ، ولكنه ضرورة منهجية فرضها عجز منطق "الوثيقة" عن الإلمام بكل حيثيات وتفاصيل السياق التاريخي. وتزداد أهمية الشهادة الشفوية أكثر عندما يتعلق الأمر بدراسة حركات نضالية ، أو ثورات شعبية على غرار الحركة الوطنية والثورة الجزائرية ، التي يفرض طابعها درجة عالية من السرية ، وتجنب استخدام الوثائق إلا على نطاق ضيق ومحدود حذرا من انكشاف أسرارها ، أو أفرادها .

ولذلك فإن رصيد الثورة الوثائقي ، ومن قبلها الحركة الوطنية ، ليس كبيرا بالحجم الذي يغطي كل أحداثها ومراحلها ، ويفسر كل وقائعها وتطوراتها ، مما يجعل من : " الخطأ الاعتقاد ، أنه بالإمكان الاكتفاء بتطبيق المنهج التاريخي الكلاسيكي ، الذي يعتمد أساسا على الأرشيف

الوثائقي ، فالواقع يؤكد لنا يوميا مدى الصعوبة التي يجدها الباحث في العثور على وثائق ، تخص البحث في بعض المواضيع ، ومنها بشكل خاص الأحداث التي عرفتها الثورة الجزائرية بداخل البلاد ”⁽⁶⁾.

صحيح أن كما معتبرا من الوثائق حول الثورة الجزائرية ، وكذا نشاط الحركة الوطنية ، وتاريخ الجزائر عموما موجود في مراكز الأرشيف بفرنسا ، وفي بعض المؤسسات والهيئات التي كانت لها علاقة بالجزائر خلال فترة الاحتلال كوزارة الدفاع والخارجية...ولعله يمثل الجزء الأكبر والأهم من الأرشيف الإجمالي المتوفر عن هذه الفترة ، لكن الاطمئنان إليه بشكل كامل في الكتابة التاريخية غير محصن من التزييف ، والدس ، أو الانتقائية في عرض بعض من الوثائق ، وحجب بعضها الآخر بما يتوافق مع المصالح الفرنسية ، كما إنه يمثل في الغالب وجهة النظر الفرنسية من خلال التقارير التي كانت تصدر عن الهيئات الرسمية المدنية والعسكرية . بطبيعة الحال هذا لا ينقص من أهمية الوثيقة المكتوبة ، ولا يلغي ضرورتها للبحث التاريخي ، ولكن في المقابل لا يجعلها المعادل الوحيد للحقيقة ، كأنه لا تاريخ بدونها . إن الشهادة الشفوية من شأنها إذا تم التعامل معها بطريقة منهجية ، ووفق ضوابط دقيقة ، إن في جمعها ، أو في استقراءها ونقدها ، أو في توظيفها ، أن تسد فراغا كبيرا في الكتابة التاريخية ، خصوصا حول الثورة الجزائرية.

لعل الإضافة النوعية للشهادة الشفوية التي تستحق الإشارة ، أنها لا تصف الحدث فقط من زاوية من يرويها ولكن : ” تعبر كذلك عن شيء من العلاقة بين الماضي والحاضر والامتدادات بينهما ، لأن رواية الأفراد يعكس إلى حد ما خلفياتهم المعاصرة لأنهم يتأثرون بالمحيط الاجتماعي السائد ، وبحياتهم الحاضرة . فالفاعل التاريخي لا يصف الماضي الذي يعرفه من خلال مثل وقيم موجودة في ذهنه ”⁽⁷⁾.

وبقدر أهمية هذه الخصيصة في الشهادة الشفوية إلا إنها لا يجب أن تغيب عن وعي المؤرخ في الفصل بين الحدث كما وقع ،وبين انطباع الفاعل عنه ،وهو ما سنناقشه لاحقا .
محاذير الشهادة الشفوية :

إن هذا الاستطارد في الوقوف عند أهمية الشهادة الشفوية، لا ينبغي أن يحجب وجهة بعض التحفظات التي يبدئها بعض المنهجيين اتجاهها، وهي بالمجمل قابلة للتجاوز إذا ما روعيت في عملية البحث، واستبطنت في جميع مراحل التعامل مع هذه الشهادة .
وأغلب هذه التحفظات تنطلق من أن الشهادة الشفوية تصدر عن فرد طرف أو شاهد ،يمكن أن تؤثر على شهادته مجموعة مؤثرات تتمحور في عمومها في مايلي :

1 - علاقة الشاهد بالحدث تبنيًا وتأييدا أو رفضا ومعارضة ،وهو ما من شأنه أن يفسح المجال له لكي لا يذكر من الواقعة إلا ما يتوافق مع موقفه منها ،أو يضيف إليها بما يعزز معتقداته وتصوراتها عنها، وهو ما يسمى في المنهج التاريخي بالذاتية ،مع ملاحظة أن هذا التحفظ قد يشمل أيضا الوثيقة المكتوبة ،وهي ليست بريئة منه في كل الأحوال، فهي تعكس وجهة نظر وميول من كتبها أو أصدرها ،كما تعكس الشهادة الشفوية ميول من يدلي بها ،وتبقى هنا نباهة المؤرخ وحرفيته في التعامل مع الشهادة أو الوثيقة لتقدير منسوب الأمانة في ما سمع او في ما قرأ،وقد تكون الشهادة الشفوية من هذه الناحية : " أكثر مصداقية من الأولى - أي الوثيقة - لأنها تأتي بعفوية ،بالإضافة على صعوبة مراقبة ما يصرح به صاحبها، إلا أنها شحيحة من ناحية المعلومات عكس المكتوبة منها." (8)

2 - ومن كون الشاهد فردا ،أو حتى مجموعة أفراد ،فقد تكون روايته للحدث مجرد رؤية من زاوية محددة، لا تسمح بالنظر إليه في صورته الشاملة والكلية ،أي أنه ليس تاريخا ،قد يكون ذكريات ،أو انطباعات ،أو في أحسن الأحوال مجرد وقائع فردية ،لكن لا تندرج ضمن سياق تاريخي أشمل ،فرواية مجاهد ما ،لتفاصيل معركة ما، في زمن ما ،في مكان ما ،خلال ثورة

التحرير وفقا لهذا التحفظ، قد لا تعبر عن الصيرورة الكلية للثورة، وقد لا تكون ذات دلالة كبيرة في مسارها، ولكنها بالنسبة لراويها قد تكون حدثا محوريا ومفصليا، ويزداد هذا التحفظ إلحاحا من وجهة نظر المدرسة التي تحصر التاريخ فقط في الأحداث الكبيرة، والتحويلات الضخمة، وتقفز تماما على دور الفرد، والأحداث الصغيرة، في رسم مجرى التاريخ أو في تفسيره.

3 — تأثير كفاءة الشاهد العقلية والصحية على شهادته، خاصة في ما يتعلق بتأثير ضعف الذاكرة بفعل تقدم السن، مما يجعل تذكر الأحداث وخاصة في تفاصيلها — وقد تكون هي الأهم — نسبية، أو ربما محل شك وتردد أو عدم يقين، وذلك ما يחדش من مصداقية الشهادة. بطبيعة الحال هذا الأمر ليس مطلقا، فقد يحتفظ البعض بقوة ذاكرته رغم تقدم السن، وقد تضعف ذاكرة من هو أصغر، لكن المشكلة ليست في قوة حضور الذاكرة عند الشهادة، ولكن في ضعف حضورها عند الحاجة إليها.

فإذا افترضنا مثلا أن شاهدا ما كان سنة 1945 في سن العشرين، فسيكون سنة 2015 في سن التسعين إن أطل الله في عمره، أي أن الزمن الذي يفصله عن أحداث الحركة الوطنية التي عاشها قبل 1954 هو في حدود ستين سنة، أما الزمن الذي يفصله عن الثورة التحريرية، فهو في حدود خمسين سنة، فهل بإمكان الشخص العادي أن يتذكر تفاصيل الأحداث البعيدة بهذا المدي بالكفاءة المطلوبة ما لم تكن قد سجلت في وقت سابق؟

4 — إمكانية أن يمزج الشاهد — وهذا محتمل جدا — روايته للحدث كما وقع في حينه أي في فترة وقوعه، مع انطباعه عنه بما تراكم لديه بعد مرور الوقت من خبرات وتحويلات نفسية وفكرية، وكذلك مع ما حصل في الواقع من تغيرات وتطورات، وهو ما يعني ان صورة الحدث في ذهن الشاهد لم تعد كما كانت في نسخته الأولى والأصلية، وبقدر ما يمكن أن نعتبر ذلك خصيصة تتميز بها الشهادة الشفوية، عن الوثيقة المكتوبة، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، بقدر ما يمكن أن

تدفع بالشاهد إلى تعديل ليس روايته للحدث فحسب ،ولكن الحدث في ذاته ،وهذا ما لا يخدم مصداقية الشهادة.

5 - إذا كانت التحفظات السابقة تتعلق بشخص الشاهد ،فإن تحفظات أخرى ترتبط بالبيئة التي تحيط بالشاهد ،ومقدار ما يتوفر فيها من حرية وقدرة على الإدلاء بالشهادة ،بدون ضغوط من أي نوع ومن أي جهة ،ومن دون تخوف من ردود أفعال محتملة في حالة إذا ما صرح الشاهد بما يعرفه .

ويزداد تأثير التحفظ كلما تعلق الأمر بقضايا خلافية أو جدلية،أو بمستوى معين من مستويات الأحداث، ولعنا نستحضر هنا ما أثارته مذكرات المجاهد علي كافي رحمه الله عند صدورها من جدل إعلامي وسياسي وصل حتى قاعات المحاكم .

وهذا ما يفسر إجماع الكثير من الفاعلين في الثورة الجزائرية - ومنهم من غادرنا إلى الأبد - عن تقديم شهادتهم، وفيهم من كان يحتل مواقع ريادية ،والأكيد أن ذهابهم هو ذهاب لجزء من تاريخ الثورة ،واكتفى البعض الآخر بشهادات عامة ،أو اقتصرت شهادتهم على فترات زمنية معينة ،تجنباً لردود فعل محتملة .

6 - كما أن فرصة تقديم الشهادة ليست متاحة للجميع بنفس القدر ،فقد لا يكون الشاهد قادراً من الناحية المعرفية والمنهجية على تسجيل شهادته بشكل يجعلها قابلة للاستعمال التاريخي ،خصوصاً وأن نسبة كبيرة من مجاهدي ثورة التحرير أميون ،ويحتاجون إلى من يساعدهم على الحفر المدروس في الذاكرة ،وفي الصياغة السليمة للشهادة .

ولعله من المهم الإشارة هنا إلى أن كميات معتبرة من الشهادات عن الثورة الجزائرية قد جمعت عبر مختلف ولايات الوطن من طرف مديريات المجاهدين ، وكذا شهادات أخرى من طرف المركز الوطني للبحث في تاريخ الحركة الوطنية والثورة⁽⁹⁾ وهي تشكل مادة خام مهمة أمام

الباحثين في تاريخ الثورة الجزائرية ، ولكن ليس من المؤكد توافر هذه الشهادات على الشروط المنهجية اللازمة .

7 —إن الإخراج النهائي للشهادة الشفوية تتوقف على مهارة صياغتها بشكل صحيح ، وإذا ما تجاوزنا الشهادات التي يقدمها أصحابها بأنفسهم عبر التصريح أو الكتابة ، فإن المؤرخ يتحمل المسؤولية المباشرة في الصياغة الآمنة للشهادة بحيث تعكس بشكل دقيق رؤية الشاهد للحدث ، ويأتي التحفظ من إمكانية تحكم ناقل الشهادة في صياغتها بشكل تعبر عن ميوله وتصوره هو وليس نظرة الشاهد .

ضوابط التعامل مع الشهادة الشفوية

ليس هناك من شك أن التحفظات التي ذكرناها أعلاه وجيهة ، وأنها إن لم تؤخذ بعين الاعتبار فستعزز موقف من يعترضون على اعتماد الشهادة الشفوية ، وتضعف من علمية الكتابة التاريخية وتجعلها أقرب إلى النصوص الإنشائية غير الموثقة ، ويصير احتمال الدس وحضور الذاتية المفرطة ، وتوجيه الحدث التاريخي ، احتمالا واردا .

إن الالتزام بالضوابط المنهجية هو الذي يعطي قيمة للشهادة الشفوية ، بحيث تلعب دورا مكملا بالنسبة للوقائع التي تسندها الوثائق الأرشيفية ، ودورا رئيسيا بالنسبة للوقائع المفتقرة للتوثيق ، وهذا ما يثبت حضورها في كلا الحالتين ، بدون أن يعني ذلك أنها تشكل بديلا عن الوثائق في حالة وجودها ، ولا مصدرا أقل أو أكثر أهمية منها .

من جملة الضوابط التي تشرعن استغلال الشهادة الشفوية كمصدر يستثمره المؤرخ إضافة إلى المصادر الأخرى ما يلي :

1 —إخضاع مصدر الشهادة لمعايير المصادقية ، من حيث كونه مؤهلا لتقديمها ، ومدى العلاقة التي تربطه بالحدث المروي ، وأطرافه ، وحدود استعداده للتجرد من ذاتيته ، ورواية الواقعة بجميع المعطيات التي يملكها ، وقد لا يكون هذا الأمر متاحا بشكل مطلق ، كما أن قياس هذه

المعايير ليس ميسورا، وهو يعتمد على حدس المؤرخ، والدفع بالشاهد من خلال الحوار الذكي، والأسئلة الكاشفة ليقدم كل ما عنده، ولا استدعاء الذاكرة العميقة له. وهذا لا يعني أن نواجه الشاهد بهذه المعايير كشروط مسبقة، لأن من شأن ذلك أن يحد من عفويته في الإدلاء بالشهادة، كما لو أنه أمام محقق، ولكن نتركه ليتحدث على سجيته، مع أخذ المعايير المذكورة بعين الاعتبار أثناء استقراء الشهادة، أو أثناء مقارنتها بغيرها من الشهادات المتعلقة بنفس الحدث.

2 - التعامل مع الشهادة ليس باعتبارها تاريخا، ولا نسخا للحدث: "بل أثرا للواقعة على عقل ناقلها أو شاهدها أو الموكول إليه تسجيلها، فهي في النهاية مجرد تمثيل أو علامة... وبالتالي يكون تقدير قيمتها من تقدير الجوانب الخفية في شخصية صاحبها."⁽¹⁰⁾

وهذا الاعتبار هو الذي يفسر تناقض بعض الشهادات الشفوية بين أكثر من شاهد في الواقعة نفسها، وليس ذلك إلا نتيجة طبيعية لاختلاف تمثيل الحدث في ذهن، وليس لاختلاف الحدث نفسه، وهو ما يفرض على التعامل مع الشهادة الشفوية منهاجا مقارنا سواء بين الشهادات المختلفة، أو بينها وبين الوثائق الأرشيفية، ليحدد مساحات الاتفاق ومساحات الاختلاف، فإن لم يسعفه ذلك فعليه أن يوسع التحري إلى مقارنة الشهادات مع مصادر أخرى كالصحف الصادرة زمن الواقعة، أو الكتابات التاريخية المتزامنة، أو حتى بزيارة مواقع الحدث لعل ذلك يقدر في عقله من خلال الملاحظة المقربة ما يرجح به الصحيح من غيره، وعلى عكس ما يعتقد البعض فإن تناقض الشهادات أمر إيجابي للمؤرخ قد تتيح له التعامل مع كل الاحتمالات، وهو ما يقربه من الحقيقة أو يوصلها إليها، وفي ممارسة عملية الترجيح بين نقاط الاختلاف على الباحث أن: "يقوم بعملية نقد لذاته، لأنه من الممكن جدا أن تكون له نفسه ميولات إلى تفسيرات وقراءات محددة، بفعل عوامل إيديولوجية أو جهوية أو ثقافية أو طبقية..."⁽¹¹⁾ تجعله يتبنى شهادات دون أخرى بغير وجه حق.

3 —التحضير الجيد لإجراء المقابلة الشفوية ،بالقراءة عن موضوعها،وعن الأحداث القريبة منها وذات العلاقة بها قبل إجراء المقابلة ، لاستخدام تلك الخلفية في استقصاء الشاهد ،واستفزاز ذاكرته ،ومساعدته من خلال الأسئلة الدقيقة ليستذكر التفاصيل المعرضة للنسيان ،أو تشجيعه ليتكلم عن بعض مفصل الحدث المروي التي يتقصد لسبب أو لآخر تجاوزها والتغافل عنها .ويمكن هنا تعمد عدم الاكتفاء بقاء واحد وتكريره لأكثر من مرة مع مراجعة ما تم تسجيله ،ثم استغلال اللقاءات التالية لاستجلاء ما كان مبهما ، أو استكمال ما كان ناقصا ، أو التأكد مما كان غامضا.

4 —عدم الاكتفاء في جمع الشهادات بنوعية معينة من الشهود ،بالتركيز مثلا على الفئات القيادية ،أو الأسماء المتداولة إعلاميا،فقد تكون بعض الشهادات من فئات بسيطة أكثر مصداقية وعمق ،لأنها تتكلم بعفوية ،وبدون خلفيات ولا حسابات ولا طموحات أيضا ،وهو ما يجعلها في روايتها للأحداث أكثر صدقا، ولعل تردد وامتناع بعض الفاعلين في الثورة من القيادات والرموز في تسجيل شهاداتهم،أو كتابة مذكراتهم إلا دليل على ذلك⁽¹²⁾.

5 — الحرص عند تحرير الشهادة الشفوية بشكل مكتوب على النقل الأمين لرواية الشاهد بدون تصرف في المحتوى حتى ولو بدا غريبا،أو غير منسجم مع قناعات الباحث،مع الاكتفاء في حالة الاقتضاء بالشرح والتعليق على هامش متن الشهادة .

وعند استعمال الشهادة الشفوية في تركيب الحادثة التاريخية ، أو إنتاج المعرفة التاريخية،فيجب الحرص على عدم اجتزاء الشهادة، أو إخراجها عن سياقها،أو انتقاء الشهادات بما يوافق هوى الباحث وميوله ،أو موضعتها في الكتابة التاريخية بشكل يجعلها تخدم حكما مسبقا،أو تفسيرها بغير مقتضى لفظها وأسلوب صياغتها ومقصد مصدرها.

إن تمثل هذه الضوابط أثناء التعامل مع الشهادة الشفوية جمعا ،واستقراء،وتوظيفا هو الذي يعطي لها شرعية في البحث التاريخي ،ويمكن لها كإحدى المصادر التي لا يمكن للباحث

التاريخي أن يستغني عنها، وتساهم في نفس الوقت في الإحاطة بالأحداث التاريخية من جميع جوانبها، وإن الثورة الجزائرية في أمس الحاجة إلى استثمار التراث الشفوي كمصدر لتدوين تاريخها خصوصا أن الجيل الذي صنعها وكان شاهدا عليها يكاد يغيب تماما، بدون أن يعني ذلك إمكانية الإحاطة التامة بحقيقة الحدث، وصدق من قال: "إذا فكر المؤرخ في أن ما يكتبه لابد وأن يكون محققا مقطوعا بصحته، فإنه لن يستطيع أن يكتب أي تاريخ".

الإحالات :

(1) منذ القديم كان المؤرخون يعتمدون على الرواية الشفوية في التدوين التاريخي، ومعظم ما كتب منذ قدماء اليونان والرومان ومن بعدهم العرب والمسلمين كان شفويا في مصدره، ولعل إبداع العرب والمسلمين في تدوين أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته والتاريخ من بعد ذلك من خلال علم الجرح والتعديل والإسناد والرواية إلا دليل على أهمية الشهادة الشفوية .

(2) فتحي ليسير: تاريخ الزمن الراهن، ط1، دار محمد علي للنشر، تونس. 2012، ص

122.

(3) التاريخ الشفوي غير الشهادة الشفوية ويعرف كما يلي: "منهج بحث وظيفته دراسة الماضي من خلال ذاكرة منطوقة قوامها روايات الأفراد واستحضاراتهم عن حياتهم وخبراتهم ومشاهداتهم لاسيما تلك التي شاركوا أو كانوا مجرد شهود عيان عنها. وتحمل هذه الروايات والاستحضارات ترتيبا كرونولوجيا"، وقد تم التأسيس لهذا التوجه في الولايات المتحدة الأمريكية، وأصبح له جمعيات ومراكز متخصصة. للمزيد أنظر: فتحي ليسير: تاريخ الزمن الراهن .

(4) يطلق مصطلح التاريخ الراهن على محاولة بعض المؤرخين الكتابة عن الأحداث القريبة بالاستناد إلى الشهادة الشفوية والصحافة... وتجاوز النظرية القديمة التي ترى أن الكتابة التاريخية لابد أن تكون على مسافة بعيدة عن الحدث على الأقل بخمسين سنة، أو ربما أكثر

لتستطيع تناوله بطريقة شاملة وموضوعية. ويشار إلى هذا التوجه بمصطلحات أخرى من قبيل: التاريخ الجاري، التاريخ الفائر، التاريخ القريب... وذلك للتمييز بينه وبين التاريخ المعاصر. للمزيد أنظر فتحي ليسير .

(5) عبد الله بن ابراهيم العسكر :أهمية تدوين التراث الشفوي كمصدر ،دراسة منشورة على الموقع الإلكتروني لجامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية ،تاريخ المعاينة: 2015/10/16، ص 5.

(6) رايح لونيسي ،منهج التعامل مع الشهادات والمذكرات عند كتابة تاريخ الثورة الجزائرية (شهادات بن يوسف بن خدة نموذجاً)،مجلة عصور ،العدد 6-7، جوان -ديسمبر 2005، ص 22.

(7) محمد مجاود ، أهمية المنهج الشفوي في الكتابة التاريخية ،مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية ،عدد خاص ،ديسمبر 2012، ص10.

(8) رايح لونيسي ،نفس المرجع ، ص 24.

(9) في يوم دراسي من تنظيم كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بجامعة خميس مليانة ،وبمشاركة المتحف الوطني للمجاهد، يوم 21 أكتوبر 2015 صرحت ممثلة عن المتحف أن هذا الأخير يتوفر على أكثر من ستة آلاف شهادة حية مسجلة ،وأن المتحف بصدد ترتيبها وفهرستها لجعلها في متناول الباحثين في تاريخ الثورة الجزائرية .

(10) محمد المازوني ، من قضايا البحث التاريخي مقدمات أولية ، جامعة ابن زهر، أكادير ،المغرب .2012، ص 11.

(11) رايح لونيسي ،نفس المرجع ، ص 25.

(12) ومن هؤلاء مثلا راجح بيطاط (أحد أعضاء لجنة الستة)، محمد بوضياف (عضو لجنة الستة ومنسقها)، بن طوبال (أحد قادة الثورة البارزين)، عبد الحفيظ بوضوف (مؤسس جهاز المخابرات أثناء الثورة التحريرية)...الخ.

حملة الكونت أورلي «Orelly» على مدينة الجزائر سنة 1775م

Count campaign «Orelly» on the city of Algeria in 1775

تومي الطاهر

طالب دكتوراه جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام: 2016/07/07

Abstrat :

El Conte Oreilly expedition had formed one of fights Alger- Spanish which had began at the time of province establishment in 1520 by leader Kheir Eddine Barbarous after the death of his two brothers Isaac and Aroudj by Spanish colonial, however this struggle some of modern Spanish military defeating , historians mentioned that el Conte Oreilly is as Charl the 5th in Algiers in 1541 regarding to huge or weak kinds of military and materials that is reached by Spanish to succeed and enjoy the village once to its owners where as the power of province and its leaders had given up their demands goals those who lose al to as formers in spite of the fact that Spanish ho se and fa ul from struggles it ironld recolonise once again.

key words:

expedition - Alger - Spanish - province- military.

توقفت الهجمات الإسبانية على مدينة الجزائر منذ بداية القرن السابع عشر وإلى غاية حملة 1775م التي تعد الأولى خلال القرن الثامن عشر، بعد الحملة على وهران والمرسى الكبير سنة 1732م والتي أسفرت عن إعادة احتلال المدينتين¹، كما أنها تأتي بعد فشل الحملة الدانماركية عامي 1770 و 1772م²، وكان الدول الأوروبية اتفقت فيما بينها على إنهاء الإيالة الجزائرية كل مدة بحروب متقطعة هدفها السيطرة عليها وإخضاعها، وفي كل مرة كانت دولة من هذه الدول الأوروبية تلعب الدور ذاته، فتارة إسبانيا ومرة فرنسا وإنجلترا وتارة أخرى الدانمارك وغيرهم.

تعتبر هذه الحملة من أهم الحملات التي وجهتها إسبانيا ضد الجزائر، بل يذهب الكثير من المؤرخين بتشبيهها بحملة شارل الخامس التي قادها بنفسه على مدينة الجزائر

محاولة منه لإخضاعها واحتلالها، إلا أنه مني بهزيمة نكراء، اعتزل على إثرها السياسة وتخلّى فيما بعد على الحكم لابنه فليب الثاني (1556-1598م)، لتنتهي حياته في إحدى الكنائس اسمها يوست "Yuste"³. وقبل التطرق لأسباب الحملة ووقائعها أردنا التطرق لأوضاع البلدين قبيل هذه الحملة.

1- الوضع العام للبلدين قبيل الحملة

أ-إسبانيا

تولى حكم إسبانيا في هذه الفترة شخصية قوية تمثلت في كارلوس الثالث (1758-1788م) الذي كان له مشروع طموح لتطوير بلاده وجعلها من أهم دول أوروبا في ذلك الوقت، فحاول إدخال إصلاحات جديدة، مست جميع القطاعات السياسية، العسكرية، الصناعية، الفلاحية والمالية، ولذلك نال بعد 10 سنوات من مباشرة هذه الإصلاحات لقب "الطاغية المستنير"⁴.

أما على المستوى الخارجي فقد حاول أن يجعل من إسبانيا دولة قوية مثلما كان عليه الحال بداية القرن السادس عشر ميلادي، حتى تستطيع مواجهة الدول الأوروبية خاصة فرنسا وإنجلترا اللتان كانتا تهددان إسبانيا دائما، وما إن تمكن كارلوس الثالث من تأمين الجبهة الداخلية بعد نجاح الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي قام بها، وإنهاء الحرب داخل أوروبا، حتى بدأ يوجه أنظاره نحو الجزائر التي كانت تمثل بالنسبة له العدو الأول الذي يجب القضاء عليه، ولذلك ما إن حلت سنة 1774م حتى كان مستعدا للهجوم على مدينة الجزائر، معتمدا على خطة تقضي بهاجمتها بحرا وبراً للقضاء على تهديدات "مهد القرصنة"⁵ كما كان يسميها الأوروبيين في ذلك الوقت.

ب-الجزائر

تولى حكم الإيالة الجزائرية في هذه الفترة محمد بن عثمان باشا⁶ خلفا للداي علي "الملقب ببوصبع" وكان يحمل مشروعا حضاريا أساسه إعادة هيكلة الدولة الجزائرية داخليا وخارجيا، لعلمه أنها كانت تعيش حالة من الفوضى والتدهور، زاد الأوضاع خطورة الاحتلال الإسباني، الذي قرر محمد بن عثمان تصفيته نهائيا حتى يستطيع توحيد كامل الإيالة وإنجاح مشروعه الحضاري.⁷ فعلى الصعيد الداخلي انتهج سياسة تعتمد على الكفاءة والقدرة في اختيار الرجال، سواء المتعاونين معه في إدارة شؤون البلاد بمدينة الجزائر، أو على مستوى البايلاكات الثلاث، فكان يولي من يستحق الولاية ويعزل من يستحق العزل.⁸

ولعلمه بما كان يحيكه الإنكشارية من مؤامرات داخل الإيالة، بدأ في التقليل من عددهم وعمل على تأديبهم وتنظيمهم، فمنعهم من حمل السلاح أثناء التجول بالمدينة وشدد على تنفيذ أوامره⁹ لذلك كثرت تمرداتهم ومحاولات قتله، لكنه استطاع القضاء على هذه المؤامرات وقرر لأول مرة في تاريخ الحكم العثماني للجزائر منع دخول الأشخاص المسلحين قصر الداى وتفتيش كل من يريد الدخول إلا ضباط الحكومة وضباط حراس القصر¹⁰ بالإضافة إلى قمع القبائل المتمردة مثل: قبائل فليسة بجرجرة وقبائل بجاية التي رفضت دفع اللزمة المقدرة بـ 30 بوجو سنويا، فوجه لها الداى محمد عثمان حملة لقمعها وإخضاعها لسلطته.¹¹

أما خارجيا فقد انتهج سياسة مختلفة عن سابقيه، فرفع قيمة الإتاوات على السفن التابعة للبلندقية وهولندا والسويد، أما الدانمارك فقد نقض معها معاهدة السلم سنة 1767م لرفضها تقديم الهدايا والإخلال بشروط المعاهدة، وردا على قرار الداى قامت القوات الدانماركية بمهاجمة ميناء الجزائر، إلا أن البحرية الجزائرية تصدت لها، ولم يتمكن الأسطول الدانماركي الاقتراب من المدينة، واستمر على ذلك مدة 11 يوما، ليضطر في النهاية لعقد صلح مع الجزائر¹² بتدخل من الدولة العلية التي حثت حكام الجزائر على إرجاع القنصل الدانماركي بعد تدخل القنصل الدانماركي في استانبول وطلبه من الدولة العلية التدخل لإبرام صلح بين

الطرفين¹³، وبموجب ذلك تدخلت الدولة العلية وطلبت إبرام هذا الصلح تماشياً والعلاقات الحسنة بينها وبين الدانمارك، وفي عام 1772م جاء الأميرال هوسلاند «Hosland» إلى الجزائر وخضع للشروط¹⁴ التي فرضها محمد بن عثمان باشا وتم إبرام الصلح بين الطرفين¹⁵، أما من جانب إنجلترا وفرنسا فلم يمس الداى بجوهر هذه العلاقات وترك الأمور كما كانت عليه في عهد سابقه.

وما يمكننا قوله أن محمد بن عثمان باشا استطاع أن يحكم قبضته داخليا، بإسناد المناصب إلى رجال أكفاء لهم القدرة على تسيير البلاد بمقدرة عالية وبإخلاص تام نذكر منهم: الباى محمد بن عثمان الكبير، الباى الوزناجي، الباى صالح الإزميرلي، وآغا العرب علي، وقام بتنظيم الجيش والحد من سطوة الإنكشارية وتدخلهم في شؤون الحكم، مع مراعاة العدل بين الناس والرفق بهم حتى قال فيه الزهار: «... وكان رحمه الله مؤثرا للعدل والإنصاف عارفا بقوانين الملك ملتزما بأحكام الشريعة المطهرة، وكان يحب الجهاد...»¹⁶ أما على المستوى الخارجي فقد استطاع فرض هيبة الدولة الجزائرية، وقام بإعادة مراجعة العلاقات الخارجية وفق أسس جديدة تراعي أكبر الحقوق والامتيازات للجزائر، فيما أبقي على هدوء العلاقات مع إنجلترا وفرنسا ربما لقوتهما، حتى لا يثير الخصومات وأيضا تحييدهما في أي نزاع مرتقب ضد إسبانيا، خاصة وأنه وضع من أولوياته تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير.

2- أسباب الحملة

أ- محاولة فك الحصار على وهران والمرسى الكبير

بعد انسحاب القوات الجزائرية من مدينتي وهران والمرسى الكبير استطاعت فرض حصار محكم على المدينتين، وبدأت في إنهالك القوات الإسبانية بالهجمات الخاطفة والمفاجئة، كبدتهم من خلالها خسائر مادية وبشرية فادحة، ونتيجة لهذه الخسائر تشكلت لدى الإسبان

قناعة أنهم لا يستطيعون العيش بسلام وهناء ما لم يضعوا حدا لهذا الحصار وهذه الهجمات المتتالية.¹⁷

ظل التواجد الإسباني بوهرا و المرسى الكبير يشغل بال الساسة والعسكريين الذين خصصوا مصاريف باهظة للاحتفاظ بالمدينتين وإبقائهما تحت سيطرتهم، فكانتا تشكلان عبئا ثقيلا عليهم، نظرا للأوضاع الصعبة التي كانت تعيشها قواتهم بالمدينتين المحاصرتين، ولذلك انقسمت الطبقة السياسية والعسكرية حيال مستقبل التواجد الإسباني بالمدينتين إلى قسمين: قسم كان يدعو إلى الانسحاب وعدم المجازفة بالبقاء، الذي سيكلف المزيد من الخسائر المادية والبشرية، وقسم آخر كان يفضل البقاء مهما كانت الخسائر.

ومن أجل حسم هذا الخلاف قرر الملك فليب الثالث تكليف الحاكم العسكري لوهرا و الدوق جوزيف دي أرميورو بإعداد تقرير مفصل عن وهران و المرسى الكبير ومستوى العلاقات الذي يربط الإسبان بالقبائل المجاورة، وقد أنجز هذا التقرير سنة 1741م¹⁸، وبصدور هذا التقرير أصبحت السلطات الإسبانية مرغمة على اختيار أحد الحلول، إما الانسحاب وتجنب المزيد من الخسائر أو مواصلة المغامرة وتحمل النتائج المترتبة عن ذلك، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بإعادة احتلال كامل السواحل الجزائرية، وبداية إخضاع مدينة الجزائر التي شكلت دائما الصخرة التي تتحطم عليها آمالهم، وفي النهاية كانت الغلبة لأصحاب الاختيار الثاني.

ب- الحد من الهجمات الجزائرية على السواحل الإسبانية على الرغم من الهدف الأساسي لفرض الحصار هو تحرير وهران و المرسى الكبير، ونظرا لصعوبة هذه المهمة غيرت القوات الجزائرية استراتيجيتها في مواجهة الإسبان، وقامت بنقل المعارك إلى السواحل الإسبانية فكانت السفن الجزائرية تهاجم هذه السواحل وتعود محملة بالغنائم والأسرى من نساء ورجال وأطفال وللذين كان عددهم بمدينة الجزائر وحدها يزيد عن 18 ألف، منهم 10 آلاف إسباني¹⁹، وهذا ما يدل على ضخامة الهجمات الجزائرية على كامل الدول الأوروبية وخاصة

إسبانيا، ونتيجة لكثرة الشكاوى من طرف سكان السواحل الإسبانية للملك، وتضررهم ماديا ومعنويا، كان لا بد له من اتخاذ قرار لوقف هذه الحملات المتزايدة.

ج- إسقاط الداى محمد بن عثمان باشا من الحكم

أدركت السلطات الإسبانية حقيقة مفادها أن الإيالة الجزائرية تمر بمرحلة قوة وازدهار، بقيادة الداى محمد بن عثمان باشا، الذي كان يعيش بعض المشاكل الداخلية نتيجة لإعلان بعض القبائل تمردا عن سلطته وخلافه مع الجيش الإنكشاري الذي كان الداى يريد الحد من نفوذه وتدخله في شؤون الحكم، فأرادت استغلال هذه الفرصة والقيام بإسقاط محمد بن عثمان باشا من سدة الحكم²⁰، وتعطيل مشاريعه داخل البلاد وخارجها وتوقيف هذا الازدهار المتنامي.

د- السيطرة على مدينة الجزائر

لم ينس الإسبان لسكان مدينة الجزائر استنجاحهم بعروج وخير الدين، هذا الأخير الذي استطاع طردهم من قلعة البنيون في ماي 1529م، وأيضاً لم ينسوا هزيمة شارلكان على يد حسن بن خير الدين على أسوار المدينة سنة 1541م، بالإضافة أن مدينة الجزائر هي عاصمة ومركز قوة الإيالة، لذلك تم اتخاذ القرار باحتلالها وإلحاقها بالممتلكات الإسبانية كما كان الشأن في مطلع القرن السادس عشر ميلادي وجعلها منطقة نفوذ، فالغاية إذن هي السيطرة على مركز الإيالة وقوتها، وهي رغبة قديمة متجذرة في نفوس الإسبان الآسفين على ضياعها، والذين فشل أسلافهم في تحقيق هذه الرغبة على الرغم من كثرة محاولاتهم التي كانت على مدار القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين لذلك أخذت إسبانيا تعد العدة للسيطرة على مدينة الجزائر واحتلالها نهائيا.²¹

هـ- فشل مساعي الصلح بين الطرفين

عاشت إسبانيا قبيل قرارها القاضي باحتلال مدينة الجزائر مشاكل داخلية كبيرة بسبب حروبها داخل القارة الأوروبية، فعملت على تهدئة الصراع ضد الإيالة الجزائرية ولو لمدة معينة حتى تتفرغ لمواجهة هذه المشاكل لذلك أرسل الملك كارلوس الثالث مبعوثا عنه للداي علي باشا طالبا منه عقد الصلح وعارضا عليه مبالغ مالية كبيرة، لكن طلبه قوبل بالرفض، غير أن الملك الإسباني لم ييأس من ذلك، وما إن تم تعيين الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1766م حتى أرسل إليه يهنئه بمنصبه الجديد وعارضا عليه إقامة الصلح مقابل مبالغ مالية كبيرة، إلا أن الداي الجديد رفض هذا الطلب وكرر موقف سلفه قائلاً للملك الإسباني: «... إنني لا أخاف من القوات الإسبانية، وإن السلاح هو الفاصل بيننا».²²

ولما تأكد الملك الإسباني من فشل مساعيه لجأ إلى وساطة السلطان المغربي محمد بن عبد الله الذي وافق على طلب الوساطة بين الطرفين، وقام بجهود مضيئة في سبيل تحقيق رغبة الملك الإسباني، لذلك أرسل إلى الداي محمد بن عثمان باشا كتابا راجيا منه باسمه وباسم أخوة الإسلام أن يتصالح مع الإسبان، في مقابل حصوله على أموال كثيرة، وإنجاح هذه الوساطة اتصل السلطان المغربي بالدولة العلية لتمارس ضغوطها على الداي.²³ ومواصلة لجهوده في سبيل إقامة الصلح أرسل السلطان المغربي مبعوثه محمد الفزان إلى الجزائر للإشراف على تبادل الأسرى بين الجزائر وإسبانيا سنة 1182هـ/ 1768م²⁴، وقد نجح المبعوث المغربي في مهمته وتم تبادل الأسرى على نطاق واسع بين الطرفين، على الرغم من رفض المجلس الملكي الإسباني ولمدة قاربت 250 سنة مثل هذا الأمر، بحجة أن إطلاق سراح الأسرى المسلمين يزيد في عددهم وقوتهم.²⁵

ومما تجدر الإشارة إليه أن الداي محمد بن عثمان رفض الوساطة المغربية، ورد على مبعوث السلطان المغربي بقوله: «... هل طلبت مشورتني ورأيي عندما عقدت أنت معاهدة الصلح مع إسبانيا سنة 1767م»²⁶ وأمام تعنت الموقف الجزائري الراض لأبي صلح مع إسبانيا مالم

تتخلى عن وهران والمرسى الكبير تأكد الملك كارلوس الثالث أنه لا حل أمامه سوى استخدام القوة العسكرية لإسقاط الداي من الحكم وإخضاع مدينة الجزائر.

و- إطلاق سراح الأسرى المسيحيين

يعتبر القرن السابع عشر ميلادي قرن الجهاد البحري بامتياز، مما نتج عنه تكديس هائل للأسرى الأوروبيين بالجزائر، وذلك راجع لازدياد الهجمات الجزائرية على السواحل الجنوبية الغربية لأوروبا التي كانت هدفا مباشرا للبحرية الجزائرية انتقاما من إسبانيا، ومن أكثر السواحل عرضة للهجمات الجزائرية سواحل جنوة ونابولي، ليفورن، كورسيكا، صقلية، مالطة و ميورقة... وتعد هذه المناطق الأماكن المفضلة لنشاط القراصنة الأوروبيين الذين ينطلقون منها لمهاجمة السفن الجزائرية والقيام بحملات على مدينة الجزائر.²⁷ ولذلك ما إن فكرت إسبانيا في مهاجمة مدينة الجزائر حتى كانت الكنيسة في طليعة المؤيدين لها. زيادة على بعض المدن الإيطالية مثل نابولي، ليفورن وجنوة، وذلك بحجة حماية السواحل الإسبانية من الهجمات الجزائرية المتواصلة وإطلاق سراح أسراهم الذين يقدرون بالآلاف في ذلك الوقت²⁸، فكان هذا من أهم الأسباب التي تحجج بها الملك كارلوس الثالث في هجومه على مدينة الجزائر.

ي- استقرار الأوضاع في إسبانيا وأوروبا

دخلت إسبانيا خلال الفترة الممتدة من سنة 1732-1775م في سلسلة من الحروب الأوروبية إلى جانب فرنسا فقد كانت طرفا فعالا في حرب الوراثة البولونية التي امتدت من 1733-1738م، وكانت أيضا ضمن التحالف المشكل من فرنسا، بياريا، سردينيا، في مواجهة النمسا، روسيا وجرمانيا، لفرض مرشحهم ستانيسلاس لزينسكي « Stanislas le czinski » للوصول إلى سدة الحكم خلفا للملك أوغست الثاني « Augusts 2 ».²⁹

في سنة 1738م أبرمت الدول المتصارعة معاهدة فيينا تم بموجبها إنهاء حرب الوراثة البولونية، وبعد مدة قصيرة وجدت إسبانيا نفسها من جديد إلى جانب حليفها فرنسا في حرب

جديدة ضد ملكة النمسا مريا تيريزا «Marie Thérèse» ، وعرفت هذه الحرب تاريخيا بحرب الوراثة النمساوية، التي امتدت على مدار سنوات الأربعينيات من القرن الثامن عشر ميلادي، إلا أن أشهر الحروب وأخطرها التي خاضتها إسبانيا في هذه الفترة حرب 7 سنوات التي جرت وقائعها في الفترة الممتدة من 1756-1763م، وكان سببها الرئيسي المنافسة الاستعمارية بين دول التحالف إسبانيا، فرنسا والنمسا، ضد إنجلترا وبروسيا، والتي استطاعت خلالها إنجلترا تحقيق مكاسب هائلة في العالم الجديد على حساب فرنسا وإسبانيا.³ تكبدت إسبانيا خسائر فادحة في هذه الحروب، لذلك ما إن انتهت حتى بدأ التفكير في كيفية استعادة هيبتها وتعويض الخسائر التي لحقت بها، فكان لزاما على الساسة والعسكريين الإسبان إيجاد طرفا أقل قوة من تلك الدول التي واجهتها في أوربا، فهداهم تفكيرهم إلى مدينة الجزائر التي يمكن السيطرة عليها بسهولة حسب ظنهم.

– استعدادات الطرفين

أ–إسبانيا

بعد أن توفرت العديد من الأسباب للقيام بهذه الحملة، أصدر الملك "كارلوس الثالث" أمرا إلى كافة الموانئ الرئيسية بإسبانيا، مثل قرطاجنة، قادس، برشلونة، بضرورة التحضير الجيد كتجميع الفيلق الحربية والعتاد والمؤن والآليات الضرورية، وقد استمرت هذه التحضيرات طيلة شهر جوان 1775م.

استطاع الإسبان تجنيد حوالي 20 ألف جندي و300 فارس و600 مدفعي مع مدافعهم، في ما كانت السفن تحمل حوالي 3500 بحار³¹، و500 سفينة، توجد منها 50 باخرة حربية، 20 بارجة و20 مدمرة 7 مراكب من نوع "شباك" و 344 سفينة مزودة بـ 100 مدفع³²، وأسندت مهمة قيادة هذه الحملة للأميرال الأيرلندي الأصل الكونت أليخندرو أورللي «Algandro O'reilly» كقائد للجيش البري، فيما أسندت قيادة الجيش البحري

ليبيدور كاستيخون «Don Pedro Castejon» لتتطلق الحملة يوم 23 جوان 1775م من ميناء قرطاجنة لتصل إلى سواحل مدينة الجزائر يوم 30 جوان.³³

ب-الجزائر

على عكس الحملة الأولى ضد وهران والمرسى الكبير سنة 1732م علم الجزائريون مبكرا بخبر هذه الحملة فعملوا على الاستعداد الجيد لها بقيادة وإشراف الداي محمد عثمان باشا الذي أصدر أوامره و أعلن النفي العام في كامل تراب الإيالة ، وأمر الناس بالجهاد للدفاع عن الدين والوطن ، حاثا السكان على التعاون فيما بينهم مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم المعيشية ، ومن مختلف الفئات العمرية ، حتى أنه أمر بتعيين الأولاد من فوق السبعة سنين للمساعدة على تعمير القلاع والأبراج .³⁴ ثم وجه أوامره بضرورة تنظيم القوة العسكرية الموجودة بمدينة الجزائر وضواحيها ، والتي قدر عددها بحوالي 11897 مجند منهم 9322 قادرا على المشاركة الفعلية في المعارك ، كانوا موزعين على 424 فوجا ، مقيمين بثمانية ثكنات عسكرية داخل أسوار المدينة .³⁵ وبعدها أصدر أوامره إلى باي قسنطينة بالمسير إلى الجزائر بعد أن كان مرابطا ناحية حمزة (البويرة) وفي ذلك يقول محمد الطاهر بن أحمد : «... فأخذ صالح باي المخازنية والعتاد والمشايخ والدواير والصبايحية وكل من أراد الجهاد من الطلبة والمرابطين وتوجه إلى الجزائر»³⁶ وكذلك أصدر أوامره لباي التيطري ، ولخليفة باي الغرب بالتوجه إلى الجزائر ، فيما يبقى الباي مشددا الحصار على وهران ، مخافة من تحرك القوات الإسبانية ومفاجأة القوات الجزائرية ، أو مهاجمة مستغانم وتلمسان.³⁷

4- توزيع القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة

قرر الداي محمد بن عثمان باشا توزيع وحدات الجيش الجزائري إلى خمس مجموعات ، كل واحدة منها ترابط في مكان معين لتكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن المدينة والتصدي للقوات الإسبانية ، وكان توزيعها على النحو التالي :

-المجموعة الأولى: أسندت قيادتها "لحسن الخزناسي"، وكان مركز رباطها عين الربط (الحامة حاليا) ووادي الخنيس معه 40 خُباء (فصيل أو سرية)، وفي كل خُباء 30 نفرا من العسكر، أي يوجد معه حوالي 1200 جندي.

-المجموعة الثانية: أسندت قيادتها "لعلي آغا" آغا العرب ومركز رباطها واد خنيس (العناصر حاليا)، وأمر الداى أن يكون معه 40 خُباء في كل خُباء 30 نفرا من العسكر أي 1200 جندي.

-المجموعة الثالثة: أسندت قيادتها للسيد "مصطفى خوجة" خوجة الخيل ومركز رباطها باب الواد، وأمر بأن يكون معه 20 خُباء في كل خُباء 30 نفر أي يوجد معه 600 جندي.³⁸

-المجموعة الرابعة: باي التيطري "مصطفى باي" ومركز رباطه تمنفوست، تؤازره بعض القبائل وفرسان سباو.

-المجموعة الخامسة: خليفة باي الغرب يؤازره الخزناسي من الجهة الغربية من رباط (عين الربط) ومعه 4 آلاف فارس من الدواير.³⁹

5- توزيع المدافع على الأبراج

- برج الفنار (برج البحرية) وبه 180 مدفعا.
- برج السردين وبه بطاريتان من المدافع بها 32 مدفعا.
- برج الجديد (برج الزوينة) وقد جدد بناءه محمد بن عثمان باشا ما بين 1773-1774م فيه مجموعة من المدافع، وفي المحصلة يوجد حوالي 200 مدفع جاهز للدفاع عن المدينة.⁴⁰

أما فيما يخص العدد الكامل للقوات الجزائرية المستعدة فعليا للدفاع عن المدينة، فإننا نستعين بالتقرير الذي قدمه سان ديدي حول الحملة الإسبانية نقلا عن جمال قنان وكان توزيعها كما يلي:

- بايلك الشرق بقيادة صالح باي، عدد قواته 40 ألف رجل.
 - بايلك التيطري بقياد مصطفى باي، عدد قواته 40 ألف رجل، فيما ذكر الجديري رقم 20 ألف.⁴¹
 - بايلك الغرب بقيادة الخليفة نائب الباي، عدد قواته 20 ألف جندي.
 - آغا العرب بالجزائر عدد قواته 2000 من الأتراك.
 - الخزناجي بالجزائر عدد قواته 6 آلاف رجل.
 - وكيل الحرج عدد قواته 5 آلاف رجل من الأتراك.⁴²
- أما باي الغرب فبقي مرابطا في أرزيو يترصد تحركات الإسبان الموجودين في وهران والمرسى الكبير وكان عدد قواته يتراوح ما بين 30 و 40 ألف رجل.⁴³
- 6- سير الحملة ونتائجها

أ- سير الحملة

في 02 جمادى الثانية 1189هـ الموافق لـ 30 جوان 1775م، بدأت تظهر القوات الإسبانية على سواحل مدينة الجزائر، وما إن بدأ الناس يخرجون من صلاة الجمعة حتى رست مقدمة الجيش بالحراش ونتيجة لهذا الوصول المفاجئ قام صالح باي بمناورة ذكية وأنزل قواته التي قدرت بحوال 20 ألف جندي بمكان غير بعيد عن الحراش.⁴⁴ ومع مطلع فجر يوم 01 جويلية 1775م قام القائد العام للقوات الإسبانية الكونت أورلي بجولة استطلاعية رفقة العديد من الضباط والمستشارين على متن السفينة "سانتا كلارا" لاستطلاع الأوضاع على الساحل والتعرف على الدفاعات الجزائرية المنصوبة، لكنه تفاجأ عندما رأى المدافع والبطاريات موزعة على كامل المدينة من كل الجهات، وأكثر من ذلك اكتشفه لتحصينات قوية لا يمكن اختراقها، مما دفعه إلى اختيار حل آخر وهو النزول إلى البر ثم الزحف على مدينة الجزائر للسيطرة عليها.⁴⁵

قرر الكونت أورللي إنزال قواته على الشاطئ الشرقي للجزائر بين وادي خنيس (العناصر) والحراش وتم حشد حوالي 20 ألف جندي بكامل معداتهم الحربية ومؤنهم، وقد وصف أحد قادة القوات الإسبانية الأميرال مزاريدو «Mazarrede» عملية النزول والظروف المحيطة بها قائلا: «... بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر في أول جويلية طلب مني الكونت أورللي على أساس أنني قائد الأسطول النزول إلى البر رفقة الأفواج الأولى للجيش ومعني 12 قطعة مدفعية من عيار 4، ثم يليها مباشرة إنزال 12 مدفع من عيار 8 بالإضافة إلى 8 مدافع من عيار 12، إلا أننا تفاجئنا برياح قوية يوم 03 جويلية⁴⁶ مما صعب عملية الإنزال التي قرر لها 4 جويلية ونتيجة هذه الأوضاع كلفت بوضع خطة نهائية لنقل الجنود واختيار السفن التي ستحملهم إلى الشاطئ على أن تنزل قوة قوامها 7600 رجل، ليلتحق بهم بعد وقت قصير قوة تعدادها 7 آلاف رجل»⁴⁷. فيما أخذت القوات الجزائرية مواقعها استعدادا لملاقاة العدو متبعة إستراتيجية محكمة لتطويق القوات الإسبانية، حيث لم يتركوا أي مجال للصدفة، متخذة الشكل التالي:

- الجهة الغربية المؤدية بين الجزائر ووادي خنيس وعين الربط (الحامة، ساحة أول ماي)، أسفل مرتفعات عين الأزقة، قوات حسن الخزناجي توازرها قوات علي آغا العرب بالقرب من وادي خنيس.
- الجهة الشرقية من ساحة الحراش جنوبا: قوات صالح باي ومعه الكثير من راكبي الخيل والجمال.
- الجنوب الغربي: قوات مصطفى خوجة الخيل.
- باب الوادي: فرقة الصبايحية، لمراقبة تحركات العدو في حال تغيرت خطته وتنقل إلى الجهة الغربية لمدينة الجزائر.
- فرق زواوة: لحماية الجهة الغربية للمدينة.

- الجهة الغربية: قوات خليفة باي الغرب محمد بن عثمان الكبير.⁴⁸
 - سهل متيجة: قوات باي التيطري إلى غاية تامنفوست (البرج البحري حاليا)، لتأمين مؤخرة المدافعين والمكلفين بإيصال المؤن، والمبادرة بالهجوم في حالة الضرورة.⁴⁹
- الملاحظ إذن أن المدينة أصبحت مطوقة من كل الاتجاهات، فما إن تنزل القوات الإسبانية إلى ساحة المعركة حتى تجد نفسها محاصرة من كل الجهات.
- أخذ كل قائد ينظم قواته ويعدّها لخوض المعارك في المنطقة التي خصت له، وقاموا بحفر الخنادق والمتاريس، ومما ساعدهم على إتمام تجهيزاتهم تأخر نزول القوات الإسبانية أسبوعا كاملا نتيجة التردد وهبوب الريح وإلى ذلك أشار ابن رقية التلمساني بقوله: «...إن مكث العدو كان خيرا لنا، لأن قبائل العرب كانوا يجيئون من كل ناحية إلينا».⁵⁰ بدأت القوارب التي تحمل الجنود الإسبان بالتقدم نحو الساحل، وما إن وصلت حتى بدأ الجنود بالنزول إلى الشاطئ وفي نفس الوقت تقوم السفن الحربية بقصف معسكرات القوات الجزائرية مركزة قصفها على المنطقة التي توجد بها قوات حسن الخزناجي رغبة منها في تأمين عملية النزول، لكن البطاريات والمدافع الجزائرية كانت لهم بالمرصاد.⁵¹
- نزل الجنود الإسبان إلى البر وبيد كل واحد منهم بندقية ورمح برأسين حديديين، لتستعمل كمتاريس حول معسكراتهم، وفي نفس الوقت يعيقون بها تقدم الخيالة الجزائريين، كما أنزلوا معهم أكواما من الأخشاب مربوطة في شكل حزم ومهارس القنابل والمدافع ومعهم جميع ما يلزمهم، لتبدأ فرقهم العسكرية في بناء الاستحكامات باستخدام تلك الرماح، إلا أن القوات الجزائرية بتمركزها الجيد استطاعت أن تعيق تحركاتهم وتطوقهم وتحاصرهم في منطقة ضيقة بين مرتفعات حسين داي وشاطئ البحر، رغم تحصيناتهم التي بادروا منذ البداية بإقامتها.⁵²
- بعد أن أدرك الإسبان خطورة الموقف حاولوا فك الحصار مبكرا لذلك هرعت قواتهم نحو البساتين المجاورة والحقول الواقعة بين الحراش وخنيس، وقاموا باستخدام الأسطول في

قصفت تجمعات القوات الجزائرية التي أبدت مقاومة شرسة في التصدي لهم، والتي بقيت لمدة 3 أيام وهي تحارب في نفس المنطقة إلى أن استطاع أحد المدافعين واسمه عمر براقنيس إدارة مدفعين إلى ناحية الحصن، الذي يتواجد به الإسبان فأحدث ثغرة في حائطه، مما مكن الجزائريين من توجيه قذائف مباشرة إلى تجمعات الإسبان وسفنهم، مما نتج عنه تدمير العديد من المتاريس، وبذلك بدأت المعركة تميل لصالح الجزائريين.⁵³ أسفرت هذه المعارك عن خسائر فادحة في صفوف الإسبان، فقد قتل حوالي 119 ضابط و 2088 جندي، أما من بقي من الجيش فقد أُحْكِمَ الحصار حولهم تماما وغدا الصمود لا يجدي نفعا، لأن القوات الجزائرية أحكمت سيطرتها على المنطقة.⁵⁴

ب-اليوم الرابع من المعارك -بداية النهاية للقوات الإسبانية-

على الرغم من مرور ثلاثة أيام على بداية المعارك، إلا أنه لا أحد من الطرفين استطاع حسم المعارك لصالحه، فحاول كل طرف إيجاد طريقة ما لحسم الأمر نهائيا، ومن هنا خطر على بال صالح باي خطة حربية يفاجئ بها القوات الإسبانية ويشتت شملها ويقتحم معسكراتها المحصنة، ففي اليوم الرابع من المعارك صبيحة يوم الإثنين أشار صالح باي بتجميع كل الإبل التي قدم بها من قسنطينة، وكان عددها 500⁵⁵، ووضع فوقها الصوف وقام بإشعاله فاندفعت الإبل إلى الأمام نحو خنادق الإسبان فداستها واقتحمتها⁵⁶، فيما كانت قواته المقدرة بحوالي 20 ألف رجل تمشي خلفها، وكان يهدف من وراء هذه الخطة حماية جنوده من رصاص الجنود الإسبان⁵⁷، زيادة على إربابهم وبعث الخوف في نفوسهم لمشاهدتهم هذا الموقف الرهيب⁵⁸، وفي هذه الأثناء التحقت بقوات صالح باي قوات الخزناسي من جهة الغرب، ومن الجنوب قوات خليفة باي معسكر وقوات خوجة الخيل. والتقى الطرفان في معركة رهيبة استطاعت فيها القوات الجزائرية دخول المتاريس وملاحقة القوات الإسبانية التي بدأت في الفرار باتجاه السفن بدون

تنظيم، وما زاد الأمر تأزماً بُعدهم عن البحر، حيث قدرت المسافة بنصف ميل، وقتل منهم الكثير وهرب بعضهم في الزوارق إلى سفنهم.⁵⁹

على الساعة الثالثة صباحاً من يوم 8 و9 جويلية تمكن بعض الإسبان الذين نجوا من نيران وسيوف الجزائريين من ركوب سفنهم، وكلهم فرح وسرور بتمكنهم من النجاة من هذه المجزرة الرهيبة، تاركين خلفهم مدافعهم ومعداتهم الثقيلة التي أنزلوها لإحكام الحصار على المدينة، وظل أسطولهم إلى غاية 24 جويلية محاولاً إعادة القصف والهجوم من جديد، لكن المجلس الحربي رفض خطة أورلي، ليتحرك الأسطول باتجاه إسبانيا وسط خلافات حادة بين قادته، وكل واحد منهم محملاً مسؤولية الانهزام للآخر.⁶⁰ أما من جانب الجزائريين فقد زفت البشائر للداي محمد بن عثمان باشا وأعلنت الأفراح، فقام بتوزيع الكثير من الأموال على السكان، وفي ذلك يقول أحمد الشريف الزهار: «... وقعد عند باب دار ملكه ومعه خزنده وعماله وهم يفرقون الأموال بإذنه على كل من يأتي برأس نصراني، والمقدر بـ100 سلطاني على كل رأس بالإضافة إلى أصحاب المدافع، حتى ضاقت الأرض برؤوس النصارى والمدافع»⁶¹، وهو دليل على كثرة الغنائم التي تحصل عليها الجزائريون.

انتهت المعركة بانتصار الجزائريين على الإسبان الذين رجعوا خائبين مرة أخرى، وتحطمت آمالهم على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة بفضل عبقرية الداوي محمد بن عثمان باشا ومعاونيه من أمثال صالح باي وأغا العرب وحسن الخرناجي وخليفة باي الغرب، زيادة على شجاعة الجنود الجزائريين سواء النظاميين أو المتطوعين من أبناء القبائل والعرب والسكان المحليين، وقد أسفرت هذه الحملة على عدة نتائج.

ج- نتائجها

• فشل الإسبان بقيادة الكونت أورللي في احتلال مدينة الجزائر وخيبة آمال الملك كارلوس الثالث في تحقيق أمنية لطالما حلم بها أجداده من الملوك، وهي إخضاع المدينة لسلطة الإسبان.

• تكبد الإسبان خسائر مادية وبشرية فادحة، فقد أجمعت المصادر المحلية على أن الإسبان تركوا وراءهم جميع عتادهم وجثث جنودهم مقطوعة الرؤوس مرمية في ساحة المعركة، وقد قدرت هذه الخسائر بـ 8 آلاف قتيل و3 آلاف جريح منهم 12 مهندسا، ومن الضباط السامين 250 ضابطا منهم كاهية الجنرال "كاتبه"⁶²، فيما ذهبت رواية أخرى إلى أن عدد القتلى كان 11 ألف قتيل⁶³، بالإضافة إلى تركهم حوالي 100 مدفع وجميع الآلات الحربية.⁶⁴

أما التقارير الإسبانية فإنها حاولت التخفيف من هول الصدمة التي أصابتهم، والتقليل من الخسائر التي لحقت بهم، فالأمير جوزيف دي مازاريدو المسؤول عن عمليات الإنزال على الشاطئ حاول في تقريره التخفيف من الخسائر الإسبانية قائلا: «... وما تركناه وراءنا على الساحل أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار 18، بالإضافة إلى 19 رطلا من رصاص البنادق، ورامي القذائف، وبعض الأدوات، وهذه الخسائر لا تعبر عن شيء لعدد الرجال الذين كنا سنتركهم قتلى لو انتظرنا إلى الصباح».⁶⁵ وهذا التقرير في الحقيقة يعبر عن نظرة عسكري وجب عليه التحفظ في شأن إعطاء الخسائر الحقيقية والتدليل على عبقريته العسكرية، مفضلا الانسحاب على تكبد خسائر في أرواح جنوده، مع التقليل من الخسائر وعدم إظهار ذلك للعدو (الجزائريين)، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على ذكاء هذا الضابط في ذلك الوقت أو لنقل هي حرب كلامية مرتبطة عضويا بالحرب العسكرية، مع أن كل القرائن تكذب قوله، فهل يعقل أنه لم يتكبد خسائر في كل المدة التي قضاها في المعارك وأدرك هذه الحقيقة في يوم واحد فقط؟

أما بالنسبة للخسائر البشرية حسب الروايات الأجنبية فإنها جاءت مغايرة تماما لما أوردته المصادر المحلية ولم تتجاوز حسبهم 191 قتيل و 27 جريحا من الضباط، و 2088 جندي قتيل و 501 جريح في صفوف الجنود.⁶⁶

• أما خسائر الجزائريين فقد كانت ضئيلة مقارنة بحجم الخسائر التي مني بها الإسبان والمعارك التي جرت فلم تتجاوز عند البعض 200 شهيد⁶⁷، أما عند البعض الآخر فقد بلغت 300 شهيد⁶⁸ فيما ذهب البعض الآخر إلى 400 شهيد، جمعوا وجعلت لهم مقبرة بالرملية إزاء عين الربط⁶⁹ (عرفت لدى العامة بحصن المجاهدين "ساحة أول ماي حاليا")

• زاد هذا الانتصار المحقق الإحساس بالفخر والاعتزاز لدى الجزائريين، والالتفاف حول قيادتهم التي قادتهم إلى الانتصار، فعمت الأفراح والاحتفالات كامل تراب الإيالة، وزف الخبر السعيد للسلطان عبد الحميد الأول⁷⁰ مع بعض الهدايا وقدم له حفيد الداي محمد بك ووكيل خراج القصر تفاصيل هذا الانتصار الذي حققه الجزائريون، فيما توافدت جموع غفيرة للوفد الجزائري مهنئة ومباركة له هذا الانتصار.⁷¹

• تركت هذه الهزيمة أثرا بالغا عند الإسبان، فقد ذكرتهم بحملاتهم الفاشلة السابقة، خاصة حملة شارلكان سنة 1541م، لتضاف هذه الهزيمة إلى انتكاساتهم السابقة على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة أمامهم دائما.⁷²

• سطوع نجم الداي محمد بن عثمان باشا في كامل العالم الإسلامي، وبخاصة في منطقة المغرب الإسلامي، وأصبح مشهورا ومحبوفا في قلوب الناس، لأنه استطاع بدهائه وعبقريته العسكرية أن لا يترك شيئا للصدفة، ولذلك كافأه السلطان عبد الحميد الأول ببردة وسيف وطررة مرصعة بالجواهر والكثير من السفن ولوازمها والأشربة تكريما أو تعظيما له.⁷³

- خلّد هذا النصر لدى الجزائريين وأطلق الشعراء العنان لقرائحهم، فنظموا العشرات من القصائد الشعرية والكتابات التي تخلد هذا النصر التاريخي، ومن هذه الأبيات ما قاله الشاعر الجزائري أحمد بن الشيخ سيدي السعيد قدورة وهو يُجيب فيها الشيخ محمد بن سعيد بن قريش التطواني عن أخبار هذه المعركة:

هِيَ الْأَقْلَامُ تَنْطِقُهَا الْحَايِرُ لِتُسْمِعَكَ الْيَقِينَ عَنِ الْجَزَائِرِ
وَبَأَوْوا مِثْلَمَا جَاؤُوا حَرَائِيَا وَأَعْطَوْا مَا أَكَنَّ فِي الضَّمَائِرِ
وَكَمْ رَمَتْ الْحُصُونُ عَلَيْهِمْ مِنْ صَوَاعِقٍ لَا تَعُدُّ خِلَالَ زَاخِرِ
وَلَا تَحْزَنُ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَنَا إِذَا التَقَتِ الْعَسَاكِرُ بِالْعَسَاكِرِ.⁷⁴

- استمرار حالة العداء بين الطرفين الجزائري والإسباني، فزادت الغارات من الجانبين وأصبح كل واحد منهما يترصد سفن الآخر، وقد اتبع محمد بن عثمان باشا سياسة تكثيف الغارات على سفن الإسبان والقيام بتشجيع العاملين في البحرية بزيادة المكافآت للرّياس والبحارة، ودفع الأجور لهم زيادة على نصيبهم من الغنائم، وشجع صناعة السفن، ولذلك اعتبرت السنوات الممتدة من 1778-1782م من أهم السنوات التي حقق فيها الجهاد البحري أعلى مستوياته، لأن المداخل زادت فيها وقاربت المليون فرنك سنوياً.⁷⁵

- انتعاش الحركة التجارية بمدينة الجزائر نتيجة لكثرة الغنائم والأسرى، وفي ذلك يقول الزهار: «فوقع للتجار ربح عظيم، وكان السماسرة ينادون على الأسارى بقيمة كل أسير 200 درو، فإذا جاء الغداء يفتدونها بألف درل لكل رأس»⁷⁶، وهذا دليل على انتشار الحركة التجارية وكثرة الغنائم والأسرى بمدينة الجزائر في ذلك الوقت.

7-العوامل المساعدة على انتصار الجزائريين

اختلف المؤرخون في تفسير العوامل والأسباب التي أدت إلى انتصار الجزائريين وهزيمة الإسبان، وكل واحد فيهم يحاول تفسير هذا الأمر من وجهة نظره، فهناك من أرجعها إلى الأخطاء الحربية التي وقع فيها الإسبان، وثان أرجعها إلى دهاء وعبقرية القادة الجزائريين بقيادة محمد بن عثمان باشا ومساعديه مثل علي خوجة وصالح باي... وغيرهم، وآخر أرجعها إلى تأييد الله بالملائكة وكراماته التي أنزلها على الجيش الجزائري نتيجة لإيمانه وصبره، ولذلك نلخص مجمل هذه الأقوال فيما يلي:

- التردد الذي طبع قرارات قادة الجيش الإسباني وعلى رأسهم الكونت أورلي والدون بيدرو كاستيخون في اختيار موقع الإنزال، فقد استغرق ذلك 7 أيام كاملة⁷⁷، وهذا فيه إنهاك لقوى الجيش الذي أصابه العياء من قلة النوم والجهد المبذول خلال هذه المدة، وكان من المفروض أن يختار نقطة الإنزال مسبقا قبل وصول الحملة إلى الجزائر، حتى يتم الإنزال بأقصى سرعة ممكنة.
- استهزاء الإسبان بقدرات الجزائريين على رد الحملة وعدم تقديرهم الجيد لمعطيات المعركة، سواء ما تعلق بقدرات الجزائريين العسكرية أو أرض المعركة نفسها، فقد دخلوا المعركة دون أن يقع اختيارهم على شاطئ حصين، كما أنهم فشلوا في معرفة أماكن تواجد المدافع الجزائرية التي وضعت على المرتفعات المطلّة على مكان نزولهم⁷⁸، لذلك كانت تقديراتهم سيئة، زد على ذلك أن تخطيطهم لهذه المعركة كان أسوأ.
- قوة وفعالية المدفعية الجزائرية التي كانت متمركزة جيدا على المرتفعات وبين الأشجار والبساتين المحيطة بأرض المعركة، وتأزر وتدخل القوات الجزائرية في آن واحد ضد العدو، أدى إلى حسم المعركة لصالحهم.

- مهارة وكفاءة القادة الجزائريين وعلى رأسهم محمد بن عثمان باشا ومساعديه مثل صالح باي ومصطفى خوجة وخليفة باي الغرب... الذين عرفوا كيف يخططون لهذه المعركة.⁷⁹
 - لعبت المكافآت المالية التي وعد بها الداوي محمد بن عثمان باشا جنوده - لكل من يأتي برأس جندي إسباني - دورا مهما، وكانت دافعا لمزيد من الحماس والشجاعة لدى الجزائريين من أجل الحصول على 10 دنانير مقابل كل قتيل مسيحي⁸⁰، ومما نلاحظه في هذا الشأن أن جون وولف يفسر هذا الأمر على أنه جشع بحث لهؤلاء المقاتلين الذين يريدون الربح المادي فقط، وهذا هو ديدنه في كامل كتابه فيما يخص كل المعارك التي خاضها الجزائريون خاصة المتطوعون منهم، غير مبال تماما بعقيدتهم التي تدعوا إلى الجهاد والفوز بالجنة زيادة إلى حماسهم في الدفاع عن وطنهم وأرضهم التي يريد الإسبان الاستيلاء عليها، وهم في ذلك غير متناسين مأساة إخوانهم من الأندلسيين الموريسكيين الذين فعلوا الإسبان بهم الأفاعيل وطردوهم من أرضهم، زيادة على الانتقام من الإسبان الذين يحتلون وهران والمرسى الكبير.
 - الشجاعة والإقدام اللذان تميزت بهما القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة وذكاؤها الحربي وسرعة تحركاتها داخل أرض تعرف خباياها بالتفصيل.⁸¹
 - الخطة العسكرية المحكمة التي نفذها صالح باي هي التي رجحت الكفة لصالح الجزائريين وأثبتت ذكاه وخبرته العسكرية، وكانت سببا في تحقيق هذا النصر.⁸²
 - الكرامات التي حدثت للمجاهدين الجزائريين أثناء القتال، وقاتل الملائكة معهم⁸³، حتى قيل أن النار كانت تشتعل في جنود النصارى بعون الله سبحانه وتعالى.⁸⁴
- وعموما فإن هذه العناصر مجتمعة هي التي قادت الجزائريين للانتصار ودحر الحملة الإسبانية، على الرغم من اختلاف التفسير لهذه الأسباب، فهناك المتعاطف مع الإسبان خاصة

الأوروبيين، و آخر متعاطف مع الجزائريين، ومع ذلك مهما كانت التفسيرات فإنها لا تنقص من هذا الانتصار، بل يبقى من أعظم الانتصارات التي حققتها الدولة الجزائرية الحديثة.

الإحالات:

- 1- في سنة 1708 استطاع الداي محمد بكداش تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير لأول مرة من الاحتلال الإسباني بعد احتلال دام 203 سنة، ليعاد احتلالهما سنة 1732 بقيادة الضابط الكونت دي مونتماريا.
- 2- ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر- الفترة الحديثة والمعاصرة-، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 156.
- 3- شكيب بن حفري: "العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوط عثماني"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002، ص 125.
- 4- جون (ب) وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 403.
- 5- نفسه، ص 403.
- 6 - ولد الباي محمد بن عثمان الملقب بالكبير بمليانة ما بين 1734-1737م، كان ولده عثمان الكردي بايا للتيطري، وأمه تدعى زائدة كانت جارية بيلاط مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى، ولما قتل والده عثمان الكردي في معركة ضد أولاد نايل، حضى محمد الكبير وأسرته برعاية صديق والده الباي إبراهيم، الذي صار بايا للتيطري ثم بايا للغرب الجزائري سنة 1759-1760م، كان محمد الكبير يحظى بثقة الداي إبراهيم لخصاله الحميدة، وازداد قربا إليه بالمصاهرة، حيث زوجه ابنته فاطمة وأشركه في إدارة البايلك، وتدرج في المناصب إلى أن صار بايا للغرب الجزائري سنة 1779-1797م، وخلالها سجل الباي العديد من الإنجازات، قال عنه أبو راس الناصري «ذي المقام الذي أطلعت أزهاره غمام جوده، واقتضى اختياره بركة جوده، الملك الأصيل الذي كرم منه الإجمال والتفصيل الرفيع الشأن، السيد محمد باي ابن عثمان أخلص الله جهاده ويسر في قهر أعداء الدين مراده بأبسط العدل والأمان، الرفيع المجاهد المرابط...» محمد أبو راس الناصري: فتح الإله ومثته، المصدر السابق، ص 100؛ بلبراوات بن عتو: "الإصلاح الثقافي للباي محمد الكبير في مدينة معسكر"، جولية المفتح، ع4/3، الأبيار، الجزائر، 2003م، ص 197،
- Gorgouos, Notice sur le Bey D'oran Mohammed Elkebir, In, RA, n°1, 1856, pp 403-406.*
- 7- بوحفص، تاجنة: الحملات العسكرية لدول غرب أوروبا المتوسطية على الجزائر 1145-1246هـ/1732-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ، المركز الجامعي، غرداية، 1432-1433هـ/2010-2011م، ص 63.
- 8 - أحمد شريف، الزهار: مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، تحقيق، أحمد توفيق المدني، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص 37.

- 9- عزيز سامح، ألترا: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط1، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1989م، ص 523.
- 10 - نحن بدورنا نتساءل لماذا تأخر حكام الإيالة في فرض هذا النظام طوال المدة السابقة؟ على الرغم من عشرات الحالات التي تم فيها اغتيال الحكام نتيجة هذا التسبب في مقر الحكم، و ربما راجع لضعف الحكام السابقين الذين كان يُتحكم فيهم من طرف الإنكشارية لأنهم هم من عينوهم فيبدون ضعفاء أمامهم، بالإضافة إلى فقدان حكام الإيالة الجزائرية لبروتوكولات الحكم كما كان يحدث في سائر دول أوروبا.
- 11- بلبراوات ،بن عتو: الداوي محمد بن عثمان باشا وسياسته 1766-1791م، مجلة عصور، ع7/6، جامعة وهران، الجزائر، جوان- ديسمبر 2005م، ص ص 92، 94.
- 12- أحمد الشريف، الزهار: المصدر السابق، ص ص 40، 41.
- 13 - مجموعة رقم 3205، علبة رقم 54، وثيقة رقم 16.
- 14 - من أهم هذه الشروط: دفع 50 ألف سكين، و4 مدافع من البرونز، و400 قنبلة و500 قنطار بارود و500 صارية للأشعة، وكميات معتبرة من الأخشاب ومواد البناء، والعديد من الحبال الضخمة، ودفع جميع الهدايا المترتبة على السنوات الماضية أثناء قطع العلاقات...، بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص 100، عزيز سامح ألترا: المرجع السابق، ص526.
- 15- عزيز سامح ألترا: المرجع السابق، ص 524.
- 16- أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص37.
- 17- عزيز سامح ألترا: المرجع السابق، ص 529.
- 18- للمزيد عن هذا التقرير ينظر: أرميورو، وهران والغرب الجزائري في القرن الثامن عشر ميلادي حسب تقرير أرميورو، تقديم وترجمة: محمد القوروصو وميكال دي إيبيلزا، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1978م.
- 19- أحمد الشريف، الزهار: المصدر السابق، ص41.
- 20- بلبراوات، بن عتو: المرجع السابق، ص 100.
- 21- أحمد توفيق، المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط1، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، 2007
- ، ص 451.
- 22 - شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص 124.
- 23- نفسه، ص125.
- 24- بوحفص، تجاجنة: المرجع السابق، ص69.
- 25 - عزيز سامح، ألترا: المرجع السابق، ص 227.
- 26- شكيب، بن حفري: المرجع السابق، ص 125.
- 27- يحي، بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص 185.

- 28 - ناصر الدين، سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر- الفترة الحديثة والمعاصرة-، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 156.
- 29- امحمد، موفي: العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا 1200-1245هـ/ 1786-1830م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1431-1432هـ/ 2010-2011م. المرجع السابق، ص33
- 30- جمال، قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 1431هـ/2010م، ص26
- 31 - جون، وولف: المرجع السابق، ص 403، فيما ذكر جيمس ولسن ستيفانس أن عدد القوات كان 25447 شخص بما فيهم المشاة، الخيالة، الفرسان، رجال المدفعية... وغيرهم، أما السفن وتجهيزاتها فكانت 6 سفن كبيرة، 12 فرقاطة 9 شباك، 24 سفينة من نوع آخر، 176 قطعة مدفع و2 مدافع هاون... جيمس ولسن ستيفانس: الأسرى الأمريكيان في الجزائر، 1785-1797م، ترجمة، علي تابليت، منشورات تالة، الجزائر، 2008م، ص58-59.
- 32 - أما المصادر المحلية والمراجع فقد تقاربت في إعطاء نفس الأرقام تقريبا 20 ألف جندي و 500 سفينة حربية، أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 42، مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص1، محمد أبوراس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، دراسة وتحقيق بوركية محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م، ص338
- 3-Dalarymple(Major), Expedition D'oreilly 1775, In, RA, n°5, 1861, pp33.34
- 33 - مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص2.
- 34 - ناصر الدين، سعيدوني: المرجع السابق، ص 157.
- 35- محمد الطاهر، بن أحمد: ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير ببلدة قسنطينة، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس، رقم 263، ص22.
- 36 - ابن رقية الجديري، التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1626، ص26.
- 37- نفسه، ص ص 26، 27.
- 38- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 01.
- 39 -جمال، قنان: المرجع السابق، ص 256
- 40- ابن رقية الجديري، التلمساني: المصدر السابق، ص 27
- 41 - ليكون بذلك عدد الجنود المدافعين عن المدينة يقدر بحوالي 113 ألف مقاتل ويبدو الرقم مبالغاً فيه كثيرا ولا يعبر عن الحقيقة، خاصة وأن المصادر المحلية لم تتطرق بتاتا لهذا العدد الضخم.
- 42 - جمال قنان: المرجع السابق، ص ص 256 - 257.

- 43 - أوجين ، فايسست: تاريخ بابايت قسنطينة في العهد التركي 1792 - 1873 م، ترجمة، صالح نور، تقديم، الشيخ عبد الرحمان شيبان، ط1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1432 هـ/2010 م، ص31.
- 44-*Berbrugger (A), op.cit, p174.*
- 45- هكذا هو ديدن الأوربيين دائما عندما يتعلق الأمر بمعاركهم ضد الجزائريين، ولكي يبرروا هزائهم يلجأون إلى العوامل الطبيعية مثل الرياح والأمطار وغيرها، وهي كلها مباررات غير مقنعة تماما، ناسين أو متناسين قوات الجيش الجزائري وعبقريه قادته.
- 46- *Mazarredo Joseph de, Expédition D'oreilly Contre Alger en 1775, In, RA, n°8, 1864, pp 255, 257.*
- 47- أحمد توفيق، المدني: المرجع السابق، ص465.
- 48 - ناصر الدين، سعيدوني: المرجع السابق، ص158.
- 49 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص27.
- 50 - أحمد، موفقي: العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا 1200-1245هـ/1786-1830م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1431-1432هـ/2010-2020م، المرجع السابق، ص37.
- 51 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص159.
- 52 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص42.
- 53- عزيز سامح أتر: المرجع السابق، ص530.
- 54- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص2.
- 55 - مجهول: تاريخ بابايت قسنطينة، المرحلة الأخيرة، تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، 1990م، ص10، الآغا بن عودة، المزاري: المصدر السابق، ص250.
- 56 - يذكرنا هذا الأمر بما فعله المرابطون في معركة الزلاقة سنة 479 هـ بقيادة يوسف بن تاشفين، عندما استنجد بهم المعتمد بن عباد ضد النصارى، فهاجموا النصارى بالإبل وكانت المعركة فاصلة أبقت الأندلس إسلامية لمدة قاربت أربعة قرون من الزمن.
- 57 - أوجين ، فايسست: المصدر السابق، ص33.
- 58 - أحمد الشريف ، الزهار: المصدر السابق، ص42-43.
- 59- حساني ، مختار: "شرح تنوير البصائر والأبصار في تحريض سلطان الجزائر على قتال الكفار"، المجلة المغاربية للمخطوطات، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر 2006 م، ع4، جامعة الجزائر، الجزائر، 2013 م، ص228.
- 60- أحمد الشريف، الزهار: المصدر السابق، ص43.
- 61- ابن رقية الجديري ، التلمساني: المصدر السابق، ص31.
- 62 - مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص02.
- 63- أحمد الشريف ، الزهار: المصدر السابق، ص43.
- 64 - *Mazarredo J. de, op.cit, p265.*

65- Berbrugger (Adrien), *Reprise D'oran par Les Espagnols en 1732, In, RA, n°8, 1864, p184.*

66- يقول جون وولف أن عدد القتلى بلغ 27 ضابطا و 500 جندي و جرح 191 ضابطا وأكثر من 1000 جندي، جون وولف، المرجع السابق، ص 406، وهكذا هي عادة الأوروبيين يقللون من خسائرهم حتى ينقصوا من انتصارات الجزائريين ولا يعطونها حقها من القيمة والاهتمام، عكس انتصاراتهم ولو كانت في معركة بسيطة.

67 - مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 2.

68 - ابن رقية الجديري، التلمساني: المصدر السابق، ص 31.

69 -محمد أبو راس، الناصري: الحلل السندسية في تاريخ وهران والجزيرة الأندلسية، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 3182، ص 338.

70 - ولد سنة 1138 هـ/1726م، جلس على العرش سنة 1187هـ/1773م، ومدة حكمه 16 سنة، في عهده عرفت الدولة العلية عدة إصلاحات ابتداءً من سنة 1189هـ/1775م، مثل محاربة الفساد وبعض الإصلاحات الإدارية، وعرف عهده الكثير من الحروب ضد الدولة الصفوية وروسيا، توفي سنة 1203هـ/1789م، عن عمر يناهز 66 سنة...، محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ص 184، 186.

71 - عزيز سامح، ألتز: المرجع السابق، ص 532.

72- أحمد، موفقي: المرجع السابق، ص 39.

73 - عزيز سامحن ألتز: المرجع السابق، ص 532.

74 - عبد الرحمن، الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج 3، ج 5، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص ص 245، 246.

75 - المنور، مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني -القرصنة، الأساطير والواقع-، ج 2، دار القصة، سعيد حمدين، الجزائر، ص 468.

76- أحمد الشريف، الزهار: المصدر السابق، ص 144.

77 - عزيز سامح، ألتز: المرجع السابق، ص 531.

78 - جون، وولف: المرجع السابق، ص 406.

79 - ناصر الدين، سعيدوني: المرجع السابق، ص 161.

80 - جون، وولف: المرجع السابق، ص 404.

81 - أحمد توفيق، المدني: المرجع السابق، ص 469.

82- مجهول: المصدر السابق، ص 10.

- 83- لا يمكننا نفي أو تصديق هذا الأمر، لكن نقول أنه ثبت عبر التاريخ الإسلامي منذ غزوة بدر الكبرى مثل هذه الكرامات للمجاهدين المخلصين، لأن الله سبحانه وتعالى يمد عباده بالملائكة للقتال معهم نصرة لدينه وعباده المظلومين، ويمكن أن يكون حدث هذا الأمر في هذه المعركة.
- 84- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 2.

ملف الدراسات القانونية والسياسية

قرار الجمعية العامة رقم 181 بتاريخ 1947/11/29

(دراسة في المحتوى والنتائج)

An Investigation into the UN General Assembly
Resolution No.181, November 29, 1947

د. عبد القادر الجبارين

جامعة الخليل فلسطين

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/07

Abstract :

On 29 November 1947, the U.N. General Assembly recommended the adoption and implementation of a Partition Plan for Palestine as Resolution 181. The resolution, which was adopted by 33 votes in favor, 13 against and 10 abstentions, divided the territory of the Mandatory Palestine into three entities: a Jewish State, including the best parts of Palestine, an Arab State, and an international trusteeship regime in Jerusalem. The resolution, which consists of a preamble and four parts, was accepted by the Jews and rejected by the Arabs.

This partition resolution has had negative political, legal and ethical consequences on the Palestinian people. It has resulted in the establishment of Israel, forced expulsion of Palestinians, destabilizing the security and stability of the region, and UN's inability to achieve peace and security or even to remove the historical injustice inflicted on the Palestinian people. Despite the fact that its foundation was based on a UN resolution, Israel is still looking for legitimacy for its existence as a Jewish State. In fact, it has frequently requested PNA to recognize the Jewishness of Israel; however, PNA has firmly rejected such a request because it believes that Israel will use such recognition to continue its racial policy against its non-Jewish population and prevent the return of Palestinian refugees to their homes in accordance with the UN Resolution No. 194, 1948.

Key words:

the U.N. General Assembly- Palestine- Jewish State- The resolution-

إنه ومنذ رفعت بريطانيا القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة في 1947/4/2، وصدر قرار التقسيم في التاسع والعشرين من نوفمبر من نفس العام، فمن الواضح أن هذه القضية كانت أعقد وأصعب قضية تواجه الدول الأعضاء في المنظمة الدولية، وبشكل أو بآخر فإن القضية الفلسطينية

هي أكثر القضايا التي كانت تعرض بشكل مستمر ودائم على الجمعية العامة وعلى مجلس الأمن، وبالرغم من ذلك فلا يوجد حل في الأفق، والحقيقة أن هذا القرار قد توج ما جاء في وعد بلفور، وأوجد مشكلة الشرق الأوسط أو الصراع العربي الإسرائيلي منذ ذلك الحين وحتى الآن، وأثبت عجز الأمم المتحدة بمؤسساتها المختلفة عن إيجاد حل يزيل الظلم التاريخي الذي لحق بالشعب الفلسطيني نتيجة هذا القرار.

وسيتناول البحث المحاور التالية:

(1) لمحة تاريخية مختصرة عن التطورات السياسية والميدانية في فلسطين حتى صدور القرار.

(2) محتوى القرار ومكوناته مثل الجزء الأول المتعلق بدستور فلسطين، والجزء الثاني المتعلق بحدود الدولتين العربية واليهودية، والجزء الثالث المتعلق بمدينة القدس، والجزء الرابع المتعلق بالامتيازات وما شابه ذلك.

(3) النتائج التي ترتبت على هذا القرار، وأهمها تقسيم فلسطين وطرده وتشريد مئات الآلاف من الشعب الفلسطيني خاصة في المدن التي يسكنها عرب ويهود مثل طبرية ويافا وحيفا التي انسحبت منها بريطانيا وتركت أمر إدارتها للوكالة اليهودية بحيث تم تهجير حوالي 350 ألف فلسطيني قبل إعلان قيام إسرائيل، ومن النتائج أيضاً بيان عدم قانونية القرار وخلق صراع مازال قائماً حتى الآن.

كما أن البحث يناقش ابعاد مطالبة الحكومة الإسرائيلية اليوم باعتراف فلسطيني بدولة يهودية مقابل اعتراف إسرائيل بدولة فلسطينية، حيث أن الأمم المتحدة اعترفت بقيام دولة يهودية وفق قرار التقسيم، وهذه المحاولة الإسرائيلية اليوم هي محاولة من أجل كسب الشرعية التي تفتقد إليها، ومن أجل تحقيق أهداف أخرى، لأنها تعلم بأن قرار التقسيم غير قانوني أصلاً، وإن قيام دولة إسرائيل - نتيجة هذا القرار - هو امر غير قانوني، كما ان رفض الفلسطينيين للقرار كان رفضاً محقاً، لان اعترافهم به يعني اعترافهم بدولة يهودية في فلسطين

وبشرعية تهجير السكان العرب من المناطق المخصصة للدولة اليهودية في فلسطين ، وتنازلهم عن أكثر من نصف أفضل مناطق فلسطين . وقد وقعت أحداث وتطورات متسارعة في فلسطين منذ عام 1939 أدت إلى رفع القضية للأمم المتحدة وإصدار القرار.

التطورات السياسية في فلسطين قبل قرار التقسيم

انتهت ثورة فلسطين الكبرى لعام 1936-1939م بصورة محزنة وذلك بسبب طيلة مدتها نسبيا والضغط العسكري البريطاني وقلة الأسلحة والذخائر، بالإضافة إلى أمل الفلسطينيين في أن يتم تحقيق ما جاء في الكتاب الأبيض، وتزامن ذلك كله مع نشوب الحرب العالمية الثانية.⁽¹⁾ خلال الحرب العالمية الثانية حاولت بريطانيا التمسك بما جاء في الكتاب الأبيض من حيث عدد المهاجرين وأعلنت أنها ستمنع الهجرة غير المشروعة، كما أعلنت عن نيتها إحياء الحاجة إلى حكم ذاتي ووضع دستور لدولة فلسطين المستقلة التي ستري النور خلال العشر سنوات القادمة، كما وضعت بعض القيود على انتقال الأراضي.⁽²⁾

رفض غالبية الفلسطينيين الكتاب الأبيض، كما رفضه اليهود وعملوا على مقاومته بكل الوسائل، كما أنهم ومنذ صدور الكتاب الأبيض لم يعودوا يعتمدوا على بريطانيا لتحقيق إقامة دولتهم، بل أنهم بدأوا ينظرون إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتحقيق هذا الهدف.⁽³⁾

ازداد النفوذ الصهيوني قوة في السياسة الأمريكية خلال الأربعينيات انطلاقا من عوامل داخلية كوجود طائفة يهودية أمريكية قوية تؤثر على الناخب والمرشح الأمريكي، بالإضافة إلى عوامل دينية وثقافية، إلى جانب الشعور بالعطف والذنب الناتجين عن المشاكل التي حصلت لليهود في الحرب العالمية الثانية⁽⁴⁾. استطاعت الجهود الصهيونية أن تقنع كلا من الحزبين الجمهوري والديمقراطي بدعم القضية الصهيونية في انتخابات عام 1944م، وافر الحزبان في ديسمبر من عام 1945 مشروعا في الكونغرس ينص على أن يقام الكومنولث اليهودي في فلسطين وليس في كل فلسطين.⁽⁵⁾

أما بخصوص الأوضاع في فلسطين، فحين أدرك الصهاينة أن الحرب بدأت تميل لصالح الحلفاء في عام 1943م بدأ المتطرفون بأعمال عنف لإجهاض السياسة البريطانية المتمسكة بالكتاب الأبيض، فنشطت المنظمات الصهيونية الإرهابية مثل شتيرن والارغون والهaganah، وبدأت بإلقاء القنابل على المصالح البريطانية والمسؤولين والبوليس، وقتل وزير الدولة البريطانية اللورد موين في القاهرة⁽⁶⁾، كما نجا المندوب السامي هارولد مكمايكل من محاولة اغتيال خارج القدس، وهاجمت أيضا المواصلات والسكك الحديدية ومنشآت النفط في حيفا ونسفت فندق الملك داود مما أدى إلى قتل 46 موظفا من الانجليز والعرب واليهود، كما شملت الأعمال الإرهابية خطف قاضي بريطاني وضباط انجليز كثيرون.⁽⁷⁾ كان هدف المنظمات الإرهابية اليهودية من هذه الأعمال يتمحور حول إجبار بريطانيا على الاستجابة لمطالبها قبل أن تتعرض للضغط الغربي وتتخلى عن المشروع الصهيوني وكذلك أرادوا كسب الوقت والتعاطف الدولي لهم بسبب الاعمال النازية ضدهم، والهدف الاخر هو إرهاب الفلسطينيين وحملهم على النزوح من فلسطين لخلق الظروف المناسبة لإقامة الدولة اليهودية.⁽⁸⁾

من الملاحظ أن الجهود الصهيونية لدى أمريكا قد أثمرت عن وعود ودعم معنوي خلال الفترة التي سبقت تولي الرئيس هاري ترومان الحكم في نيسان 1945م، وكان الرئيس ترومان كان أكثر تعاطفا مع الأهداف الصهيونية، كما كان أكثر تأثرا باللوبي الصهيوني وابعد ما يكون عن توجهات كل من وزارة الخارجية والدفاع اللتان كانتا تحبذان ترك موضوع فلسطين إلى بريطانيا، وعدم إظهار تأييد أمريكا رسميا لمطالب اليهودية خوفا من إغضاب العرب وتهديد المصالح الاستراتيجية والنفطية الأمريكية في البلاد العربية.⁽⁹⁾ وتحت الضغط الصهيوني والميول الشخصية للرئيس كتب ترومان رسالة إلى رئيس الوزراء البريطاني كليمنت اتلي يحثه فيها على السماح فورا بإدخال (100) ألف يهودي إلى فلسطين ، رفض رئيس الوزراء البريطاني هذا الطلب لأنه يغضب العرب ويعرض المصالح البريطانية للخطر ويزيد من اشتعال الموقف في المنطقة، واقترح على ترومان تأليف لجنة تحقيق أنجلو-أمريكية تبنى على اساس توجيهات

سياسية جدية لحل المشكلة الفلسطينية ودراسة مستقبل فلسطين في ضوء ظروف ما بعد الحرب.⁽¹⁰⁾

اللجنة الأنجلو - أمريكية

باشرت اللجنة عملها بالاستماع إلى ممثلي اليهود وبعض أنصار العرب في واشنطن، ثم جاءت إلى لندن واستمعت إلى ممثلي الدول العربية في هيئة الأمم المتحدة، ثم زارت بعض الدول الأوروبية وفلسطين والأردن ولبنان وسوريا والعراق والسعودية⁽¹¹⁾، وقد طالب جميع من اجتمعوا بهم من العرب بحل القضية الفلسطينية دون النظر إلى المشكلة اليهودية، وضرورة استقلال فلسطين، وبعد أن أنجزت اللجنة عملها أوصت اللجنة بأن لا تكون فلسطين دولة عربية ولا دولة يهودية، بل تبقى حكومة فلسطين قائمة تحت الانتداب إلى أن يتم عقد اتفاق توضع فيه فلسطين تحت وصاية دولية طويلة الأمد حتى يزول النزاع بين العرب واليهود، كما أوصت بإلغاء سياسة الكتاب الأبيض من خلال إلغاء أنظمة بيع الأراضي لسنة 1940 والسماح بإصدار مئة ألف شهادة هجرة لليهود إلى فلسطين حالا.⁽¹²⁾ وعلى الرغم من حث الحكومة البريطانية للإدارة الأمريكية بعدم الإعلان عن تقرير اللجنة الخاص بالهجرة لان ذلك سيغضب العرب، إلا أن الرئيس الأمريكي أعلن عن سعادته لتقرير اللجنة التي استجابت لمطلبه السابق.⁽¹³⁾

لكن الحكومة البريطانية أصرت على عدم موافقتها على توصيات اللجنة الخاصة بالهجرة وأرادت ان تدرس التقرير كاملا، وقررت أنها في وضع لا يسمح عسكريا وماليا بتنفيذ التقرير، كما وضعت شرطا سابقا لقبول (100) ألف مهاجر يهودي، وهو حل المنظمات العسكرية الصهيونية ونزع سلاحها في فلسطين، في المقابل ابدى اليهود ترحيبهم بضرورة تنفيذه وبسرعة، وعندما شعروا بالرفض البريطاني بدأوا بتنفيذ أعمال إرهابية ضد الانجليز والعرب كما ذكر سابقا.⁽¹⁴⁾

مؤتمر لندن الثاني 1946-1947

أجبرت التطورات السياسية في فلسطين والبلاد العربية بريطانيا على الدعوة لعقد مؤتمر في لندن في أيلول 1946 للبحث في حلول قضية فلسطين كمحاولة أخيرة، وعقد المؤتمر في 9/10 حضره ممثلو الدول العربية وعرضت بريطانيا مشروعا سمي النظام الاتحادي أو مشروع موريسون Morison والذي يقسم فلسطين إلى أربع مناطق: منطقة يهودية، والقدس والنقب، والمنطقة العربية، المنطقة العربية واليهودية تتمتعان باستقلال ذاتي، وحكومة مركزية شاملة للمنطقتين.⁽¹⁵⁾

رفض العرب هذا المشروع؛ لأنه يقوم على أساس التقسيم، وطلب الانجليز من العرب تقديم البديل لهذا المشروع، وتقدم العرب بمشروع يقوم على أساس استقلال فلسطين دولة موحدة وتنشأ فيها حكومة انتقالية برئاسة المندوب السامي مكونة من سبعة من العرب وثلاثة من اليهود وتتوقف الهجرة اليهودية لحين البت في ذلك من حكومة فلسطين المستقلة⁽¹⁶⁾، وتألقت لجنة عربية - انجليزية لدراسة المشروع وعرضها على المؤتمر، إلا أن بريطانيا طلبت مزيدا من الوقت لدراسة المشروع، وفي 1947/1/28 استأنف المؤتمر أعماله ورفض الوفد البريطاني المشروع العربي وتمسك بمشروع موريسون السابق مع تعديلات لصالح اليهود، وعندما رفضت الوفود العربية المشروع البريطاني عرضت بريطانيا مشروعا آخر عرف باسم مشروع بيغن، والذي يتلخص في استمرار الانتداب خمس سنوات أخرى، وتنشأ خلالها حكومات ومجالس عربية ويهودية ذات استقلال ذاتي، مع حصر الهجرة اليهودية في المنطقة المخصصة لليهود وفق قاعدة الاستيعاب الاقتصادي.⁽¹⁷⁾ رفضت الوفود العربية هذا المقترح؛ لأنه يتنافى مع الاستقلال ويقوم على أساس التقسيم، ويبقي باب الهجرة مفتوحا على مصراعيه كما رفض الصهاينة هذا المشروع أيضا.⁽¹⁸⁾

فلسطين في الأمم المتحدة عام 1947م

انتهى مؤتمر لندن دون التوصل إلى حل ممكن تنفيذه، وأعلنت بريطانيا أنها سترفع القضية إلى الأمم المتحدة، والواقع أن هدف بريطانيا من رفع القضية هو التعجيل في تقسيم فلسطين،

والتخلص من مسؤوليتها تجاه القضية الفلسطينية، فبريطانيا تدرك أن المنظمة الدولية سوف تحقق الأهداف الصهيونية بسبب هيمنة أمريكا وتأثيرها على الدول الأعضاء. عرضت القضية على الجمعية العمومية بداية نيسان وقررت الأمم المتحدة تشكيل لجنة خاصة بفلسطين (UNSCOP) مكونة من (11) عضواً، زارت اللجنة فلسطين صيف (1947) لكن اللجنة لم تتفق على حل واحد، فقدمت مشروعين مختلفين للأمم المتحدة، مشروع الأكثرية الذي يتبناه (7) أعضاء، والذي يقوم على أساس تقسيم فلسطين إلى دولتين ترتبطان باتحاد اقتصادي، وتدويل القدس تحت وصاية الأمم المتحدة، ومشروع الأقلية الذي تبناه (4) أعضاء ويقوم على أساس دولة اتحادية عاصمتها القدس.⁽¹⁹⁾

وفي 9/23 عينت اللجنة العامة لجنة خاصة لدراسة التقرير المرفوع إليها، فشكلت اللجنة هذه من بين أعضائها لجنة توفيق ولجنتين فرعيتين، تبنت الأولى مشروع التقسيم مع الاتحاد الاقتصادي وتقدمت الثانية باقتراح استشارة محكمة العدل الدولية حول صلاحية الأمم المتحدة في التوصية بالتقسيم، أقرت اللجنة الخاصة توصيات اللجنة الفرعية الأولى بأغلبية 25 صوتاً مقابل 13 صوتاً وامتناع 17 عضواً عن التصويت، ولما لم يؤمن هذا التصويت ثلثي الأصوات المطلوبة لتمرير القرار فقد رفع إلى الجمعية العامة فأصدرت قرار التقسيم رقم 181 في 1947/11/29 بأكثرية 33 صوتاً ضد 13 وامتناع 10 عن التصويت.⁽²⁰⁾

محتوى القرار

يتضمن القرار مقدمة وأربعة أجزاء:

فالمقدمة تحتوي على الإجراءات التي اتخذتها الجمعية العامة من حيث تأليف لجنة خاصة وتكليفها "بالتحقيق في حل المسائل والقضايا المتعلقة بقضية فلسطين ثم البحث في تقرير اللجنة الخاصة، وتوصي المملكة المتحدة بتبني مشروع التقسيم والاتحاد الاقتصادي وتنفيذه. وتطلب أن ينظر مجلس الأمن إذا كانت الظروف خلال الفترة الانتقالية مثل ذلك النظر في اتخاذ إجراءات تمنح لجنة الأمم المتحدة سلطة الاطلاع في فلسطين بالمهام المنوطة لها هذا القرار وان يعتبر

مجلس الأمن كل محاولة لتغيير التسوية التي ينطوي إليها هذا القرار بالقوة تهديد للسلام” وتدعو (الجمعية العامة) سكان فلسطين إلى القيام - من جانبهم - بالخطوات اللازمة لتحقيق الخطة، وتناشد (الجمعية العامة) جميع الحكومات والشعوب أنتحجم عن القيام بأي عمل يحتمل أن يعيق هذه التوصيات أو يؤخر تنفيذها. كما تحتوي المقدمة على بعض الأمور المالية المتعلقة بنفقات أعضاء اللجنة.⁽²¹⁾

الجزء الأول: ويحتوي على دستور فلسطين وحكومتها المستقلة.

وينص على (أ): إنهاء الانتداب وجلاء القوات البريطانية تدريجيا وبذل أفضل مساعي السلطة المنتدبة “ لضمان الجلاء عن منطقة واقعة في أراضي الدولة اليهودية وتضم ميناءً بحريا وأرضا خلفية كافيتين لتوفير تسهيلات لهجرة كبيرة”. وكل هذه البنود يجب أن تنفذ قبل 1948/8/1، “وتنشأ في فلسطين الدولتان المستقلتان العربية واليهودية والحكم الدولي الخاص بمدينة القدس”. وذلك بعد شهرين من إتمام الجلاء البريطاني، وألا يتأخر ذلك عن 10/1 من نفس العام وتكون الفترة ما بين تبني الجمعية العامة توصياتها بشأن مسألة فلسطين وتحقيق استقلال الدولتين العربية واليهودية، فترة انتقالية.⁽²²⁾

(ب): خطوات تمهيدية للاستقلال وتقع في 15 بنداً

وتتضمن هذه البنود تشكيل لجنة مكونة من ممثل واحد لكل دولة من خمس دول أعضاء، تنتخبهم الجمعية العامة على “ أوسع أساس ممكن جغرافيا وغير جغرافي.” وستستلم هذه اللجنة إدارة فلسطين بالتدريج وبالتنسيق مع السلطة المنتدبة.

وتكون صلاحيات هذه اللجنة - التي تعمل وفق توصيات الجمعية العامة بتوجيه مجلس الأمن وبالتزام سلطة الانتداب بتسهيل مهمة اللجنة-: ⁽²³⁾

1. “إصدار الأنظمة الضرورية واتخاذ الإجراءات الأخرى كما يقتضي الحال” وتعمل لدى وصولها إلى فلسطين “ في تنفيذ الإجراءات لإقامة حدود الدولتين العربية واليهودية ومدينة القدس، بحسب الخطوط العامة لتوصيات الجمعية العامة بشأن تقسيم فلسطين، على أن الحدود

الموصوفة في الجزء الثاني من هذه الخطة يجب تعديلها كقاعدة عامة بحيث لا تقسم حدود الدولة مناطق القرى ما لم تقتضي ذلك أسباب ملحة".

2. وتعمل اللجنة وبالتشاور مع "الأحزاب الديمقراطية والمنظمات العامة الأخرى في الدولتين العربية واليهودية" إنشاء مجلس حكومة مؤقت يسير وفق توجيهات اللجنة طيلة الفترة الانتقالية، ويكون لكل من المجلسين "كامل السلطة في المناطق التابعة لها، وبنوع خاص السلطة في القضايا المتعلقة بالهجرة وتنظيم الأراضي"، وتسليم كل من المجلسين كامل التبعات الإدارية خلال الفترة بين إنهاء الانتداب وإعلان الاستقلال، ويعمل هذان المجلسان على إنشاء أجهزة الحكومة، والميليشيات المسلحة للمحافظة على النظام الداخلي والحدود شريطة أن تختار لجنة الأمم المتحدة قياداتها العليا وتخضع هذه الميليشيات سياسيا وعسكريا للجنة الأمم المتحدة أيضا.

3. يضم مجلس الحكومة المؤقت أنظمة انتخاب لجمعية تأسيسية خلال شهرين في كل دولة وتوافق عليها اللجنة، ثم بينت اللجنة شروط الانتخاب، ذكورا وإناثا، عربا ويهودا، مواطنين في الدولة اليهودية أو العربية أو القدس، وأثناء الفترة الانتقالية "لا يسمح لليهودي بأن يجعل إقامته في منطقة الدولة العربية المقترحة ولا لعربي بأن يجعل إقامته في منطقة الدولة اليهودية المقترحة إلا بإذن خاص من اللجنة".

4. تضع الجمعية التأسيسية لكل دولة مسودة دستور ديمقراطي، وتختار حكومة مؤقتة تحل محل مجلس الحكومة المؤقت، ويضم الدستور أحكاماً عامة تتعلق بالسلطة التشريعية والتنفيذية، وتسوية خلافاتهما مع الدول الإقليمية والعالمية بالطرق السلمية، وضمان حقوق الأشخاص "حرة" المرور والزيارة ولجميع مواطني الدولة الأخرى في فلسطين ومدينة القدس" ويضم دستور الدولتين الفصل الأول المتعلق بالأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية (المتضمن في الفرع ج/تصريح/اللاحق) وضرورة المحافظة عليها وحرية الوصول إليها وعدم فرض الضرائب على زيارتها.

كما ويضم الفصل الثاني (ج/تصريح) المتعلق بالحقوق الدينية وحقوق الأقليات والمتضمن حرية العقيدة وعدم التمييز بين المواطن على أساس الدين أو الأصل أو اللغة أو الجنس، واحترام القانون العائلي والاحوال الشخصية وحق التعليم واختيار اللغة في المحادثات الخاصة وعدم التدخل في نشاطات المؤسسات الخيرية والدينية باستثناء ما يتطلبه حفظ النظام، والمحافظة على التنوع الثقافي وحرية التعبير والملكية.

(ج) ورد هذا البند تحت عنوان تصريح ويتضمن حكم عام بعدم تعارض القوانين الأساسية للدولة (الدولتين) مع هذا النظام كما يتضمن (الفصل الاول) المتعلق بالأماكن المقدسة والأبنية والمواقع و(الفصل الثاني) المتعلق بالحقوق الدينية وحقوق الأقليات الانفة الذكر. كما يتضمن (الفصل الثالث) المواطنة والاتفاقيات الدولية والالتزامات المالية. فبخصوص المواطنة يصبح كل مواطن خارج مدينة القدس من العرب واليهود غير حائز على الجنسية الفلسطينية مواطنا في الدولة التي يقيم فيها. يجوز لكل شخص تجاوز الثانية عشر من العمر خلال سنة من يوم الاعتراف باستقلال الدولة التي تقيم فيها أن يختار جنسية الدولة الأخرى شرط أن لا يكون لأي عربي يقيم في الاقليم العربي المقترح، الحق في اختيار جنسية الدولة اليهودية المقترحة وألا يكون لأي يهودي يقيم في الدولة اليهودية المقترحة، الحق في اختيار جنسية الدولة العربية المقترحة.

أما بخصوص الاتفاقيات الدولية فعلى الدولة أن تحترم المعاهدات والاتفاقيات التي هي طرف فيها، كما يجب عليها أن تحيل كل خلاف حول أي اتفاقية او معاهدة وقعتها حكومة الانتداب وعليها خلاف إلى محكمة العدل الدولية، وأما بخصوص الالتزامات المالية فعلى الدولة أن تحترم وتنفذ جميع الالتزامات المالية التي أخذتها الدولة المنتدبة على عاتقها نيابة عن فلسطين أثناء فترة الانتداب، وتلتزم الدولة أيضا بالالتزامات المالية، التي تشمل كل فلسطين من خلال المجلس الاقتصادي المشترك، وفي حال نزاع أو خلاف مالي يحال إلى محكمة ادعاءات تابعة للمجلس الاقتصادي المشترك، (الفصل الرابع) يؤكد على أنالأمم المتحدة تضمن أحكام

الفصل الأول والثاني ولا يجري عليها أي تعديل دون موافقة الجمعية العامة وإن أي خلاف يثار عند تطبيق بنود التصريح (ج) يحال إلى محكمة العدل الدولية بناء على طلب أحد الطرفين.⁽²⁴⁾

(د) الاتحاد الاقتصادي والعبور:

يشترك مجلس الحكومة المؤقت لكل دولة في وضع مشروع اتحاد اقتصادي وعبور بإشراف اللجنة الخاصة، متضمنا نصوصا محددة، ومسائل ذات نفع مشترك، ويحتوي هذا المشروع على أهداف الاتحاد الاقتصادي كوجود وحدة جمركية ونظام نقدي مشترك وإدارة السكك الحديدية والطرق المشتركة والبريد والهاتف والموانئ والمطارات والري والأراضي والمياه ومصادر الطاقة وغيرها.

يتكون المجلس الاقتصادي من ثلاثة ممثلين لكل من الدولتين، ومن ثلاثة أعضاء أجنبية يعينهم المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة، كما يعين ممثلين أجان بأول مرة لمدة ثلاثة سنوات، وتكون وظيفة هذا المجلس تحقيق أهداف الاتحاد الاقتصادي، وتتعهد الدولتان بتنفيذ قرارات المجلس المشترك التي تؤخذ بالأكثرية، وفي حال مخالفة إحدى الدولتين للمجلس أن يقرر بأكثرية ستة أعضاء التحفظ على جزء من حصة الدولة المخالفة، ويكون النظام النقدي المشترك والعملات المتداولة في الدولتين والقدس تحت سلطة المجلس الاقتصادي المشترك، وهذا الذي يحدد الاحتياطي وغيره. ويجوز لكل دولة أن تدير مصرفها المركزي الخاص، وإن تتحكم بسياساتها المالية، وتوضع تعرفه جمركية تتيح حرية التجارة بين الدولتين بينهما وبين القدس، كما يتم توزيع دخول الإيرادات الصافية والجمارك بين الدولتين بالتساوي بعد اقتطاع 5-10٪ منها لمدينة القدس، كما تتعهد الدولتان بحرية المرور والزيارة لجميع سكان أو مواطني كلتا الدولتين ومدينة القدس، على أن تضبط كل دولة ومدينة القدس الإقامة داخل حدودها.

هـ: الموجودات: ويتضمن هذا الموضوع بندين الأول يشمل توزيع أم والإدارة فلسطين المنقولة بين الدولتين ومدينة القدس على أساس عادل وبواسطة لجنة الأمم المتحدة المذكورة سابقا وأما البند الثاني فيشمل التزام الدولة المنتدبة قبل انتهاء انتدابها أن تتشاور مع لجنة الأمم المتحدة في

أي إجراء تفكر في اتخاذه متضمنا تصفية أموال حكومة فلسطين والتصرف بها أو رهنها مثل فائض الخزينة المتراكم وربح السندات التي أصدرتها الحكومة وأراضي الدولة وأي موجودات أخرى.⁽²⁵⁾

(و) عضوية الأمم المتحدة:

سينظر بعين العطف على قبول الدولتين في عضوية الأمم المتحدة عندما يصبح استقلال الدولتين نافذا ويعد توقيعهما البيان والتعهد المنصوص عليه في هذا المشروع.⁽²⁶⁾

الجزء الثاني: الحدود

1. الدولة العربية

من الصعب تصور حدود الدولة العربية على شكل كتابة، كما ورد في نص القرار، ولكن يمكن أن تحدد المناطق التي اشتملتها الدولة العربية على خريطة مرفقة تبين حدودها كما وردت. حيث اشتملت الدولة العربية على الجليل الغربي ولواء نابلس، والسهل الممتد من أسدود حتى حدود مصر، ولواء الخليل وجبل القدس وغور الأردن الجنوبي.

2. الدولة اليهودية

ويشمل الجليل الشرقي ومرج ابن عامر، والقسم الأوسط من السهل الساحلي ومنطقة النقب.
3. مدينة القدس: ولها نظام خاص كما سيرد في الجزء الثالث أدناه، وتشمل المنطقة الممتدة من شمال شعفاط إلى جنوب بيت لحم وبيت ساحور جنوبا، ومن شرق العيزرية شرقا إلى غرب عين كارم ودير ياسين غربا، (انظر الخريطة رقم 1).

الجزء الثالث: مدينة القدس

وقد اشتمل هذا الجزء على إقامة نظام دولي خاص بها تتولى الأمم المتحدة الإشراف عليه عن طريق مجلس وصايتها، ويشمل هذا القسم أيضا نظام المدينة الأساسي (الدستور) الذي يضعه مجلس الوصاية خلال خمسة شهور، مشتملا على طريقة الحكم وأهدافه، وحماية المصالح

الروحانية والدينية لأتباع الديانات السماوية الثلاث، ودعم روح التعاون بين سكان المدينة جميعهم.

ويتم تعيين حاكم القدس من قبل مجلس الوصاية على أساس الكفاءة وليست الجنسية، وعلى ان لا يكون مواطنا من الدولتين في فلسطين، يمارس هذا الحاكم جميع السلطات الإدارية والشؤون الخارجية، يعاونه موظفون إداريون من أبناء المدينة ومن فلسطين دون أي اعتبار للعنصر.⁽²⁷⁾

خريطة رقم (1)، تبين حدود الدولة العربية والدولة اليهودية حسب قرار التقسيم 181.

مجلس الوصاية، وتكون اللغتين العربية والعبرية لغتي المدينة الرسميتين، ويجوز اعتماد لغة أو لغات أخرى حسب الحاجة، ويكون هناك ممثلين للدولتين العربية واليهودية في المدينة بعد اعتمادهما من قبل حاكم المدينة لرعاية مصالح بلديهما فيها. وهناك ضمانات لحريات المواطنين، وشروط المواطنة واحترام قوانين الأحوال الشخصية ونشاط المؤسسات الدينية والخيرية، وحق التعليم الابتدائي والثانوي للطوائف بلغتها وفق تقاليدھا الثقافية. واشتمل هذا الجزء أيضا على حماية الأماكن المقدسة وضمان حرية الوصول إليها وصيانتها وعدم فرض ضرائب لم تكن مفروضة سابقا، وكل هذا من مسؤوليات حاكم المدينة الذي يجوز له أن يستعين بمجلس استشاري مكون من ممثلين عن مختلف الطوائف. ومدة هذا النظام عشر سنوات يعود بعد ذلك مجلس الوصاية النظر في مجموع النظام في ضوء التجارب المكتسبة.⁽²⁸⁾

الجزء الرابع: الامتيازات

يشير هذا الجزء إلى الطلب من الدول التي كان لها امتيازات قنصلية خاصة في فلسطين في الماضي أن تتنازل عن تثبيت هذه الامتيازات في الدولتين العربية واليهودية ومدينة القدس.⁽²⁹⁾

نتائج قرار التقسيم

كان لصدور قرار التقسيم من قبل الأمم المتحدة نتائج بعيدة المدى على فلسطين والعالم العربي والعالم لا تزال آثارها ماثلة حتى اليوم، فهذا القرار حقق الأطماع الصهيونية من خلال إقامة الدولة اليهودية وتشريد الشعب الفلسطيني، كما حقق المصالح الاستعمارية البريطانية بإيجاد هذه الدولة التي طالما سعت إليها بريطانيا منذ زمن. كما حقق أيضا متطلبات الهيمنة الأمريكية في الشرق الأوسط من خلال إيجاد حليف يسعى إلى خدمة مصالحها وإثارة عدم الاستقرار والفوضى في المنطقة، كما أن القرار كان دليلاً واضحاً على عدم قدرة المنظمة الدولية على تحقيق الحق والعدل والأمن والسلام التي تنادي بها دائما في حل الأزمات الدولية.

ويمكن أن نجل النتائج في النقاط التالية :

1. تقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية ومنطقة القدس الدولية ، فالقرار أعطى اليهود الحق في إقامة دولة لهم على مساحة 14.200 كم² ونسبة 56,47٪ من مساحة فلسطين ،تضم أفضل بقاع البلاد وأخصبها، كما تضم هذه الدولة معظم التجمعات السكانية العربية الكبرى ، بحيث إن نسبة السكان العرب تكاد تكون مساوية لنسبة السكان اليهود تقريبا(496 ألف يهودي و495 ألف عربي). أما الدولة العربية (فلسطين) التي لم "تقم أصلاً"، فتشمل ما مساحته (12)ألف كم² شاملة منطقة القدس الدولية التي تبلغ نسبتها 2٪ بحيث تكون النسبة الكلية 43٪ . ويعدد سكان (550)ألف عربي و(11) ألف يهودي ، وأما منطقة القدس فتضم (105) ألف عربي و(100) ألف يهودي .⁽³⁰⁾
2. تحقيق الأهداف البريطانية .

توج قرار التقسيم السياسة البريطانية في فلسطين منذ صدور وعد بلفور ، مروراً بسياسة الانتداب طيلة ثلاثين عاماً سعت خلالها بريطانيا للوصول الى هذا الهدف ، وفكرة التقسيم لم تكن وليدة العام 1947، وإنما طرحت الفكرة للتقسيم في توصيات لجنة (بيل) الملكية التي جاءت للتحقيق في أحداث ثورة 1936 والصادرة في السابع من تموز للعام 1937م . ثم تكررت الفكرة مجدداً في تشرين الثاني من العام 1946 في مشروع (موريسون). هذه المشاريع رفضت من قبل الفلسطينيين سابقاً لأنها تقوم على التقسيم، ولذلك نجد أن بريطانيا التي أخفقت في الحصول على موافقة الفلسطينيين والعرب على التقسيم، حولت القضية إلى الأمم المتحدة للحصول على الموافقة الدولية لتحقيق هذا الهدف وإقامة الدولة اليهودية بدلاً من الوطن القومي ، ويؤكد هذا الدور البريطاني بتخليها عن سياسة الكتاب الأبيض وإشراكها لأمريكا في تقرير مصير فلسطين ، ثم تخليها عن الانتداب وعرضها القضية على الجمعية العامة، ثم طريقة التصويت، بحيث أنها امتنعت عن التصويت وجعلت الدول الدائرة في فلكها تصوت لصالح القرار، وإعلانها الموافقة على قرار التقسيم والعمل على تنفيذه .⁽³¹⁾

3. مهد قرار التقسيم للنكبة الفلسطينية ، بل انه السبب الحقيقي للنكبة ، فقد استغلت الحركة الصهيونية صدور القرار وبدأت المليشيات الصهيونية ذات الإعداد والتدريب والتخطيط المسبق بالقتال بعد ثلاثة أيام من صدور القرار. ولم يكن هذا القتال عشوائيا وإنما جاء تنفيذا لل خطة (دالت) المعدة مسبقا والتي تهدف إلى الاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من فلسطين شاملة القسم اليهودي وما يمكن من القسم العربي حتى نهر الأردن.⁽³²⁾

تقضي خطة (دالت) بقيام المليشيات اليهودية بهجمات على التجمعات العربية الواقعة ضمن التجمعات اليهودية لمنع استخدامها كقواعد لشن هجمات ضد اليهود ، وتشمل هذه الهجمات حملات تفتيش وغيرها ، وفي حال المقاومة يجب القضاء على المسلمين جميعا ، وطرد السكان إلى خارج حدود الدولة اليهودية ، ولم تراعى (الخطة دالت) حدود قرار التقسيم وإنما تتعداها إلى حدود الدولة العربية وذلك لحل المشكلة السكانية التي أوجدها قرار التقسيم وكذلك من أجل تمركز القوات اليهودية في هذه المنطقة لصد هجوم الجيوش العربية بعد 1948/5/15. ومن هنا بدأت أولى عمليات الترحيل المنظم ابتداء من شهر كانون الأول 1947م حيث قامت العصابات الصهيونية بتهجير سكان القرى القريبة من المستعمرات اليهودية مثل قرى المسعودية ، وخرية عزون ، ثم تتالت عمليات الهجوم والترحيل للسكان ، حيث تم في الفترة الواقعة بين شهر شباط حتى أواسط نيسان تهجير حوالي (60) ألفا من سكان طبريا وبيسان والقسطل ودير ياسين وصوبا وقالونيا وساريس وحواسه (حيفا) وعيلوط (الناصرة) وناصر الدين (طبريا) وغيرها من القرى التابعة للقدس وحيفا وطبريا . كما تم تهجير (300) ألف نسمة من سكان حيفا ويافا والقدس وصفد والقرى المجاورة للمناطق التي يسكنها اليهود خلال الفترة من منتصف نيسان حتى 1948\5\15 . (33) توالى عمليات التهجير المنهج خلال النصف الثاني من العام 48 ليصل العدد مع نهاية العام الى (800) ألف لاجئ غالبيتهم من المناطق التي تقع خارج حدود منطقة الدولة اليهودية .⁽³⁴⁾

4. خلق قرار التقسيم معارضة عربية وفلسطينية قوية واصراراً على مقاومته ، وذلك لأن الأمم المتحدة غير مخولة بتقسيم فلسطين. وان الاعتراف بالقرار يعني اعترافاً بالدولة اليهودية وشرعية يهوديتها. فقد عمت المظاهرات والاحتجاجات العواصم العربية، وعقدت اللجنة السياسية للجامعة العربية اجتماعاً في بداية نوفمبر كانون الأول وبحضور رؤساء حكومات الدول الأعضاء، قرروا فيه العمل على إحباط هذا القرار من خلال تزويد الفلسطينيين بالسلاح، والسماح للمتطوعين بدخول فلسطين ضمن جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي. أما بخصوص الفلسطينيين فقد رفضوا هذا القرار وبدأوا بالتصدي للمليشيات الصهيونية من خلال قوات الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني ومساعدة اللجان القومية.⁽³⁵⁾

بالرغم من قلة الإمكانات، إلا أن هذه القوات استطاعت ان تتصدى للمليشيات الصهيونية وتضيق الخناق على اليهود في القدس، وتحقق بعض النجاحات خلال الأشهر الأربعة الأولى مما جعل أمريكا تتراجع عن توصية التقسيم، ولكن وبالرغم من هذه النجاحات، فقد استطاعت المليشيات الصهيونية التفوق في القتال نظراً لتفوقها في العدد والعتاد، والتنسيق العسكري والسياسي البريطاني معها ، كذلك بسبب وجود خلافات بين الدول العربية، ووجود بعض الانقسامات في صفوف الفلسطينيين ، ودخول هذه المليشيات المدن الرئيسية كحيفا ويافا وطبريا قبل دخول النجدة العربية إليها .⁽³⁶⁾

5. كان قرار التقسيم خطوة مرحلية أولى فتح المجال أمام الصهاينة للاستيلاء على مزيد من الأراضي عن طريق القوة للسيطرة على كل فلسطين وطرد معظم سكانها ، وهذا ما تم بالفعل، فالصهاينة لم يكتفوا بما تقرر لهم في التقسيم ، بل أنهم سيطروا على (77٪) من مساحة فلسطين في حرب على 1948م ، ثم عادوا وسيطروا على كل فلسطين عام 1967 م ، كما عملوا على طرد ما يقرب من (360 ألف) فلسطيني عام 1947، بل ازداد العدد ليبلغ (800 ألف) نسمة، وعملية الطرد لا زالت تهيمن على العقلية الصهيونية حتى الآن، من خلال السياسات الاستيطانية وغيرها ، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ اليهودي (بيني موريس) إن عملية

الترحيل الكامل قادمة لا محالة ، ليس الآن لأن العالم لا يسمح بذلك ، ولكن في ظروف مناسبة.⁽³⁷⁾

6. حصول جدل قانوني واسع حول مدى قانونية قرار التقسيم ، فاليهود -وبالرغم من عدم قناعتهم ، بحجم الدولة اليهودية- وافقوا عليه من منطلق ان للدولة اليهودية أساساً قانونياً يمكن الدفاع عنه أمام المعارضة العربية ، فقبل قرار التقسيم كان اليهود يعتمدون - في شرعية وجودهم- على الحقوق الدينية والتاريخية ، وكذلك وعد بلفور كسند قانوني ، ولكن الان يستندون على القانون الدولي⁽³⁸⁾.

لكن صدور القرار عن الأمم المتحدة لا يعني انه قانوني. وذلك بسبب:

1. انه اعتداء صريح على سيادة السكان الاصليين وحقوقهم في فلسطين وهم الأكثرية العربية الذين لم يؤخذ رأيهم بعين الاعتبار في تقرير المصير. بينما أتيح هذا الحق لليهود، علما بان هذا الحق مضمون في الامم المتحدة.⁽³⁹⁾

2. لا تملك الجمعية العامة الحق في التصرف أو التوصية بتجزئة أو تقسيم البلاد الموضوعة تحت الانتداب بين سكانها الأصليين والمهاجرين الجدد ، لأنه لا يوجد في ميثاق الأمم المتحدة أي نص يعطيها حق تقسيم أي بلاد ، بل إن ميثاق الأمم المتحدة قد أشار إلى نظام الوصاية ليحل محل نظام الانتداب.⁽⁴⁰⁾

3. لأنه لم يحقق العدالة في تقسيم فلسطين ، فقد منح الأقلية اليهودية ما نسبته 56,47% من مساحة فلسطين علما بأن اليهود لا يملكون سوى 5,76% من أراضي فلسطين واقل من 10% من أراضي الدولة اليهودية، وعدد السكان اليهود في الدولة اليهودية يزيدون ألفا عن العرب فقط، بينما سكان الدولة العربية كلهم تقريبا من العرب، وبما ان اليهود أقلية في فلسطين فإن القانون الدولي يمكن أن يعطيهم تطبيق اتفاقية حماية الأقليات في إطار الوطن الواحد وليس بإقامة دولة وتقسيم الوطن الواحد إلى دولتين.⁽⁴¹⁾

4. إن النصوص الواردة في الدستور المقترح للدولتين والذي يحدد كيفية تأسيس الهيئة التشريعية والتنفيذية ونوع النظام الانتخابي والحقوق والحريات يُفقد شعب الدولتين حق السيادة وحق الاختيار للأنظمة السياسية والاجتماعية التي يريدونها.

5. إن القرار باطل؛ لأنه تم تمريره بالإكراه والضغط الذي مارسه الحركة الصهيونية وامريكا وبريطانية على الدول الأعضاء وليس من خلال حرية التصويت .

6. إن قرار التقسيم غير ملزم؛ لأن الأمم المتحدة تصدر توصيات غير ملزمة (حسب المواد 14.12.11.10) ومجلس الأمن هو صاحب الاختصاص بذلك ، وبالتالي قيام الدولة اليهودية بموجبه لا يعطيها الشرعية في الوجود ، وعدم اعتراف الشعب الفلسطيني به لا ينتقص من حقهم في المطالبة بكامل حقوقه .⁽⁴²⁾

7. يعتبر القرار باطلا؛ لأن الأمم المتحدة لم تنفذه، واتخذت قرارات مناقضة له حيث طلبت من مجلس الأمن أن يتخذ الإجراءات اللازمة لتنفيذ التقسيم ، واعتبرت كل محاولة لتعديل التسوية بالقوة تهديدا للسلام او عملا عدوانيا ، ولكن المجلس لم يقم بذلك ، وطلب المجلس لعقد دورة استثنائية للجمعية العامة من أجل إيجاد حل للمشكلة ، وافتتاح هذه الدورة يعني التخلي عن قرار التقسيم ، وصدور القرار رقم 186 بتعيين وسيط دولي في فلسطين في 14\5\1948 يعني إلغاء القرار .⁽⁴³⁾

8. إن القرار باطل؛ لأنه نُفذ بالقوة من قبل إسرائيل ومن دون وجود لجنة الوصاية التي أشار إليها قرار التقسيم⁽⁴⁴⁾. كما صدرت قرارات أخرى من الأمم المتحدة بعد هذا القرار تخص القضية الفلسطينية وعلى رأسها القرار (194) الذي اعترفت به إسرائيل ثم عادت وتنصلت منه، وبالتالي عدم تطبيقها لجميع قرارات الأمم المتحدة ذات العلاقة يعني أن تطبيق القرار (181) دون غيره أمر غير قانوني.

ونخلص إلى القول: إن الكيان الصهيوني قد قام على أسس باطلة تتمثل بالادعاءات الدينية والتاريخية والمصالح الاستعمارية للإمبراطورية البريطانية تُرجمت في وعد بلفور غير القانوني. وفي

صك الانتداب المبني أيضا على وعد بلفور وعلى رغبة الدولة الاستعمارية . كما أن السياسة التي اتبعتها بريطانيا في فلسطين طيلة سنوات الانتداب كانت سياسة تتناقض مع مبدأ الانتداب الذي يعمل على مساعدة الشعوب الضعيفة والخاضعة للحكم العثماني للوصول إلى مستوى حكم نفسها بنفسها. ثم طرح مبدأ التقسيم لأرض خاضعة للانتداب وتمير القرار بصورة غير قانونية وفرضه بالقوة من خلال ترحيل السكان الأصليين، علماً بأن القرار أكد عدم ترحيل السكان المقيمين في أي من الدولتين الموعودتين، هو أيضا أمر مخالف للانتداب، كما أن العرب قد رفضوا أصلاً مبدأ التقسيم، وجاء رفضهم قاطعاً لقرار التقسيم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن قرار التقسيم لم يطبق الشق المتعلق بإقامة الدولة العربية ولا القدس الدولية، فإذا لم تطبق جميع بنود القرار، فإن تطبيق أي بند يعتبر غير قانوني. وهناك تساؤلان يُطرحان لأن لهما علاقة قوية بقرار التقسيم:

السؤال الأول: لماذا رفض العرب هذا القرار وبالتالي أضاعوا فرصة إقامة دولة عربية معترف بها دولياً، وفرصة عدم تهجير السكان الفلسطينيين، ويطالبون اليوم بدولة على مساحة اصغر وبعودة اللاجئين؟

السؤال الثاني: لماذا تطالب إسرائيل الفلسطينيين الاعتراف بدولة يهودية كشرط مسبق لاعتراف إسرائيل بحل الدولتين وقيام دولة فلسطينية، علماً بأن الدولة اليهودية قد قامت عام 1948 واعترفت بها الأمم المتحدة؟

والإجابة عن السؤال الأول تتمحور حول النظر في التطورات السياسية والتاريخية للقضية الفلسطينية بمنظار تلك الفترة وليس بمنظار اليوم، ففي حينه كان لا يمكن أن يوافق الفلسطينيون على هذا القرار؛ لأنه يحقق الأهداف الصهيونية التي طالما قاومها الفلسطينيون وضحو من أجلها في سنوات الانتداب، كما أن الاعتراف بالقرار يعني " شرعنة الدولة اليهودية وتقرير المصير لليهود ممثلاً بالدولة اليهودية " و يترتب على هذا الاعتراف أيضاً القبول لعملية التهجير القسري للسكان العرب من منطقة الدولة اليهودية رغم أن القرار ينص على عدم جواز ذلك، لكن من

وجهة النظر الصهيونية لا بد وان يتم ذلك؛ لأن غالبية سكان المناطق المخصصة للدولة اليهودية من العرب.

من ناحية أخرى ، فالقرار غير قانوني وغير عادل في تقسيم البلاد بين السكان الأصليين والأغلبية في البلاد، وبين المهاجرين اليهود الذين لا تجمعهم روابط مشتركة وهم الأقلية في البلاد ، فلا يتوقع من الفلسطينيين والعرب قبول ما خصص لليهود وما خصص للعرب سواء أكان الأمر متعلقاً بالنسبة أو بالنوعية، وعليه فالقرار فرض بالقوة في ظل ظروف تاريخية معينة لا تنسحب على الواقع الآن. وبخصوص مطالبة الفلسطينيين اليوم بالاعتراف بيهودية دولة إسرائيل. فهذا مطلب يؤكد أمرين، الأول: إن إسرائيل دولة غير شرعية بالأساس، وأن قيامها على إثر قرار التقسيم كان نتيجة فرض الأمر الواقع على الفلسطينيين وعلى الأمم المتحدة، وبما أن قرار التقسيم غير قانوني فما نتج عنه يبقى غير قانوني. كما أن رفض العرب والفلسطينيين القرار يعني رفضهم لشرعية دولة إسرائيل، ومن هنا تشعر إسرائيل أن شرعيتها مشكوك فيها حتى يتم الاعتراف بها عربياً وفلسطينياً .

الأمر الثاني المتعلق بهذا الموضوع هو إن إسرائيل تريد من وراء الاعتراف بيهوديتها تحقيق هدفين: الأول شرعنة سياستها العنصرية في طرد ما تبقى من سكان فلسطين، أو على الأقل تبرير هذه السياسة العنصرية بأن إسرائيل هي دولة لليهود فقط ومن يسكن من غير اليهود في هذه الدولة يمكن ترحيله إذا شكل خطراً على الأغلبية اليهودية ، وإذا لم يشكل خطراً ، فيجب أن يقبل بالتمييز بينه وبين الأغلبية اليهودية في الحقوق والحريات الأساسية . أما الهدف الآخر ، فيتمثل في قطع الطريق أمام عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم . فإسرائيل تعلم أنها قامت بطرد الفلسطينيين بالقوة وارتكبت المجازر بحقهم، وأن المجتمع الدولي ممثلاً بالأمم المتحدة التي أقرت قيام إسرائيل لم تقبل بهذه الجرائم الإسرائيلية، وبالتالي أصدرت القرار رقم (194) الذي ينص على حق عودة هؤلاء اللاجئين الى ديارهم والتعويض عن فقدان الممتلكات والأضرار لمن لا يرغب في العودة . وان إسرائيل بنفسها قد اعترفت بهذا القرار في اتفاقية لوزان، لكنها

تريد الآن من خلال هذه المطالب - بالاعتراف بيهوديتها- القفز على القانون الدولي وإسقاط موضوع اللاجئين من الحل المنتظر ، وربما يكون الهدف النهائي هو تهجير كل السكان العرب في الداخل والضفة والقطاع لتكون إسرائيل دولة يهودية في حدود فلسطين التاريخية خصوصا في ظل هيمنة الاتجاه الديني والقومي المتطرف على المجتمع والحياة السياسية في إسرائيل .

الإحالات :

1. عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985، ص304.
2. محمد علي القوزي، دراسات في تاريخ العرب المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 1999، ص11.
3. الكيالي، مرجع سابق، ص302.
4. واصف عبوشي، فلسطين قبل الضياع، ترجمة علي الجرباوي، رياض الريس للطباعة والنشر، لندن، 1985، ص319.
5. نفس المرجع، ص322.
6. أحمد عبدالرحيم مصطفى، بريطانية وفلسطين 1945-1949، دراسة وثائقية، دار الشروق، القاهرة، 1986، ص9.
7. نفس المرجع، ص51.
8. مذكرات الحاج محمد أمين الحسيني، (اعداد وتصنيف عبدالكريم العمر)، الاهالي للطباعة، دمشق، 1999، ص348.
9. "The secretary of state to president Truman" **Foreign Relations of the United States, 1945, v.III:704-5**
10. "president Truman to British Prime Minister in august 31,1954", **Foreign Relations of the United States, 1945,P747**
11. مذكرات الحاج محمد أمين الحسيني، مرجع سابق، ص290.
12. Thomas Bryson, **American Diplomatic Relations with the Middle East 1977-1975**, N. Y , 1977,P165
13. **Public papers of the presidents of the united state. Harry S.Truman,1946,P218.**
14. أحمد عبدالرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص32.
15. محمد عبد السلام كريم، "موقف الدول الخمس الكبرى من قرار التقسيم"، مجلة صامد الاقتصادي، مج20، ع114، ص155.
16. فلسطين، تاريخها وقضيتها، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ص129.
17. عارف العارف، القضية الفلسطينية، دار المعارف، القاهرة، 1955، ص186.

18. مذكرات محمد أمين الحسيني، مرجع سبق ذكره، ص 307. تاريخ فلسطين السياسي تحت الإدارة البريطانية، ص 65.
19. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، ص 140.
20. المصدر نفسه.
21. قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي، مج 1 1947-1974، مراجعة وتدقيق د. جورج طعمة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1993، ص 5. وكذلك
131-132 United Nations Documents, A/519 (January 8, 1948).
22. المصدر نفسه.
23. نفسه، ص 6-7
24. نفسه، ص 9.
25. نفسه، ص 10.
26. نفسه، ص 13.
27. نفسه.
28. نفسه، ص 14.
29. نفسه، ص 15.
30. تريبز حداد، القراوات والبادرات الخاصة، مطابع صوت الشعب، عمان، 1988، ص 7.
31. أحمد طربين، قضية فلسطين 1897-1948، 1968، ص 889.
32. HasimZakiNuseibeh, **Palestine and the united nations** Quarted Books, 1981, P24
33. جامعة الدول العربية، اللاجئين الفلسطينيين، بيانات واحصاءات، 13-14.
34. سلمان ابوستة، حق العودة مقدس وقانوني وممكن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001، ص 17.
35. فلسطين، تاريخها وقضيتها، مرجع سبق ذكره، ص 148.
36. أحمد عبد الرحيم مصطفى، بريطانيا وفلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 117.
37. أماني أبورحمة، "قرار تقسيم فلسطين بين تشريع التهجير القسري و مأسسة العنصرية"، صحيفة المثقف، ع 142، 2010-6-7.
38. واصف عبوشي، فلسطين قبل الضياع، مرجع سبق ذكره، ص 373.
39. مهدي عبد الهادي، المسألة الفلسطينية ومشاريع الحلول السلمية، المكتبة العصرية بيروت، 1975، ص 113.
40. جوني منصور، قرار التقسيم، فرض أجندة استعمارية على فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 83.
41. محمد الكفارنة، "راي القانون الدولي في قرار التقسيم 181 لعام 1947"، صحيفة المثقف، <http://almothaqaf.com>.
42. محمد السعيد الدقاق، القانون الدولي، المصادر والاشخاص، الدار الجامعية للطباعة والنشر، 1983، ص 450.

43. الموسوعة الفلسطينية، مرجع سبق ذكره، ص143.
44. جوني منصور، قرار التقسيم، فرض أجندة استعمارية على فلسطين، قضايا اسرائيلية، مج7، ع28، 2007، ص83.

قائمة المصادر والمراجع:

❖ قائمة المصادر العربية

1. جامعة الدول العربية، اللاجئون الفلسطينيون، بيانات واحصاءات، 13-14.
2. قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي، مج1 1947-1974، مراجعة وتدقيق د. جورج طعمة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1993.
3. مذكرات الحاج محمد أمين الحسيني، (اعداد وتصنيف عبدالكريم العمر)، الاهالي للطباعة، دمشق، 1999.
- ❖ قائمة المراجع العربية
4. حداد، تريز. القرارات والمبادرات الخاصة، مطابع صوت الشعب، عمان، 1988.
5. أبورحمة، أماني. "قرار تقسيم فلسطين بين تشريع التهجير القسري و مأسسة العنصري"، صحيفة المثقف، ع 142، 2010-6-7.

6. ابوستة، سلمان. حق العودة المقدس وقانوني وممكن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001.
7. الدقاق، محمد السعيد. القانون الدولي، المصادر والاشخاص، الدار الجامعية للطباعة والنشر، 1983.
8. طرين، أحمد. قضية فلسطين 1897-1948، 1968.
9. العارف، عارف. القضية الفلسطينية، دار المعارف، القاهرة، 1955.
10. عبد الهادي، مهدي. المسألة الفلسطينية ومشاريع الحلول السلمية، المكتبة العصرية، بيروت، 1975.
11. عبوشي، واصف. فلسطين قبل الضياع، ترجمة علي الجرباوي، رياض الريس للطباعة والنشر، لندن، 1985.
12. فلسطين، تاريخها وقضيتها، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.
13. القوزي، محمد علي. دراسات في تاريخ العرب المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 1999.
14. كريم، محمد عبد السلام. موقف الدول الخمس الكبرى من قرار التقسيم، مجلة صامد الاقتصادي، مج20، ع114.
15. الكفارنة، محمد. راي القانون الدولي في قرار التقسيم 181 لعام 1947، صحيفة المثقف، <http://almothaqaf.com>.

16. الكيالي، عبد الوهاب. تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985.
17. مصطفى، أحمد عبدالرحيم. بريطانيا وفلسطين 1945-1949، دراسة وثائقية، دار الشروق، القاهرة، 1986.
18. منصور، جوني. قرار التقسيم، فرض أجندة استعمارية على فلسطين، قضايا اسرائيلية، مج7، ع28، 2007.
19. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة.
- ❖ قائمة المراجع الأجنبية

1. Bryson, Thomas. **American Diplomatic Relation with the Middle East 1787-1975**, N.Y, 1977.
2. Nuseibeh, Hasim Zaki. **Palestine and the united nations Quarted Books**, 1981, P24
3. president Truman to British Prime Minister in august 31, 1954", **Foreign Relation of the United States**, 1945.
4. "The secretary of state to president Truman" **Foreign Relations of the United States**, 1945, v.III:704-5
5. Truman, Harry S. **Public papers of the presidents of the united states**. 1946, P218.
6. **131-132 United Nations Documents**, A/519 (January 8, 1948).

الأساس القانوني للعلاقة بين المحكمة الجنائية الدولية و هيئة الأمم المتحدة

استنادا لمشروع اتفاق تفاوضي الموقع عام 2004

The legal basis of the relationship between the International Criminal Court and the United Nations

د. جباري لحسن زين الدين

جامعة سيدي بلعباس.

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/07

Abstract :

The relationship between the United Nations and the International Criminal Court doesn't stop at construction, but beyond that to reach the limit of cooperation between the two sides in the field of international peace and security. However, this cooperation doesn't succeed in the absence of agreement between the two sides, it is true that the court had been born from the womb of the United Nations Organization, but that should not affect the independence of the Court, indeed, the Security Council in the face of the court proceedings may affect the goal of prosecuting the most dangerous criminals at all, And if the power of referral is good, the question of postponement of the investigation by a decision of the Security Council is hampering the conduct of the court and impedes the achievement of its objectives.

Key words :

The relationship- the United Nations- International Criminal Court - Security Council

صحيح أن مهمة حفظ السلم و الأمن الدوليين هي من أهداف الأمم المتحدة و مقاصدها، غير أن التطور الذي لحق المنتظم الدولي جعل من جهات و منظمات أخرى تساعدها في ذلك، فالقضاء على الجرائم الأكثر خطورة على الإنسانية مثلا عجل في التفكير في إنشاء صرح قضائي جديد تكون مهمته ملاحقة أخطر المجرمين على الإطلاق.

لقد بدأت هذه المحاولات بما يسمى بالمحاكمات العسكرية المشهورة على غرار نورمبرغ

و طوكيو، لأن المجتمع الدولي قد شعر آنذاك أن السلم و الأمن الدوليين أمران سيهددان في غياب هاتين المحكمتين، فعجل بإنشائهما بمقتضى اتفاق لندن لسنة 1945، و الخاص بالدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية، ثم محاكمة طوكيو سنة 1946.

ثم إن مجلس الأمن بدوره قد شعر بعد ذلك بأن هناك ضرورة ملحة لتبني هذه المحاكمات، فأصدر قرارات شهيرة بشأن قضيتي يوغسلافيا سابقا، و رواندا سنة 1993 و سنة 1994، تضمنت إنشاء محاكم جنائية دولية مؤقتة تختص بالنظر في هاتين القضيتين، و تنقضي مهمتها بالفصل و الحكم فيها.

لكن العدالة الجنائية الدولية المؤقتة أصبحت أمرا غير مجد في ظل تنامي الجرائم ضد الإنسانية و جرائم الحرب، فكان التفكير وقتئذ في إنشاء جهاز قضائي جنائي دولي و دائم يختص بشكل حصري بكل الجرائم ضد الإنسانية و جرائم الحرب و جريمة العدوان.

فلم يكن من السهل فهم طبيعة العلاقة بين هيئة الأمم المتحدة و هذه المحكمة، فيبدو من خلال قراءة بعض النصوص أن هناك علاقة تبعية جهة لجهة أخرى، و توضح نصوص أخرى بأن هناك علاقة تعاون بين الجهازين، و هو ما يجعل التساؤل يطرح بالدرجة الأولى حول طبيعة العلاقة بين المحكمة الجنائية الدولية و هيئة الأمم المتحدة، هل هي علاقة تبعية الفرع للأصل، أم أنها حالة من حالات التعاون الدولي الذي قد يدفع قدما بعملية حفظ السلم و الأمن الدوليين، و ما هي طرق اتصال المحكمة بالأمم المتحدة.

لمحاولة الإجابة على هذا التساؤل سأقسم هذه الورقة البحثية إلى مبحثين اثنين، يتناول الأول طبيعة العلاقة بين مجلس هيئة الأمم المتحدة و المحكمة عند الإنشاء، في حين يتضمن المبحث الثاني طرق و إجراءات الاتصال بينهما.

المبحث الأول: ظروف إنشاء المحكمة و طبيعة علاقتها بهيئة الأمم المتحدة :

لقد كان لهيئة الأمم المتحدة دور كبير و مميز في إنشاء المحكمة الجنائية الدولية، الأمر الذي أدى إلى بزوغ علاقة بين الجهازين في سبيل القيام بأهدافهما المشتركة، فما هي الظروف التي أدت إلى إنشاء المحكمة ؟ و ما هي طبيعة العلاقة بينها و بين هيئة الأمم المتحدة ؟ هذا ما سيتضمنه هذا المبحث من خلال المطلبين الآتيين :

المطلب الأول : ظروف إنشاء المحكمة الجنائية الدولية :

لقد كان موضوع إنشاء المحكمة الجنائية الدولية مطروحا بصفة مستمرة على المجتمع الدولي، و كلما ثارت مشكلة دولية خرج المشروع يطفو على الساحة الدولية، و في السنوات العشر الأخيرة - قبل انعقاد مؤتمر روما الدبلوماسي - شهدت الأمم المتحدة نشاطا مكثفا في سبيل إتمام هذا المشروع الذي طال انتظاره لسنوات عديدة، و أصبح أملا في نفوس الكثيرين الذين باتوا يحلمون بقرب قيام عدالة دولية جنائية حقيقية لمحاكمة مجرمي الحرب و غيرهم ممن لا يتورعون عن ارتكاب الجرائم الدولية الأخرى.

ففي سنة 1989 صدر القرار رقم 39 / 44 عن الجمعية العامة بتاريخ 04 ديسمبر 1989، طلبت فيه إلى لجنة القانون الدولي أن تتناول مسألة إنشاء محكمة جنائية دولية، و في القرارين رقم 45 / 41 بتاريخ 28 نوفمبر 1990، و 46 / 54 بتاريخ 09 ديسمبر 1991، دعت الجمعية العامة لجنة القانون الدولي إلى مواصلة دراسة و تحليل القضايا المتعلقة بمسألة إقامة ولاية جنائية دولية، بما في ذلك إنشاء محكمة جنائية دولية¹.

فبناء على دعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة، قامت لجنة القانون الدولي بدراسة موضوع إنشاء محكمة جنائية دولية تكون ذات اختصاص بمحاكمة الأشخاص الذين يُدعى ارتكابهم جرائم مخلة بسلم و أمن الإنسانية.

و قد أنشأ لذلك فريق عمل وضع أول تقرير له عام 1990، حيث عُرض على الجمعية العامة، و قد سجل التقرير تأييده لمسألة إنشاء محكمة جنائية دولية دائمة تكون ذا ارتباط بهيئة الأمم المتحدة، و في عام 1994 أنجزت لجنة القانون الدولي مشروع النظام الأساسي للمحكمة و قدمته إلى الجمعية العامة².

في الفترة الفاصلة بين عامي 1995 و 1998 دعت الجمعية العامة للأمم المتحدة لجنتين إلى الانعقاد للخروج بما أطلق عليه النص الموحد الخاص بإنشاء محكمة جنائية دولية، و قد اجتمعت اللجنة التي شكلت خصيصا لإنشاء محكمة جنائية دولية (اللجنة الخاصة) طوال عام 1995 لمناقشة القضايا الموضوعية و الإدارية الرئيسية.، و في عام 1996 تم تبديل اللجنة الخاصة باللجنة التحضيرية لإنشاء المحكمة، و التي عقدت اجتماعاتها طوال عام 1998³؛ هذا و كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد أصدرت بتاريخ 01 ديسمبر 1997 قرارها رقم 52/ 162، و الذي نص على أن يكون مكان انعقاد المؤتمر الدولي للمفوضين هو مقر منظمة الأمم المتحدة للأغذية و الزراعة (الفاو) بمدينة روما في إيطاليا⁴.

ثم أقرت الدول الأطراف إنشاء هذه المحكمة في روما في 17 جويلية 1998، و كان الهدف منها إنشاء محكمة دولية دائمة تختص بمحاكمة منتهكي القانون الدولي الإنساني، و التي تعتبر أول محكمة جنائية دولية دائمة في تاريخ المجتمع الدولي، و ترتبط تلك المحكمة باتفاقية تواصل و علاقة ارتباط مع منظمة الأمم المتحدة.

و قد دخل النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية حيز التنفيذ اعتبارا من 01 جويلية 2002، و تشمل ولاية المحكمة كل الجرائم التي ترتكب بعد بدء النظام الأساسي للمحكمة، حيث تنص المادة 24 فقرة 01 منه على أنه لا يسأل الشخص جنائيا بموجب هذا النظام الأساسي عن سلوك سابق لبدء هذا النظام⁵.

يمكن القول - من خلال هذه اللوحة التاريخية لإنشاء المحكمة الجنائية الدولية - أنها قد ولدت من رحم هيئة الأمم المتحدة، و عليه لا يمكن فك هذا الارتباط من حيث النشأة، فهل يمكن فكه من حيث الاختصاص الذي يضطلع به كل جهاز.

المطلب الثاني : طبيعة العلاقة بين المحكمة الجنائية الدولية و الأمم المتحدة :

لقد أثير الجدل بشأن تحديد طبيعة العلاقة بين المحكمة و الأمم المتحدة أثناء مناقشات إعداد النظام الأساسي للمحكمة، حيث انقسم الرأي في لجنة القانون الدولي و اللجنة التحضيرية التي شكلتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بشأن دراسة مشروع النظام الأساسي، و إعداد التقرير النهائي بشأن أحكام هذا النظام إلى اتجاهين هما :

الأول : نادى بتبعية المحكمة للأمم المتحدة لتكون أحد أجهزتها مثل محكمة العدل الدولية، إلا أن هذا الرأي قد واجه بعض الصعوبات التي تتمثل في ضرورة تعديل ميثاق الأمم المتحدة، و أن هذا التعديل ليس بالسهولة المتصورة، إذ يحتاج إلى صدور قرار من الجمعية العامة بأغلبية ثلثي الأعضاء الحاضرين المشتركين في التصويت، كما يحتاج إلى موافقة مجلس الأمن بأغلبية تسعة أصوات بشرط أن يكون بينها أصوات الأعضاء الدائمين بمجلس الأمن، و هو الأمر الذي يفهم منه أن اعتراض أي من الدول الخمس دائمة العضوية يترتب عليه عدم الموافقة على مشروع التعديل، و من ثم عدم الموافقة على إنشاء المحكمة، و هو أمر متوقع خصوصا مع وجود الرغبة لدى الولايات المتحدة لإجهاض مشروع إنشاء هذه المحكمة.

أما الرأي الثاني : فقد دعا إلى ضرورة استقلال المحكمة المزمع إنشاؤها، و أن يكون لها شخصية دولية مستقلة على أن ترتبط بمنظمة الأمم المتحدة برابطة تعاون، أي أن تتمتع هذه المحكمة بوضع قانوني يماثل ذلك الوضع الذي تتمتع به الوكالات المتخصصة طبقا لما تنص عليه

المادتان 57 و 63 من ميثاق الأمم المتحدة بشأن المركز القانوني للوكالات المتخصصة و مدى تعاونها مع الأمم المتحدة⁶.

في حين يرى الدكتور منتصر سعيد حمودة أن هذه المحكمة كونها هيئة قضائية فهي مستقلة من الناحية القانونية، لها شخصية قانونية دولية في مجال و حدود ممارسة سلطاتها و وظائفها، ولكنها في ذات الوقت تابعة لمنظمة الأمم المتحدة إداريا، و هذه التبعية لا تؤثر بأي حال من الأحوال في استقلالية هذه المحكمة، فمحكمة العدل الدولية مثلا هي أحد الأجهزة التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، و هي في ذات الوقت مستقلة في أداء سلطاتها، و ممارسة وظائفها المنوطة بها.

و مما يؤكد تبعية هذه المحكمة للأمم المتحدة ما ورد في نص المادة 123 فقرة 1 و 2 من نظامها الأساسي التي أعطت الأمين العام للأمم المتحدة حق النظر في أية تعديلات لهذا النظام بعد مرور سبع سنوات من بدء نفاذ هذا النظام الأساسي عن طريق مؤتمر استعراضي للدول الأطراف بناء على طلب أي دولة طرف، وبموافقة أغلبية الدول أطراف الجمعية العمومية لهذه المحكمة⁷.

غير أن تحديد طبيعة العلاقة بينهما ما كان ليحدد في غياب اتفاق بين الجهتين، و هذا ما تؤكد فعلا من خلال الاتفاق الذي عقد بين الجمعية العامة للأمم المتحدة و جمعية الدول الأطراف، بحيث أنه يؤكد أن مقاصد و أهداف الأمم المتحدة و المحكمة هي واحدة و مشتركة و تتمثل في مواجهة كل ما من شأنه تهديد السلم والأمن الدوليين، و هو ما يبرز بوضوح من خلال ديباجة هذا الاتفاق صراحة، و بالتالي يبدو هذا الارتباط بين الجهازين واضحا من خلال الأهداف أيضا.

غير أن هذا الارتباط ليس معناه أن المحكمة هي جهة خاضعة للأمم المتحدة، بل جهاز مستقل يمارس عمله بالتنسيق معها أي لها علاقة بها، لقد نصت المادة 02 من الاتفاق بين

الجهتين على ما يلي : [تعترف الأمم المتحدة بالمحكمة الجنائية الدولية بوصفها مؤسسة قضائية دائمة مستقلة ذات شخصية قانونية دولية، و لها من الأهلية القانونية ما يلزم لممارسة وظائفها و بلوغ أهدافها، و ذلك وفقا للمادتين 1 و 4 من النظام الأساسي، و تعترف المحكمة بمسؤوليات الأمم المتحدة وفقا للميثاق، كما تتعهد الأمم المتحدة و المحكمة بأن تحترم كل منهما مركز الأخرى و ولايتها].⁸

و يقابل هذه المادة في النظام الأساسي للمحكمة المادة الثانية التي نصت على أن ينظم العلاقة بينها وبين الأمم المتحدة اتفاق تعتمده جمعية الدول الأطراف في هذا النظام الأساسي، و يبرمه بعد ذلك رئيس المحكمة نيابة عنها.⁹

و لأن الجهازين يشتركان في مهمة واحدة كان من الضروري عقد اتفاق بينهما ينسق العمل بينهما من جهة، و يساعد على فك الارتباط في بعض المسائل من جهة أخرى و ذلك منذ الوهلة الأولى لنشأة المحكمة، بل إن التمثيل المتبادل لكل جهة في الجهاز الآخر هي مسألة يؤكد عليها الاتفاق في المادة الرابعة منه.

غير أن هناك نصوص قد وردت في الاتفاق بينهما توحى بأن للمحكمة سلطة تقديرية في ما تقوم به بصدد بعض الإجراءات على غرار المادة السادسة التي تنص على جوازية تقديم التقارير عن أنشطتها إلى الأمين العام للأمم المتحدة، و إذا رأت ذلك ملائما، بمفهوم المخالفة بإمكانها أن لا تقدم هذه التقارير للأمم المتحدة.

بل إن هذه العلاقة قد تصل إلى درجة أن تتعاون الأمم المتحدة مع المحكمة بشأن السماح لها بمحاكمة أحد موظفيها الذين يثبت تورطهم في الجرائم التي تدخل في اختصاصها، و ذلك من خلال نزع الحصانات والامتيازات عنهم، و ذلك من خلال المادة 19 من الاتفاق.

فضلا عن أن معظم مواد الاتفاق بينهما هي قواعد مكملة و ليست آمرة مما يوحي أن هناك تعاون دائم بين الجهتين من أجل القيام بالهدف المشترك بينهما و هو حفظ الأمن و السلم الدوليين، لكن ما هي طرق الاتصال بين الأمم المتحدة و المحكمة ؟

المبحث الثاني : طرق اتصال هيئة الأمم المتحدة بالمحكمة :

إن الحديث عن اتصال هيئة الأمم المتحدة بالمحكمة يمكن تحديده بطريقتين، الطريقة الأولى اتصال الهيئة بشكل عام بالمحكمة، في حين تتمثل الطريقة الثانية في اتصال مجلس الأمن بها، وهذا ما سيتناوله هذا المبحث من خلال المطلبين التاليين :

المطلب الأول : اتصال الأمم المتحدة بالمحكمة الجنائية الدولية بشكل عام :

إن للعلاقة بين المحكمة و الأمم المتحدة أهمية بالغة تنعكس في الصيغة المتشددة التي وردت بها في الباب الأول تحت عنوان " إنشاء المحكمة " للدلالة ليس فقط على إلحاق العلاقة مع الأمم المتحدة ببنية المحكمة، و إنما لتحديد مبادئ التعاون التي تحقق السلام الدولي أيضا. و من شأن هذا التعاون أن يدعم مركز المحكمة العالمي و ديمومتها من خلال مساندة قرارات المدعي العام و الهيئات الأخرى و تفعيلها، إذ تستطيع الأمم المتحدة أن تضمن تنفيذ قرارات المحكمة في الحالات التي يرفض فيها أعضاء الأمم المتحدة التعاون مع المحكمة، و من الناحية الإدارية يمكن لجمعية الدول الأطراف أن تجتمع في مقر الأمم المتحدة، كما يمكن للأمم المتحدة أن تساهم في تمويل جزء من تكاليف المحكمة، عندما تحيل أي قضية إليها، و يصب هذا كله في خانة المساعدة في تحقيق الهدف المشترك بين الهيئتين¹⁰.

أولا : التعاون المؤسسي : إن الحديث عن التعاون المؤسسي بين الجهتين ينظمه نص الاتفاق بينهما، و يكمن في التمثيل المتبادل و هو وسيلة لتنسيق الأدوار و المواقف بين الجهتين سعيا لتحقيق الأهداف المشتركة لهما.

كما وضع الاتفاق التزاما على عاتق الأمم المتحدة ممثلة في أمينها العام، باعتباره وديع أية اتفاقات أخرى ذات علاقة بممارسة المحكمة لاختصاصاتها، بأن يحيل أية معلومات تكون ذات صلة بالنظام الأساسي أو ذات علاقة بعمل المحكمة، كالتصديقات الجديدة على النظام الأساسي التي تودع لديه.

و أجاز الاتفاق أيضا بأن تقدم المحكمة تقارير عن أنشطتها للأمم المتحدة، إذا رأت ذلك ملائما، و كذا اقتراح بنود جدول الأعمال على الأمم المتحدة، و القيام بالترتيبات المتعلقة بالتعاون مع موظفي الأمم المتحدة، لما لهم من خبرة في العمل الدولي¹¹.

يتجلى التعاون أيضا في رفع الامتيازات و الحصانات الخاصة بموظفي الأمم المتحدة، لأن النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية يقرر و بمقتضى المادة 27 منه عدم الاعتراف بالحصانات الممنوحة للأشخاص، سواء بمقتضى القانون الدولي أو القوانين الوطنية، فهو إذا قد استبعد مبدأ الحصانة بشكل كامل، لأنه كثيرا ما وقف عائقا أمام العدالة الدولية و فتح باب الإفلات من العقاب.

و هكذا فإنه إذا مارست المحكمة اختصاصها بمحاكمة شخص اتهم بارتكاب جريمة تدخل ضمن اختصاصها، و كان هذا الشخص يتمتع بالامتيازات و الحصانات الضرورية لأداء عمله بصورة مستقلة في الأمم المتحدة، فإن عليها أن تتعاون تعاوننا تاما مع المحكمة، و أن تتخذ جميع التدابير اللازمة من أجل السماح للمحكمة بممارسة اختصاصاتها، و على وجه الخصوص رفع جميع الامتيازات و الحصانات التي تحول دون إمكانية معاقبة مرتكبي الجرائم الدولية و ملاحقتهم و ردعهم¹².

ثانيا : التعاون الإداري : و تتمثل في تقديم المرافق و خدمات المؤتمرات للمحكمة ، و تيسير تنقل قضاة المحكمة و مدعيها العام، إذ اتفقت الجهتين على أن يمنح لقضاة المحكمة وثائق

سفر تابعة للأمم المتحدة، و ذلك بناء على ترتيبات خاصة بين الأمين العام للأمم المتحدة و المحكمة، كما يجوز استنادا للمادة 112 فقرة 06 أن تعقد جمعية الدول الأطراف بالمحكمة في مقر الأمم المتحدة.

ثالثا : التعاون و المساعدة القضائية : إنه و استنادا لنظام روما يكون للمحكمة أن تطلب إلى أي منظمة حكومية - بما فيها منظمة الأمم المتحدة بطبيعة الحال - أن تتعاون معها بتقديم معلومات أو مستندات أو أي شكل آخر من أشكال التعاون و المساعدة بما يتوافق مع اختصاص المنظمة، و يتم الاتفاق عليها بين المحكمة والمنظمة المعنية¹³.

و بخصوص شهادة موظفي الأمم المتحدة، فإذا طلبت منهم المحكمة ذلك أو طلبت أحد برامجها أو صناديقها أو مكاتبها، فتتعهد الأمم المتحدة بأن تتعاون مع المحكمة، و أن تبادر - إذا دعت الضرورة و مع المراعاة الواجبة لمسؤولياتها و اختصاصاتها المقررة بموجب الميثاق و اتفاقية امتيازات الأمم المتحدة و حصانتها ورهنا بقواعدها - إلى إعفاء هذا الشخص من الالتزام بواجب السرية¹⁴.

المطلب الثاني : اتصال مجلس الأمن بالمحكمة الجنائية الدولية بشكل خاص :

أجاز النظام الأساسي للمحكمة لمجلس الأمن الدولي الاتصال بالمحكمة عن طريق وسيلتين إما بإحالة إي قضية للمدعي العام من أجل دراستها، إذا رأى في هذه الأفعال تهديدا للسلم و الأمن الدوليين، بل و أجاز له للأسباب ذاتها إصدار قرار لإرجاء التحقيق الذي يبدأ فيه المدعي العام للمحكمة.

أولا : إحالة مجلس الأمن للدعوى أمام المحكمة : يقوم المدعي العام للمحكمة بفتح تحقيق حول أي قضية يعرضها عليه مجلس الأمن، بشرط أن تستند إلى أسباب عقلانية، و دون أخذ رأي الدائرة التمهيدية¹⁵.

فاستنادا للفقرة ب من المادة 13 يمكن للمدعي العام أن ينظر في الدعاوى التي تحال إليه من طرف مجلس الأمن إذا تصرف بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة متى كانت الأفعال من الأفعال المشار إليها في المادة الخامسة من النظام الأساسي للمحكمة، و هنا فإن الأمين العام للأمم المتحدة هو من يحيل فورا قرار مجلس الأمن مشفوعا بالمستندات و المواد الأخرى التي تكون وثيقة الصلة بقرار المجلس¹⁶.

و عند ذلك لا تحتاج الحالة التي يحيلها مجلس الأمن التقيد بالشروط الواردة في المادة 12 فقرة 01 من النظام الأساسي بخصوص ارتكاب الجريمة بمعرفة أحد مواطني دولة طرف، أو على إقليم تلك الدولة، و لكن يجب أن تتضمن تلك الحالة تهديدا للسلم و الأمن الدوليين. و تجدر الإشارة إلى أن ممارسة مجلس الأمن سلطة الإحالة على المحكمة الجنائية الدولية يترتب عليه تعطيل العمل بمبدأ الاختصاص التكميلي، و بالتالي سلب اختصاص القضاء الوطني بالنظر في الجريمة المرتكبة، فضلا عن ذلك إن الإحالة الصادرة من مجلس الأمن تسري على جميع الدول الأطراف و غير الأطراف في النظام الأساسي¹⁷.

الأمر الذي تأكد فعلا من خلال القرار رقم 1593 (2005) و الذي أحال قضية الرئيس السوداني عمر حسن البشير و بعض من مساعديه إلى المحكمة الجنائية الدولية، بالرغم من أن السودان ليست من الدول الأطراف في المحكمة، و هو ما حدث أيضا بالنسبة لحالة سيف الإسلام القذافي و بعض من رموز النظام الليبي السابق الذين أحالهم قرار مجلس الأمن رقم 1970 (2011) إلى المحكمة أيضا، و بالرغم من أن ليبيا بدورها ليست من الدول الأطراف في المحكمة، إلا أن مجلس الأمن في هاتين الحالتين قد تصرف بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

و قد دافعت الولايات المتحدة الأمريكية عند انعقاد مؤتمر روما الخاص بالمحكمة على أن تكون الإحالة على المحكمة حكرا على مجلس الأمن وحده دون الحالتين الأخريين و الممثلتين في حالة الإحالة من إحدى الدول الأطراف في النظام الأساسي، و حالة المبادأة من طرف المدعي العام من تلقاء نفسه، بعد أن يأخذ إذنا من دائرة المحكمة التمهيدية.

و لعل الولايات المتحدة كانت تدافع عن فكرة أحادية الإحالة من طرف مجلس الأمن قصد فتح المجال أمام استخدام الفيتو ضد كل قرار قد لا يتفق مع عقيدتها السياسية، غير أن موقف الأعضاء الدائمين لم ينصرف هنا، على الرغم من ذلك إلى التطابق الكامل في ذلك الشأن، إذ سارت في واقع الأمر، آنذاك كل من المملكة المتحدة و فرنسا و روسيا و الصين إلى مؤازرة إنهاء اختصاصات المجلس لذلك الغرض بالتوازي مع الدول المعنية من جهة، و المدعي العام ذاته من جهة أخرى، و هو موقف تباين عن الموقف الأمريكي الذي انصرف في استمرارية المطالبة بتمكين مجلس الأمن وحده من مباشرة الإحالة إلى المحكمة¹⁸.

و لهذا يجب التركيز على الهدف من الإحالة التي يلجأ لها مجلس الأمن و ليس الإحالة في حد ذاتها، فهل الغرض منها لفت انتباه المحكمة إلى جرائم تقع فلا تخرج المسألة عن جوانبها الموضوعية؟ أم أن مجلس الأم يقوم بها بغرض القيام بشكوى أي أنه يقوم بعمل إجرائي؟ فالإحالة هي تصرف قانوني يصدر عن مجلس الأمن بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، ويتأكد المدعي العام بعد ذلك من جدية المعلومات ليفتح بعدها تحقيقا بشأنها¹⁹.

و عليه فالمجلس هنا لا يمارس إلا مهمة الإعلام، لأن المدعي العام من حقه عدم فتح التحقيق إذا لم يرى أن هناك أسباب جدية و عقلانية للبدء به، و لعل ذلك ما يمثل مظهرا من مظاهر استقلالية المحكمة الجنائية الدولية حتى في مواجهة مجلس الأمن.

ثانيا : سلطة مجلس الأمن في إجراء التحقيق : لا يكون لمجلس الأمن في كل الحالات دور إيجابي في مواجهة المحكمة، بل يمكن أن يكون له دور سلبي في مواجهة إجراءاتها، فيستطيع مجلس الأمن استنادا للمادة 16 من النظام الأساسي للمحكمة أن يرجئ التحقيق في أية قضية سواء أكانت الإحالة قد صدرت من إحدى الدول الأطراف، أو كان المدعي العام قد بدأ في التحقيق فيها من تلقاء نفسه بناء على المعلومات التي قدمت إليه.

و لقد ذهب البعض إلى القول بأن ممارسة مجلس الأمن لهذه الصلاحية غير مقيدة بأية شروط، حيث خولت المادة 16 من نظام روما الأساسي للمجلس ممارسة هذا الحق بشكل مطلق خلال أية مرحلة من مراحل نظر المحكمة للدعوى أثناء إجراءات التحقيق أو المحاكمة، و قد عارض البعض الاتجاه المتقدم مؤكدين ضرورة توافر مجموعة من الشروط كي يتمكن المجلس من ممارسة هذه السلطة التي تعد من وجهة نظرهم ضمانة للتأكد من صحة و مشروعية قرارات المجلس الصادرة بهذا الشأن²⁰.

فمجلس الأمن لا يمكنه اللجوء لسلطة الإجراء إلا إذا شعر فعلا أن الإجراءات التي ستقدم عليها المحكمة الجنائية الدولية قد تؤدي إلى زعزعة استقرار السلم و الأمن الدوليين، و هو ما يبرر تدخله في هذا الشأن القضائي²¹.

و فعلا قد لجأ مجلس الأمن في مناسبتين اثنتين لتعليق و إرجاء عمل المحكمة و ذلك من خلال إصداره للقرار رقم 1422 سنة 2002، و ذلك حتى تمتنع عن بدء أو مباشرة أية إجراءات للتحقيق أو المقاضاة في حالة إثارة أي قضية تشمل مسؤولين أو موظفين حاليين أو سابقين تابعين لدولة مساهمة ليست طرفا في نظام روما الأساسي فيما يتصل بأي عمل أو إغفال يتعلق بالعمليات التي تنشئها الأمم المتحدة أو تأذن بها إلا إذا قرر مجلس الأمن ما يخالف ذلك²².

و أما الحالة الثانية التي لجأ فيها مجلس الأمن إلى نص المادة 16 من النظام الأساسي و ذلك استنادا إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، و التي تقضي بإرجاء التحقيق هي بمناسبة الوضع في ليبيريا من أجل دعم قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة هناك²³.

إن منح مجلس الأمن سلطة إحالة قضية أو حالة إلى المحكمة هو أمر مقبول، بل محمود، خاصة و أنه يمكنه إحالة قضايا تخص دولا غير أطراف في النظام لتنظرها المحكمة، أما منحه السلطة الثانية، أي سلطة التأجيل، و لمدة نعتبرها طويلة جدا و هي سنة، في ظل الأوضاع الدولية الراهنة، و سيطرة بعض الدول على مراكز اتخاذ القرار داخل المجلس قد يحد من اختصاصات المحكمة الدولية، و بالتالي يؤثر على العدالة و يؤدي إلى التقصير في حماية حقوق ضحايا الجرائم الدولية²⁴.

نتيجة لما سبق نستنتج أن المحكمة الجنائية الدولية قد ولدت من رحم هيئة الأمم المتحدة متمثلا في جمعيتها العامة، ثم إن القراءة القانونية المتأنية لنصوص النظام الأساسي للمحكمة توحى أن هناك ارتباط وثيق بين الجهتين في ممارسة الاهتمامات المشتركة المتمثلة في الحفاظ على السلم و الأمن الدوليين.

ثم إن القيام بهذه المهمة المشتركة من شأنه أن يوجد نوعا من التداخل في الاختصاصات، الأمر الذي انتبهت له كلا الجهتين منذ البداية، بحكم أن نظام روما الأساسي لم يكن كافيا وحده لتنظيم العلاقة بين الجهتين، الأمر الذي أدى إلى النص في بنود النظام الأساسي على ضرورة عقد اتفاق بينهما لتنظيم سير العمل الإجرائي و الإداري و التعاون القضائي فيما بينهما.

إلا أن دخول مجلس الأمن في هذه المعادلة لا يجعل من هذه العلاقة تسير وفق الاستراتيجيات المسطرة بين الجهتين، لأن نظام روما في حد ذاته يعطي هذا الجهاز اختصاصين

أحدهما إيجابي يتمثل في عرضه لأي نزاع يرى فيه مساس للسلم و الأمن الدوليين، حتى بالنسبة للدول غير الأطراف في المحكمة.

و أما الاختصاص الثاني فسلبي مفاده توقيف عمل المحكمة الجنائية الدولية في أية مرحلة إذا رأى في ذلك مساسا بالسلم و الأمن الدوليين، الأمر الذي يؤدي فعلا إلى عرقلة عملها، وهذا ما يؤدي إلى التفكير في إلغاء الدور السلبي لمجلس الأمن بما يسمح للمحكمة من تحقيق أهدافها المتمثلة في ملاحقة و معاقبة أخطر المجرمين أيا كان.

ثم إن إنشاء هذه المحكمة بمعاهدة دولية لا تعتبر الأمم المتحدة طرفا فيها ليس معناه انقطاع الصلة بينهما، بل لابد من التعاون في تحقيق الأهداف المشتركة، بشرط تجسيد استقلالية المحكمة كمؤسسة قضائية دائمة مستقلة ذات شخصية قانونية دولية، و لهذا يمكن القول أن هناك العديد من النقاط المتقاطعة و المشتركة التي يجب إعادة النظر فيها بالشكل الذي يجعل من الجهتين تسييران بالتوازي وليس بنمط وصاية جهة على جهة ثانية.

فالنظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية يحمل في حد ذاته نقاط ضعفه خصوصا في علاقة المحكمة الجنائية الدولية مع مجلس الأمن الدولي، لأن التفكير في تعديل النص الاتفاقي الذي ينظم العلاقة بين الجهتين أمر غير كاف في ظل بقاء نظام روما الأساسي على حاله.

¹ فتوح عبد الله الشاذلي : القانون الدولي الجنائي، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص 150.

² طلال ياسين العيسى و علي جبار الحسيناوي : المحكمة الجنائية الدولية، دراسة قانونية في تحديد طبيعتها، أساسها القانوني، تشكيلاتها، أحكام العضوية فيها، مع تحديد ضمانات المتهم فيها، دار اليازوري العلمية للنشر و التوزيع، عمان، 2009، ص 29.

³ محمود شريف بسيوني : المحكمة الجنائية الدولية، نشأتها و نظامها الأساسي مع دراسة لتاريخ لجان التحقيق الدولية و المحاكم الجنائية الدولية السابقة، مطابع روز اليوسف، القاهرة، 2002، ص 89.

⁴ أحمد محمد عبد اللطيف صالح : المحكمة الجنائية الدولية، نشأتها و نظامها الأساسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013، ص 272.

⁵ خالد مصطفى فهمي : المحكمة الجنائية الدولية، النظام الأساسي للمحكمة و المحاكمات السابقة و الجرائم التي تختص المحكمة بنظرها، ط1، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2011، ص 09.

⁶ أحمد محمد عبد اللطيف صالح : المرجع السابق، ص 332.

⁷ منتصر سعيد حمودة : المحكمة الجنائية الدولية، النظرية العامة للجريمة الدولية، أحكام القانون الدولي الجنائي، دراسة تحليلية، ط1، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2009، ص 74.

8 نص الاتفاق بين المحكمة الجنائية الدولية و هيئة الأمم المتحدة - [https:// documents-dds-ny.un.org/ doc/ undoc](https://documents-dds-ny.un.org/doc/undoc) . تاريخ الزيارة : 05 نوفمبر 2016، في الساعة 17 : 01 صباحا.

⁹ الموقع الإلكتروني الرسمي للمحكمة الجنائية الدولية : www.icc-cpi.int ، تاريخ الزيارة : 06 نوفمبر 2016، في الساعة : 10:10 صباحا.

¹⁰ فيدا نجيب حمد : المحكمة الجنائية الدولية، نحو العدالة الدولية، ط1، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 2006، ص 101.

خيرية مسعود الدباغ : مبدأ القاضي الطبيعي في ضوء أحكام النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، دار النهضة العربية، القاهرة، 2010، ص، ص 353، 359.

¹¹ خيرية مسعود الدباغ : مبدأ القاضي الطبيعي في ضوء أحكام النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، دار النهضة العربية، القاهرة، 2010، ص، ص 353، 359.

¹² هشام محمد فريجة : القضاء الدولي الجنائي، ط1، دار الراجعية للنشر و التوزيع، عمان، 2012، ص 201.

¹³ خيرية مسعود الدباغ : المرجع السابق، ص ، ص 360، 363.

¹⁴ المادة 16 فقرة 01 من الاتفاق بين الأمم المتحدة و المحكمة الجنائية الدولية.

¹⁵ Didier Rebut : Droit pénal international, Dalloz, Paris, 2012, p 597.

¹⁶ محمد سامح عمرو : علاقة مجلس الأمن بالمحكمة الجنائية الدولية، دار النهضة العربية، القاهرة، 2008، ص 17.

¹⁷ فاروق محمد صادق الأعرجي : المحكمة الجنائية الدولية، نشأتها و طبيعتها و نظامها الأساسي، دراسة في القانون الجنائي الدولي، دار الخلود للصحافة و الطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، 2010، ص 166.

¹⁸ حازم محمد عتلم : " نظم الإحالة إلى المحكمة الجنائية الدولية "، مجلة العلوم القانونية و الاقتصادية، كلية الحقوق، عين شمس، العدد الأول، السنة 45، يناير 2003، ص 124.

¹⁹ علي قلعجي : العلاقة بين المحكمة الجنائية الدولية و مجلس الأمن في إطار نظام روما الأساسي،
المجلة المصرية للقانون الدولي، القاهرة، العدد 64، لعام 2008، ص 137.

²⁰ محمد سامح عمرو : المرجع السابق، ص 104.

²¹ Henri D Bosly et Damien Vandermeersch : Génocide, crimes
contre l humanité et crimes de guerre face à la justice, les
juridictions internationales et les tribunaux nationaux, Bruylant,
Bruxelles, 2010, p 93.

²² أنظر القرار رقم 1422 (2002) الذي اتخذته مجلس الأمن في جلسته رقم 4572، المنعقدة في
12 جويلية 2002.

²³ أنظر القرار رقم 1497 (2003) الذي اتخذته مجلس الأمن في جلسته رقم 4803، المنعقدة في
01 أوت 2003.

²⁴ لندة معمر يشوي : المحكمة الجنائية الدولية الدائمة و اختصاصاتها، ط1، دار الثقافة للنشر و
التوزيع، عمان، 2008، ص 247.

دور الفاعلين الاجتماعيين في حل النزاعات الدولية

- مدخل نظري

- The role of social actors in the resolution of international disputes

رضا دمدم

جامعة قسنطينة3

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/07

Résumé:

Le présent article évoque la question des « nouveaux acteurs des relations internationales » et notamment dans le domaine de la résolution des conflits.

En effet, la résolution des conflits connaît aujourd'hui des évolutions profondes provoquées par l'émergence de nouveaux conflits non-étatiques, à base ethnique et religieuse, et par la montée en puissance des organisations non-gouvernementales.

Le rôle des acteurs sociaux en matière de la résolution des conflits est, désormais, au cœur de toute réflexion portant sur cette nouvelle ère de conflictualité.

L'article a pour objectif la mise en exergue de quelques contributions théoriques abordant l'implication de ces nouveaux acteurs dans le champ de la résolution des conflits.

Mots Clés :

Nouveaux acteurs- Relations internationales – Résolution- Conflits-

منذ بداية سنوات التسعينات، ساهمت البحوث حول ظاهرة " الأطراف الجديدة في العلاقات الدولية" في تطور الأدبيات حول دور الفاعلين غير الحكوميين في التفاعلات الدولية، وكذلك العلاقات بينها وبين الدول. أفضى بروز أطراف جديدة إلى حدوث تغييرات عميقة في العلاقات الدولية ، التي لم تعد مجالا حصريا للتفاعلات بين الدول . طرحت هذه التغييرات التساؤلات حول مكانة و دور الدولة في الشؤون الدولية و الدبلوماسية عامة و ميدان حل النزاعات الدولية بصفة خاصة. حيث يشهد ميدان حل النزاعات Conflit Résolution ، في السنوات الأخيرة ، تطورات عميقة بسبب بروز نزاعات جديدة تتسم بخصائص تميزها عن نزاعات مرحلة الحرب الباردة. تتمثل أهم هذه الخصائص في :

- البعد الداخلي، فمنذ نهاية الحرب الباردة، تغيرت طبيعة الصراع الدولي. حيث أصبحت النزاعات بين الدول inter-state أقل عدداً، بينما ازدادت النزاعات حول السلطة و الهيمنة داخل الدول intra- state.

- زيادة دور العوامل الداخلية خاصة الإثنية و الدينية .

- زيادة دور الأطراف غير الحكوميين في هذه النزاعات .

دفعت الصعوبات، التي تعترض سبيل الجهود الدبلوماسية الحكومية في سعيها لحل صراعات المرحلة الراهنة، المختصين في حل النزاعات إلى التأكيد انه لا يمكن للحكومات تحقيق السلام و تكريسه منفردةً. فتوقيع اتفاق سلام و الحفاظ عليه يمكن تحقيقه فقط عبر تكاتف الجهود على كل مستويات المجتمع. لذلك، يفترضون أن عملية حل النزاعات يجب أن تتجه أكثر نحو المستويات الاجتماعية القاعدية، وان الاتصالات بين الأطراف غير الرسميين تسهل بعض التقدم الذي فشلت المفاوضات الرسمية للدبلوماسية الحكومية في تحقيقه. كما تسمح بتناول الصعوبات الأكثر عمقا و حساسية، التعاطي مع جذور المشكلة و استكشاف الحلول الممكنة بعيدا عن الرؤى الحكومية من خلال دعم الحوارات المباشرة بين الفاعلين غير الحكوميين.

نحاول، في هذا المقال، إبراز بعض جوانب التنظير حول دور الفاعلين غير الحكوميين في ميدان حل النزاعات ، من خلال العناصر التالية :

- طبيعة الفاعلين الاجتماعيين و تبلور دورهم في حل النزاعات الدولية.

- وظائف المنظمات غير الحكومية في عملية بناء السلام.

- الحوار في إطار جهود الفاعلين الاجتماعيين.

- الحوار الاجتماعي كعملية لتحضير المفاوضات الرسمية.

1- طبيعة الفاعلين الاجتماعيين و تبلور دورهم في حل النزاعات الدولية :

تنتج النزاعات الداخلية، عادة، عن الانقسامات الدينية و الإثنية التي يتم إدراكها بأنها "متجذرة في أهوال الماضي"، تنتقل من جيل إلى آخر، فكل نزاع يقوم على آخر يسبقه". (1) كما تنتج أيضا عن انهيار الحكم و المجتمع المدني الذي يزيد من حدة الانقسام داخل المجتمعات. تفرض الطبيعة الجديدة للنزاعات، خاصة في ظروف انهيار الحكم و تصاعد العنف، تدخل الفاعلين غير الحكوميين

Non-Governmental Actors (NGAs) لإحياء الأمن، تقديم المساعدات و تنظيم الشؤون العامة. حسب بامبلا أول Pamela Aall، يملك هؤلاء الفاعلين غير الحكوميين الإمكانيات الضرورية للعب أدوار مفتاحية في إحياء المجتمع المدني و تحقيق الأمن. كما لا يقتصر عملها في مجال المساعدات و التنمية على المستوى المعيشي الاجتماعي و الاقتصادي للمجموعات المستهدفة فحسب، لكنه يمس أيضا كل الوضع السياسي. (2) يتدخل الفاعلون غير الحكوميين أيضا من أجل العمل على بعث عملية سلمية داخل المجتمع، " فمنذ عام 1990، تحولت العديد من وظائف بناء السلام إلى القطاع الخاص و المجتمع المدني". (3) حسب هارولد ساوندرز H. Saunders: " بعض الأمور لا يمكن أن يقوم بها سوى الحكومات مثل التفاوض لإلزام الأطراف. بعض الأمور يمكن أن يقوم بها المواطنون خارج الحكومة بشكل أفضل مثل استكشاف الأبعاد الإنسانية للنزاع، و تغيير العلاقات بين الجماعات بشكل كاف يسمح للوساطة الرسمية أو المفاوضات بحل النزاع بطرق أخرى". (4)

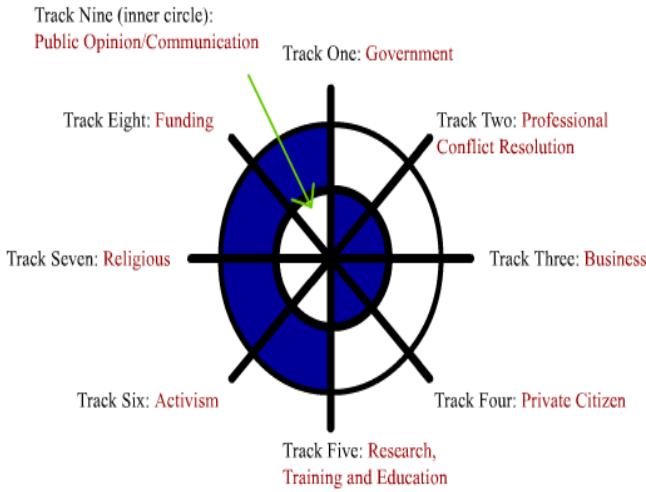
تبرز أهمية الفاعلين الاجتماعيين أو ما يسميهم مارشيتي Rafaele Marchetti و توتشي Nathalie Tocci ب " منظمات مجتمع النزاع " Conflict Society Organisations (CSOs) في مناهج حل النزاعات Conflict Resolution أكثر من مناهج إدارة النزاع Conflict Management. فعلى خلاف دورها الثانوي في صنع السلام Peacemaking، تمثل " منظمات مجتمع النزاع" فواعلا ضرورية تسمح بالانتقال من مجرد إدارة وتسوية النزاع (المستوى السياسي الأعلى) إلى بناء السلام و المصالحة الاجتماعية (المستويات السفلى). (5)

على خلاف وساطة القوة Power Mediation التي تشكل أهم ملامح مناهج إدارة النزاعات التقليدية، تفضل المدرسة الليبرالية في حل النزاعات على الوسائل غير القهرية القائمة على الحوار، الإقناع و حل المشكلات Problem-solving . فتركز، بالتالي، على الفاعلين الاجتماعيين غير النخبة، وتعتبر ذلك ضروريا للحل الحقيقي للنزاعات الذي يتعدى مجرد توقيع الاتفاقات (صنع السلام، إدارة النزاعات). حسب هذه المدرسة ، تتخذ العمليات السلمية مسارا طويلا يمس جميع مراحل النزاع العنيف و المصالحة في مرحلة ما بعد التسوية . (6) من خلال نموذج " الدبلوماسية متعددة المسارات " Multi-track diplomacy ، الذي طوره جون ماكدونالد John Mc Donald و لويز دياموند Louise Diamond و تصنيف بول ليدراخ Paul Lederach لفواعل العملية السلمية ، يمكن صياغة قائمة لأهم الفواعل و المنظمات الاجتماعية غير الحكومية التي يمكن أن تقوم بمبادرات تهدف إلى حل النزاع. حيث تحدد بعض " المسارات " Tracks في نموذج ماكدونالد و دياموند ، و " المستوى الجزئي " Micro-level في تصنيف ليدراخ هذه الفواعل في الجماعات المحلية و الدولية التي تشارك بنشاط في العملية السلمية. و هي تشمل المواطنين الخواص، رجال الأعمال ، نشطاء السلام ، الطلبة ، الجماعات الدينية ، المؤسسات ووسائل الإعلام.

يطلق عادة على هذه الجماعات مصطلح " المجتمع المدني " Civil Society الذي يشير إلى دور الفاعلين الاجتماعيين خارج السلطة السياسية ، و هو ما يقترب من مضمون " المسارات " و " المستوى الجزئي " الذين يحددهما النموذجين السابقين . حيث يشمل مفهوم المجتمع المدني مجموعة متعددة من الفاعلين على المستوى المحلي و الدولي، الذين يعملون بشكل مستقل عن المستوى الرسمي. كما يمكن استعمال، في هذا السياق، المصطلح الذي استخدمه مارشيتي و توتشي " مجتمع النزاع " الذي " يشمل كل المنظمات المدنية المحلية التي تنشط في سياق نزاعي ، إضافة إلى المنظمات الدولية و العابرة للقومية المرتبطة بالسياق النزاعي نفسه " . (7) والملاحظ أن النشاطات التي يقوم بها الفاعلون الاجتماعيون تمس قطاعات واسعة من المجتمع ، و هو ما

تنشده مناهج حل النزاعات (CR)، التي تفضل الفواعل المنخرطة في نشاطات تستهدف قطاعات أوسع من المجتمع أكثر من نشاطات المحترفين و المراكز المتخصصة في البحث و التدريب. و قد لاحظنا أيضا هذا الاتجاه عند ممارسي "المسار الثاني" Track-two في نموذج " الدبلوماسية متعددة المسارات"، و قيادات " المستوى الوسيط" Meso- level في تصنيف ليدراك، الذين يشيران إلى نشاطات و مبادرات الأفراد الأكاديميين و مراكز البحوث. حيث يستهدف هؤلاء شرائحا واسعة من المجتمع من خلال وظيفة التدريب من اجل إدماجها في عملية بناء السلام.

الشكل 1: نموذج " الدبلوماسية متعددة المسارات"



Source: Diamond and McDonald, The Institute for Multi-Track Diplomacy (IMTD)

الشكل 2: تصنيف ليدراك لفواعل العملية السلمية

أنواع الفواعل	مناهج بناء السلام
القيادات الجماهيرية Grass-root leadership (المستوى الجزئي Micro-level)	لجان السلام المحلية التدريب الشعبي الجماهيري
قيادات المستوى المتوسط Middle range leadership (المستوى الوسيط Meso-level)	ورشات حل المشكلات
القيادة العليا Top leadership (المستوى الكلي Macro-level)	التدريب حول تقنيات حل النزاعات مفاوضات المستوى العالي

المصدر: John Paul Lederach, Building Peace, (Washington, D.C: United States Institute of Peace, 1997).

2 - وظائف المنظمات غير الحكومية في عملية بناء السلام:

تهدف اغلب تدخلات الفاعلين الاجتماعيين إلى إعادة بناء " رأسمال اجتماعي " في الأوساط المحلية التي تعاني وطأة النزاع . حيث يعمل الفاعلون غير الرسميين مع الناس من جميع شرائح و قطاعات مجتمعهم بهدف إيجاد طرق لترقية السلام في أوضاع النزاع العنيف. يهدف هذا العمل إلى بناء أو إعادة بناء العلاقات التي تدهورت بسبب وجود خطوط تقسيم بين المواطنين العاديين في المجتمعات، في مجموعة من القطاعات. يقوم دور الفاعلين الاجتماعيين على فكرة أساسية مفادها انه يمكن ويجب أن يبنى السلام انطلاقا من القاعدة نحو الأعلى و كذلك من المستوى الأعلى نحو القاعدة. لتحقيق مفاوضات أو تسوية، يجب إيجاد " دائرة سلام " Peace constituency وكذلك، لتحقيق تسوية يجب إيجاد دعم و قدرة على تنفيذها. (8)

تشمل تدخلات الفاعلين الاجتماعيين عملا سيكو- اجتماعيا لمساعدة الجماعات المحلية على التعامل مع الخلافات و الصدمات الناتجة عن النزاع العنيف . كما تشمل التظاهرات الاجتماعية و الفنية التي تجعل الأفراد من كل أطراف النزاع ، المشاريع التجارية المشتركة ، الحوار بين الأديان و تربية السلام . (9)

لقد ساهمت العديد من الدراسات النظرية في تصنيف ادوار منظمات المجتمع المدني أو " مجتمع النزاع " في عملية النزاع . فمثلا ، حسب مارشيتي و توتشي ، تلعب منظمات " مجتمع النزاع " أدوارا مختلفة في مراحل مختلفة من النزاع. في فترات العنف، تحضر هذه المنظمات الأرضية و الجمهور من اجل وقف إطلاق النار و توقيع اتفاق سلام. في النزاعات الانفصالية، نظرا لمخاوف الاعتراف الرسمي بالكيانات الانفصالية، تكون الاتصالات بين الجماعات المتنازعة اتصالات شعبية People to People غير رسمية. يتم تنظيم ورشات حل مشكل problem-solving workshops بين منظمات غير حكومية محلية أو دولية. يمكن أن تحل مبادرات المواطنين الخواص المشاكل القاعدية المرتبطة بالجريمة أو البيئة داخل الأحياء المختلطة حيث تكون هذه الجهود، عادة، أكثر فاعلية من المستويات الرسمية. قد تنخرط المدارس في مشاريع تربية سلمية تضم شرائح اجتماعية واسعة فضلا عن أطراف النزاع. (10) وبالتالي، بناء " دوائر

سلام " لإعادة النظر في الوسائل التي يسعى أطراف النزاع من خلالها لتحقيق احتياجاتهم الأساسية. كما تطوّر منظمات أخرى برامج تأهيل و تدريب بغرض تكوين ناشطين اجتماعيين الذين يزدون و يحسنون من تأثير تربية السلام Peace Education.

في فترات النزاع، يمكن أن تساهم المنظمات أيضا في عملية الحل من خلال خدمات التموين خاصة الخدمات الأساسية التي تحقق الحد الأدنى من الحاجات الإنسانية الأساسية كالصحة و التربية. قد تقوم المنظمات بذلك أيضا في الفترات التي يحتدم فيها العنف و يشتد الدمار و تعجز فيها الدول و المجتمع الدولي. بعد توقيع اتفاق سلام، تعمل هذه المنظمات على المستوى المجتمعي لتشجيع الاتصال و المصالحة بين أطراف النزاع، تشجيع المبادرات التجارية و الثقافية بينهم. إلى جانب المنظمات غير الحكومية و المؤسسات، يمكن لوسائل الإعلام أن تلعب هذا الدور من خلال تشجيع " صحافة السلام " Peace journalism بواسطة الصحفيين المحليين أو الدوليين في بلدان النزاع . بث إعلام بديل و معلومات بديلة و إعادة صياغة روايات النزاع . يمكن أيضا للمواطنين المساهمة في إرساء الثقة من خلال مبادرات المصالحة الاجتماعية.

(11)

حسب تشيستر كروكر Chester Crocker ، تستطيع المنظمات غير الحكومية أيضا القيام بالعديد من وظائف حل النزاعات :

- تأهيل الأطراف Capacity – building، من خلال وسائل التربية و التدريب في مناطق النزاع.
- إدراج مواضيع النزاع في أجندة السياسة العامة للدولة من خلال وسائل الدفاع عن هذه المواضيع و تحليل الخبراء.
- إبراز صوت الفاعلين الاجتماعيين و تفعيل دورهم وقت النزاع .
- تعبئة قادة المجتمع المدني لتقديم مبادرات سلام و الضغط من اجل إيقاف العنف.

- النشاط البحثي الذي يطور مقترحات لتميرها إلى النخب السياسية و صناع الرأي العام من اجل خلق مناخ ايجابي للمفاوضات الرسمية . (12)
- تقترح أيضا بامبلا أول أربعة ادوار يمكن للمنظمات غير الحكومية أن تلعبها في عملية بناء السلام :
- على المنظمات أن تستمر في عملها التقليدي في تقديم المساعدة و إعادة التهيئة.
- عليها الاستمرار في مراقبة انتهاكات حقوق الإنسان .
- يجب عليها أن تتكفل بالمهام الجديدة: توفير إنذار مبكر باحتمالات النزاعات العنيفة.
- أن تستمر في نشاطات حل النزاع .
- حسب أول ، يجب على المنظمات غير الحكومية أن تتبنى منظورا بعيد المدى حول نشاطاتها ، حيث تقترح انه "يجب ربط مهمة الإنقاذ و تقديم المساعدات بمجموعة من النشاطات التي تؤدي إلى تحويل تلك النزاعات بشكل يسمح بترقية مصالح دائمة و شاملة بين الأطراف المتنازعة." (13)
- تعمل العديد من المنظمات في المستويات الوسيطة و الشعبية للمجتمع. فهي ، بالتالي ، تتمركز بشكل جيد لتطوير مثل هذه الروابط و النشاطات السلمية. عند قيامها بمهمة المساعدة و إعادة التهيئة ، يجب أن تسعى المنظمات غير الحكومية إلى الاعتماد على الموارد المحلية ، فتطوير موارد و إمكانيات محلية يزيد من قدرات المواطنين . أما اللجوء المفرط للموارد الخارجية قد يزيد من تبعية الفاعلين المحليين للدوليين و اعتماد العملية السلمية المحلية على دور الأطراف الخارجيين بشكل سلبي. يمكن أيضا أن تكون الموارد الخارجية موضوع خلاف مما يؤدي إلى إثارة النزاع. يجب كذلك على المنظمات أن تسعى إلى جذب مشاركين جدد إلى نشاطاتها.
- حددت أول مجموعة من الشروط التي تسمح بتسهيل نشاطات المنظمات غير الحكومية في مجال حل النزاعات :

- يجب أن ترتبط المنظمات بعلاقة طيبة مع البلد، المواضيع و المشاركين في النزاع.
 - يجب أن يكون لها شركاء من الأهالي.
 - يجب أن يكون طاقم المنظمات متمتعاً بمواهب و معرفة واسعة في مجال حل النزاعات.
 - يجب أن يدرك و يقبل العاملون في المنظمات غير الحكومية بالمخاطر الشخصية التي يمكن أن يواجهونها عند محاولة التدخل بشكل مباشر في النزاع . (14)
- 3 - الحوار في إطار جهود الفاعلين الاجتماعيين :

يعتبر الحوار Dialogue أهم النشاطات التي يقوم بها الفاعلون الاجتماعيون. انه السمة الرئيسية التي تحدد ملامح تدخلهم في عملية بناء السلام. زاد الاهتمام بمبادرات الحوار غير الرسمي بسبب زيادة النزاعات المسلحة خاصة النزاعات المستعصية التي تكثر داخل المجتمعات.

يتفق اغلب المتخصصين و الممارسين أن النزاعات المزمنة Protracted conflicts لا يمكن حلها فعليا إلا من خلال الجهود التي تتعرض للأسباب البنيوية و المظاهر السياسية المهمة للنزاع. إضافة إلى الأبعاد السيكلوجية، المآسي و مواضيع العلاقات بين الأطراف. من الواضح، أن عمليات الحوار تستخدم أساسا كوسيلة في سياق المنظور السيكلوجي لحل النزاعات بسبب تركيزها على الاتصال و التفاعل الشخصي بين الأفراد. (15)

تأخذ اغلب الحوارات شكل لقاءات بين مجموعات منظمة ذات حجم يسمح باتصال مباشر بين أعضائها . يتم إجراؤها عادة مع أشخاص دون مستوى القيادة العليا، فالحوارات غير الرسمية هي نوع من التحضير السياسي للمفاوضات الرسمية. كقاعدة عامة، يتولى طرف ثالث مسؤولية مشروع الحوار، تنظيم و إدارة اللقاءات. لا يستوجب أن يكون هذا الطرف الثالث من خارج البلاد ، يمكن أن يكون أفرادا معتدلين من داخل منطقة النزاع. (16)

ترتبط مشاريع الحوار عادة بالمستوى المحلي أو الجوّاري. تجمع أفرادا ينتمون إلى قطاعات متماثلة و لهم مصالح متشابهة (الشباب ، النساء، أعضاء الاتحادات التجارية ، الناشطون

الدينيون...) أو الأشخاص الذين يشتركون في نفس المصير بسبب معاشتهم لماضٍ عنيف (أرامل و أيتام الحرب، أطفال الضحايا...). (17)

تقوم مشاريع الحوار على عناصر مركزية تتمثل في اللقاءات الشخصية و إنهاء حواجز الاتصال ، يسودها منهج حوار العلاقات الإنسانية و تستهدف ، على المدى الطويل ، تنظيم لقاءات من هذا النوع من اجل تقديم أفضل دعم للسلام انطلاقا من المستوى الأسفل الجماهيري. (18)

تركز الأدبيات الحالية، في ميدان بناء السلام، على طريقتين في تصنيف الحوارات. تتمثل الطريقة الأولى في تحديد الأنواع المثلى للحوار و الثانية في تمييز مراحلها وفقا للخطوات النموذجية للتفاعل و الاتصال التي تشكل عملية بناءة للحوار.

اقترح جاي روثمان Jay Rothman تصنيف مناهج الحوار في النزاعات بين الجماعات إلى أربعة أنواع :

- الحوار التنافسي Positional dialogue، حيث يجعل الأطراف من وجهات نظرهم و آرائهم كمواقف تتطلب الاعتراف فقط، بالتالي، يُستخدم الاتصال للإقناع و تحقيق المكاسب الأحادية و تستعمل الحجج ضد الآخر .

- حوار العلاقات الإنسانية، Human relations dialogue يتم فيه تأجيل الخلاف في وجهات النظر حول المسائل الجوهرية، و يتم العمل على مستوى العلاقات بين الأفراد المشاركين حيث يركز على أسباب سوء الفهم و الصور النمطية الموجودة بين الأطراف. عادة ما تسبق هذا النوع من الحوارات دورات تدريب تحضيرية حول الميكانيزمات الأساسية للإدراك و التفاعل في الجماعات . تتمثل أهداف هذا النوع في تحقيق الاعتراف المتبادل و زيادة الاحترام بين الأطراف. يسعى منهج الحل التفاعلي للنزاعات (ICR) Interactive Conflict Resolution إلى تحقيق هذا النوع من الحوارات .

- حوار عملي Activist Dialogue ، يتم فيه تحليل المواضيع و تكييفها بهدف تحديد أرضية مشتركة و استكشاف مختلف الطرق التي تمكن الأطراف من احتواء اختلافاتهم بواسطة عمل مشترك.

- حوار حل المشكلات Problem-solving dialogue ، و هو النوع الأكثر طموحا ، ينظم فيه الأطراف المتنازعون اتصالهم بطريقة تمكنهم من التعاطي منهجيا مع اختلافاتهم . في حالة تصعيد النزاع بشدة، عادة ما يتطلب هذا النوع من الحوارات وجود طرف ثالث كفاعل مساعد أو فاعل مبادر. (19)

يحدد المتخصصون في حل النزاعات أربعة مراحل لعملية الحوار:

- تهتم المرحلة الأولى بصياغة وجهات النظر المتضاربة لمختلف الأطراف بشكل أوضح قدر الإمكان، ضمان الاعتراف المتبادل بوجهات النظر هذه ، و كذلك تحديد جوهر النزاع.
- في المرحلة الثانية، يتم التركيز على التفكير حول الحاجات الأساسية و مخاوف المشاركين، قيمهم، تجاربهم في النزاع و آمالهم. (20)
- في المرحلة الثالثة، يتم تحديد المصالح المشتركة، الحاجات و المخاوف المتشابهة. و يمكن أن تستهدف هذه المرحلة البدء في تعاون عملي في القضايا الأقل خلافا.
- تتطلب المرحلة الرابعة مدة طويلة لتحضيرها و أيضا بناء الثقة الشخصية بين المشاركين.

تشمل هذه المرحلة مناقشة المناهج و الأفكار اللازمة للتعامل مع المواضيع الجوهرية للنزاع ، التفكير في كيفية تطبيق هذه المناهج و الأفكار، و بالتالي، الشروع في إجراءات عملية لحل هذه المواضيع الجوهرية. (21) في حالة النزاعات التي تشهد تصعيدا كبيرا، يكون من الصعب تنظيم لقاءات سلمية تجمع أطراف النزاع. و يجد المتدخلون أنفسهم عاجزين حتى عن تجاوز المرحلة الأولى بنجاح. في حالة النزاع المزمع، يكون من الضروري تنظيم العديد من اللقاءات. يجب على المتدخلين أن يسمحوا دائما بإمكانية العودة إلى مراحل سابقة. (22)

من الواضح انه ، على غرار الدبلوماسية الرسمية ، تتأثر أيضا ادوار الفاعلين الاجتماعيين بظروف إدارة النزاع . فعندما تتم هذه الأخيرة بشكل غير عقلائي ، بمعنى اتجاه الأطراف نحو تصعيد النزاع من خلال المطالبة بأقصى الأهداف و التمسك بها ، عدم الحفاظ على حد أدنى من الاتصال و الاستعمال المفرط للقوة، (23) يصبح من الصعب تحقيق اتصال مباشر بين الأطراف من خلال تنظيم مفاوضات مباشرة أو بمساعدة طرف ثالث . ومن الممكن أن يتم التنسيق بين مشاريع الحوار و المؤسسات، الشبكات و المشاريع العملية، و لا يتسنى ذلك إلا بعد ختام عملية طويلة من بناء الثقة و العمل على مراحل الحوار التي قمنا بوصفها سابقا . يمكن أن يتم تجسيد هذا التنسيق من خلال تأسيس الحوار في شكل أجهزة استشارية متعددة الاثنيات ، لجان مصالحة أو شبكات منظمات غير حكومية. في حالات أخرى، توفر مشاريع الحوار نقطة الانطلاق لمحاولات عملية مثل وضع خطط لتحسين معيشة السكان الأكثر تضررا من النزاع. (24)

4- الحوار الاجتماعي كعملية لتحضير المفاوضات الرسمية:

يهدف منهج حل النزاعات إلى جعل مشاريع الحوار كعمليات لتحضير المفاوضات الرسمية Dialogue projects as a pre-negotiation. حيث يجري تصميمها لممارسة تأثير على إدارة النزاع على مستوى القيادة السياسية. و هو نفس الهدف الذي تنشده مناهج الحل التفاعلي للنزاعات (ICR) وحل المشكلات Problem- solving من خلال تنظيم ورشات يقوم فيها طرف ثالث بتلقين أعضاء مؤثرين من أطراف النزاع كيفية تطوير أفكار املاً أن يسهل ذلك ، لاحقا، المفاوضات الرسمية. (25) حيث يُعتقد أن هذا النوع من اللقاءات غير الرسمية من شأنه تسهيل تحقيق بعض التقدم الذي لا تسمح به المفاوضات الرسمية . إذ تسمح هذه المرونة، نظريا، بتناول الصعوبات الأكثر عمقا و حساسية، جذور المشكلة و استكشاف الحلول الممكنة بعيدا عن الرؤى الرسمية و من خلال الحوار المباشر. (26) تساهم الحوارات، إذن، في إثراء و تغطية الفجوات في الأجندات التفاوضية الرسمية.

في ما يخص مدى فاعلية مشاريع الحوار، اقترح كريستوفر ميتشل Christopher Mitchell أن نجاح مشاريع الحوار، كعملية تحضيرية للمفاوضات الرسمية، يمكن تقييمه على ثلاثة مستويات :

- أثرها على الأشخاص المشاركين (التغيرات في المواقف، أنماط سلوك جديدة)
- تحقيقها للنتائج outcomes ، خاصة في ما يتعلق بالأفكار، المقترحات ، الإجراءات العملية. التي يمكن ان تدرج ، بالتالي ، في عملية تكوين الأهداف السياسية .
- أثرها بعيد المدى على النزاع ككل. (27)

بالرغم من ارتفاع عدد النزاعات الداخلية في العلاقات الدولية، و تزايد أهمية دور الأطراف غير الحكوميين في ميدان حل النزاعات مقابل فشل المناهج الرسمية في تسوية العديد من النزاعات ، إلا انه لا يمكن التطلع لجعل المبادرات غير الحكومية بديلا لدور الدولة في ميدان حل النزاعات ، نظرا لعددٍ من الأسباب التي تؤثر على أداء هذه الأطراف :

- ضعف الإمكانيات التي يتوفر عليها الفاعلون الاجتماعيون مقارنة بما تمتلكه الدول.
- صعوبة تمويل نشاطات المنظمات غير الحكومية ، بل إن اغلب هذه المنظمات تعتمد ميزانياتها بشكل أساسي على مساهمة الدول.

- عدم تمتع الأطراف غير الحكوميين بالأهلية القانونية التي تخول صلاحية إبرام و توقيع الاتفاقات، التي تبقى من الاختصاصات الحصرية للدولة كشخص قانوني دولي . فلا جدوى من إطلاق عمليات سلام دون تنويعها باتفاقات ملزمة للأطراف .

- اعتماد المنظمات غير الحكومية على الدولة في عملية تنظيم النشاطات (توفير أماكن تنظيم اللقاءات و ندوات الحوار، استصدار التراخيص...) .

- المخاطر الشخصية التي يتعرض لها أعضاء المنظمات غير الحكومية بسبب اتصالاتهم بالطرف الآخر (العدو) . مع ذلك، تظل مبادرات الفاعلين الاجتماعيين مكتملة لدور الدولة و مفيدة له، تتضح هذه العلاقة في مظاهر سبق ذكرها خاصة :
- في ظروف النزاع المسلح، حيث يؤدي عادة التصعيد الخطير إلى انهيار مؤسسات الدولة وغياب دورها. يمكن عندئذ للمنظمات الأهلية أن تقدم المساعدة اللازمة : إعادة تنشيط قنوات الاتصال بين أطراف النزاع ، الإغاثة ، الحملات التطوعية لإعادة الأعمار...
- رغم أنها لا تصنع الاتفاقات السياسية، إلا أن جهود و نشاطات الفاعلين الاجتماعيين يمكنها تحضير الأرضية من أجل نجاح و استقرار هذه الاتفاقات.

الإحالات :

- (1) – Pamela Aall, “Nongovernmental organizations and peacemaking.” In Managing global chaos, eds. Chester Crocker, Fen Hampson and Pamela Aall, (Washington, DC: United States institute of peace press, 1996). p 434.
- (2) – ibid, p 436
- (3) – Rafaele Marchetti and Nathalie Tocci, “Conflict society, understanding the role of civil society in conflict.” Global change, peace and security, vol 21, n02, June 2009. p 204.
- (4) – Maria Hadjipavlou, “Developments in Cyprus conflict: A conflict resolution perspective.” BÜRO FÜR SICHERHEITSPOLITIK, working paper n 13, may 2002, p 21.
- (5) – Rafaele Marchetti and Nathalie Tocci, op.cit, p212.
- (6) – Ibid, p. 212.
- (7) – Ibid, p. 206.
- (8) – Diana Chigas, “Track2 (citizen) diplomacy.” available at << <http://www.beyondintractability.org/essay/track2-diplomacy> >>.
- (9) – ibid.
- (10) - Rafaele Marchetti and Nathalie Tocci, op.cit, p212.
- (11) – ibid, p. 213.
- (12) – Chester A Crocker, “Peacemaking and mediation: dynamics of a changing field.” International peace academy (IPA) working paper, March, 2007. P13.
- (13) – Pamela Aal, op.cit, p. 439.
- (14) – ibid, p. 440.

- (15) – Norbert Ropers, “From resolution to transformation: the role of dialogue projects” available at « http://www.berghof-handbook.net/documents/publications/ropers_handbook.pdf », p02.
- (16) – ibid, p 04.
- (17) – ibid, p 05.
- (18) – ibid, p 06.
- (19) – Jay Rothman, “ Dialogue in conflict: past and future”, in Eugene Weimer (ed.), The handbook of interethnic coexistence, New York, NY: Continuum, 1998, p 216.
- (20) – Norbert Ropers, op.cit, p 04.
- (21) – ibid, p. 04.
- (22) – ibid, p 06.
- حول قواعد إدارة النزاع ، انظر :
- (23) – Michael Nicholson, Conflict Analysis .(London : The english universi-ties press LTD, 1970.
- (24) – Jay Rothman, op.cit, p 219.
- (25) – ibid., p. 223.
- (26) – Jean- luc Marret, La fabrication de la paix, nouveaux conflits, nouveaux acteurs, nouvelles méthodes.(Paris : Ellipses, 2001), p 39.
- (27) – Norbert Ropers, op.cit, p 07.

الإثبات الجزائي بقرائن الأحوال وتطبيقاته القضائية

في الفقه الإسلامي والتشريع الجزائري

Evidence from circumstantial evidence cases, penal and judicial applications

د. رحال عبد القادر

جامعة الجزائر 1

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام: 2016/07/07

Abstract:

Considered among the most important evidence of the evidence on which the judge, and thus occupies a distinguished rank among the means of criminal prosecution Making it independent evidence itself may sing about what else other than the evidence, and which is characterized by indirect evidence that resorted to the judge by way of deduction and inference from the fact of the case, And have to resort to it when necessary blurs the perpetrator of the murder intent to mislead, then the judge looking for evidence of conditions that have a link to the crime, helping to search for the truth, and the issuance of the penal judgment And often clues in what is by inference, the so-called judicial . Balgarinh, has been adopted by scholars of Islamic law in Oqdathm was the right thing at issue is the legality of the work under ,the conditions they have set.

key words;

.Islamic law .Penal judgment .Judicial Presumption .Criminal Evidence

لقد اعتنت الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي عناية بالغة بحفظ حقوق الناس، ومنع الاعتداء بغير حق، فكان لزاما تولية القضاة للفصل بين الناس بالعدل. وقد تبوأ الإثبات مكانة عالية عند الفقهاء والقضاة، ووجد منهم البحث والتقصي عنه، حتى أن منهم من أفرد له تأليف خاص بالإثبات، كما هو حال ابن القيم في كتابة الطرق الحكمية، وكذا ابن فرحون المالكي في كتابه تبصرة الحكام، وقبلهم الإمام الماوردي في كتابة أدب القاضي، وكان السبب الجوهرى في هذا الاهتمام هو الحاجة الماسة التي تواجه القاضي عند فصله في دعاوى المرفوعة إليه، لقطع النزاع الحاصل، وحفظ الحقوق وإرجاعها إلى أصحابها. كما تعرض له رجال القانون بالبيان والتفصيل، وهذا لمكانته العظيمة التي يحتلها.

وإن كان هو الحديث العام عن الإثبات وحاجة القاضي الماسة إليه، إلا أنه يتعدد ويتنوع، والوسائل التي تصلح لأن تكون مستنداً يرجع إليها القاضي منها ما هو مجمع عليه بين الفقهاء، ومنهم ما هو مختلف فيه، وكان من جملة الوسائل التي اختلف فيها الفقهاء - القضاء بقرائن الأحوال-

وصورة القرائن، أننا إذا وجدنا شخص يتقياً خمرًا، أو في فمه رائحة خمر مثلاً، فهذه تعتبر قرينة تفيد الظن الغالب لا اليقين أن الشخص قد شربها عن قصد، وكذا من شوهه قد خرج من مسكن وهو يحمل سكيناً يتقاطر دماً، ودخلنا المسكن ووجدنا قتيلاً فيه، فهي أيضاً من القرائن التي تفيد أنه هو القاتل، وهكذا. وعليه، فالى أي مدى يمكن الاعتماد على القرائن كوسائل إثبات أمام القضاء الجزائي، وهل كل قرينة تظهر للقاضي تصلح للتمسك بها لإصدار حكم الإدانة أو البراءة؟.

المبحث الأول: ماهية الإثبات بالقرائن وتقسماته:

تعتبر القرائن من أهم وسائل الإثبات الجزائي في الفقه الإسلامي والتشريع الجزائي الوضعي، بحيث تعتبر من أدلة الإثبات غير المباشرة، ذلك لأنها لا تكون إلا باستنتاج من القاضي في غالب الأحوال، أو باستنتاج من المشرع، وقد أضحى الحديث عن الإثبات الجزائي بشكل عام وبالقرائن بشكل خاص مع بيان تقسيماتها يأخذ الحيز الكبير في الحقل المعرفي للتشريعات العقابية.

المطلب الأول: مفهوم الإثبات الجزائي بالقرائن:

الفرع الأول: مفهوم الإثبات الجزائي:

أولاً: مفهوم الإثبات:

1. لغة: جاء في لسان العرب المحيط أن الإثبات مأخوذ من: ثبت الشيء يثبت ثباتاً و ثبوتاً فهو ثابت وثبيت وثبت، وأثبتته هو، وثبته بمعنى¹.

2. اصطلاحاً:

استعمل الفقهاء الإثبات بمعناه اللغوي، وهو إقامة الحجة، ويطلقونه ويريدون به المعني العام، وهو إقامة الحجة مطلقا سواء كان ذلك على حق أم على واقعة، وسواء كان أمام القاضي أم أمام غيره، وسواء كان عند التنازع أم قبله، حتى أطلقوه على توثيق الحق وتأكيد عند إنشاء الحقوق. وعلى تحقق بعض الأمور العلمية في الطب والرياضة، وذلك لأن كل قول في أي علم لا قيمة له إلا بإثبات صحته. وقد يطلقون الإثبات ويريدون به المعنى الخاص وهو: إقامة الحجة أمام القضاء بالطرق التي حددتها الشريعة على حق أو واقعة تترتب عليها آثار شرعية². أما قانونا فقد عرفه الدكتور نجيب حسني بأنه: "إقامة الدليل لدى السلطات المختصة بالإجراءات الجنائية على حقيقة واقعة ذات أهمية قانونية"³. أو هو كل قاعدة أو حادثة أو أمر يدل على وقوع أو نسبة الأمر أو الفعل إلى فاعله⁴.

الفرع الثاني: تعريف القرينة:

أولاً: لغة: القرينة مفرد جمعه قرائن، والمصدر القرآن والمقارنة، وأصل الاشتقاق القرْنُ، وهو جمع الشيء إلى الشيء⁵. وجاء في مختار الصحاح: "قَرَنَ الشيءَ بالشيء وصله به، وبابه ضرب ونصر، واقرن الشيء بغيره، وقارنته قراناً، صاحبتة"⁶. ويقال قرينة الكلام أي ما يصاحبه، ويدل على المراد به⁷.

ثانياً: اصطلاحاً:

أولاً: مفهومها شرعاً: لم يذكر فقهاء الشريعة الإسلامية مفهوماً للقرينة، وإنما اكتفوا بذكر صور كان الحكم فيها مبنياً على القرينة، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى وضوح معناها وعدم خفاءه على من لديه أدنى دراية بمسائل الإثبات، عرف الفقهاء القرينة بمعنى الأمانة، وهي ما يلزم من العلم به الظن بوجود المدلول، كالغيم بالنسبة للمطر، فإنه يلزم من العلم به الظن بوجود المطر، فهي أمر يشير إلى المطلوب⁸. وعرفها الأستاذ الزرقا بأنها: "كل أمانة ظاهرة تقارن شيئاً خفياً فتدل عليه، وهي مأخوذة من المقارنة بمعنى المرافقة والمصاحبة"⁹. وجاء في المادة 1741 من مجلة الأحكام العدلية أن: "القرينة القاطعة هي الأمانة البالغة حد اليقين". وجاء بأنها:

استنباط الشارع أو القاضي أمراً مجهولاً من أمر معلوم، فهي دليل غير مباشر¹⁰. وقيل بأنها : " الأمانة التي نص عليها الشارع، أو استنبطها أئمة الشريعة باجتهادهم، أو استنتجها القاضي من الحادثة وظروفها وما يكتنفها من أحوال"¹¹.

ثانياً: مفهومها قانوناً:

لم يرد في التشريع الجزائري نصا يبين فيه مفهوم القرينة، وإنما ترك ذلك للفقه القانوني، فنجد أن قانون العقوبات جاء خالياً من التصريح بالقرينة، بخلاف ما عليه القانون المدني حيث نجد بأن المشرع قد نظم أحكام القرينة في المواد من 337 إلى 340 دون أن يحدد مدلول للقرينة. وهذا على خلاف ما عليه التشريع الفرنسي، الذي أورد مفهوم القرينة في نص المادة 1349 من القانون المدني نجده عرف القرينة بصفة عامة بأنها: " النتائج التي يستخلصها القانون أو القاضي من واقعة معلومة لمعرفة واقعة مجهولة"¹².

ولعل الذي دفع بالمشرع الجزائري إلى عدم إعطاء تعريف للقرينة القانونية هو وضوحها و عدم إخفائها و رغبة منه في الإحتفاظ بدوره التشريعي في وضع الأحكام العامة دون الدخول في متاهات التعاريف التي هي من اختصاص فقهاء القانون و رجال القضاء الذين عليهم تفسير ما جاء به المشرع من أحكام عامة. وقد تصدى الفقه لتحديد مدلول القرينة فجاء بأنها : " القرينة القانونية استنباط أمر غير ثابت بناءً على الغالب من الأحوال يقوم به المشرع نفسه نص علي نتيجته في صيغة عامة و مجردة يبين الشروط الواجب توفرها في التمسك بهذه القرينة"¹³. كما جاء في تعريفها بأنها : " أمانة ظاهرة تقارن شيئاً خفياً فتدل عليه"¹⁴. وعرفها الأستاذ نجيب حسني بأنها : " استنتاج الواقعة المطلوب إثباتها من واقعة أخرى قام عليها دليل إثبات، في هذه الحالة يقال إن إثبات الواقعة التي قام عليها الدليل قرينة على ثبوت الواقعة التي لم يرد عليها دليل"¹⁵.

وعرفها الأستاذ يحيى بكوش بأنها : " النتائج التي يستخلصها المشرع أو القاضي من واقعة أو وقائع معلومة ثابتة، لسحبها على واقعة أخرى، غير موجودة أو متنازع فيها، و

كان يستحيل أو يصعب إثباتها من الناحية العملية¹⁶. فهي الصلة الضرورية بين واقعتين، يكون ثبوت الأولى دليلا على حدوث الثانية، أو صلة بين واقعة ونتيجتها، ويكون ثبوت الواقعة فيها دليلا على حدوث نتيجتها¹⁷. وقيل بأنها: "استنباط واقعة غير ثابتة من واقعة ثابتة، أي يتم الاستناد إلى أمر معلوم للدلالة على أمر مجهول على اعتبار أن المألوف هو ارتباط الأمرين وجودا أوعدما فهي وسيلة اثبات غير مباشرة، ذلك أن الخصم لا يثبت الواقعة ذاتها مصدر الحق المطالب به، وإنما يثبت واقعة أخرى يستخلص منها الواقعة المراد إثباتها"¹⁸.

من خلال التعريفات التي قيلت عن القرينة، فهي لا تخرج عن كونها أمانة تدل على أمر مجهول استنباطا من أمانة مصاحبة ومقارنة للأمر المجهول، بحيث لولاها لما أمكن التوصل إليها. فهي أمانة ظاهرة صاحبت شيئا خفيا ودلت عليه.

الفرع الثالث: تقسيم القرينة في القانون:

اتفقت معظم التشريعات الوضعية على تقسيم القرائن إلى قسمين، إحداها قانونية والأخرى قضائية، وقد تم اعتماد معيار النص القانوني كمعيار للتفرقة بين القسمين، فحيث كانت القرينة قد ورد النص عليها في القانون سميت قرينة قانونية، ومتى لم ينص عليها القانون ونتجت من اجتهاد القضاء سميت قرينة قضائية.

أولا: القرينة القانونية:

لم يرد في التشريع الجزائري تحديدا لدلول القرائن القانونية، وإنما اكتفى بالنص على وجه العموم على الأحكام التي تتعلق بها، وسميت بالقانونية لأن المشرع هو الذي نص عليها، فهي من وضع المشرع ولا وجود لها بدون نص قانوني يتضمنها وينص عليها صراحة. فهي تغني من تقرر لمصلحته عن أية طريقة أخرى من طرق الإثبات.

وليس للقاضي أن يتصرف فيها ولو اعتقد عدم صحة تطبيقها على تلك الواقعة التي يفصل فيها، لأنها قد وردت بالنص القانوني، ولأنه أثناء النطق بالحكم يتوجب عليه ذكر أن الحكم كان بناء على ما ورد في نص المادة القانونية، لا بناء على قرينة معينة. كما أن المشرع هو

الذي يقرر سلفاً أن بعض الوقائع تعتبر دائماً قرينة على أمور معينة، فلا يشرع للقاضي أن يرى على خلاف ذلك، فمتى ثبتت لديه تلك الوقائع فإنه يتحتم عليه وجوباً استنتاج ما نص عليه القانون. والقرينة القانونية تمثل إعفاء من عبء الإثبات، ذلك أن الشارع يلاحظ أن الوضع الغالب هو تحقق أمر معين، فيفترض ذلك الأمر دون الحاجة إلى إثباته، وهذه القرينة تعتمد على فكرة الاحتمال والرجحان، ويجعل الشارع الأمر المحتمل أمراً ثابتاً¹⁹. وهو ما نص عليه المشرع الجزائري في المادة 337 من القانون المدني على أن: "القرينة القانونية تعفي من تقررت المصلحة عن أية طريقة أخرى للإثبات"²⁰. ومعنى هذا أن القرينة القانونية ليست دليلاً للإثبات بل مهمتها هي الإعفاء من الإثبات Dispense de preuves .

والقرينة بهذا المعنى لا غنى عنها في أي نظام قانوني، لأن القانون لا يستطيع أن ينظم المجتمع تنظيمًا إلا إذا قطع الشك باليقين، والقانون لا يقطع الشك باليقين بطريقة غالباً مع ما هو مألوف أو راجح، فالقرينة القانونية لا تجعل من الشيء غير المحتمل شيئاً صحيحاً بطريقة يقينية، بل هي تجعل من الشيء المحتمل صحيحاً بهذا النص، والمشرع بنصه على هذه القرينة يهدف إلى تحقيق أغراض متعددة ترجع في مجملها إلى تحقيق المصلحة العامة وحماية المصلحة الخاصة، التي اقتضت الظروف التي وجد فيها صاحبها أن يكون محل رعاية من جانب المشرع²¹. والقرينة القانونية تنقسم إلى قسمين، إما أن تكون بسيطة أو قطعية، وقد كان الباعث على هذا التقسيم أن القرينة القانونية تقوم على فكرة ما تقرر رجحان وقوعه بنص عام ومجرد، كما هو معروف من خصائص النص القانوني العموم والتجريد، وأن الأصل العام فيها أنها تقبل إثبات العكس، إلا ما استثناه المشرع من عدم مشروعية نقض القرينة القانونية بدليل عكسي، وبناء على هذا كان قسم منها قطعي والآخر غير قطعي.

1. القرينة القانونية القاطعة:

تسمى القرائن القانونية بالقاطعة أو المطلقة لأن القانون لا يسمح بإثبات ما يخالفها، وذلك لوجود اعتبارات هامة يقدرها المشرع ويحرص على عدم الإخلال بها، حتى يحقق الهدف

من تشريعه المبني على المصلحة العامة. والأساس الذي بناه المشرع في عدم قبوله إثبات العكس في القرينة القاطعة، يتمثل في أنها تتعلق بالنظام العام، وهو إعفاء استثنائي من قاعدة عبء الإثبات المقررة قانوناً. ومن أمثلة هذا النوع مسألة إثبات النسب بالفراش. وعليه فإن القاضي ملزم بالاعتماد عليها حتى ولو كانت مخالفة للحقيقة، إلا أن هذا لا يعني أنها لا تدحض مطلقاً لأنها لا تخلوا أن تكون من وسائل الإثبات.

ومبدأ إثبات أو دحض القرينة القانونية القاطعة بالإقرار واليمين قرره المشرع الفرنسي بمعنى صريح من خلال المادة 1352 من القانون المدني الفرنسي²²، وكذا المشرع العراقي²³، أما المشرع المصري، فقد قال الأستاذ السنهاوري: "إنه يعمل بهذا المبدأ دون نص صريح وقد أنعقد عليه الإجماع، ذلك أن القرينة القاطعة لا تزال دليلاً من أدلة الإثبات وهي لا تعدو أن تكون دليلاً سلبياً فإذا نقضها من تقرر لمصلحته بإقراره أو يمينه فقد دحضها ولم يعد هناك محل لإعفائه من إثبات لم يقبل هو أن يعفي نفسه منه"²⁴.

أما المشرع الجزائري و بالرجوع لأحكام القانون المدني فإنه لا يوجد نص يفيد جواز دحض القرينة القاطعة بالإقرار أو اليمين، لكن بالرجوع لنص المادة 312 من القانون المدني و المتعلقة بالتقادم القصير لحقوق التجار و الصناع عن الأشياء التي وردوها²⁵. والتي أقام فيها المشرع قرينة قاطعة بأن مرور سنة دون المطالبة بهذه الحقوق يفيد أنها دفعت، أي سقوطها بعد مرور هذا الأجل، لكنه في نفس الوقت اعتبرها دليلاً غير كافي بحيث يجب علي من يدعيها أن يحلف اليمين علي أنه ادعي الدين المطالب به فإذا نكل عن أدائها عد ذلك إقرار صريحاً منه علي عدم تسديده لما عليه من ديون، و سقطت قرينة الوفاء المبينة علي مرور السنة، لكن هذا اليمين تتميز بأنها إجبارية للقاضي فعليه توجيهها إلي المدين أو إلي ورثته سواء طلب الدائن ذلك أم لا، كما أنه ملزم بالأخذ بنتيجتها بحيث إذا حلفها المدين كسب دعواه و إذا نكل عنها كان ذلك إقراراً منه بعدم دفعه للدين المطالب بدفعه.

أما فيما يخص القرائن القانونية التي تقررها القوانين العقابية تعتبر كلها من النظام العام، مما يترتب عنه عدم جواز إثبات عكسها، ولو بالإقرار أو اليمين، كقرينة إمتناع المسؤولية الجزائية للصغير الذي لم يبلغ السن القانوني و كذا المجنون والتي تقضي بعدم مشروعية المتابعة الجزائية في حقهما.

2. القرينة القانونية البسيطة:

هي التي تقبل إثبات عكسها، فهي غير قاطعة وهي الأصل في القرائن القانونية، يقيمها المشرع على مجرد الاحتمال المتأرجح بين الصحة والخطأ، ومن ثم يجوز إثبات عكسها لاحتمال أن يكون الخطأ فيها كبير، وهو ما يقضي ببقاء احتمال عدم مطابقة القرينة القانونية لكل المسائل. وتقريراً لما قيل نص المشرع الجزائري على أن للطرف الذي تم التمسك في مواجهته بالقرينة القانونية، إثبات عكسها بدليل آخر، وهو ما ورد في نص المادة 337 من القانون المدني على أنه: "القرينة القانونية تغني من تقررت لمصلحته عن أية طريقة أخرى من طرق الإثبات، على أنه يجوز نقض هذه القرينة بالدليل العكسي مالم يوجد نص يقضي بغير ذلك".

ومن أمثلة ذلك تخلف الشاهد عن الحضور للإدلاء بالشهادة أمام المحكمة بالرغم من التبليغ الرسمي له، فيعتبر قرينة على امتناعه أداء الشهادة حال وجوبها عليه، إلا إذا أثبت بدليل آخر العذر الذي منعه من الحضور. وهو ما أورده المشرع الجزائري في نص المادة 97 من قانون الإجراءات الجزائية على أن: "كل شخص استدعي لسماع شهادته ملزم بالحضور وحلف اليمين وأداء الشهادة... غير أنه إذا حضر فيما بعد وأبدى أعذاراً محقة ومدعمة بما يؤيد صحتها جاز للقاضي إقالته من الغرامة...". وكذا المادة 223 من نفس القانون على أنه: "يجوز للجهة القضائية لدى تخلف شاهد عن الحضور بغير عذر تراه مقبولا ومشروعاً..."²⁶.

ثانياً: القرينة القضائية:

لم يضع المشرع الجزائري تعريفاً للقرينة القضائية، وإنما اكتفى بالإشارة إليها ضمن القاعدة العامة التي تحكم سلطة القاضي الجزائي في تقدير الأدلة، وهو ما ورد في نص المادة

340 من التقنين المدني نص على أنه : "يترك لتقدير القاضي استنباط كل قرينة لم يقررها القانون ولا يجوز الإثبات بهذه القرائن إلا في الأحوال التي يجيز فيها القانون الإثبات بالبينة"، وكذا تمسكا بمبدأ حرية الإثبات الذي سلكه المشرع والذي أورده في نص المادة 212 من قانون الإجراءات الجزائية على أنه : "يجوز إثبات الجرائم بأي طريق من طرق الإثبات ماعدا الأحوال التي ينص فيها القانون على غير ذلك، وللقاضي أن يصدر حكماً تبعاً لإقتناعه الشخصي". وعليه فالقاضي الجزئي يتمتع بسلطة تقديرية واسعة في مجال الإثبات وتقدير الأدلة، له الحرية في اختيار ما يشاء، ويستنتج منها ما وصل إليه تفكيره واقتنع به ضميره.

وقد استقرت أحكام القضاء على اعتبار القرينة القضائية دليلاً كاملاً، يجوز للقاضي بناء عليها أن يستمد اقتناعه الشخصي، مما يعني أن الإدانة يمكن أن تبنى على ما استنبطه القاضي من قرائن²⁷، وهو ما قضت به محكمة النقض المصرية في قرار لها أن : "القرائن من طرق الإثبات الأصلية في المواد الجنائية، فللقاضي أن يعتمد عليها دون غيرها، ولا يصلح الاعتراض على الرأي المستخلص منها مادام سائغاً مقبولاً"²⁸.

وهذا الرأي يستند إلى أن مبدأ الاقتناع الشخصي للقاضي يخول له أن يستند إلى أي دليل يراه مناسباً للواقعة، فلا يوجد دليل يحظر ويمنع على القاضي أن يستمد اقتناعه منه، فإن اقتنع بدلالة قرينة معينة وتوافرت فيها الشروط المطلوبة في الدليل القانوني، فلا سند من القانون لحرمائه من الاعتماد على ما استخلصه، وهي قاعدة مقرر في القانون المدني، كما هو وارد في المادة 340 من القانون المدني الجزائري- السالفة الذكر- وعليه فينبغي تقريرها في الإجراءات الجنائية من باب أولى²⁹.

وسمي هذا النوع من القرائن بالقضائية نسبة إلى القاضي الذي يقوم باستنباطها، وسميت بالقرائن الشخصية، لأنها قد تنصب في بعض الأحيان على واقعة تكونت من صفة في الشخص، وسميت بالقرائن الموضوعية لأنها تنصب على واقعة من وقائع الدعوى، وسميت بالبسيطة لأنها تقبل إثبات عكسها في جميع الأحوال، وسميت بالإقناعية، لأن أمر تقديرها متروك لقناعة

القاضي³⁰. و قضاة الموضوع إذا أخطئوا في تقييم القرينة القضائية أو الدليل الذي يستند إليه لا يشكل مسألة قانونية لذلك فإنها تبقى متروكة لقضاة الموضوع و لا رقابة للمحكمة العليا على ذلك وهذا ما قضت به محكمة النقض المصرية في قرارها الصادر بتاريخ 1966/12/08 جاء فيه: " بأن تقدير القرائن القضائية هو ما يدخل في سلطة قاضي الموضوع و لا رقابة لمحكمة النقض عليه في تقديره لقرينة من شأنها أن تؤدي إلى الدلالة التي استخلصها هو منها فإذا كانت محكمة الموضوع قد أقامت قرينة قضائية بتزوير مخالصة على قرائن مجتمعة، فإنه لا يجوز للطاعن مناقشة كل قرينة على حدة لإثبات عدم كفايتها في ذاتها"³¹.

والقرائن القضائية لا حصر لها، لأن القانون لم ينص عليها أصلا، وهي تتعدد بتعدد الوقائع والأحوال، فوجود بصمة المتهم في مكان الجريمة أو على جثة الشخص المقتول يعتبر قرينة على مساهمته في ارتكاب جريمة القتل، وظهور علامات الغنى فجأة في الشخص الفقير يعتبر قرينة على امتلاكه للمال بطريق غير مشروع سواء كان بطريق النصب أو السرقة وغيرها من جرائم الأموال، كما أن العداوة التي تكون بين الجاني والمجني عليه تعتبر قرينة يمكن للقاضي الاستناد إليها إلى حد ما... وهكذا.

المبحث الثاني: حكم العمل بالقرائن في الفقه الإسلامي:

إن المتتبع لما كتبه فقهاء الشريعة الإسلامية في مسائل الإثبات، يجد بأنهم لم يذكروا القرائن كوسيلة من وسائل الإثبات إلا قليلا، بخلاف ما يتعلق بالإقرار والشهادة، كما أنهم لم يفرّدوا لها باب مستقلا، ولكن جاء ذكرها عرضا في ثنايا الأحكام المتعلقة بالجنايات والمعاملات. وقد اختلف الفقهاء في مشروعية التمسك بالقرائن القضائية كدليل إدانة أو نفي على قولين:

المطلب الأول: مشروعية العمل بالقرائن:

قال بمشروعية العمل بالقرائن صراحة الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم من الحنابلة، وابن الغرس والزليعي وابن عابدين من الحنفية، وابن فرحون وابن جزى وابن الفرس من المالكية، ونص على ذلك جمهور الفقهاء في كتبهم، واستندوا في ذلك إلى أدلة من الكتاب والسنة والمعقول.

الفرع الأول: الأدلة من الكتاب:

استدلوا بقوله تعالى ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ ﴾³². قال الإمام القرطبي رحمه الله: "استدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه، كالقسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة، ولا خلاف بالحكم بها..."³³. وقال الإمام الجصاص رحمه الله: "وهذا يدل على أن الحكم بما يظهر من العلامة في مثله في التكذيب أو التصديق جائز لأنه عليه السلام قطع بأن الذنب لم يأكله بظهور علامة كذبهم"³⁴.

واستدلوا أيضا بقصة يوسف عليه السلام، قال تعالى ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۚ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ ﴾³⁵. قال الإمام الأمين الشنقيطي رحمه الله: "يفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد المتخاصمين، وكذب الآخر، لأن ذكر الله تعالى لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب، لأن كون القميص مشقوقاً من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب عنها، وهي تنوشه من خلفه..."³⁵. وقد اعترض على الاستدلال بهذه الآية والتي قبلها بأنهما شرع من قبلنا، وأنه ليس شرع لنا فليس بحجة، فقد أجاب ابن الفرس الأندلسي على ذلك فقال رحمه الله: "فإن قال قائل إن تلك الشريعة لا تلزمننا. قلنا كل ما أنزله الله تعالى علينا فإنما أنزله لفائدة فيه ومنفعة لنا، قال تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدَهُ ۚ ﴾³⁶. فآيات

يوسف مقتدى بها، معمول عليها، وكان شريح وإياس يعملان على العلامات في الحكومات وأصل ذلك هذه الآية³⁷.

الفرع الثاني: الأدلة من السنة النبوية:

استدل من قال بمشروعية العمل بالقرائن بحديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود عليه السلام، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام، فأخبرتا، فقال: اثنتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى"³⁸. وقد استنبط الإمام النسائي رحمه الله أشياء نفسية كانت بمثابة قواعد فأتى بتفاصيل القصة وترجم لها بما يخدم الموضوع صراحة، فعنون الباب بالفهم في القضاء والتدبير فيه، والحكم بالاستدلال، كم ترجم في سننه فقال: "الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه، إذا تبين للحاكم أن الحق غير ما اعترف به". وترجم ترجمة أخرى فقال: "نقض الحاكم ما حكم به غيره ممن هو مثله، أو أجل منه". وصرح بأن سليمان عليه السلام قال: "هاتوا السكين حتى نقطعه بينهما، قالت إحداهما: بل أدعه لها، قال: وكانت الأخرى رضيت، فقال: لو كان ابنك، لم ترضي أن يقطع، فقضى به للأخرى"³⁹. قال الإمام المازري رحمه الله: "هذا يكون أصلا في استعمال الحكام طرقا من الحيل المباحة في استخراج الحقوق إذا وقع الإشكال. وكأن داود رجح بالكبر فقضى به، وهذا ليس في شرعنا. وأما سليمان فعلم أن الطباع مجبولة على الإشفاق على الولد فأراد اختبار المشفقة عليه ليستدل بذلك على الأم منهما"⁴⁰.

وعن عبد الرحمن بن عوف قال: "بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، نظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار... فغمزني أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم... فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول بين الناس، قلت: ألا إن هذا

صاحبكما الذي سألتما، فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه، فقال: "أيكما قتله؟ قال كل واحد منهما أنا قتلت، فقال: هل مسحتما سيفكما؟ قال: لا. فنظر في السيفين، فقال: كلاكما قتله..."⁴¹. قال ابن بطال رحمه الله: "قال المهلب: ونظره عليه السلام إلى سيفيهما واستدلاله منهما على أيهما قتله، دليل أنه لم يعط السلب إلا لمن أثخنه، وله مزية في قتله، وموضع الاستدلال منه أنه رأى في سيفيهما مبلغ الدم من جانبي السيفين، ومقدار عمق دخولهما في جسم أبي جهل، ولذلك سألهما هل مسحاهما، لأنه لو مسحاهما لتغير مقدار ولوجهما في جسمه"⁴². ففي هذا النموذج استند النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدليل المادي المتمثل في تلوث سيفيهما بالدم في الحكم باشتراكهما في قتل أبي جهل، وإذا كان مجرد تلوث السيف يدل على القتل، فإنه سيكون من باب أولى الاستناد إلى الدليل المادي في ظل ما أتاحه العلم من بحوث علمية في مجال تحديد ماهية آثار الدماء ومدى نسبتها إلى المشتبه فيهم أو المجني عليه، بجانب إمكانية تحديد الأداة المستخدمة في الجريمة، إن لم تكن هي وحدها الدليل على ثبوت ارتكاب الجاني للجريمة، فإنها تكون أيضا مؤكدة أو نافية لوسيلتي الإقرار والشهادة⁴³.

ومنها أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بموجب اللوث⁴⁴ في القسامة⁴⁵، وجوز للمدعين أن يحلفوا خمسين يمينا ويستحقوا دم القتل، في حديث حويصة ومحبيصة⁴⁶، واللوث دليل على القتل، وإن كانت القسامة لا تجب في مذهب مالك إلا مع اللوث، إلا أنه ثبت بان الحديث ذكر فيه العداوة بينهم، وأنه قتل في بلدهم، وليس فيها غير اليهود⁴⁷. قال الإمام المازري رحمه الله معلقا على الحديث: "وعندي أن الأظهر في الجواب أن يقال: قد سلمنا أن القرائن تقوم مقام الشاهد، فقد يكون قام من القرائن ما دل على أن اليهود قتلوه، وإن جهل عين القاتل. ومثل هذا لا يبعد إثباته لوثا وإجراء حكم القسامة فيه"⁴⁸.

ومن تطبيقات القرائن عند الفقهاء، قرينة الحبل من امرأة لا زوج لها:

فقد أخرج الإمام مالك في الموطأ عن ابن عباس قال : "سمعت عمر بن الخطاب يقول: الرجم في كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أُحصن إذا قامت البيّنة أو كان الحبل أو الاعتراف"⁴⁹. قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله : "وأما الحمل الظاهر للمرأة ولا زوج لها يُعلم، فقد اختلف العلماء في ذلك: فقالت طائفة الحبل والاعتراف والبيّنة سواء، في ما يوجب الحد في الزنى، وممن قال بذلك مالك ابن أنس، فيما ذكره عنه ابن عبد الحكم وغيره، وذكره في موطئه، قال: إذا وُجدت المرأة حاملاً فقالت: تزوجت أو استكرهت، لم يُقبل ذلك منها، إلا بالبيّنة، إلا أن تكون جاءت تستغيث وهي تدمي، أو نحو ذلك من فضيحة نفسها، فإن لم يكن ذلك، أقيم عليها الحد، وبه قال عثمان البتي... وقال أبو حنيفة، والشافعي وأصحابهما لا حد عليها، إلا أن تُقر بالزنى، أو يقوم عليها بذلك بيّنة"⁵⁰. وقد اختار شيخ الإسلام ابن تيمية مذهب مالك فقال رحمه الله : "واختلفوا في المرأة إذا وجدت حبلى، ولم يكن لها زوج ولا سيد، ولم تدع شبهة في الحبل، ففيها قولان في مذهب أحمد وغيره، قيل: لا حد عليها، لأنه يجوز أن تكون حبلى مكروهة، أو بتحمل، أو بوطء شبهة، وقيل: تحد، وهذا هو المأثور عن الخلفاء الراشدين، وهو الأشبه بأصول الشريعة، وهو مذهب أهل المدينة، فإن الاحتمالات النادرة لا يلتفت إليها، كاحتمال كذبها، وكذب الشهود"⁵¹. وهو اختيار الإمام ابن القيم قال رحمه الله: "الحكم برجم المرأة إذا ظهر منها حبل، ولا زوج لها ولا سيد، اعتماداً على القرينة الظاهرة، وقال في موضع آخر: وحكم عمر وابن مسعود رضي الله عنهما — ولا يعرف لهما مخالف من الصحابة— بوجوب الحد برائحة الخمر من فيّ الرجل، أو قيئه له"⁵²، اعتماداً على القرينة الظاهرة. وهل القضاء بالنكول إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة، التي علمنا بها، ظاهراً أنه لولا صدق المدعي لدفع المدعى عليه دعواه باليمين؟ فلما نكل عنها كان نكوله قرينة ظاهرة، دالة على صدق المدعي، فقدمت على أصل براءة الذمة، وكثير من القرائن والأمارات أقوى من النكول والحس شاهد بذلك. وبشأن قرينة السرقة، قال: ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون بالقطع إذا وجد المال المسروق مع المتهم، وهذه القرينة أقوى من البيّنة والإقرار. فالشارع

لم يبلغ القرائن ودلائل الأحوال، بل من استقرأ الشرع في مصادره وموارده وجده شاهدا لها بالاعتبار، مرتبا عليها الأحكام⁵³. وقالوا بأن القضاء بالقرائن، إنما هو من قبيل البينات، لحديث: "البينة على المدعي واليمين على من أنكر"⁵⁴. والبينة في الحديث اسم لكل ما يبين الحق ويظهره سواء كان شهادة أو قرار أو قرينة، أم غيرها من وسائل الإثبات المعتمدة، فلا يوجد دليل يُخرج القرائن من مسمى البينة.

الفرع الثالث: شروط القرينة المعتمدة في الإثبات في الفقه الإسلامي:

لقد اشترط الفقهاء في القرينة التي يمكن الاعتماد عليها مجموعة شروط تتمثل فيما يلي:

1. أن يوجد ظاهر ومعروف وثابت ليكون أساسا لاعتماد الاستدلال منه لوجود صفات وعلامات فيه، ولتوافر الأمارات عليه، والأمانة هي العلامة.
2. أن توجد الصلة بين الأمر الظاهر الثابت والقرينة التي أخذت منه في عملية الاستنباط والاستنتاج، وذلك باستخراج المعاني من النصوص والوقائع بالتأمل والتفكير الناشئ عن فرط الذهن وقوة القرينة، وهذه الصلة تختلف من حالة إلى أخرى، ولكن يشترط أن تكون العلاقة قوية بينهما، قائمة على أساس سليم، غير معتمدة على مجرد الوهم والخيال، وبناء على قوة هذه الرابطة وضعفها⁵⁵. وبناء على ما سبق قال فقهاء الشريعة الإسلامية بأن قسم من القرائن يكون قويا والآخر ضعيفا، لأن دلالة القرائن على مدلولاتها تتفاوت في القوة والضعف فتفاوتا كبيرا، فقد تصل في القوة إلى درجة القطع، وتكون القرينة قاطعة، وقد تضعف حتى تنزل دلالتها إلى مجرد الاحتمال⁵⁶. وهذا النوع من القرائن المبني على الاحتمال مستبعد في القضاء لعدم قوته، ولأن القاضي لا يمكنه الاستناد إلى ما هو محتمل.

يمثل الشرط الأول الركن المادي للقرينة التي تتشكل أساسا من ثبوت واقعة معينة، وقيام من تقررت لمصلحته القرينة بإثبات هذه الواقعة، والذي ينتج عنه ثبوت واقعة أخرى استندت إلى الواقعة الأصلية. فشرطها إذن أن تكون هذه الواقعة ثابتة، فإن كانت محتملة وغير ثابتة

بيقين فإنها لا تصلح الاستناد إليها. أما الشرط الثاني المتمثل في الصلة بين الأمر الظاهر الثابت وبين الأمر الخفي هي التي يعبر عنها بالركن المعنوي للقينة.

المطلب الثاني: عدم مشروعية العمل بالقرائن:

استدل من قال بعدم مشروعية العمل بالقرائن بمجموعة أدلة منها ما ثبت في السنة ومنها ما هو بالمعقول.

الفرع الأول: أدلتهم من السنة النبوية:

ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، في المرأة التي لاعن النبي صلى الله عليه وسلم بينها وبين زوجها. فقال رجل لابن عباس: أهي التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو رجمت أحداً بغير بيّنة رجمت هذه؟

" فقال ابن عباس: لا، تلك امرأة كانت تُظهر في الإسلام سوء" ⁵⁷. وفي رواية ابن ماجة: "لو كنت راجما أحدا بغير بيّنة، لرجمت فلانة، فقد ظهر منها الريبة في منطقتها وهيئتها ومن يدخل عليها" ⁵⁸. فقد دل هذا

الحديث على أنه لا يقام الحد بمجرد الشياخ والقرائن، بل لا بد من بيّنة أو اعتراف ⁵⁹. ولو كانت القرائن وسيلة للإثبات لأقام النبي صلى الله عليه وسلم عقوبة الزنا على هذه المرأة، التي ظهرت قرائن تفيد بارتكابها جريمة الزنا، لكن امتنع النبي صلى الله عليه وسلم من إقامة الحد بوجود القرائن، فدل على عدم مشروعية الحكم بها. ولكن أجيب بأن القرائن التي كانت موجودة ضعيفة، والحدود تدرأ بالشبهات ⁶⁰.

كما استدلوأ بحديث أبي هريرة رضي الله عنه، ان النبي صلى الله عليه وسلم جاءه أعرابي فقال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاما أسودا، فقال: "هل لك إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورك؟ قال: نعم. قال: فأنى كان ذلك؟ قال: أراه عرق نزعه، قال: فلعل ابنك هذا نزعه عرق" ⁶¹. وفي رواية لمسلم: "بأن الرجل كان يعرض بأن ينفية، ولم يرخص له في الانتقاء منه" ⁶².

الفرع الثاني: أدلتهم من المعقول:

استدل القائلون بمنع القضاء بقرائن الأحوال من المعقول بأوجه عدة أبرزها ما يلي:

1. أن القرائن قد تكون قوية عند القضاء بها، ثم يظهر بعد ذلك أن الأمر على خلافها. وقد نوقش هذا، بأن القرائن تشارك في ذلك جميع وسائل الإثبات، فقد يرجع المقر عن إقراره، وقد يتبين بعد ذلك بأن الشهود زور، وكلا الحالين لا يؤثر في صحة الإقرار ولا الشهادة⁶³.

2. أن القرائن تفيد الظن، والحكم بها يقتضي اتباع الظن، وقد نهى الشارع الحكيم ذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ

الْحَقِّ شَيْئًا ﴾⁶⁴. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"⁶⁵. وقد نوقش هذا الدليل بأن اتباع الظن المنهي عنه إنما هو في باب العقائد، قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله: "يجوز بناء الأمر على الظن الغالب عند العجز عن درك اليقين، والاعتقاد ليس كذلك لأن اليقين لم يتعذر علينا"⁶⁶. وقال الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله: "ولا فرق بين حقوق الله وحقوق عباده في إثباتها بالظنون، وكذلك إثبات أسبابها وشرائطها وأوقاتها وآجالها وموانعها وأضدادها، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات، والولايات والشهادات، والعقوبات والأبضاع، والدماء والأموال، لتعذر اليقين في ذلك كله، وعزته في أغلب الأحوال"⁶⁷.

3. أن الحكم بالقرائن ذريعة إلى مفسدة عظيمة، وهيمنة القضاء، وفتح الباب على مصراعيه لقضاة السوء، لقضاء مصالحهم، وعليه فلا بد من سد المفسدة بمنع القضاء بالقرائن⁶⁸.

وأجيب بأن ذلك لا يلزم منه وجود مفسدة للنصوص الواردة بذلك، وأن الحكم بالقرائن لا يلزم منه إهمال أدلة الإثبات الأخرى، وإن وجدت فلا حديث عن القرائن حينها، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "القضاء بالقرائن مسألة كبيرة عظيمة النفع، جلييلة القدر، إن أهملها

الحاكم أو الوالي أضاع حقاً كثيراً، وأقام باطلاً كبيراً، وإن توسّع فيها وجعل معوّله عليها دون الأوضاع الشرعية، وقع في أنواع من الظلم والفساد”⁶⁹.

القول الراجح:

يتبين مما سبق ذكره، أن القول الأول الذي يرى بمشروعية القضاء بقرائن الأحوال كوسيلة من وسائل الإثبات الجنائي أولى بالاعتبار لقوة الأدلة التي اعتمدها أصحاب هذا الرأي، ولحاجة الناس إلى مثل ذلك، وإلا ضاعت الحقوق وشاع الفساد، بحرمان القضاء من اللجوء إلى التمسك بالقرائن التي تكون مرجحة في كثير من الأحيان لثبوت التهمة أو نفيها عن المتهم.

إن الحديث عن أدلة الإثبات الجزائية أمام القضاء ذو أهمية عظيمة، ذلك أن الحكم القضائي من دون دليل يستند إليه كالدعم سواء بسواء، فضمانا لحقوق المتهم والضحية معاً، اعتبر التشريع العقابي تسبيب الأحكام الجوهر في مشروعية الحكم القاضي بالإدانة أو البراءة. وقد كان من جملة الأدلة التي يعتمد عليها القضاء، ما يسمى بقرائن الأحوال، فهي من الأهمية بمكان، ذلك أن لها دور هام في بيان مصداقية الأدلة الأخرى، فللقاضي وفق سلطته التقديرية البحث عن القرائن التي تصاحب الأدلة المقدمة أمامه، مما يجعلها أقرب إلى اليقين. فالاعتراف أمامه إن كان لسبب قد اطلع عليه القاضي جاز له أن لا يلتفت إليه أبداً، اعتماداً على قرينة الحل. وقد تبين من خلال البحث أن جمهور الفقهاء متمسكون بمشروعية العمل بالقرائن لاحتياجها كضمان لحقوق الأفراد، وكذا جل التشريعات العقابية، ومنها التشريع الجزائري.

الإحالات:

¹ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1414هـ، 467/6-468. حيث جاء فيه أيضاً "رجل ثبت القدر إذا كان ثابت في قتال أو كلام، وثبت في الأمر والرأي أي تأني فيه ولم يعجل، وأستثبت في أمره أي شاور وفحص عنه. وفي قوله عز وجل "ومثل الذين ينفقون أموالهم إبتغاء مرضاة الله تبتيتا من أنفسهم" وقوله أيضاً "وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك".

² محمد الزحيلي، وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية، مكتبة دار البيان، دمشق، ط 1، 1402هـ، 1982م، ص 22. عبد الرحمن الحممضي، القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، جامعة أم القرى، ط 1، 1409هـ، 1989م، ص 387.

³ محمود نجيب حسني، شرح قانون الإجراءات الجنائية، دار النهضة العربية، القاهرة، 2013، 838/2.
CF . G. STEFANI et G. LAVASSEUR, Procédure Pénal, Dalloz, Paris, 1977, P.87.
4

- ⁵ ابن فارس: أبي الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، دار الجيل، بيروت، ط1، 1411هـ، 1991م، 76/5.
⁶ الرازي: محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، ص 223.
⁷ اليسوعي: لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1970، ص 625.
⁸ الجرجاني: علي بن محمد، التعريفات، دار الفضيلة، القاهرة، (د،ط) (د،ت) ص 146.
⁹ الزرقا، المدخل الفقهي العام في ثوبه الجديد، جامعة دمشق، ط6، 1379هـ، 914/2.
¹⁰ أحمد إبراهيم بك، طرق الإثبات الشرعية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط4، 2003، ص 683.
¹¹ صالح بن غانم السدلان، القرائن وجورها في الإثبات، دار بانسية، الرياض، ط1، (د،ت) ص 14.
¹² وقد وردت صياغة المادة في القانون المدني الفرنسي كالآتي:

Les présomptions sont des conséquences que la loi ou le magistrat tire d'un fait connu à un fait inconnu. Code Civile de France .Edition 05-01-2014- P . 223.

¹³ مرقس سليمان، أصول الإثبات وإجراءاته في المواد في المواد المدنية في القانون المدني المصري، دار الكتاب الحديث، القاهرة، (د،ط) 1991، ص 103.

- ¹⁴ فؤاد عبد المنعم، الدعوى الجنائية في الفقه الإسلامي، المكتب العربي الحديث، الرياض، 2001، ص 114.
¹⁵ محمود نجيب حسني، شرح قانون الإجراءات الجنائية، دار النهضة العربية، القاهرة، 2013، 940/2.
¹⁶ يحيى بكوش - أدلة الإثبات في القانون المدني الزايري والفقه الاسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1988، صفحة 335.

- ¹⁷ أحمد فتحي سرور، الوسيط في قانون الإجراءات الجنائية، دار النهضة العربية، القاهرة، ط4، ص 347.
¹⁸ محمد حسين منصور، الإثبات التقليدي والإلكتروني، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، (د،ط) 2006، ص 156.
¹⁹ محمود نجيب حسني، شرح قانون الإجراءات الجنائية، مرجع سابق، 942/2.
²⁰ الأمر رقم 75-58 المؤرخ في 26 سبتمبر 1975 المتضمن القانون المدني الجزائري، المعدل والمتمم.
²¹ الأزيير جاوي: راند صبار، القرينة ودورها في الإثبات في المسائل الجزائية، جامعة الشرق الأوسط، 2011، ص 22.
²² وقد وردت صياغة المادة كالآتي :

Art 1352 La présomption légale dispense de toute preuve celui au profit duquel elle existe. Nulle preuve n'est admise contre la présomption de la loi, lorsque, sur le fondement de cette présomption, elle annule certains actes ou dénie l'action en justice, à moins qu'elle n'ait réservé la preuve contraire et sauf ce qui sera dit sur le serment et l'aveu judiciaires.

في نص المادة 101 من قانون الإثبات على أنه : " يجوز قبول الإقرار واليمين في نقض القرينة القانونية القاطعة التي لا تقبل إثبات ²³العكس " .

- 24 - الوسيط في شرح القانون المدني، دار إحياء التراث العربي، بيروت. 614/2.
- 25 أنظر نص المادة 312 من القانون المدني، الأمر رقم 75-58 المتضمن القانون المدني.
- 26 الأمر رقم 66-155 المؤرخ في 08 يونيو 1966 المتضمن قانون الإجراءات الجزائية المعدل والمتمم.
- 27 وهذا مما تختلف فيه القرينة عن الأمارات والدلائل، ذلك أن القرينة هي استنتاج القاضي على سبيل الجزم واليقين، ومن ثم ساغ أن تبنى الإدانة عليها، أما الأمانة فهي استنتاج القاضي على سبيل الإحتمال، وهذا التحديد لدلولها ينفي عنها كونها دليل يصلح للإدانة، ذلك أن الإدانة تتطلب دليلا قطعيا على سبيل الجزم واليقين.
- 28 نقض مصري، بتاريخ 26 أفريل 1937، مجموعة القواعد القانونية، رقم 78، 70/4.
- 29 رؤوف عبيد، مبادئ الإجراءات الجنائية، مطبعة نهضة مصر، ط2، 1956، ص 772. محمود نجيب حسني، شرح قانون الإجراءات الجنائية، مرجع سابق، 945/2.
- 30 سليمان مرقس، أصول الإثبات وإجراءاته في المواد المدنية في القانون المصري، دار الجيل، القاهرة، ط4، 1986، ص 84.
- 31 مصطفى مجدي هرجة، قانون الإثبات في المواد المدنية والتجارية، دار الكتاب الحديث، الإسكندرية، 1996، ص 515.
- 32 سورة يوسف، الآية 18.
- 33 القرطبي: أبي عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427هـ، 2006م، 288/11. وانظر أيضا:
- ابن العربي، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1424هـ، 2003م، 41/3.
- 34 الجصاص: أبي بكر الرازي، أحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1412هـ، 1992م، 383/4.
- 35 محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط1، 1426هـ، 82/3.
- 36 سورة الأنعام، الآية 90.
- 37 عبد النعم ابن الفرس، أحكام القرآن، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1427هـ، 2006م، 218/3.
- 38 رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب إذا ادعت المرأة ابنا، رقم 6769، المكتبة السلفية، القاهرة، ط1، 1400هـ، 244/4.
- ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، رقم 1720، دار طيبة، الرياض، ط1، 1427هـ، 2006م، 822/2.
- 39 رواه النسائي، السنن الكبرى، كتاب القضاء، باب الفهم في القضاء والتدبير فيه، والحكم بالاستدلال، رقم 5918، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421هـ، 2001م، 409/5.
- 40 المازري: أبي عبد الله، المعلم بفوائد مسلم، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، 1988، 406/2. /
- 41 رواه البخاري، فرض الخمس، باب من لم يُحْمَسْ الأسلاب، رقم 3141، 400/2، 401. ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتل، رقم 1752، 837/2.
- 42 ابن بطال: أبي الحسين، شرح صحيح البخاري، مكتبة الرشد، الرياض، (د،ط)، 312/5.
- 43 أحمد أبو القاسم، الدليل الجنائي المادي ودوره في إثبات جرائم الحدود والقصاص، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، 1414هـ، 1993م، 235/2.
- 44 اللوث: هو الأمر الذي ليس بالقوي. كالشاهد العدل على القتل يعتبر لوث.
- 45 القسامة هي: حلف خمسين يمينا أو جزئها على إثبات الدم. انظر: الرصاع، شرح حدود ابن عرفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993، ص 626 و 629.

- ⁴⁶ رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب كتاب الحاكم إلى عماله، والقاضي إلى أُمّاته، رقم 7192، 341/4. ومسلم، كتاب القسامة والمخارين، رقم 1669، 792/2.
- ابن فرحون، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، دار عالم الكتب، الرياض، ط خاصة، 1423هـ، 2003م، ⁴⁷102/2.
- ⁴⁸ المازري، المعلم بفوائد مسلم، مرجع سابق، 374/2.
- ⁴⁹ رواه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، باب ماجاء في الرجم، رقم 3520، بيت الأفكار الدولية، بيروت، 2004، ص 497.
- ⁵⁰ ابن عبد البر، الإستذكار، دار فتيبة، دمشق، بيروت، ط1، 1414هـ، 1993م، 64/24، 65.
- ⁵¹ ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، دار الوفاء، المنصورة، ط3، 1426هـ، 2006م، 185/28.
- ⁵² رواه مالك في الموطأ: " أن عمر بن الخطاب خرج فقال: إني وجدت من فلان ريحَ شراب، فزعم أنه شراب الطلاء وأنا سائل عما شرب، فإن كان يُسبكر جلدته، فجلده عمر الحدّ تاماً". كتاب الحدود، باب الحد في الخمر، رقم 3612، ص 510. "
- ⁵³ ابن القيم، الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط1، 1428هـ، ص 13، 27. انظر أيضا:
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار ابن الجوزي، بيروت، ط1، 1423هـ، 348/4.
- ⁵⁴ رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: " الذين يشتركون بعهد الله وأيمانهم"، رقم 4552، 207/3. ومسلم، كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعي، رقم 1711، 818/2.
- ⁵⁵ محمد الزحيلي، وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، 2/ 489، 490. محمد راشد العمر، أصول التحقيق الجنائي، دار النوادر، دمشق، ط1، 1429هـ، 2008م، ص 504.
- ⁵⁶ أحمد فتحي بھنسي، نظرية الإثبات في الفقه الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط5، 1409هـ، 1989م، ص 192.
- ⁵⁷ رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لو كنت راجما بغير بينة، رقم 5310، 415/3. ومسلم، كتاب اللعان، رقم 1497، 698/2.
- رواه ابن ماجة، كتاب الحدود، باب من أظهر الفاحشة، رقم 2559، دار الجليل، بيروت، ط1، 1418هـ، 1998م، ⁵⁸172/4.
- ⁵⁹ النووي: يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ، 130/10.
- ⁶⁰ محمد رأفت عثمان، القضاء بالقرائن في الفقه الإسلامي، مجلة الشريعة والقانون، الإمارات العربية، ع2، 1408هـ، 1998م، ص 54. محمد الزحيلي، وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص 509.
- ⁶¹ رواه البخاري، كتاب الحدود، باب ماجاء في التعريض، رقم 6847، 262/4.
- ⁶² رواه مسلم، في اللعان، رقم 1500، 699/2.
- أنور محمود دبور، القرائن ودورها في الإثبات في الفقه الجنائي الإسلامي، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1405هـ، 1985م، ص ⁶³72.
- ⁶⁴ سورة النجم، الآية 28.

- ⁶⁵ رواه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في المهاجرة، رقم 3367، 5/1333. والبخاري، كتاب الأدب، باب يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، رقم 6066، 4/103. ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس، رقم 2563، 2/1192.
- ⁶⁶ الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، دمشق، ط1، 1401هـ، 1981م، 28/301.
- ⁶⁷ العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في إصلاح الأنام، دار القلم، دمشق، ط1، 1421هـ، 2000م، 2/39.
- ⁶⁸ محمد راشد العمر، أصول التحقيق الجنائي في الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص 524.
- ⁶⁹ ابن القيم، الطرق الحكمية، مرجع سابق، ص 04.

السياسة العامة العالمية و مفهوم الحكم العالمي

Global public policy and the concept of global governance

أ.د. بوريش رياض

جامعة قسنطينة

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/07

Abstract:

He knew the political science major development especially in the field of public policy forms and types. Public policy plays an important role in every institution and within each organization, and is the government doing to develop a comprehensive action plan in order to achieve greater goals, and at a specific time.

Confirms Gel policy definitions as governmental programs of action being developed and implemented for the purpose of bringing about positive changes within the various sectors, in an authoritarian manner peremptory. If this is the case, how possible at the moment to talk about public policy and the global emergence of the concept of global governance?

Key words:

political science- development- public policy- governmental programs- global governance

لقد عرف علم السياسية تطورا كبيرا خاصة في مجال السياسة العامة بأشكالها و أنواعها. فالسياسة العامة تلعب دورا مهما في كل مؤسسة و داخل كل تنظيم، و تعتبر فعل حكومي لوضع خطة عمل شاملة من أجل تحقيق أكبر قدر من الأهداف و في زمن محدد، بذلك فإن السياسة العامة كأسلوب و كطريقة عمل تعتبر الإطار العملي العام لكل دولة، غير أنه توجد أيضا أنواع لهذه السياسة العامة التي ارتبطت نشأتها بنشأة الدولة الفاعلة، لكن هذا لا يستثني وجود سياسة عامة في هيئات و تنظيمات أخرى مثل المنظمات الدولية و المؤسسات العالمية و هذا ما يدفعنا إلى طرح التساؤل التالي: هل هناك سياسة عامة عالمية ؟

تؤكد جل تعريفات السياسة العامة على أنها برامج عمل حكومية تجري بلورتها و تنفيذها لغرض إحداث تعديلات إيجابية داخل مختلف القطاعات، وذلك بطريقة سلطوية آمرة، و عليه فإن الاضطلاع بهذه المسؤولية هو مظهر من مظاهر ممارسة السيادة على مستوى الدول، أما على

صعيد عالمي فهناك غياب سلطة قادرة على إدارة العلاقات الدولية القائمة في الواقع على مبدأ التنافس أو التعاون لتحقيق المصلحة كما تقره أدبيات علم العلاقات الدولية، وإذا كان هذا هو الحال فكيف أمكن في الوقت الراهن الحديث عن سياسة عامة عالمية ونشأة مفهوم الحكم العالمي

1- الأجندة الدولية و بروز مفهوم السياسة العامة العالمية :

أحدثت نهاية الحرب الباردة تحولا في القضايا التي تحظى بالاهتمام عالميا، إذ أدت إلى نسيان القضايا المتعلقة بالصراع الأيديولوجي بين المعسكر الشرقي والغربي، واستحدثت أجندة للسياسة العالمية والتي يمكن تعريفها على أنها مجموع القضايا والمشاكل التي يدور حولها النشاط السياسي العالمي في إطار بحث المجتمع الدولي عن إقامة نظام عالمي جديد ومعالجة التفاوت في الثروة بين الدول المتقدمة والنامية. وفي نظر كل من "براين وايت وريتشارد ليتل و مايكل سميث"¹، فالقضايا والمشاكل المطروحة على الأجندة الدولية تمثل في العادة وجها لمشكلة أو مجموعة مشاكل أكثر ديمومة تواجه السياسة العالمية، فزمة الديون التي طرحت بقوة في الثمانينات وأوائل التسعينيات هي مظهر لمشكلة أعقد وأبعد زمانيا وهي التفاوت في توزيع الثروة بين الشمال والجنوب الذي تسببت فيه الحقبة الاستعمارية التي أفرزت دولا ثرية و متحكمة في النظام الاقتصادي الدولي تديره حسب منفعتها. فالمشاكل والقضايا تؤثر على الأجندة الدولية لأسباب محددة و ليس عشوائية و أبرز ما يتحكم فيها توازنات القوة و المصلحة، فكل قضية تبرز في السياسة العالمية تعبر عن مصالح أطراف معينة و تثير ردود أفعال آخرين، أي أن بروز قضية واكتسابها أهمية على المستوى العالمي يرتبط بمصالح جماعات و مؤسسات و فواعل، وكذا بمدى تأثيرها و قدرتها على الاستمرار في التأثير، فقضية التغير البيئي العالمي برزت بقوة في فترات خصوصا مع اكتشاف ثقب في طبقة الأوزون مع وسائل الإعلام و جماعات مصالح، و توسع الاهتمام بها مع تبني القضية من طرف الحكومات

و المنظمات الدولية، و ساهم هذا في تكوين وعي عالمي بهذه القضية يدعم طرحها على المدى البعيد، فطرح أي قضية مرتبط بحرص و دعم فاعلين على الساحة العالمية باستعمال موارد ووسائل أبرزها الإعلام.²

يهدف أصحاب هذا الطرح³ إلى تقديم دليل تحليلي للقضايا العالمية الرئيسية للعالم المعاصر وإلى الوصول إلى ما وراء وسائل الإعلام المثيرة التي إما أن تبسط القضايا المعقدة أو تفشل في إيجاد الخلفية التي تمكن المشاهد أو القارئ من فهمها فهما تاما. إن الاستنتاج الأولي الذي يمكن التوصل إليه يفيد بأن السياسة العالمية قد طورت إمكانيات أن تصبح سياسة "معولة"، خاصة في ظل نظام عالمي تظل فيه الدول النمط الوحيد للتنظيم السياسي القابل للبقاء. ويجب السعي هنا إلى التسليم بأن قضايا كثيرة قد لعبت دوراً هاماً في تطور السياسة العالمية خلال نهايات القرن العشرين، وبأنها سوف تظل محل اهتمام في القرن الحادي والعشرين. لكن تبقى هناك قضايا عديدة لم تحظ بالتغطية الكافية على الرغم من أهميتها المركزية في السياسة العالمية، فهي إنما تتم معالجتها ضمن مناقشة قضايا أخرى مختلفة قد لا تقل عنها أهمية. في هذا السياق هناك محاولة لإيجاد فهم للقضايا التي هي في صلب الاجندة الدولية المعاصرة، والتي تنبئ بالكثير عن طبيعة السياسة العالمية في بداية القرن الحادي والعشرين. فهناك تأكيد على أننا نعيش في عالم جديد مثير، حيث استمرت المشاكل القديمة تراوح مكانها، وانضمت إليها مجموعة من القضايا الأحدث، ورافق ذلك مشاكل يتنافس الزعماء السياسيون والمواطنون على الاهتمام بها. فهناك معالجة لعدد من القضايا الراهنة المطروحة على الأجندة الدولية و التي تأثرت في بروزها بعوامل أهمها نهاية الحرب الباردة كقضايا البيئة، الجريمة و الفساد، الدين، الاقتصاد، المديونية، الهجرة...، كما هناك تنويه بتداخل هذه الأجندة مع السياسات و البرامج الداخلية للدول.⁴

فمع ظهور مفهوم العولة كظاهرة متعددة الأبعاد سياسية، اقتصادية، اتصالية ومعلوماتية...، انتشرت مفردات و قضايا مرافقة لها، ففي المجال الاقتصادي أصبح هناك حديث عن اقتصاد عالمي مع ظهور المنظمة العالمية للتجارة و توسع دور الشركات المتعددة الجنسيات، و شيوع

التكتلات الاقتصادية، و على المستوى السياسي أصبحت قضايا حقوق الإنسان و التحول الديمقراطي والحكم الراشد في قمة الرواج مع تصاعد دور المنظمات الحكومية و غيرها، وظهر الحديث عن أزمة الدولة القومية و انكماش مفهوم السيادة، و على المستوى الاتصالي أصبح الحديث عن عالم شبيه بقرية صغيرة عديم الحدود كثمرة للثورة التقنية و المعلوماتية، هذه التغيرات ساهمت في صعود قضايا مواكبة لهذه التغيرات العالمية، كما أدت إلى طغيان البعد الخارجي على الداخلي حيث أصبحت قضايا ذات اهتمام عالمي تحتل أجندة السياسات العامة للدول المختلفة مثل قضايا البيئة ، الإصلاحات الاقتصادية و الخصخصة، برامج إعادة الهيكلة، حقوق الإنسان، إدارة شؤون الدولة و المجتمع ... ، و بروز هذه القضايا المتداولة على نطاق عالمي أدى إلى ظهور ما يسمى بالسياسات العامة العالمية "International Public Policy".

وفي هذا الإطار تقدم سلوى شعراوي جمعة عاملين أساسيين لبروز السياسات العامة العالمية⁵:

1. الدور المتعاظم الذي لعبته مؤتمرات الأمم المتحدة، على سبيل المثال وضع مؤتمر قمة الأرض "بريوديجانيرو" بالبرازيل سنة 1992 قضايا البيئة على سلم الاهتمام الدولي والعالمي، كما أضاف مؤتمر المرأة العالمي في بكين سنة 1995 قضايا المرأة إلى "الأجندات" الحكومية، أما مؤتمر الأمم المتحدة للسكان و التنمية المنعقد بالقاهرة في 1994 فاستحدث قضية الصحة الإنجابية على أجندة الدول.

2. الدعم المادي والمالي المقدم من الدول و المنظمات مقابل تدخلها في توجيه السياسات الداخلية، حيث تظهر الدراسات تأثر السياسات المتعلقة بالاقتصاد بالطفل و الأمومة بوضوح ببرامج صندوق النقد الدولي، البنك العالمي، منظمة الصحة العالمية، اليونيسيف، و هيئات دولية. فالمرور المالي عامل ضاغط بفاعلية في تحديد الأولويات السياسية بجانب الدفع العمومي أو المجتمعي لصاحب القرار نحو التعامل مع قضية أو مشكلة تحظى بالاهتمام.

ما يمكن استخلاصه مما سبق أن بروز فواعل مؤثرة فوق الدول توفرت لها إمكانية ذلك بعد نهاية الحرب الباردة، بالإضافة إلى بروز قضايا سياسية و اقتصادية و اتصالية ذات اهتمام واسع

النطاق، تشترك في التأثير بها و التأثير عليها فواعل بارزة على المستوى الدولي، كل هذا شكل اللبنة و الأساس لظهور ما يعرف بالسياسة العامة العالمية.

2 - السياسة العامة العالمية: المستوى العقيم في السياسة العامة⁶؟

إن تقصي الواقع العالمي والدولي، والرؤية لما يجري على صعيد السياسة والعلاقة بين الدول وبين المنظمات الدولية، وبين أساليب حلول الأزمات والمشكلات الكبرى يجعل حسب فهمي خليفة الفهداوي⁷ انه هناك مستوى عقيم للسياسة العامة، وهذا المستوى لا يتوافق مع المستويات الثلاثة للسياسة العامة (السياسة الكلية التقليدية، السياسة الجزئية الكلية المتداخلة والسياسة الجزئية) من حيث أنها تمثل مستويات داخلية (داخل الدولة الواحدة وضمن حدودها وسيادتها الشرعية)، في حين أن هذا "المستوى العقيم" يمثل مستوى خارجيا ومفروضا، مختلفا عن طبيعة المستويات الأخرى للسياسة العامة، أملت المعطيات الراهنة على الواقع السياسي والاجتماعي دوليا ووطنيا، كنتيجة استحدثتها مفارقات القوة والهيمنة.

وعليه ينظر فهمي خليفة الفهداوي إلى هذا المستوى على انه قائم على اللاتوازن وعلى حالة التبعية، وأن آلياته تكمن في مظاهر الشرعية من حيث الشكل لفرض تغطية النوازع الجوهرية الفاقدة لأصولها القانونية، وبالتالي خصائصه مرتبطة بأخلاقيات الهيمنة وبسط النفوذ الأحادي الجانب. وحسب المؤلف فان السياسة العامة العالمية تفقد جدواها وتخرج عن كونها تسعى إلى إيجاد فرص التعايش والقدرة على التعاون إزاء حل القضايا والمشكلات الدولية، حينما يتم استبعاد إرادة بعض الدول الراضة لمنطق الهيمنة برغم علاقاتها مع تلك القضايا و بمستقبل حلها ومعالجتها. وإذا كان هناك اليوم ما يعرف بالسياسة العامة العالمية، فربما النقد السياسي لم يتطرق إلى هذا المستوى العالمي من السياسة العامة كمعطيات تفضيلية وتقويمية، وإنما كمستوى قائم في إطار التعريف به وبيان ضرورته في الاعتمادية وسعة المشكلات و القضايا العابرة

للحدود الإقليمية والوطنية التي استدعت وجوده في الحياة المعاصرة للشعوب والأمم والدول دون الغوص في أبعاد الهيمنة والقوة الأحادية، والمعايير المزدوجة في الأحكام، والعقدة الاستحواذية⁸.

فحينما يتم تحليل السياسة العامة بطريقة علمية نزيهة سوف يتم التوصل إلى أن مستوى السياسة العامة العالمية في ظل أوضاعه الحالية هو مستوى عقيم، غير عادل وغير خادم للمصالح العامة. ولأجل التأكيد على وجود هذا المستوى الذي يتجلى في الجانب الخفي والوجه السلبي لبعض السياسات العالمية، يقدم فهمي خليفة الفهداوي الحجج التي تدلل على ذلك العقم، مثلما عبرت عنه حالات الدول التي وجدت نفسها مجبرة على التعامل مع هذه السياسات العامة العالمية، من جراء أزمات وقضايا عصفت بها⁹:

- أن السياسة العامة هي ما تفعله الحكومة وما لا تفعله ضمن بيئتها ومجتمعها، وليس هي خيارات قادمة من وراء القارات والحدود. مما يعد ذلك أول خرق فاضح لمفهوم السياسة العامة.

- أن السياسة العامة المتخذة في أي مكان أو حكومة، مرتبطة بدراسات جدوى ويفترض أن تفضي إلى تنمية مقصودة أو إحلال تطويرات من حيث تزايد الرفاهية، ومستوى السياسة العامة العالمية لم يحقق هذه الأهداف الخاصة بالتنمية لمجتمعات الدول المعنية المتعاملة مع هذا المستوى.

- أن السياسة العامة هي تجسيد للمطالب المجتمعية التي يتقدم بها أبناء المجتمع نحو حكومتهم لإيجاد حلول لها، وهذا الشرط مقتقد في آلية السياسة العامة العالمية حيال المجتمعات والدول المتعاملة معها.

- أن السياسة العامة العالمية المتخذة إزاء الدول أغفلت القيم الخاصة لمجتمعاتها. فلم تلبى حاجاتها الحقيقية ولا أبعاد قيمها الاجتماعية وعقيدتها الروحية.

- أن مستويات السياسة العامة تمثل مستويات داخلية لأية دولة قائمة، مما يجعل من مستوى السياسة العامة العالمية عالة وعبئ على المستويات الداخلية.

-أن نجاح السياسة العامة يستند إلى كونها متضمنة للمستويات الكلية والجزئية والفرعية، والسياسات العامة العالمية فوتت فرصة تفعيل تلك المستويات الداخلية للدول المعنية.

-أن تلك السياسات العامة العالمية المتخذة عبرت عن تناقضها، بين الصنع والقرار وبين التنفيذ أو التطبيق، أي أنها انحصرت في تنفيذ السياسات العامة المقتصرة على تأدية الخدمات المنتقصة.

وبالتالي فإن هذا كله يجعل من السياسة العامة العالمية استحصادية للقيم المفروض أن توزعها. فهذا التحليل النقدي للسياسة العامة العالمية يبين اتساع القضايا و المشكلات العابرة للحدود الإقليمية و الوطنية التي استدعت و جود هذا النوع من السياسات في الحياة المعاصرة للشعوب و الدول دون الغوص في أبعاد الهيمنة و المصلحة و ازدواجية المعايير و مع ذلك فلا نقاش حول تأثير هذه السياسات في الواقع الداخلي للدول¹⁰.

3 - تأثير السياسات العالمية على السياسات العامة للدول :

إن عدم قدرة معظم الدول على تحقيق توازنها في مختلف المجالات و ضرورة اعتمادها على بعضها البعض يجعل السياسات العامة المتخذة في إطار الدولة الواحدة¹¹ تتأثر بالمتغيرات الخارجية خصوصا مع تضاعف القضايا و المشكلات التي تحتم تضافر جهود مختلف الدول كقضايا الاقتصاد والهجرة و الإرهاب و غيرها، بل إنّه في فترة ما بعد الحرب الباردة شهدنا توجيها مباشرا للسياسات الداخلية للدول النامية في المجالات الاقتصادية و ضغطا لإحداث إصلاحات سياسية بها. فمنطلق الاعتمادية يتجلى من خلال منطلقين هامين : منطلق الأمن القومي الذي يحتم التنسيق والاعتمادية لحماية الدولة في حد ذاتها من الاعتداءات و المخاطر، و حماية مصالحها في الخارج، و منطلق الاقتصاد الذي يؤكد على أن كل الدول تحتاج إلى غيرها لتأمين احتياجاتها و هذه الاعتمادية عززتها المنظمات التي وجدت لتنظيمها كمنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي و البنك العالمي¹².

بالإضافة للمنطلقات المعززة للاعتمادية فإن هناك قضايا باتت تطرح بقوة و مؤثرة على الساحة الدولية و من بينها :

- اللبرالية الجديدة القائمة على دعم اقتصاد السوق، الديمقراطية السياسية و حقوق الإنسان، و التأكيد على عمليات الخصخصة و تقليص دور الدولة.
- التنمية المستدامة التي تقوم على معايير أوسع لتحديد مفهوم تنمية اقتصادية و اجتماعية خصوصا و بيئية مع مراعاة حقوق الأجيال.
- حماية البيئة لصيانة مستقبل البشرية وهو رهان لا يمكن مواجهته إلا في إطار عالمي عبر التعاون.

- العولمة التي تقوم على تجاوز الحدود و الحواجز التنظيمية المتخذة من قبل الدول، وتقوم كذلك على توظيف التقنيات الحديثة لتحقيق أغراض متعلقة بالاقتصاد السياسي، و لها بعد أيديولوجي ينبع من الفكر الغربي و يركز على التقدم التكنولوجي في الإعلام و الاتصال في محاولة لتنميط العالم ثقافيا وسياسيا واقتصاديا .

- الحكم الراشد الذي يعبر عن نمط و طريقة مثلى في تسيير شؤون المجتمع و موارده عبر تفعيل مفاهيم و مبادئ الشفافية، المسؤولية، حكم القانون، و المشاركة لمحاربة الفساد و إشاعة الديمقراطية و التمكين من حقوق الإنسان.

كل ذلك يؤكد تأثير الأجنداث العالمية على السياسات الوطنية و توجيهها أحيانا في ميادين حساسة، و منطق الهيمنة الذي يميزها لا يجعلنا نصف هذا المستوى من السياسة بالعمق بالنظر إلى تأثيره، و هو منطق مخالف للمنطق الذي يطلق هذه الصفة - مستوى العمق - على هذه السياسات لقيامها على اللاتوازن و التبعية عديمة الشرعية، و الجدوى لاستبعادها إرادة الدول و الشعوب المعنية بها.

ما يمكن قوله كذلك أن عدم الاستقرار في النظام الدولي يؤثر بصفة مستمرة على مدخلات

و مخرجات السياسة العامة العالمية، كما يؤثر أيضا على المنظمات الدولية التي تنظم أعمالها في الغالب نحو سياسات عامة اقتصادية، سياسات عامة تنموية، و سياسات عامة في مجال المتغير الأمني والاجتماعي و الثقافي. غير أن جانب الحكم العالمي يجب أن يحظى بكم أكبر من الاهتمام، كما يلقي أكبر قدر من الصعوبات بسبب تداخل المصالح و المنافع.

4 - السياسة العامة العالمية والحكم العالمي:

إن العولة خلقت قضايا ومشكلات يتعدى تأثيرها نطاق الدولة الواحدة، فحلها يستدعي التنسيق و التكامل بين مختلف الفواعل الدول و غير الدول، و السياسة العامة العالمية تهتم بمعالجة هذه القضايا و حل هذه المشكلات، و لما كانت هذه الشؤون عالمية يتعدى تأثيرها الدولة، فقد ظهر الحديث إلى جانب السياسة العامة العالمية عن الحكم العالمي و الذي يمكن اعتباره كإستراتيجية لتخفيض حدة مصطلح العولة، وهناك من يرى أن هذا المفهوم جاء لأجل تسيير عجز الدول عن مواجهة العولة الاقتصادية، حيث أن تزايد الاعتماد المتبادل كان له دور أساسي في تحول العلاقات من دولية إلى كونية. فمفهوم الحكم العالمي يشير إلى تشابك الفواعل الدولية التي تحدد المصالح، الحقوق، و الواجبات، و تحل الخلافات على المستوى العالمي¹³.

من هذا التحليل تتبين علاقة الصلة بين مفهوم السياسة العامة العالمية و الحكم العالمي، فهي إفراز لهذا الحكم و نتيجته لا يمكن الحديث عنها دون، و إن كان هذا الطرح في قمة التناؤل و الطوباوية، لأن الواقع يظهر أن توازنات القوة و المصلحة هي العامل المحدد في توجيه السياسات العالمية، وهذا الواقع يبرز بشكل جلي على المستوى البنائي لتنظيمات الحكم العالمي و بالتأكيد الإجرائي، فحق الفيتو يعطي الكلمة الأعلى للأقوياء في القضايا السياسية، و كذلك تتسبب هذه القوى على القرار الاقتصادي بفضل نفوذها داخل المنظمات الاقتصادية التي هي بعيدة من حيث الممارسة عن الديمقراطية حسب جوزيف ستيجليز (Joseph Stiglitz)¹⁴.

انعكاسا للتحويلات المجتمعية المعاصرة على صعيد الساحة الدولية، في مختلف أبعادها ومستوياتها السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، الدينية والحضارية، اتضح قصور آلية

الدولة-الأمة والمنظمات الحكومية في التكيف البناء مع متطلبات المجتمع المستجدة. اتجهت جهود التنظير مع بداية الثمانينيات نحو إيجاد أدوات وآليات من شأنها تغطية عجز هذه الفواعل التقليدية، حيث أخذت المؤسسات المالية العالمية المبادرة في طرح "الحكم العالمي" الرشيد كمفهوم يتبنى الربط بين جودة وفعالية وأسلوب إدارة شؤون الدولة والمجتمع، والتأكيد على أن المفهوم يذهب إلى أبعد من ذلك ليتضمن إشكاليات تفعيل المسار الديمقراطي خاصة في تلك الدول المعنية ببرامج التصحيح وإعادة الهيكلة لاقتصادياتها. مما جعل هذا المفهوم الجديد يتموقع ضمن الطرح "النيوليبرالي" في السياسات التنموية. تجد هذه التحولات على صعيد السياسة العامة العالمية مبررها الأساسي في عاملين: يتجلى الأول في نهاية الحرب الباردة وما أفرزته من موجة عدم الاستقرار الشامل ومس كافة الأصعدة بمستوياتها الأفقية والعمودية. أما العامل الثاني فلا يعدو كونه انعكاسا للأول حيث يرصد حركية الاقتصاد العالمي الذي أضحي محكوما بمسارات العولة بمختلف أبعادها التجارية، المالية والمعلوماتية. وقد فرض هذان المتغيران على مختلف الدول والأطراف الدولية تبني خيار الاندماج والتكامل الإقليمي، وهو ما نجحت في تحقيقه التجربة الأوروبية نسبيا وبتحفظ في إطار منظمة التعاون والتنمية في أوروبا (OCDE) في الوقت الذي بقيت فيه نماذج أخرى أسيرة التفكك السياسي والاجتماعي.¹⁵

شكلت مجموع هذه المؤشرات البيئة التي دفعت بالحكومات إلى ضرورة إعادة النظر في أجندتها السياسية، خاصة على صعيد الآليات والميكانيزمات، بهدف احتواء الخصوصية المعقدة للمجتمعات المعاصرة والتي تلخص أهم سماتها فيما يلي: ظهور الأنظمة الفرعية المفككة و اللامتجانسة، أزمات التمثيل والمشاركة السياسية، تراجع شرعية الأنظمة الحاكمة،... وغيرها هي كلها مؤشرات تحتم على مختلف الأطراف تبني رؤية تقوم على توحيد الجهود بهدف التصدي للتحديات والانشغالات الجديدة على المستوى العالمي.¹⁶

ونتاجا للأزمات التي تثيرها مسألة الحكم على المستوى عبر الوطني، طورت العديد من البحوث التي تصب في إطار مفهوم الحكم العالمي في شقه التكنوقراطي الإداري، الأمر الذي جعله

محل انتقاد شديد من قبل أولئك الذين يتبنون نظرة أكثر توسعية لتنمية المفهوم، بشكل يشمل رهانات السلطة الجديدة والإصلاحات التي تشهدها المؤسسات الدولية، وهو ما يحاول التركيز عليه الآن عالميا. حيث تم تسليط الضوء على معنى الحكم العالمي أو " الرشادة العالمية أو الشاملة"، من خلال جملة من البحوث الأكاديمية التي تندرج ضمن إطار دراسات الأنظمة والمؤسسات الدولية، والتي يمكن تصنيفها ضمن إحدى الفئتين: إما التفكير من وجهة نظر تحليلية حول النظام العالمي المعاصر أو القائم، وإما التفكير المعياري والقيمي حول نظام الحكم العالمي أو نظام "الرشادة العالمية" الذي هو قيد التشكل والبناء¹⁷.

طرحنا الدوائر السياسية العالمية و الأكاديمية مفاهيم جديدة متمثلة في السياسة العامة العالمية و الحكم العالمي. فأحدثت نهاية الحرب الباردة تحولا في القضايا العالمية، إذ ظهرت أجندة للسياسة العامة العالمية والتي تتطلب تدخلات عالمية، في إطار ما يسمى بالحكم العالمي الذي يحاول فرض و إظهار مبادئ و إجراءات جديدة للتنظيم الدولي. و من العوامل الأساسية التي أدت إلى بروز السياسة العامة العالمية الدور المتعاظم الذي لعبته المنظمات والمؤسسات الدولية، والدعم المادي والمالي المقدم من الدول و المنظمات مقابل تدخلها في توجيه السياسات الداخلية لدول أخرى. فتأثير السياسة العامة العالمية على هذه السياسات الداخلية في ميادين حساسة و بمنطق الهيمنة الذي يميزها يجعلنا نصف هذا المستوى من السياسة بالعالمي/الداخلي.

وتحاول المقاربة النظرية الخاصة بمفهوم الحكم العالمي رصد الدور المتنامي للفواعل خارج الإطار التقليدي سواء كانت دولا أو منظمات دولية حكومية، تأتي في مقدمتها المنظمات غير الحكومية، جماعات الضغط الوطنية والدولية، النقابات العمالية، الحركات الاجتماعية والشركات العابرة للقارات التي غدت الآلية المحركة لتفاعلات المجتمع الدولي، هادفة إلى إضفاء الطابع المؤسسي على المجتمع الدولي. هذا المفهوم جاء لأجل تسيير عجز الدول عن مواجهة العولمة الاقتصادية في إطار تحول العلاقات من دولية إلى عالمية. فمفهوم الحكم العالمي يؤكد على تشابك الفواعل الدولية و حل الخلافات على المستوى العالمي.

من خلال العلاقة الموجودة بين مفهوم السياسة العامة العالمية و الحكم العالمي، يتبين بأن توازنات القوة و المصلحة هي المحدد الأساسي في توجيه السياسات العامة العالمية و إبراز الجانب الإجرائي لتنظيمات الحكم العالمي، فالمتغير الخارجي أصبح يتسيد في بعض الأحيان على القرار السياسي و الاقتصادي بطريقة بعيدة من حيث الممارسة عن "الديمقراطية الاجتماعية و الإنسانية".

المراجع:

- ¹ برايان وايت ، ريتشارد ليتل ، مايكل سميث : قضايا في السياسة العالمية ، ترجمة و نشر مركز الخليج للأبحاث، الإمارات العربية المتحدة ، 2004.
- ² نفس المرجع ، ص 1-18.
- ³ نفس المرجع ، ص 1-18.
- ⁴ نفس المرجع ، ص 18 .
- ⁵ سلوى شعراوي جمعة : "تحليل السياسات العامة في القرن الحادي والعشرين" ، علي الدين هلال و آخرون ، تحرير سلوى شعراوي جمعة : تحليل السياسات العامة في الوطن العربي ، مركز دراسات و استشارات الإدارة العامة ، القاهرة ، 2004 .
- ⁶ فهمي خليفة الفهداوي، السياسة العامة منظور كلي في البنية و التحليل، دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة 2001.
- ⁷ نفس المرجع ، ص 62.
- ⁸ نفس المرجع ، ص 63 .
- ⁹ نفس المرجع ، ص 65 .
- ¹⁰ نفس المرجع السابق، ص 66 .
- ¹¹ نفس المرجع السابق.
- ¹² أرجع إلى : عامر مصباح، النظرية المعاصرة في تحليل العلاقات الدولية ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006.
- ¹³ نفس المرجع ، ص 133.
- ¹⁴ Joseph Stieglitz, la gouvernance mondiale est-elle au service de l'intérêt général global ? : www.ofce.sciences-po.fr/pdf/ebook/ebook311.pdf
- ¹⁵ عامر مصباح، مرجع سابق، ص 134.
- ¹⁶ نفس المرجع ، ص 135.
- ¹⁷ نفس المرجع ، ص 136-138.

الحماية القانونية للمشتري في عقد البيع على التصاميم

Legal protection for the buyer to sell the designs held

دبار محمد أمين

طالب دكتوراه جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/07

Abstract :

The contractual obligations and legal guarantees constitute the face of legal protection approved by the Algerian legislature in favor of the buyer in the contract of sale based on designs by the fact that this type of contract was organized under the legislative texts and special legal.

Among the most important contractual obligations in the context of real estate transactions in the upgrade, which rests with the upgraded mortgage is a commitment to the transfer of ownership and according to the procedures and forms prescribed by law in the ownership of the property transfer. And the impact of the most important consequences of the contract of sale is that the buyer becomes the owner of the thing Sales, in the sense that the seller is obliged to transfer ownership to the buyer Sales.

Key words :

Legal protection- designs held- legislative-

إن الالتزامات التعاقدية و الضمانات القانونية تشكل وجه الحماية القانونية التي أقرها المشرع الجزائري لصالح المشتري في عقد البيع بناء على التصاميم بحكم أن هذا النوع من العقود تم تنظيمه بموجب نصوص تشريعية و قانونية خاصة . و قد هذا ما تجسد من خلال نموذج عقد البيع بناء على التصاميم الملحق بموجب المرسوم التنفيذي رقم 94-58 إضافة إلى القانون رقم 90-29 المؤرخ في 01-12-1990 المتمم بموجب الأمر رقم 04-05 المؤرخ في 14-08-2004 المتضمن قانون التهيئة العقارية و كذا القانون رقم 11-04 المؤرخ في 17-02-2011 الذي يحدد القواعد التي تنظم نشاط الترقية العقارية . فما هي أهم المجالات التي تجب فيها حماية المشتري في عقد البيع بناء على التصاميم ؟ و ما مدى كفاية وسائل الحماية المقررة ؟

نلمس من خلال هذا الكم من النصوص القانونية و التشريعية إرادة المشرع من جهة في استحداث منظومة قانونية خاصة بالمعاملات العقارية - نشاط الترقية العقارية - تتقلص من خلالها حرية الأطراف المتعاقدة في إنشاء التزامات تعاقدية عن طريق التقيد بنموذج موجه للعقود على غرار نموذجي عقدي حفظ الحق و البيع على التصاميم ، و من جهة أخرى حماية مصلحة المشتري الحلقة الضعيفة في العلاقة التعاقدية من الضرر الذي قد يلحق به نتيجة إخلال المرقى العقاري بالتزاماته التعاقدية أو تعسفه في استعمال حقه.

* الضمانات و الالتزامات التعاقدية.

هذه الالتزامات التعاقدية خاصة بالبيع العقاري مصدرها العقد و هي نتيجة عن طبيعة الالتزام الناتج عن المعاملات في إطار الترقية العقارية و بما أن عقد البيع بناء على التصاميم هو عقد ملزم لجانبيين فالضمانات و الالتزامات تكون متقابلة ، و بما أننا بصدد الحديث عن الحماية القانونية للمشتري لا بد من دراسة أهم التزامات البائع و الضمانات القانونية الناشئة عن هذا العقد و ذلك عن النحو التالي :

1-الالتزام بضمان نقل الملكية:

من بين أهم الالتزامات التعاقدية المترتبة على المعاملات في إطار الترقية العقارية و التي تقع على عاتق المرقى العقاري هو الالتزام بنقل الملكية وفقا للإجراءات و الأشكال المنصوص عليها قانونا في نقل ملكية العقار . و أهم أثر يترتب على عقد البيع هو أن يصبح المشتري مالكا للشيء المبيع ، بمعنى أن البائع ملزم بنقل ملكية المبيع إلى المشتري ، و بيع العقار بناء على التصاميم تسري عليه أحكام نقل الملكية العقارية الواردة في القانون المدني و القوانين الخاصة و كذلك الأحكام المنصوص عليها في المرسوم 03/93.

مع مراعاة الاختلاف الوارد في طريقة انتقال ملكية العقار في هذا النوع من البيع ما إذا كانت تتم دفعة واحدة أو عبر مراحل أو تنتقل بعد الإنجاز و لكن ترد بأثر رجعي لوقت إبرام العقد.

و المادة 1/2 من المرسوم التنفيذي 58/94 المتعلق بنموذج عقد البيع بناء على التصاميم تنص على أنه " عملا بأحكام المادتين 09 و12 من المرسوم التشريعي 03/93 يكون المشتري مالكا للبناء المباعة الآن ، بناء على التصاميم و ابتداء من تاريخ التوقيع و يخول له بذلك التمتع بها بمجرد انتهائها و التوقيع على محضر التسليم الذي يحرر أمام الموثق . و لكن ترتيب هذا الأثر القانوني مبني على افتراض توافر الشروط المقررة في المادتين 9 و 12 من المرسوم التشريعي رقم 03/93 ، وعلى التزام المرقى العقاري بالوفاء بالتزاماته على أحسن وجه و في الوقت المحدد و لكن المشكل المطروح هو أن المرقى العقاري غالبا ما يحصل على الأرض المخصصة للبناء من الجهات الإدارية العامة بموجب تراخيص إدارية التي غالبا ما تكون مؤقتة ، فهو لا يمتلك هذه الأرض بصفة قانونية من أول يوم حتى يحولها للمستفيدين لاحقا و قد يشرع في البيع و الإنجاز أو ينتهي من التشييد و يتسلم المستفيدون عقاراتهم دون أن تسوى الإجراءات الرسمية الخاصة بانتقال الملكية و حينئذ لا يعقل الكلام عن ملكية المشتري للبناء دون ملكية الأرض. و هذا المشكل أفرز عدة عقبات في طريق انتقال الملكية للمشتري و معالجته تشكل ضمان من الضمانات المقررة لفائدته.¹

إن الالتزام بنقل الملكية في عقد البيع بشكل عام هو الالتزام بأخذ كل ما هو لازم لنقل ملكية الحق المبيع إلى المشتري و الامتناع عن كل عمل من شأنه أن يجعل نقل الحق عسيرا أو مستحيلا² و هذا ما نصت عليه المادة 361 من القانون المدني " يلتزم البائع أن يقوم بما هو لازم لنقل الحق المبيع إلى المشتري و أن يمتنع عن كل عمل من شأنه أن يجعل نقل الحق عسيرا أو مستحيلا " .

ولكن في عقد البيع بناء على التصاميم و نظرا لطبيعته القانونية هناك استحالة نقل ملكية العقار لدى يلتزم البائع بمواصلة إنجاز أشغال البناء و مطابقتها لما تم الاتفاق عليه و هذا ما نص عليه المشرع في المادة الثانية من المرسوم التنفيذي 58-94 لدى يجب الالتزام بإتمام الإنجاز و مواصلته في أجل المتفق عليه حماية للمشتري من التأخر في الإنجاز و شهادة المطابقة

هي التي تثبت انتهاء الأشغال طبقا للمقاييس المدرجة في رخصة البناء طبقا للقانون رقم 90-29 المتضمن التهيئة العقارية لأن ضمان نقل ملكية الشيء المبيع مرتبط بضمان المرقى العقاري بإنجاز البناء وهو الالتزام الجوهرى في عقد البيع بناء على التصاميم وبدون إنجاز البناء يصبح تنفيذ الالتزام مستحيل لدى ألزم المشرع المرقى العقاري بإبرام عقد حفظ الحق و انتقال الملكية في هذه الحالة تأتي على مرحلتين :

1- مرحلة التوقيع على العقد و هي مرحلة يتم نقل ملكية الرقبة فقط و تشمل الأرض و البناء محل التشييد.

2- مرحلة ما بعد إتمام الإنجاز و دفع القسط الأخير من الثمن و تحرير محضر التسليم و الهدف منه إثبات الحياة المادية للعقار محل الإنجاز المشهر الذي يخول للمشتري باقى الحقوق أو حق الانتفاع و الملكية خلافا للقواعد العامة المنصوص عليها في القانون المدني الذي يكون فيه نقل الملكية دفعة واحدة .

2- الالتزام بتسليم العقار:

هذا الضمان المرتبط بتسليم العقار منصوص عليه في الأحكام العامة للالتزامات المتعلقة بالبيع و معناه القانونى الإجرائى الذى يمكن المشتري من مباشرة سلطاته و الانتفاع و التصرف بالشيء المبيع دون أى عائق و لقد نصت عليه المادة 367 من القانون المدني " يتم التسليم بوضع المبيع تحت تصرف المشتري بحيث يتمكن من حيازته و الانتفاع به دون عائق و لو لم يتسلمه تسلم ما دامت البائع قد أخبره بأنه مستعد لتسليمه بذلك و يحصل التسليم على النحو الذى يتفق مع طبيعة الشيء المبيع " .

و بما أن التسليم المادى فى عقد البيع بناء على التصاميم مستحيل نظرا لطبيعته القانونية فإنه يأخذ شكل قيام البائع بتسليم البناية المنجزة و المطابقة للتصاميم و المواصفات المحددة بالاتفاق فى العقد لدى ألزم المشرع المتعامل فى الترقية العقارية من تسليم شهادة المطابقة قبل إتمام حيازة الملكية من طرف المشتري و هذا قصد ضمان تطابق الأعمال المنجزة مع ما اتفق عليه فى

العقد و يحزر محضر يثبت حيازة الملكية من المشتري و تسليم البناية التي أنجزها المرقى العقاري وفق الالتزامات التعاقدية بحضور طرفى العقد أمام الموثق لإبرام عقد البيع بناء على التصاميم و يشترط لتسليم عقد البيع بناء على التصاميم :

- 1- إتمام الإنجاز خلال الأجل المحدد فى العقد .
- 2- مطابقة الإنجاز لرخصة البناء المثبتة بواسطة شهادة المطابقة .
- 3- وجوب استخراج شهادة التأمين على المسؤولية المدنية العشرية للمقاول و المهندس المعماري و المرقى العقاري .

4- إثبات التسليم بمحضر يحزر لدى نفس الموثق الذى اكتتب العقد .

إن التسليم يشكل ضمان و التزام يقع على عاتق البائع (المعامل فى الترقية العقارية) كون أن المشتري فى عقد البيع بناء على التصاميم يصبح منذ إتمام عملية التسليم قادرا على الانتفاع الكامل بالمسكن و منه تحقيق غاية المستفيد من شراء المسكن فى إطار الترقية العقارية .

*الضمانات و الالتزامات القانونية:

هناك مجموعة من الضمانات القانونية أقرها المشرع لفائدة المشتري فى عقد البيع بناء على التصاميم و لقد جسد القانون مجموعة من الالتزامات الواجب التقيد بها فى الترقية العقارية و التى يلتزم بها البائع اتجاه المشتري بمشاركة فاعلين آخرين على غرار مكاتب الدراسات و المهندسين المعماريين ، هذه الضمانات القانونية المقررة لصالح المستفيد تجد مكانا لها فى مجموعة من القوانين و المراسيم التشريعية و التنفيذية و تكون مقترنة عادة بعقوبات إدارية أو تأخذ شكل جزاءات مالية لمن يخالفها و مادام عقد بيع العقار قبل الإنجاز عقدا تبادليا ملزما للجانبين فإن إدخال المرقى العقاري بالتزاماته سواء كانت اتفاقية أو قانونية تنجر عنها مسؤوليته طبقا للقواعد العامة فى تنفيذ العقود الملزمة لجانبين.

بحيث يحق للمشتري بعد اعدار البائع أن يطلب بفسخ العقد أو تنفيذه تنفيذا عينيا مع التعويض المادة 119 من القانون المدني :

و كمبدأ عام فإن البائع أو المرقى العقاري مسؤول عن كل إخلال أساسه الضمانات الخاصة المقررة في هذا النوع من البيوع على غرار الالتزام بالضمان العشري و كذا ضمان العيوب الخفية و التهدم .

1- الالتزام بالضمان و عدم التعرض.

إن الالتزام بضمان التعرض و الاستحقاق يندرج ضمن القواعد العامة لنظرية الالتزام طبقا لنص المادة 371 من القانون المدني الجزائري " يضمن البائع عدم التعرض للمشتري في الانتفاع بالمبيع كله أو بعضه سواء كان التعرض من فعله أو فعل الغير يكون له وقت البيع الحق على المبيع يعارض به المشتري و يكون البائع مطالبا بالضمان و لو كان حق ذلك الغير قد ثبت بعد البيع و قد آل إليه هذا الحق من البائع نفسه "

و بهذا المعنى ضمان عدم التعرض الشخصي هو امتناع البائع عن التعرض للمشتري و كذا ضمان عدم تعرض الغير له و الغير هو كل شخص أجنبي خارج عن العلاقة التعاقدية ليس طرف في عقد البيع الذي يربط بين البائع و المشتري ، و يكون التعرض حين يقوم البائع أو الغير القيام بتصرفات تحول دون انتفاع المشتري بالمبيع و إن حدث ذلك تقوم مسؤولية البائع بالضمان و بالتالي يتحمل تبعه التعويض عن فعل الغير لما لحق المشتري من أضرار نتيجة التعرض له ، هذا التعرض يكون إما قانونيا أي بتصرفات قانونية كادعاء الغير حقا على المبيع و هنا التعرض القانوني يأخذ شكل دعوى استحقاق يرفعها المشتري على الغير على أساس الالتزام بالضمان مع ضرورة إخطار البائع بهذه الدعوى أو تعرض البائع نفسه على المشتري في صورة دعوى استرداد و هنا يدفع المشتري هذه الدعوى على أساس الالتزام بالضمان استنادا لقاعدة من وجب عليه الضمان امتنع عليه التعرض ، مع العلم أن البائع أو المتعامل العقاري لا يمكن اعتبار تصرفاته القانونية الناتجة عن تنفيذ العقد تعرضا كإلزامه للمشتري بالتنفيذ الجبري الناتجة عن العقد و مثاله طلب فسخ العقد لعدم دفع الثمن أما التعرض المادي هو ذلك التعرض الذي يقوم على تصرفات مادية من شأنها إعاقة المشتري من الانتفاع من العقار كطرده من هذا العقار مثلا .

و استنادا لنص المادة 372 من ق.م.ج و كذا قانون الإجراءات المدنية الجزائري فإن دعوى الاستحقاق المرفوعة على المشتري تجعل البائع ملزما بالتدخل في الخصومة و أن يحل فيها محله إذا علم البائع في الوقت المناسب و لم يتدخل في الخصام وجب عليه الضمان إلا إذا أثبت أن الحكم الصادر في الدعوى كان نتيجة تدليس أو خطأ جسيم صادر من المشتري ، كما أن الرجوع بالضمان هو حق يثبت للمشتري و لو اعترف عن حسن نية بحق الغير أو تصالح معه دون انتظار حكم قضائي متى أخبر البائع بالدعوى في الوقت المناسب و دعاه يحل محله فيها دون جدوى كل ذلك ما لم يثبت البائع أن الغير لم يكن على حق في دعواه .

كما نصت المادة 48 من القانون رقم 11-04 المحدد للقواعد المنظمة لنشاط الترقية العقارية أن البائع أو المرقى العقاري ملزم بضمان الحفاظ على العقار و ذلك باتخاذ كل التدابير التي من شأنها السهر على تسهيل التكفل بهذا العقار. و أضافت المادة 49 من نفس القانون إلى ضرورة قيام المسؤولية المدنية على عاتق المرقى العقاري لفائدة زبائنه .

2- ضمان العيوب الظاهرة و الخفية.

من بين أهم الضمانات التي وفرتها المشرع للمشتري في عقد البيع بناء على التصاميم سواء من خلال الرجوع للقواعد العامة المتعلقة بعقد البيع من خلال أحكام القانون المدني أو من خلال بعض البنود الخاصة المنصوص عليها في نموذج عقد البيع على الخريطة ضمان العيوب سواء الظاهرة أو الخفية التي تلحق الشيء المبيع خاصة و أننا بصدد التعامل في عقار مبني الذي يتطلب من التعامل العقاري الالتزام التام و الكامل بكل المقاييس و المعايير التقنية الخاصة بالبناء ، فالمتعامل العقاري ملزم بضمان تسيير العقار تسييرا يمكن المشتري من الانتفاع به عند التسليم حسب ما تم الاتفاق عليه و يقع تحت طائلة البطلان عقد البيع على التصاميم الذي لا تستجيب فيه مواصفات العقار للشروط التقنية المطلوبة في مجال قابلية السكن و تهيئة المحلات ذات الاستعمال السكني و المهني³ أي المحلات ذات الاستعمال التجاري أو الحرفي و التي تنطبق عليها نفس القواعد المتعلقة بالمحلات المعدة للسكن و المشار إليها أعلاه .

هذا ويلاحظ أن المادة 15 من المرسوم التشريعي رقم 93 / 03 المتعلق بالنشاط العقاري و التي تقابل المادة 1-1642 من القانون الفرنسي الخاصة بالعيوب الظاهرة لا تتعلق إلا بعقد بيع مبني بناء على التصاميم ، فالمهندس المعماري والمقاول في عقد المقاولة لا يسألان عن العيوب الظاهرة أو المعلومة لرب العمل وقت تسلم الأعمال دون أن يبدي هذا الأخير تحفظات بشأنها⁴ عكس القانون رقم 11-04 الذي أدرج مسؤولية مكاتب الدراسات و المقاولين و المتدخلين الآخرين و الذين لهم صلة بالمشروع في حال زوال البناية أو جزء منها جرا عيوب في البناء و هذا ما تم تكريسه من خلال المادة 49 من نفس القانون .

و بالرجوع إلى الأحكام العامة يكون البائع ملزما بالضمان في حالة ما إذا لم يشتمل الشيء المبيع على الصفات المتفق عليها وقت التسليم بحيث تظهر عيوب تنقص من قيمته و الانتفاع به فيكون البائع ضامنا لها و لو لم يكن يعلمها و يسقط عنه الضمان في الحالة التي يكون المشتري يعلمها وقت البيع أو كان في استطاعته أن يعلمها لو فحص المبيع بعناية الرجل العادي⁵ ، و المشتري ملزم عليه التحقق من مدى مطابقة الأوصاف المتفق عليها و الخاصة بالمبيع فإن اكتشف عيبا خفيا أخطر البائع بذلك في أجل معقول و إلا اعتبر راضيا بذلك و هذا يضمن له الحق في المطالبة بالضمان وفقا للمادة 379 من القانون المدني و بهذا المعنى البائع ملزم التزاما قانونيا بضمان انتفاع المشتري بالشيء المبيع انتفاعا كاملا و ذلك من خلال ضمان العيوب التي قد تقلل من قيمته و المشرع الجزائري وفق حين ألزم المرقى العقاري بالضمان عن العيوب الظاهرة و أخضعه لنفس القواعد العامة التي تنطبق على البائع في أحكام عقد البيع .

3- ضمان التهدم – المسؤولية العشرية

حماية للمشتري في عقد البيع بناء على التصاميم من الأضرار التي قد تلحق بالبناية جراء التصدعات و الشقوق و التهدم الذي يؤدي إما لزوالها كلية أو تضرر جزء منها يتكفل المتعامل في الترقية العقارية بمراقبة الضمان ومتابعته عن طريق التأمين العشري لكل المهندسين المعماريين و المقاولين المدعويين للمشاركة في إنجاز البناية . وهذا يعد استثناء عن المبدأ العام لنظرية انقضاء

الالتزام بالوفاء، فتسليم البناية و الانتهاء من الأشغال و حتى تحرير العقد النهائي لا يعد بالضرورة التحلل من الالتزامات نظرا لطبيعة التعامل في العقار الذي قد تظهر عليه عيوب في المستقبل يلتزم المرقى العقاري بضمانها ، كما أن مفهوم الضمان العشري متعلق بمدى تنفيذ العقد و بالتالي أحكام المسؤولية العقدية ، و هو مفترض بقوة القانون و بالتالي لا يجوز الاتفاق على مخالفة أحكامه لأنه من النظام العام و ذلك استنادا لنص المادة 556 من القانون المدني حيث جاء فيها بطلان أي اتفاق أو شرط يعفي المرقى العقاري أو المهندس المعماري من الضمان و هذا يعد أبرز وجه من أوجه الحماية القانونية التي أقرها المشرع للمشتري في عقد البيع بناء على التصاميم ، و الالتزام هنا هو التزام بتحقيق نتيجة و ليس ببديل عناية نظرا للخطر المترتب على عدم احترام المعايير التقنية للبناء و ما قد ينجر عن ذلك من مخاطر و على هذا الأساس لا يستطيع المرقى العقاري أو المهندس المعماري الدفع بعم المسؤولية إلا بإثبات وجود السبب الأجنبي أو قوة قاهرة خارجة عن إرادة الأطراف المتعاقدة .

- كما تم الإشارة إليه ضمان التعرض و التهدم ينصرف إلى مشتري العقار بقوة القانون و يغطي خلال الأجل المحدد و المقدّر بـ 10 سنوات من تسليم هذه البناية كافة الأضرار الناتجة عن مسؤوليته و الأضرار المتعلقة بالعيوب الخفية للشيء المبّيع كأساساته و هيكله و سقفه و هذا استنادا للمادة 554 من القانون المدني الجزائري " يضمن المهندس المعماري و المقاول متضامنين ما يحدث خلال عشر سنوات من تهدم كلي أو جزئي فيما شيداه من مباني و أقاماه من منشآت ثابتة أخرى و لو كان التهدم ناشئ عن عيب في الأرض " يتجلى واضحا من خلال نص المادة انصراف إرادة المشرع في إقرار و تشديد مسؤولية المقاولين و كذا المهندسين المعماريين متضامنين اتجاه المشتري في حالة تعرض البناية لأضرار و لو كان ذلك راجعا لعب في الأرضية بحكم أن اختيار هذه الأرضية و قبل تشييد المباني عليها يخضع لمراقبة المصالح التقنية للتعمير عن طريق إصدار وثائق و شهادات إدارية كترخيص البناء مثلا ، كما أن عناصر الإنجاز في عملية التشييد يشملها هذا الضمان .

و بالرجوع إلى المدة القانونية للضمان و المقدرة ب 10 سنوات التي تبدأ من يوم التسليم الفعلي للبناية فإن دعوى الضمان تتقادم بانقضاء 03 سنوات من وقت حصول التهدم أو اكتشاف العيب حسب المادة 557 من القانون المدني الجزائري.

و بما أن الأحكام الواردة في النصوص القانونية السابقة الذكر لا سيما المادة 556 من القانون المدني من النظام العام لا يجوز الاتفاق على مخالفتها ، يعد باطلا كل شرط يتضمن إعفاء المهندس المعماري و المقاول من هذا الضمان إلا انه و حسب المادة 651 من القانون المدني فإن المقاولون و المهندسون المعماريون مسئولون فقط عن الضمان العشري فيما شيده من مباني و أقاموه من منشآت

و زيادة على هذه الأحكام تضمن القانون رقم 11-04 من خلال مادته 46 إدراج صنف آخر ممن تقع عليهم مسؤولية الضمان العشري و هم المتدخلين الذين لهم صلة بصحاب المشروع من خلال العقد " تقع المسؤولية العشرية على عاتق مكاتب الدراسات و المقاولين و المتدخلين الآخرين الذين لهم صلة بصاحب المشروع من خلال العقد ، في حالة زوال كل بناية أو جزء منها جراء عيوب في البناء بما في ذلك النوعية الرديئة لأرضية الأساس " و ما يؤخذ على هذه المادة هو عدم تحديدها لطبيعة المتدخلين في البناء و علاقتهم بالمشروع و هل هم أطراف في العقد ما يفتح الباب للنزاعات التي قد تنشأ جراء عدم تحديد مسؤولية هذه الفئة .

إلا أنه و بالرجوع إلى الأحكام العامة للقانون المدني و حسب المادة 564 منه نلاحظ أن المشرع الجزائري فصل في مسألة بعض الأطراف المتدخلة في البناء تحت عنوان المقالة الفرعية ، حيث يمكن للمقاول أن يوكل تنفيذ العمل إلى مقاول فرعي في حالة عدم وجود شرط في العقد يمنع من ذلك مع بقاء المسؤولية على عاتق المقاول الأصلي . زيادة على بعض الأطراف التي لها علاقة مباشرة بعقد المقالة كأجهزة الرقابة التقنية و مكاتب الدراسات.

و الضمان العشري كمبدأ عام خصه المشرع ببعض الأحكام و الشروط الموضوعية الخاصة

و هذا شيء طبيعي نظرا لخصوصية العقد المرتبط بالنشاط العقاري و أهم هذه الشروط و أبرزها هو إبرام عقد البيع على التصاميم صحيح مكتمل الأركان خاضع للإجراءات و الشكليات المنصوص عليها قانونا ، إضافة إلى إثبات الظهور الفعلي للتشققات و العيوب الخفية في البناء خلال مدة عشر سنوات من تسلم البناية ، علما أن المشرع استند على المعيار الموضوعي في تحديد معيار للعيوب الخفية حيث ربطه بالضرورة مع معيار حسن الإنجاز طبقا لنص المادة 554 من القانون المدني ، عكس المشرع الفرنسي الذي تبنى معيار الرجل العادي الجاهل لأساليب البناء و تقنياته و الذي لاحظ بالعين المجردة وجود هذه العيوب ، مع العلم أن العيوب الخفية المنصوص عليها قانونا تنصرف إما للأرضية المقام عليها البناء في حالة هشاشتها و انزلاقها نظرا لمكوناتها الجيولوجية ، و إما لطريقة تنفيذ المشروع بعدم احترام المخططات و التصاميم ، و تنصرف أيضا للمواد المستعملة في البناء. زيادة على ذلك اشترط المشرع الجزائري حسب الأمر 95-07 وجود ضرر حال يهدد السلامة العامة و يكون ذلك عند عدم احترام عنصر من عناصر التجهيز و البناء .

و بالرجوع إلى الأحكام الخاصة بالضمان العشري المرتبط في الحقيقة بالحماية القانونية للمستفيد من الملكية فإن الخلف الخاص يستفيد من هذا الضمان إلى غاية انقضائه طبقا للمرسوم التنفيذي 94-58

* الضمانات المالية.

زيادة على الضمانات التقنية التي سبق التطرق إليها أُلزم المشرع الجزائري المرقين العقاريين بضمانات أخرى ذات طابع مالي حيث نصت المادة 09 من المرسوم التشريعي رقم 93-03 "على انه يمكن المتعامل في الترقية العقارية أن يبيع لأحد المشتريين بناية أو جزء من بناية قبل إتمام الإنجاز شريطة تقديم ضمانات تقنية و مالية كافية " و هذا ما تجسد من خلال المادة 54 من القانون رقم 11-04 حيث و من اجل توفير حماية أكثر للمشتري في عقد البيع

بناءً على التصاميم ألزم المرقين العقاريين اكتتاب تأمين لدى صندوق الضمان و الكفالة التبادلية في نشاط الترقية العقارية أو ما يسمى ضمان الترقية العقارية و ذلك قصد ضمان ما يأتي :

-تسديد الدفعات التي قام بها المكتتبون في شكل تسبيقات .

-تغطية أوسع للالتزامات المهنية و التقنية .

و طبقا للمادة 12 من قانون رقم 11-04 يشترط في المبادرين بالمشاريع العقارية المعدة للبيع أو الإيجار أن يكونوا من المحترفين الذين يملكون المهارات في هذا المجال والقدرات المالية الكافية. اشتراط الموارد المالية للخوض في مشاريع الترقية العقارية يعتبر مصدر تمويل للمشروع العقاري، يجنب المرقى العقاري اللجوء إلى الاقتراض من البنوك، خصوصا وأن القانون يمنع على المرقى العقاري في البيع على التصاميم استعمال قروض مخصصة للبناء .

*الضمانات الخاصة:

الضمانات الخاصة هي التي تشكل حجر الزاوية بالنسبة لعقود الترقية العقارية عامة و عقد البيع بناءً على التصاميم خاصة ، على أساس أنها ضمانات استثنائية خارجة عن المؤلف بالنسبة للقواعد العامة المتعارف عليها في هذا المجال و خاصة ما تعلق بمبدأ حرية التعاقد و سلطان الإرادة ، زيادة على أنها ضمانات متميزة تتماشى و طبيعة المعاملة العقارية من جهة ، و توفرها على آليات لحماية المشتري من جهة أخرى ، ولقد واجه المشتري أو طالب السكن في المجال العقاري مشاكل دائمة بسبب سيطرة المرقين العقاريين على سوق العقار و قدرتهم على فرض شروط تعسفية أخلت بالتوازن في العلاقة العقدية بينهم و بين المقتنيين ، وقد تمادى بعض المرقين للتواطؤ و الاحتيال و النصب ، مما تطلب تدخل الدولة لضبط و تنظيم قواعد النشاط العقاري بما يتفق و نزاهة الممارسات التجارية ، فصدر قانون رقم 11-04 مساهمة من الدولة لمعالجة أو التخفيف من مشكلة السكن بما يضمن العدالة و المساواة في الحصول على السكن تحقيقا للاستقرار الاقتصادي والسياسي و بما يضمن تحقيق التوازن في العلاقة

العقدية بين المرقى العقاري والمقتني باعتباره الطرف الضعيف في صفقة البيع على التصاميم الذي يعد أحد الأشكال القانونية الحديثة للترقية العقارية في الجزائر .

رتّب المشرع مصلحة المقتنيين في عقد البيع على التصاميم ضمن الاهتمامات الأساسية في تنظيم أحكام هذا العقد، يظهر ذلك جليا من خلال إدراج هذه الأحكام ضمن مسائل النظام العام ، فأورد جلّ أحكامه بصيغة الأمر خصوصا فيما يتعلق بتحديد التزامات المرقى العقاري ، و المسائل الجوهرية الواجب توافرها و ذلك بما يضمن نزاهة الممارسات التجارية في مجال الترقية العقارية بما يكفل حماية كاملة و فعلية للمقتنيين من كل أساليب النصب و الاحتيال التي عاقب عليها المشرع مدنيا وجنائيا .

إن وسائل حماية المقتني في العقد المتقدم تعكس في الواقع الضمانات التي كرّسها المشرع لكي يفني المرقى العقاري بالتزاماته المهنية في سبيل تحقيق التزامه بتسليم البناية في الوقت وبالمواصفات المتفق عليها. □

1- ضمان احترام مدة وحسن الإنجاز.

من الطبيعي أن تحدد مدة الإنجاز باتفاق الطرفين في العقد، و أشار إليها المرسوم رقم 03/93 بإشارة ضمنية في المادة 10 الخاصة بالبيانات الجوهرية الواجب ذكرها في العقد النموذجي، بقولها يجب أن تحدد "...آجال التسليم، وعقوبات التأخير المرتبطة بها في حالة عدم احترام هذه الآجال...." بمعنى يجب أن تكون مدة الإنجاز محددة و داخلية ضمن المدة القانونية المشار إليها. و قد نصت المادة 3 من ملحق العقد النموذجي المرفق بالمرسوم 58/94 على أن البائع ملزم بتمام الإنجاز خلال مدة معينة. كما نصت المادة 43 من القانون رقم 11-04 صراحة على أن كل تأخر يلاحظ في عملية التسليم الفعلي للعقار موضوع عقد البيع على التصاميم يؤدي إلى عقوبات التأخير التي يتحملها المرقى العقاري .

و تحديد مدة الإنجاز مهمة لأن نهايتها هي بداية حساب التزام البائع لتسليم العقار إلى المشتري، ويستحق فيها باقي دفعات الثمن المتفق عليه، و يبدأ فيها حساب مدة الضمان، و هي

مدة تحديد تمام الإنجاز، بمعنى آخر المدة القانونية لقابلية البناء للاستعمال. لكن التقييد بانتهاء الإنجاز أي المدة المحددة له و تمامه مرتبط بتوافر عوامل أخرى منها ما يرجع إلى الظروف العامة كالعوامل الطبيعية و البيئية و نقص مواد البناء و عدم كفاية التمويل من الجهات المعنية، و منها ما يتوقف على إرادة البائع كالتهاون أو التأخير المعتمد لجني مكاسب أخرى. و من هذا المنطلق يجب تقدير الآثار و الجزاءات المترتبة على عدم التقيد بمدة الإنجاز المحددة و التي سوف نعالجها من خلال موضوع الجزاءات المترتبة على الإخلال بالالتزامات الخاصة بعقد البيع بناء على التصاميم .

2- تحديد ثمن العقار في العقد.

يشكل تحديد الثمن في عقد البيع على التصاميم أحد الالتزامات الرئيسية للمشتري و المشكل المطروح في عقد بيع العقار قبل الإنجاز هو كيفية تحديد الثمن و طريقة مراجعته ووقت استحقاقه، و الثمن الذي يذكر في هذا النوع من العقود طبقا للقانون الجزائري هو ثمن أولي تقديري قابل للمراجعة (زيادة و ليس نقصانا) و هذا خلاف للقانون الفرنسي الذي يشترط أن يكون الثمن المقدر نهائيا غير قابلا للمراجعة حسب المواد 05-06-10 من المرسوم رقم 03/93 المتعلق بالنشاط العقاري التي أوجبت أن يذكر في عقد البيع بناء على التصاميم الثمن كبيان أساسي السعر التقديري و كذا كفيات الدفع و بعد الابتزاز الذي تعرض له المشتري من قبل المرقى العقاري من خلال فرض زيادة دورية و عشوائية للثمن ، استدرك المشرع الجزائري من خلال القانون رقم 04-11 الذي حدد المعايير التي من خلالها تتم مراجعة سعر السكن و المؤشرات الرسمية للأسعار و كذا عناصر تغيرات سعر التكلفة على أن لا يتجاوز مبلغ مراجعة السعر 20 ٪ كحد أقصى من السعر المتفق عليه بداية ، زيادة على وجوب إدراج ما إن كان السعر محدد أو قابل للمراجعة من خلال نموذج عقد البيع بناء على التصاميم و حسب نص المادة 38 -2 التي ألزمت و تحت طائلة البطلان تشكيلة سعر البيع و آجال الدفع بالنسبة

لتقدم الأشغال ، مع ضبط تسديد سعر البيع في عقود البيع على التصاميم حسب تقدم نسبة الأشغال .

3- الطابع الأمر للنصوص القانونية.

إن الطابع الأمر لتنظيم الأحكام القانونية لهذا العقد سواء بموجب المرسوم 03/ 93 أو القانون 04-11 المنظم لنشاط الترقية العقارية في ما يتعلق بتحديد التزامات البائع أو بيان المسائل الجوهرية الواجب توفرها في العقد فقد وصفت هذه الأحكام بصفة أمرة مقيدة لإرادة الطرفين و الغاية من محاولة إطفاء الطابع التوجيهي لهذا العقد هو حماية المشتري من جهة و محاولة إيجاد موازنة بين طرفي العقد على أساس حفظ حقوق الأطراف المتعاقدة .

إن ترتيب هذه الأحكام وردت ضمن مسائل النظام العام ، فأورد المشرع جلّ أحكامه بصيغة الأمر خصوصا فيما يتعلق بتحديد التزامات المرقى العقاري ، والمسائل الجوهرية الواجب توافرها و ذلك بما يضمن نزاهة الممارسات التجارية في مجال الترقية العقارية بما يضمن حماية كاملة و فعالية للمقتنيين من كل أساليب النصب و الاحتيال والتواطؤ التي عاقب عليها المشرع مدنيا و جنائيا .

إن التزامات المرقى العقاري حسب العقد النموذجي الملحق بمرسوم 58/94 هي التزامات بتحقيق نتيجة أو غاية يكفي لإثبات مسؤولية المرقى العقاري عدم تحقق النتيجة المتفق عليها و ما عليه إذا أراد إثبات العكس أن ينفي مسؤوليته بإثبات السبب الأجنبي الذي أدى إلى عدم تحقيق النتيجة المرجوة

و بالرجوع إلى القانون 04-11 من خلال تفحص أحكامه يتجلى واضحا الطابع الأمر و الإلزامي للمواد القانونية خاصة في مخاطبة المرقى العقاري و على سبيل المثال لا الحصر المادة 41 " يلتزم المرقى العقاري..." المادة 42 " لا يمكن المرقى العقاري أن يطالب و لا أن يقبل أي تسبيق..." ، المادة 48 " يجب على المرقى العقاري..." . هذه النصوص الخاصة تشكل في مجملها استثناء على مبدأ حرية التعاقد و سلطان الإرادة في إبرام العقود و الطابع الأمر الذي

تتصف به يشكل في حد ذاته أحد الضمانات الخاصة المقررة بنص القانون ، إن الغاية من تدخل المشرع بالتنظيم التفصيلي لهذه المسائل الأساسية هو حماية المشتري حيث لا يجوز الاتفاق على مخالفة قاعدة آمرة ناهيك عن الطابع الإلزامي الذي تميزت به خاصة في إلزام المرقين العقاريين بالقواعد الجديدة لنشاط الترقية العقارية .⁷

4- الجزاءات المترتبة عن إخلال المرقى العقاري بالتزاماته .

إن أهم مزايا النصوص القانونية المستحدثة مؤخرا في مجال نشاط الترقية العقارية سواء بموجب المرسوم التشريعي رقم 93 / 03 أو القانون 11-04 هو إرفاقها بمجموعة من الجزاءات المدنية ، الجزائية و حتى الإدارية الناتجة عن الإخلال بالتزامات المتفق عليها سواء ما تعلق بالتنفيذ أو التسليم أو حتى ما ينتج عن العيوب التي قد تظهر على الشيء المبيع بعد تسليمه ، و هذا يعد نهج جديد تبناه المشرع الجزائري للحد من عمليات التلاعب و النصب و الاحتيال التي قد يتعرض لها المشتري و أيضا لردع المرقين العقاريين المتقاعسين عن تنفيذ التزاماتهم التعاقدية . و العقوبات المنصوص عليها قانونا تقسم

على حسب طبيعتها إلى نوعين :

أولاً: العقوبات الجزائية.

إن الصرامة التي تميزت بها النصوص القانونية المنظمة لنشاط الترقية العقارية خاصة ما تعلق بتطبيق العقوبات الجزائية على المتعامل في هذا المجال بحكم مهنته جعلها و كأنها امتداد لقانون العقوبات في أحكامه المطبقة على مخالفة أحكام هذا التشريع ، بل نجد أن المشرع من خلال أحكام القانون 11-04 خصص فصل من المواد 69 إلى 78 من العقوبات و التي قد تصل لحد الحبس مثلما هو منصوص عليه في المادة 74 هذا القانون "يعاقب كل مرقى عقاري غير مكتتب في التأمينات و الضمانات المنصوص عليها في أحكام المادة 55 من هذا القانون بالحبس من شهرين على سنتين و غرامة من مائتي ألف دينار إلى مليوني دينار " و كذا نص المادة 71 التي نصت على تطبيق عقوبة الحبس من شهرين إلى سنتين و غرامة من مائتي ألف

دينار إلى مليوني دينار في حالة قبول أي تسبيق مالي أو اكتتاب أو سند تجاري قبل توقيع عقد البيع على التصاميم ، إضافة لذلك هناك جزاءات مالية متمثلة في الغرامة على سبيل المثال لا الحصر نص المادة 73 من نفس القانون حيث يتعرض أي مرقى عقاري لغرامة مالية من مائتي ألف دينار إلى مليوني دينار في حالة مخالفة الأحكام المنصوص عليها في المادة 33 من أحكام هذا القانون . و ما تجدر الإشارة إليه هو أن مخالفة أي من الأحكام القانونية تقابلها عقوبة جزائية ، ما يشكل ضمانا قانونيا عن طريق أسلوب الردع و تطبيق العقاب للمتعامل العقاري المخالف للقانون .

ثانيا: العقوبات الإدارية

فيما يخص العقوبة الإدارية فهي متعددة و مختلفة حسب طبيعة المخالفة فقد تصل لتعليق الاعتماد لمدة لا تتجاوز 06 أشهر في حالة عدم التنفيذ أو التأخر في تنفيذ الالتزامات اتجاه المكتتبين أو مخالفة قواعد أخلاقيات المهنة ، كما أن العقوبات الإدارية قد تصل لحد السحب النهائي للرخصة في حالة عدم استيفاء الشروط القانونية لاعتماد مهنة المرقى العقاري أو تجاهله و إهماله للالتزامات الملقاة على عاتقه ، أو السحب التلقائي للرخصة في حالة المتابعة القضائية أو الوفاة . إضافة لكل ما سبق و مادام عقد بيع العقار قبل الإنجاز عقدا تبادليا ملزما للجانبين فإن إخلال المرقى العقاري بالتزاماته سواء كانت اتفاقية أو قانونية تنجر عنها مسؤوليته طبقا للقواعد العامة في تنفيذ العقود الملزمة لجانبين. بحيث يحق للمشتري بعد إعدار البائع أن يطلب فسخ العقد أو تنفيذه تنفيذا عينيا .

الإحالات :

- 1- المجلة الجزائرية للعلوم القانونية و الاقتصادية و السياسية الجزء 42 رقم 02/2002
- 2- خليل أحمد حسن قدارة ، الوجيز في شرح القانون المدني الجزائري - عقد البيع - ديوان المطبوعات الجامعية - سنة 2005 .
- 3- المادة 26 من القانون رقم 11-04 المحدد للقواعد المنظمة لنشاط الترقية العقارية

- 4- عبد الرزاق أحمد السنهوري : الوسيط في شرح القانون المدني، العقود الواردة على العمل، الجزء السابع، المجلد الأول، دار إحياء التراث العربي، 1964، ف 65 ص 115 -
- 5- المادة 379 من القانون المدني
- 6- الأستاذة صباحي ربيعة- أستاذة محاضرة - جامعة مولود معمري - تيزي وزو- الضمانات المستحدثة في بيع العقار على التصاميم على ضوء القانون 11-04
- 7- المصدر : منتديات ورقلة لكل الجزائريين والعرب-<http://www.ouargla30.com/t46508-topic#ixzz434Huk1DV>

نموذج الإطار الائتلافي الدفاعي في دراسة السياسة العامة المزايا والعيوب

Advocacy Coalition framework model in the study of public policy advantages and disadvantages

حمودي عبد المؤمن

جامعة قسنطينة 3

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/07

Abstract:

This article aims to study one of the most important models in the public policy field know as Advocacy Coalition Framework and that by trying to answer a fundamental problem: what is the contribution of the Advocacy Coalition Framework in explaining policy-making? To answer this problem, we will review the most important concepts and assumptions and foundations of the model, and then touch upon some of the studies that have been used essentially the model in the study of public policy and, finally, the model will be evaluated by knowing its most important advantages and disadvantages.

Key words :

Advocacy Coalition -public policy

إن المتتبع لأدبيات السياسة العامة يكشف ويلاحظ استمرارية الجدل والنقاش الذي رافق نشأة هذا الحقل المعرفي منذ الثلاثينات من القرن الماضي حول السؤال التقليدي المتجدد الذي سبق و صاغه جيمس أندرسون في مؤلفه "صنع السياسات العامة"⁽¹⁾ وهو هل الوقت قد حان للبحث عن نظريات ونماذج عامة رئيسية لصنع السياسة العامة؟⁽¹⁾ إن هذا الجدل قد جاء في الواقع في سياق البحث عن نظريات ونماذج عامة في السياسة العامة، وفي نفس الوقت لتجاوز وإعادة النظر في النماذج المشهورة في حقل السياسة العامة مثل النموذج التسلسلي le model séquentielle .

يعتبر نموذج الإطار الائتلافي الدفاعي الذي طوره الباحثان بول ساباتييه Paul A. Sabatier وجنكينز سميث هانك Jenkins-Smith, Hank من النماذج المشهورة والأكثر تأثيرا في أدبيات السياسات العامة منذ ظهوره عام 1988م في الولايات المتحدة الأمريكية وقد كان طموح

واضعيه هو المساهمة في تطوير النظريات العلمية بشأن تحليل السياسة العامة وبلورة نماذج جديدة في حقل السياسة العامة. ضمن هذا الإطار تأتي هذه الدراسة لاختبار هذا النموذج من خلال الإجابة على الإشكالية الآتية: ما مدى إسهام نموذج الإطار الانتقالي الدفاعي في تفسير صنع السياسة العامة؟ كما يمكن طرح التساؤلات الآتية: ما هي المفاهيم والأسس والفرضيات التي يقوم عليها النموذج؟ ما هي إمكانيات وحدود النموذج الإطار الانتقالي الدفاعي؟ هل تجاوز حقيقة هذا النموذج عيوب ومشاكل النماذج التسلسلية الكلاسيكية؟ وهل طرح نفسه حقيقة كبديل للنماذج السائدة في حقل السياسة العامة؟

أولاً: النمذجة في السياسة العامة:

شهدت عملية بناء النماذج في حقل السياسة العامة منذ الثلاثينات من القرن الماضي تزايد مطرد كمي ونوعي لا يستهان به والغرض من ذلك هو الوصول إلى الفهم الجيد لعمليات صنع السياسات العامة.

1- مفهوم السياسة العامة:

هناك عدة مفاهيم للسياسة العامة وحسب الباحث جيان كلود تونينغ Jean Claude thoening هناك أكثر من 40 مفهوم⁽²⁾. وهذا ما يجعل مهمة تحديد مفهوم السياسة العامة شاقة للغاية.

وحسب التقليد المعمول به في حقل السياسة العامة فإن تحديد المفهوم يتطلب كما ذهب إليه الباحث الفرنسي باتريك هاسنتنفل Patrick Hassenteufel تحديد معاني الكلمات المشكلة للعبارة وهي تدور في العموم حول⁽³⁾:

— المعنى Polity من أصل يوناني polis و politeia والتي تعني مجموع الفاعلين والمؤسسات المكونين للمدينة.

— Politics: والتي تعني الصراع بين الفاعلين (أفراد أو مجموعات) لحياسة السلطة.

— Policy: تعني مجموعة الأفعال والتفاعلات قائمة على أساس الحكم الرشيد أو

العقلاني.

وحسب الباحث دائما فان عبارة السياسة العامة *politique publique* تتضمن المعنى الأول

والثالث أي *les politiques de la polity* وبذلك يصبح مفهوم السياسة العامة في رأيه: "تشكل

السياسات العامة برامج العمل المتبعة من طرف السلطات الرسمية"⁽⁴⁾

كما عرف آخرون مثل جيمس أندرسون السياسة العامة باعتبارها: "فالسياسة هي برنامج

عمل هادف يعقبه أداء فردي أو جماعي في التصدي لمشكلة أو لمواجهة قضية أو موضوع"⁽⁵⁾، أما

توماس داي Thomas.R.Dye فقد عرف السياسة على أنها: "هي كل ما تختار الحكومات

أن تقوم به أو لا تقوم به"⁽⁶⁾ أما السياسة العامة في إطار النموذج الإثنلافي الدفاعي فهي ينظر

إليها الباحثين بول سباتييه A Sabatier وأودل شلاجر Edell Schlager باعتبارها نتاج

"التنافس بين الائتلافات، كل وحدة منها مكونة من فاعلين من عدة مؤسسات (جماعات

مصالح، وكالات إدارية رسمية، المشرعين، باحثين، صحافيين) يتقاسمون نظام معتقدات ويسعون

إلى ترجمته في سياسة عامة"⁽⁷⁾

2- مفهوم النموذج:

يعتبر مصطلح "النموذج" *le model* من المصطلحات المتداولة على نطاق واسع في العلوم

الاجتماعية والإنسانية وهو يعرف عادة على أنه: "عبارة عن صورة نظرية ومبسطة لما هو موجود

في عالم الواقع أي انه عبارة عن بناء مشابه للواقع"⁽⁸⁾.

وقد انتقل استخدام مصطلح النموذج من العلوم الطبيعية إلى العلوم الاجتماعية بصفة عامة

، والعلوم السياسية بصفة خاصة، ومنها إلى حقل السياسة العامة وشاع استخدامه باعتباره أداة

جيدة في وصف وفهم وتفسير الظواهر المتعلقة بصنع وتنفيذ السياسات العامة حيث يرى الباحث الأمريكي توماس ر. دي Thomas.R.Dye المختص في السياسة العامة ، أن : " النموذج هو مجرد فكرة مجردة أو تمثيل للحياة السياسية ، وعندما نفكر في النظم السياسية أو النخب أو الجماعات أو الاختيار العقلاني الرشيد ، نحن نلخص العالم الحقيقي في محاولة لتبسيط ، وتوضيح ، وفهم ما هو مهم حقا في السياسة " (9).

3-أهمية النمذجة في السياسة العامة:

تلعب النماذج دور مهم في حقل السياسة العامة وقد حدد الباحث الأمريكي توماس داي Thomas.R.Dye أهمية النماذج في خمسة وظائف وأدوار وهي (10):

- تبسيط وتوضيح أفكارنا حول الحكومات والسياسات.
- معرفة وتحديد أهم القوى السياسية المؤثرة في المجتمع.
- تحقيق التواصل المعرفي المناسب مع الحياة السياسية.
- توجيه بحثنا واهتمامنا حول السياسات.
- اقتراح وتقديم تفسيرات للأحداث ونتائج العمليات السياسية.

وكي تكون النماذج أكثر علمية وأهمية ينبغي أن تتبع عدة معايير وقد ناقش الباحث بول سباتيه Paul A.Sabatier بعض المعايير الأساسية في رأيه لمناقشة أية نموذج وهي أربعة (11):

- كل نموذج ينبغي أن يتوفر على حد معقول من تلبية معايير نظرية علمية ، ويجب أن تكون المفاهيم والمقترحات التي يقوم عليها هذا النموذج واضحة نسبيا ومتسقة داخليا و يجب أن تؤدي إلى فرضيات مبرهنة ويجب أن يكون واسعا إلى حد ما بحيث ينطبق على معظم عملية وضع السياسات في مجموعة متنوعة من النظم السياسية.

- كل نموذج يجب أن يكون موضوع قابل لتطوير المفاهيم بشأنه وقابل للاختبار التجريبي ، كما ينبغي أن ينظر إليه من طرف علماء السياسة على أنه وسيلة ناجعة لفهم العملية السياسية .
- كل نموذج يجب أن يتضمن نظرية إيجابية التي تسعى إلى فهم أفضل وأوسع للجوانب المختلفة للعملية السياسية.

- يجب على كل نموذج معالجة مجموعات واسعة من العوامل التي تبحث في مختلف جوانب السياسات (القيم المصالح المتضاربة ، وتدفق المعلومات والترتيبات المؤسسية والاختلاف في البيئة الاجتماعية والاقتصادية)
ثانيا: أسباب وضع النموذج:

إن الهدف الرئيسي من وضع النموذج حسب الباحث بول كيرني Paul cairney هو فهم أنظمة صنع السياسات العامة المعقدة التي تمتاز ب (12) :
- وجود أطراف فاعلة مختلفة و مستويات حكومية متعددة .
- عملية صنع السياسات التي تتم في طرق مختلفة للغاية ، والتي تحتوي على العديد من العناصر الفاعلة و المشكلات التقنية أو المتخصصة .
- إنتاج سياسات على أساس معلومات محدودة ومستويات في كثير من الأحيان عالية من عدم اليقين والغموض.
- السياسات التي تأخذ وقتا كبيرا (ربما "عشر سنوات أو أكثر") لتحويل القرارات إلى النتائج.

وقد تعددت الأسباب التي ساهمت في بلورة نموذج الإطار الائتلافي الدفاعي ، وبشكل عام يمكن القول أن هذه الأسباب يمكن حصرها في الانتقادات التي وجهها بشكل خاص الباحث الأمريكي بول سباتييه لعدة نماذج في حقل السياسة العامة ومنها:

● النموذج التسلسلي le model séquentiel :

- يعتبر النموذج التسلسلي من النماذج المعروفة على نطاق واسع في أدبيات السياسة العامة وحسب الباحث بوريش رياض المختص في السياسة العامة فقد: "ألهم هذا النموذج بنية العديد من المؤلفات حول السياسة العامة ، وسمح باستعراض بشكل مميز ومتسق ومضاعف مجمل مظاهر الفعل العام"⁽¹³⁾، لكن الباحث بول سباتييه Paul A.Sabatier انتقد بشدة النموذج و نادى بضرورة تطوير نماذج بديلة ومن الانتقادات التي وجهها للنموذج نذكر⁽¹⁴⁾:
- النموذج لا يشكل في الحقيقة نظرية سببية causal theory لأنه لم يحدد مجموعة من العوامل السببية التي تحكم عملية وضع السياسات داخل وعبر مراحل.
 - التسلسل المقترح لديه طبيعة جد قانونية ، وهناك تحيز فيه في صنع السياسات العامة يأخذ صيغة من أعلى إلى أسفل top-down .
 - التسلسل المقترح لمراحل صنع السياسة العامة غالبا ما يكون غير دقيق و وصفي.
 - على افتراض أن هناك دورة سياسة واحدة تركز على قطعة كبيرة من التشريعات هناك إفراط في تبسيط العملية المتعددة المعتادة ، تشمل تفاعل عدة دورات و مقترحات السياسة عديدة و القوانين على مستويات متعددة من الحكومة.
 - وبصل بعد عرض مجمل الانتقادات الموجهة إلى النموذج إلى القول يجب تعويض هذا النموذج بإطار نظري أفضل.
 - الانتقادات لمقترحات من الأعلى إلى أسفل top-down ومن أسفل إلى أعلى bottom-up .
 - حيث تم توجيه عدة انتقادات للمقاربة الأولى منها تركيزها بشكل كبير في صنع وتنفيذ السياسات على الفواعل الرسمية l'appareil étatique⁽¹⁵⁾.

— أما المقاربة الثانية من بين الانتقادات الموجهة إليها تركيزها على خطابات الفاعلين دون الأخذ في الحسبان تصوراتهم و استراتيجياتهم والعوامل التي يمكن أن تؤثر عليهم⁽¹⁶⁾ ، وفي رأي الباحثين هنري برجرHenri Bergeron و ايف سيرلYves Surel و جيروم فالي Jérôme Vally : "تقع أعمال سباتيه في ميدان بحث مهيكّل بشكل قوي بين مقتربي من أعلى إلى أسفلTop-Down ومن أسفل إلى أعلىTop-Down أين يشكل نموذج الائتلاف الدفاعي محاولة لتجاوزهما"⁽¹⁷⁾ .

● الانتقادات الموجهة لنموذج الاختيار العقلاني Rational choice model حيث انتقد الباحثان افتراضاته حول الفرد باعتباره يسعى فقط وراء مصالحه المادية الخاصة⁽¹⁸⁾

ثالثا: مضمون النموذج

يمكن تحديد مضمون النموذج من خلال العناصر الآتية:

أ- المفاهيم: يقوم النموذج على عدة مفاهيم أساسية هي:

1- تعريف الائتلاف الدفاعي Advocacy coalition : هو مجموعة من الأشخاص أو المنظمات التي تتفاعل بانتظام على مدى فترات من الزمن تقارب عشر سنوات أو أكثر، من أجل التأثير على صياغة وتنفيذ السياسة العامة في مجال معين.⁽¹⁹⁾

2- تعريف الأنظمة الفرعية السياسيةSubsystems CoalitionS : هي ائتلافات تتنافس مع بعضها البعض للهيمنة على صنع السياسات في النظم الفرعية في قضايا محددة، وهي منتشرة في الحكومة .. أين تؤول مسؤولية صياغة السياسات إلى البيروقراطيين الذين، في المقابل، بصفة منتظمة يستشيرون المشاركين في صنع السياسات العامة مثل جماعات المصالح⁽²⁰⁾.

3- المعتقدات Beliefs : ينخرط الناس حسب النموذج في الحياة السياسية لترجمة معتقداتهم والتي تم تقسيمها إلى ثلاثة أنواع⁽²¹⁾:

- المعتقدات الأساسية العميقة deep core beliefs: وهي تمثل القيم الأساسية البديهيات الوجودية والأهداف المعيارية العامة التي تحدد رؤية للفرد والمجتمع والعالم، والتي تنطبق على العديد من السياسات العامة.
- المعتقدات الأساسية السياسية policy core beliefs: التي تشكل نواة السياسة وتشمل النظريات السببية، والاستراتيجيات الأساسية، والخيارات البرنامجية والسياسات العامة الرامية لتحقيق دافع عن الأهداف المعيارية العامة خاصة في النظم الفرعية للسياسة العامة.
- الجوانب الثانوية secondary aspects: تتضمن سلسلة من الأفكار حول الأدوات والتدابير والمعلومات اللازمة لتنفيذ جوهر السياسة

4- التعلم الموجه نحو السياسة Policy-Oriented Learning:

قد تواجه الجهات الفاعلة داخل العملية السياسية الظاهرة المعروفة باسم التعلم الموجه نحو السياسات، التي تعني التعديلات النسبية التي تمس الفكر أو السلوكيات و النوايا التي تنجم عن تجربة أو معلومات جديدة والتي تعني تحقيق أو مراجعة هدف السياسة. قد تكون هذه التعديلات ذات صلة بالمعرفة لدى أحد المشاركين حول قضية ما (فهم مشكلة السياسات و الحلول الممكنة) أو عن استراتيجيات لتحقيق احد أهداف في الساحة السياسية المحددة. والتعلم يعتبر إستراتيجية هامة تساعد في خلق المعرفة المشتركة، وتزيد احتمال تعزيز التقارب بين الجهات الفاعلة والائتلافات، مما يجعلها ذات أهمية خاصة لتحقيق التوافق في السياقات التعاونية (22).

5- موارد الائتلاف: صنف بول سباتيه Paul A.Sabatier و كريستوفر وايل

Christopher M.Wieble موارد الائتلاف Resource Typology of Coalition إلى (23):

Formal legal authority to make - السلطة القانونية الرسمية لاتخاذ قرارات السياسة
policy decisions حيث تعتبر الجهات الفاعلة في مواقع السلطة القانونية أعضاء محتملين في
الإطار الائتلافي، وهذا يشمل العديد من المسؤولين الحكوميين والمشرعين، وبعض القضاة وهو مورد
رئيسي للائتلاف

- الرأي العام Public opinion .
استطلاعات الرأي تظهر أن دعم الرأي العام لسياسة ومواقف الائتلاف هي مصدر رئيسي
للمشاركين السياسيين.

- المعلومات Information .
يفترض أن المعلومات هي الموارد التي يستخدمها المشاركون السياسيون لكسب المعارك
السياسية ضد المعارضين. وتشمل الاستخدامات الإستراتيجية للمعلومات ترسيخ عضوية
الائتلاف، والمجادلة ضد وجهات النظر السياسية للخصوم، وإقناع صناع السياسة العامة
الرسميين لدعم مقترحات التحالف، وإمالة الرأي العام.

- القوات للتعبئة Mobilizable troops
غالبا ما تستخدم النخب السياسية أفراد الجمهور الذين يشتركون في معتقداتهم على
الانخراط في الأنشطة السياسية المختلفة بما في ذلك المظاهرات العامة والحملات الانتخابية وجمع
الأموال. والائتلافات هي الأخرى غالبا ما تعتمد بشكل كبير جدا على القوات للتعبئة بوصفها
موردا غير مكلف.

- الموارد المالية Financial resources
يمكن استخدام الأموال لشراء الموارد الأخرى، فوجود موارد مالية وافرة يمكن تمويل البحوث
وتمويل مؤسسات الفكر والرأي لإنتاج المعلومات؛ و تمويل المرشحين المتعاطفين، وبالتالي

تستطيع الوصول إلى المشرعين والتعيينات السياسية و إطلاق حملات إعلامية لكسب تأييد الرأي العام.

– القيادة الماهرة Skillful leadership

تبين أدبيات السياسة كيف يمكن للقادة الماهرين أن يخلقوا رؤية جذابة لائتلاف، وذلك باستخدام إستراتيجية الموارد بكفاءة، وجذب موارد جديدة لائتلاف.

6- صنع السياسة العامة:

تم توسيع دائرة صنع السياسة العامة السائدة في المفاهيم التقليدية – التي كانت تقتصر على الأجهزة الإدارية واللجان التشريعية، و جماعات المصالح على مستوى واحد من الحكومة – لتشمل الأطراف الفاعلة على مختلف المستويات الحكومية النشطة في صياغة السياسات وتنفيذها، مثل الصحفيين والباحثين و المحللين السياسيين الذين يلعبون دورا هاما في توليد و نشر وتقييم الأفكار السياسية⁽²⁴⁾.

7- وسيط السياسة Policy broker: تحتوي الأنظمة الفرعية السياسية على الفاعلين الذين يتوسطون بين الائتلافين والجهات حكومية لها سلطة إصدار قرارات – كما هو مبين في الرسم البياني للنموذج الائتلافي الدفاعي-⁽²⁵⁾.

8- استراتيجيات الائتلاف Coalition strategy: تعتمد إستراتيجية الإئتلاف على

الفرص المتاحة في الهيكل السياسي الذي يمتاز بخصائص منها اللامركزية الإدارية، تشتت النظام الحزبي، طبيعة الإجراءات الديمقراطية المباشرة المعمول بها⁽²⁶⁾.

9- تغيير السياسة policy change: في النسخة الأصلية للنموذج ربط الباحثان التغيير فقط بالعوامل الخارجية والتي أطلق عليها اسم الاضطرابات الخارجية أو الصدمات externat perturbations or shocks و تشمل هذه الاضطرابات التغييرات في الظروف الاجتماعية

والاقتصادية، التغيير في النظام، أو المخرجات من الأنظمة الفرعية أو كارثة أخرى. ويمكن لهذه الصدمات الخارجية أن تحول جدول الأعمال، وتركز اهتمام الرأي العام، وبذلك تجذب انتباه الجهات السيادية التي تتخذ القرارات الرئيسية، كما تؤدي الصدمات الخارجية أيضا إلى تغيير مكونات المعتقدات الأساسية السياسة للإئتلاف الدفاعي المهيمن⁽²⁷⁾.

أما في النسخة الجديدة للنموذج فقد تم الاعتراف أيضا بأنه يمكن للصدمات الداخلية الرئيسية the major internal shocks أن تحدث من داخل النظام السياسي الفرعي ويمكن أن تحدث تغيير كبير في السياسة⁽²⁸⁾.

كما ناقش الباحثين في موضع آخر مسارات بديلة لتغيير كبير في السياسة Alternative paths to major policy change تكون نتيجة اتفاقات متفاوض negotiated agreements عليها بين الائتلافات التي ناضلت من أجل إحداث تغيير⁽²⁹⁾.

1- الأسس:

يستند النموذج الإئتلافي الدفاعي حسب الباحثين بول سباتييه Sabatier, Paul A و جنكينز سميث هانك Jenkins-Smith, Hank الى خمسة مبادئ رئيسية مستمدة إلى حد كبير من الدراسات القائمة على تنفيذ السياسات العامة و تلك التي تؤكد دور تقنية المعلومات في السياسة العامة وهي⁽³⁰⁾:

- تحتاج النظريات العلمية حول وضع السياسات أو تغيير السياسات إلى معالجة الدور الذي أصبحت تلعبه المعلومات التقنية المتعلقة بحجم وجوانب المشكلة وأسبابها، والتأثيرات المحتملة للحلول المختلفة.
- فهم عملية التغيير في السياسات ودور تقنية المعلومات فيها، يتطلب وقت زمني عقد أو أكثر.

- الوحدة الأكثر فائدة في تحليل تغيير السياسات في المجتمعات الصناعية الحديثة هي الأنظمة الفرعية السياسية .
- ضمن مفهوم الأنظمة الفرعية السياسة ينبغي توسيع المفاهيم التقليدية التي تقتصر على الأجهزة الإدارية واللجان التشريعية، وتشمل جماعات المصالح على مستوى واحد من الحكومة لتشمل فئتين إضافة الفاعلين الصحفيين ، ثم يتم توسيع ذلك إلى الباحثين والمحللين السياسيين، الذين يلعبون دورا هاما في نشر وتقييم الأفكار السياسية والأطراف الفاعلة على جميع المستويات الحكومية الناشطة في صياغة السياسات وتنفيذها.
- السياسات و البرامج العامة تتضمن نظريات ضمنية حول كيفية تحقيق أهدافها ، كما أنها تنطوي على أولويات وتصورات و افتراضات متعلقة بفعالية أدوات السياسة المختلفة ، كما أنها توفر وسيلة لتقييم تأثير مختلف الجهات الفاعلة على مر الزمن، وخاصة دور تقنية المعلومات في تغيير السياسات.
- 2- الفرضيات hypotheses :
- حدد الباحثين عدة فرضيات وهي موزعة على عدة عناصر كالآتي:
- الائتلاف الدفاعي advocacy coalitions : وهو يتضمن ثلاثة فرضيات⁽³¹⁾:
- عند حدوث الخلافات الرئيسية داخل الأنظمة الفرعية السياسية وتكون المعتقدات الأساسية السياسية في النزاع، تميل تشكيلة الحلفاء والمعارضين إلى أن تكون مستقرة لكن ليس لفترة طويلة من الزمن.
- الجهات الفاعلة داخل الائتلاف الدفاعي تظهر إجماع كبير على قضايا تتعلق بجوهر السياسة، وبشكل أقل في الجوانب الثانوية.

- يتخلى الفاعل (أو التحالف) الجوانب ثانوية من نظام الاعتقاد قبل الاعتراف بالضعف في جوهر السياسة.

● تغيير السياسات policy change : تتضمن فرضيتين هما (32):

- لن يتم مراجعة السمات الأساسية لسياسة برنامج حكومي في اختصاص محدد طالما الإطار الانتلالي الدفاعي التي وضعت البرنامج ما تزال في السلطة ضمن هذا اختصاص إلا عندما تفرض التغيير جهة قضائية أعلى بشكل هرمي.

- جوهر سياسة برنامج العمل الحكومي لا تتغير في ظل غياب تأثير العوامل الخارجية للنظام السياسي الفرعي، والتغيرات في الظروف الاجتماعية والاقتصادية والرأي العام والائتلافات الحاكمة، أو المخرجات السياسية من النظم الفرعية الأخرى

● التعلم عبر الإئتلافات learning across coalitions : تتضمن ثلاثة فرضيات هي (33):

- المشاكل التي تقبل وجود البيانات الكمية والنظرية هي الأكثر مواتية للتعلم الموجهة نحو السياسات عبر النظم العقائدية .

- المشاكل التي تنطوي على النظم الطبيعية هي الأكثر ملائمة للتعلم الموجهة نحو السياسات عبر نظم الاعتقاد من تلك التي تنطوي على النظم الاجتماعية أو سياسية بحتة.

- التعلم الأكثر احتمالا الموجهة نحو السياسات عبر النظم العقائدية يكون في حال وجود منتدى مرموق تهيمن عليها المعايير المهنية.

3- مستويات النموذج :

يرتكز النموذج على ثلاثة مستويات هي (34):

- المستوى الكلي macro level: حيث تحدث معظم السياسات بين المتخصصين في النظام السياسي الفرعي، حيث يتأثر سلوكهم بعوامل اجتماعية واقتصادية أكبر وبالنظام السياسي.

- المستوى المتوسط neso level : حيث يكون الحل في التعامل مع الجهات الفاعلة متعددة في النظام السياسي الفرعي و تجميعها في إئتلاف دفاعي.
- المستوى الجزئي micro level: أين تتشكل القناعات من علم النفس الاجتماعي .
- 4- هيكلية النموذج وطريقة عمله :

هيكلية النموذج كما هي موضحة في الرسم البياني المرفق حسب بول سباتييه Paul A.Sabatier و كريستفور وايبل Christopher M.Wieble هناك مجموعتان من المتغيرات الخارجية للانظمة الفرعية⁽³⁵⁾ :

- معايير النظام المستقر stable system prameters :وهي تشمل عدة متغيرات : مباديء وصفات من ناحية المشكلة (جيد) basics attributes of the problem area (good) و مباديء توزيع الموارد الطبيعية basics distribution of naturel resourceS و القيم الثقافية والبنى الاجتماعية الأساسية fundamental sociocultural values and structure و الهيكل الدستوري الأساسي (قواعد) basic constitutional structure (rules) ، وهذه المتغيرات تتغير ببطء شديد، وهي تؤثر في المتغيرات الأخرى .
- الأحداث الخارجية (النظام) external (system)events : تشمل التغيرات في الظروف الاجتماعية والاقتصادية changes in socio-economic conditions ، التغييرات في الرأي العام changes in public opinion ، التغييرات في نظم الائتلاف الحاكم changes in systemic governing coalition ، القرارات المتعلقة بالسياسات والآثار من النظم الفرعية الأخرى policy decisions and impacts from other subsystems ، وهذه التغيرات غالبا ما تتغير على مدى عشر سنوات ، والتي يفترض أن تكون ضرورية وهي تؤثر على المتغيرات المتعلقة بقيود وموارد الجهات الفاعلة.

كلتا المجموعتين من العوامل تؤثر على الموارد والقيود التي تفرضها الجهات الفاعلة في النظام الفرعية والتي بدورها تؤثر على صنع السياسات داخل النظام الفرعية.

وقد اقترح الباحثان مجموعة جديدة من المتغيرات تعرف باسم هياكل فرص الائتلاف على المدى الطويل long term coalition opportunity structures وهي تشمل بدورها: درجة التوافق تحتاج لتغيير كبير في السياسة degree of consensus need for major policy change ، و انفتاح النظام السياسي openness of political system

قيود وموارد الجهات الفاعلة الفرعية على المدى القصير short term constraints and resources of subsystem actors .

وهذه المجموعة الجديدة من المتغيرات هي وسيطة بين معايير النظام المستقر stable system parameters و هياكل فرص الائتلاف coalition opportunity structures.

أما النظام السياسي الفرعي فهو يشمل الإئتلاف A وما يحمله من معتقدات سياسية policy beliefs وما يملكه من موارد resources و الإئتلاف B وما يحمله من معتقدات سياسية policy beliefs وما يملكه من موارد resources يتنافسون على صنع السياسة العامة مستخدمين في ذلك استراتيجيات ويعملان وفق أدوات توجيه guidance instruments ويحاولان كسب الوسطاء السياسيين Policy brokers وكذا التأثير على الجهات الرسمية الحكومية لاستصدار قرارات decisions by governmental authorities والتي تتم ضمن قواعد مؤسساتية أين يتم تخصيص الموارد والقيام بالتعيينات institution rules,resources allocations,and appointments ويكون نتاج هذه العملية مخرجات السياسة policy outputs والتي تعبر عن هدف الذي تنافس عليه الائتلافين والذي يترك آثار سياسية policy impacts في النظام الفرعي السياسي وكذلك على العوامل الخارجية.

رابعاً: تطبيقات النموذج:

هناك عدة دراسات اعتمدت بشكل أساسي على نموذج الإطار الائتلافي الدفاعي وقد اعتمدنا في هذا على المقال على عدة تطبيقات للإطار مأخوذة من بعض الحالات الموجودة في أدبيات حقل السياسة العامة، وقد جاءت هذه التطبيقات في فترات تاريخية مختلفة وشملت مواضيع متنوعة: دراسة الباحث دانيال كيبلر Daniel K'ubler تحت عنوان فهم التغير في السياسة بالإطار

الائتلافي الدفاعي: تطبيق على السياسة السويسرية لمكافحة المخدرات

Understanding policy change with the advocacy coalition framework: an application to Swiss drug policy التي صدرت عام 2001م. وقد استخدم الباحث في هذه الدراسة الإطار الائتلافي الدفاعي لفهم عملية التغير في سياسة مكافحة المخدرات في سويسرا حيث استعرض الباحث الإطار المفاهيمي للنموذج والفرضيات المتعلقة بالتغيير. policy change. كما اعتمد الباحث على نظرية الحركة الاجتماعية social movement theory لتغطية العجز الذي يعانيه النموذج فيما يتعلق بالعمل الجماعي ، ثم حلل الباحث تغير سياسة مكافحة المخدرات في سويسرا سنوات الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي التي انتقلت من سياسة الحظر prohibitionist إلى سياسة الحد من الضرر harm reduction .

في ختام دراسته يرى الباحث أن النموذج قدم تفسير معقول لتغير سياسة مكافحة المخدرات في سويسرا حيث تم التعرف على اثنين من الائتلافات الكبرى التي تنافست ضمن النظام الفرعي لسياسة مكافحة المخدرات ، كما كشف الباحث أن نتائج دراسته تدعم الفرضيتين المتعلقة بتغيير السياسات التي طرحها النموذج⁽³⁶⁾.

1- دراسة الباحث دانيال نورهرستد Daniel Nohrstedt تحت عنوان " هل الائتلاف

الدفاعي مسألة ؟ الأزمات والتغيير في السياسة السويدية للطاقة النووية"

Do Advocacy Coalitions Matter? Crisis and Change in Swedish Nuclear Energy Policy

والتي صدرت عام 2009 حيث حاول الباحث في هذه الدراسة تطبيق نموذج إطار الائتلاف الدفاعي لدراسة حالة السياسة السويدية في ميدان الطاقة النووية والتطورات التي عرفتتها هذه السياسة في سنوات السبعينيات والثمانينات من القرن الماضي. وهذه الدراسة هي محاولة للمساهمة في تعميق النقاش بشأن تعميم نموذج إطار الائتلاف الدفاعي وكذا تقييم مدى فائدة الافتراضات التي يقوم عليها النموذج. وبعد أن يستعرض الباحث مفاهيم وفرضيات النموذج ناقش الأزمات العالمية مثل تشرنوبيل في أوكرانيا في عهد الاتحاد السوفياتي سابقا 1986 وعلاقتها بالتغير الذي حدث في سياسة الطاقة النووية في السويدية .

وقد توصل الباحث إلى عدة نتائج منها ⁽³⁷⁾:

- هناك شكوك حول الأهمية المفترضة لعناصر النموذج مثل تعلم السياسات policy learning وتعبئة ائتلاف أقلية and minority coalition mobilization وكذا تفسيرات تغيير السياسات explanations for policy change في مجالات السياسة المتنازع عليها
- صنع سياسة الطاقة النووية السويدية يسلط الضوء على نقاط الضعف في هذا النموذج من خلال إظهار أن الأحكام السياسية كان لها أثر أكبر من المعتقدات الموجهة نحو السياسات باعتبارها الدافع الأول لتغيير السياسات كما يزعم النموذج.
- كان دور الأحزاب السياسية أكثر أهمية من الأنظمة الفرعية السياسية كما في صنع السياسة. وهنا يشير الباحث إلى أن المزيد من تعميم النموذج يتوقف على قدرته على دمج النخب الحزبية في الأنظمة الفرعية السياسية.
- وخلص الباحث في نهاية دراسته إلى أن النموذج يعتبر نقطة انطلاق مفيدة لتتبع التصعيد التدريجي للصراع السياسي والحركة من قضية إلى جدول الأعمال قرار حكومي. ولكن في رأي

الباحث سيكون مجزيا الاعتراف على الأقل مؤقتا بفائدة النموذج التسلسلي القائم على عدة مراحل في صنع السياسة العامة.

3-دراسة الباحثين كابولا أنا كلوديا نيدهارت و CAPELLA, Ana Cláudia Niedhardt و سوارس الوسندرا SOARES, Alessandra Guimarães و الفس رونان دو برادو ALVES, Renan do Prado تحت عنوان " خمسة وعشرون عام من التحدي و جهة نظر: دراسة تغيير السياسة في إطار الائتلاف الدفاعي " A twenty-five year old

challenge and perspective:
The study of the policy change in Advocacy Coalition Framework

التي صدرت في أكتوبر 2015، وقد حاول الباحثين دراسة النموذج منذ أول ظهوره عام 1988م مع تتبع محاولات تطويره والمراجعات التي تمت بشأنه في مراحل لاحقة. وبعد استعراض أهم المفاهيم والعناصر والفرضيات والأسس الأصلية التي يقوم عليها الإطار الائتلافي الدفاعي تناولت الدراسة أهم المراجعات التي طرأت على النموذج عام 2007م والتي مست مفهوميين أساسيين هما:

- الصدمات الداخلية internal shocks :

- اتفاقيات التفاوض negotiated agreements

وفي تقييم هذا النموذج يعتبر الباحثين أن هذا النموذج يسعى إلى توفير العناصر اللازمة لفهم عملية معقدة من السياسات العامة ولا يعني ذلك استبعاد الأدوات التحليلية الأخرى. وحسب الباحثين في حالات محددة لدراسة التغيرات في السياسات العامة يمكن استخدام الإطار ليكون بمثابة أداة النظرية في دراستهم ، كما يسمح هذا الإطار في رأيهم شرح عملية صنع القرار ككل ، وليس فقط للتحقيق في مرحلة معينة من دورة صنع السياسات العامة. وحسب الباحثين فانه هناك العديد من الأسئلة لا تزال في حاجة إلى إجابة مثل كيف هياكل فرصة

سياسية تؤثر على معتقدات التحالف ، والموارد والاستقرار و الاستراتيجيات بعد صدمة خارجية أو داخلية ، ما هي العمليات السببية التي تؤدي إلى التغيير السياسي؟⁽³⁸⁾

لكن العيب الأساسي الملحوظ في هذه الدراسة هو الاعتماد الكلي على كتابات بول سباتيه في رصد مجمل التطورات والمراجعات والإضافات التي عرفها النموذج و لا توجد في مقابل ذلك وجهات نظر مختلفة ومتعارضة مع النموذج كما أن غياب البرهنة التجريبية للنموذج والاكتفاء فقط بالإطار النظري المفاهيمي وهذا ما قلل في رأينا من الأهمية العلمية للدراسة.

4-دراسة الباحثة اليزابات كوبيل Elizabeth Koebele تحت عنوان " استخدام إطار

التحالف الدعوة لفهم عمليات السياسات التعاونية "

to Understand Collaborative Using the Advocacy Coalition Framework Policy Processes التي صدرت عام 2016 و حسب الباحثة النموذج الائتلاف الدفاعي هو الإطار النظري القوي لتحليل عمليات السياسات التي تعالج مشاكل معقدة، وهي ترى أنه يمكن تكييف النموذج لتحليل أفضل لعمليات السياسات التعاونية، خاصة وأن النموذج يقوم على مجموعة من الفرضيات القابلة للقياس المتعلقة بالائتلافات، والتعلم عبر السياسات، وتغيير السياسات. وبعد أن استعرضت الباحثة الإطار المفاهيمي للنموذج وأسباب اختياره له لدراسة عمليات السياسات التعاونية قامت بتحليل هذه السياسات وفق فرضيات وعناصر النموذج. و في ختام الدراسة ترى الباحثة أن النموذج مهم للدراسة و يمكن تكييف النموذج للاستخدام في دراسة عمليات السياسات التعاونية خاصة فيما يتعلق بتعديل الفرضيات وتطويرها⁽³⁹⁾.

خامسا: تقييم النموذج:

إن تقييم النموذج في ضوء ما تقدم سيتم وفق زاويتين الأولى تتعلق بمزايا وفوائد النموذج والثانية من الطبيعي أن تخصص للوقوف على عيوب النموذج والانتقادات الموجهة إليه.

أ - مزايا النموذج:

أبرز العديد من الباحثين أهمية وفائدة النموذج وسنستعرض هنا بعض وجهات النظر المؤيدة للنموذج منها:

1- الباحثان هيوغ ديرلان و كريستيان ماروي Hugues Drelants et Christian Maroy حسب هذان الباحثان يتمتع النموذج الإطار الائتلافي الدفاعي بعدة مزايا ومنها⁽⁴⁰⁾:

- هذا النموذج النظري يدمج التحيزات الهامة لتصورات الفاعلين في صنع السياسة العامة عكس النموذج العقلاني الرشيد.

- يسعى هذا النموذج إلى وضع العناصر المعرفية في إطار العوامل الاجتماعية الاقتصادية والمؤسسية التي تعيق تطوير عمليات السياسات العامة.

2- الباحث بول اميل ميغانول Paul-Émile Miganeault اعتمد هذا الباحث بشكل أساسي على النموذج بول سباتييه في دراسته حول تكوين السلطات في الوسط الزراعي والديمقراطية La configuration des pouvoirs en milieu agricole et la démocratie octobre 2001, université de québec a montréal canada ، وحسب هذا الباحث يتميز هذا النموذج بعدة مزايا منها⁽⁴¹⁾:

- يقدم هذا النموذج تفسيرات للتغيرات في السياسة العامة في قطاعات محددة.

- يبرز هذا النموذج الدور الكبير للمعتقدات التي أصبحت موضوع للصراعات.

3- الباحث بيفرلي سبرينغ Beverly Springer اعتمد هذا الباحث بشكل أساسي على نموذج التحالف الائتلافي الدفاعي في الدراسة التي أعدها عام 1993م تحت عنوان "تشكيل السياسة في إدارة النفايات في الاتحاد الأوروبي : دراسة حول بناء السياسة من منطلق نموذج سباتييه ائتلاف دفاعي" formulating a Policy on waste management in the EC : a study of Policy formulation based on Sabatier 's advocacy coalition approach .

وقد كشف الباحث في نهاية بحثه عدة ايجابيات ومزايا معرفية ومنهجية في استخدام هذا النموذج وحسب الباحث ، ومنها ⁽⁴²⁾:

– يوفر هذا النموذج رسم تخطيطي بسيط يوضح المتغيرات ذات الصلة وعلاقتها العملية السياسية.

– ركزت الاهتمام على القيم الاجتماعية والثقافي التي كانت عاملا أساسيا في تشكيل السياسة والتي لم يتطرق إليها في الدراسة التقليدية.

ب-عيوب النموذج:

سبق وأشرنا إلى بعض عيوب النموذج لكن الباحث الأمريكي الذي بلور النموذج بول سباتييه

Sabatier Paul أقر فقط بأن نمودجه الإطار الدفاعي الائتلافي يعاني من عيب واحد بقوله: "هناك نقد واحد جدير بالذكر وهو أن الإطار الائتلافي الدفاعي ربما لا يمكن تطبيقه بشكل مفيد في الدول الشمولية التي تمنع تشكل ائتلافات أقلية" "de coalitions minoritaires" ⁽⁴³⁾. وإذا كان هذا هو رأي الباحث بول سباتييه في نمودجه فانه في مقابل ذلك يستعرض مع زميل له كريستفور وايبيل Christofer M.Weible تحت عنوان التحالف الائتلافي الدفاعي ابتكار وتوضيح the advocacy coalition framework Inovations and clarification أهم الانتقادات التي وجهت إلى النموذج الذي وضعه ، وهي ⁽⁴⁴⁾:

– انتقد العديد من الباحثين هذا النموذج من منطلق أنه يتحدث ويحدد ما هو واضح أصلا، فكل ممارس سياسي ذو خبرة يمكنه التعرف على جوانب الجدل السياسي.

– انتقد العديد من الباحثين النموذج لان طبيعته تتطلب ذلك حيث يجري باستمرار مراجعة لانتقادات المتزايدة للنموذج وإدخال تعديلات عليه ، وبالتالي أصبح النموذج في حد ذاته هدف متحرك للنقد moving target to Criticism

— هناك العديد من أسئلة دون إجابة وغير مستكشفة مثل ما هو دور السلطة، الموارد، سياسات القادة في الترابط الوظيفي واستقرار العضوية في الائتلاف؟ هل يمكن استخدام النموذج كأداة عملية لصناع السياسة العامة؟ هل يمكن استخدام النموذج في إطار الأنظمة الفرعية العالمية...؟ الخ

كما انتقد باحثين آخرين النموذج مثل الباحث ويلبر بينغ يان لي Wilbur Bing-Yan Lu الذي يرى أن النموذج أهمل دور الوسطاء السياسيين والذي قد يؤدي في وقت من الأوقات إلى خلق إئتلافات متضاربة عكس ما يذهب إليه أصحاب النموذج⁽⁴⁵⁾. أما الباحثين هنري برجران Henri Bergeron و ايفس سيرل Yves Surel و جيروم فالي Jérôme Vally فقد أثار إشكالية عدم تحديد النموذج الميكانيزمات التي في ضوءها المعتقدات كما أثار مسألة المعتقدات croyance و المصالح intérêts و أيهما يساعد في تشكيل الائتلافات⁽⁴⁶⁾.

وفي ختام هذا التقييم يمكن القول أن النموذج منذ طرحه عام 1988م تم استخدامه في أكثر من 200 دراسة أمبريقية و استخدامه لا يزال محدود ولم يستخدم على نطاق واسع ، كما أن أغلب المراجعات تمت من طرف أصحاب النموذج في حد ذاته وهذا ما يطرح مسألة التحيز له في ظل عدم وجد آراء مغايرة وحيادية جديرة بالاهتمام.

إن نموذج الإطار الائتلافي الدفاعي من دون شك احتل مكانة بارزة و متصاعدة في حقل السياسة العامة باعتباره من النماذج المهمة المفسرة لصنع السياسة العامة والتغيير في السياسات العامة. وقد طرح هذا النموذج منذ ظهوره عام 1988 م إطار مفاهيمي محدد ومتربط ساهم إلى حد بعيد في إعطاء تفسيرات مختلفة ومغايرة لما هو موجود من نماذج السياسة العامة. ومن النقاط الهامة لهذا النموذج هو التزايد المطرد في استخداماته في الدراسات الأمبريقية خاصة المتعلقة بالتغير الذي يحدث في السياسات العامة في فترات زمنية طويلة وقد منحت نتائج هذه الدراسات

فرص مهمة لإعادة النظر في النموذج لإجراء المزيد من التعديلات والتنقيحات والمراجعات بشأنه. ومع ذلك يمكن القول إن هذا النموذج لا يطرح نفسه كبديل للنماذج التسلسلية أو للنماذج الأخرى في حقل السياسة العامة وفي نفس الوقت هذا النموذج لم يستقر شكله النهائي بعد ولا يزال هدف متحرك للنقد المستمر.

المراجع:

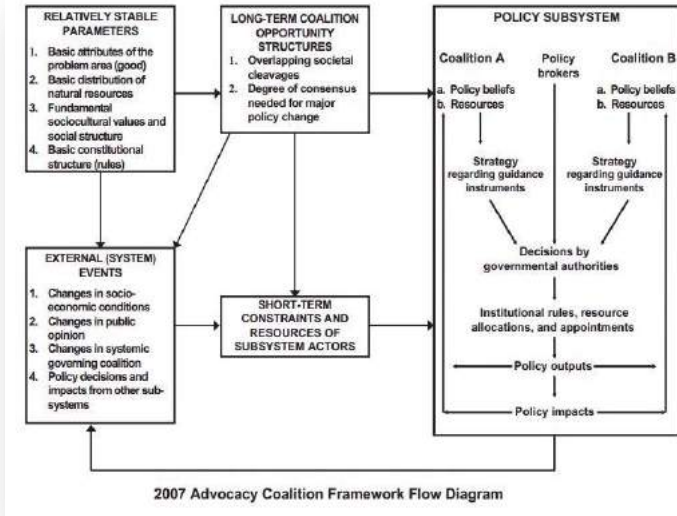
- 1- جيمس أندرسون، صنع السياسات العامة، ترجمة: عامر الكبيسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1999، ص 24.
- 2- Peter knoepfer and authors, public policy analysis, Marston book services oxford, Great Britain, 2011p 23
- 3- Patrik Hassenteufel, sociologie politique : l'action publique, armand colin éditeur paris France, 2008, p7.
- 4- Ibid, p7.
- 5- جيمس أندرسون، المرجع السابق، ص 15.
- 6- Thomas.R.Dye, understanding public policy, prentice-all, inc, englewood cliffs, new jersey USA. second edition 1975, p7.
- 7-Poul A Sabatier et Edell Schlager, Les approches cognitives des politiques publiques perspectives amricaine, française de science politique, 50 année, n°2, 2000. P 227.
- 8- محمد شلبي، المنهجية في التحليل السياسي: المفاهيم، المناهج، الاقتربات، والأدوات. الجزائر، (دون دار نشر)، 1997، ص 15.
- 9- Thomas.R.Dye, op cit, p 38.
- 10- Ibid, p17.
- 11- Poul. A. Sabatier (ed.), Theories of the Policy Process, Boulder, CO: Westview Press, 2 éditions, 2007, p8.
- 12-Paul Cairney, Policy Concepts in 1000 Words: The Advocacy Coalition Framework,

<https://paulcainey.wordpress.com/2013/10/30/policy-concepts-in-1000-words-the-advocacy-coalition-framework/> يوم 26 جوان 2016

- 13-Bouriche Riadh ,analyse de politiques publiques ,revue sciences humaines ,université mentori, constantine, algérie, n 25,juin 2006,p 92.
- 14- Poul. A. Sabatier (ed.), Theories of the Policy Process, Ibid,p7.
- 15- Daniel Kubler et Jacques de Maillard, analyser les politiques publiques,presses universitaire de grenoble ,2009.france,p176.
- 16- Henri Bergeron, Yves Surel, Jérôme Valluy,L'Advocacy Coalition Framework. Une contribution aurenouvellement des études de politiques publiques ? In: Politix, vol. 11, n°41, Premier trimestre 1998,p200.
- 17- Ibid,p197.
- 18- Paul A Sabatier, and Christopher M.Wieble, the advocacy coalition framework : innovation and clarifications, in P.A. Sabatier (ed.), Theories of the Policy Process, op cit p 194
- 19- Henri Bergeron et autres, op.cit p 206.
- 20-Paul Cairney,op.cit
- 21- Daniel Kubler et Jacques de Maillard,op.cit p 177.
- 22- Elizabeth Koebele,Using the Advocacy Coalition Framework to Understand Collaborative Policy Processes, Prepared for the 2016 Western Political Science Association Conference San Diego, California March 24-26, 2016.pp23-24.
- 23- Paul A Sabatier, and Christopher M.Wieble, op.cit pp 201-203
- 24- Ibid,p192.
- 25- Wilbur Bing-Yan Lu, Why Do Policy Brokers Matter? A Lesson for Competing Advocacy Coalitions, Journal of Administrative Sciences and Policy Studies, Vol. 3(2), December 2015,p35.
- 26- Daniel K`ubler, Understanding policy change withthe advocacy coalition framework:an application to Swiss drug policy , Journal of European Public Policy 8:4 August 2001,p629.
- 27- Paul A Sabatier, and Christopher M.Wieble, op.cit pp 198-199.
- 28- Ibid,p204.
- 29- Ibid,p205.
- 30- Sabatier, Paul A. and Jenkins-Smith, Hank C. 'The advocacy coalition framework:an assessment', in P.A. Sabatier (ed.), Theories of the Policy Process, Boulder,CO: Westview Press, 1999,p p 118-119.
- 31- Sabatier, Paul A. and Jenkins-Smith, Hank C,op.cit 124.
- 32- Daniel K`ubler,op.cit 625.
- 33- Sabatier, Paul A. and Jenkins-Smith, Hank C

- 34- Paul A Sabatier, and Christopher M.Wieble, op.cit pp 191-192.
- 35- Ibid,pp 199-200.
- 36- Daniel K"ubler,op.cit 638.
- 37- Daniel Nohrstedt Do Advocacy Coalitions Matter? Crisis andChange in Swedish Nuclear Energy Policy, Journal of Public Administration Research and Theory Advance Access published February 11, 2009,p 20.
- 38- CAPELLA, Ana Cláudia Niedhardt SOARES, Alessandra Guimarães ALVES, Renan do Prado
A twenty-five year old challenge and perspective: The study of the policy change in Advocacy Coalition Framework , XIX IRSPM – Birmingham 2015,www.irspm2014.com/index.php/irspm/.../paper/.../367 2016 يوم 26 جوان
- 39- Elizabeth Koebele,p 34.
- 40- Hugues Drelants et Christian Maroy,l'analyse des politiques :un panorama ,revue de la littérature,juni 2007.p 14.
- 41-Paul-Émile Miganeault, La configuration des pouvoirs en milieu agricole et la démocratie,université de québec a montréal canada , octobre 2001,pp24-25
- 42- Beverly Springer ,formulating a Policy on waste management in the EC : a study of Policy formulation based on Sabatier 's advocacy coalition approach,European community studies association conference ,washington,USA,may1993,p15.
- 43- Sabatier, Paul A,advocacy framework (afc),in Laurie Boussaguet et autres,dictionnaire des politiques publiques,preses de sciences politiques ,France ,3 édition, 2010, p56
- 44- Paul A Sabatier, and Christopher M.Wieble, op.cit pp 207-209.
- 45- Wilbur Bing-Yan Lu, op.cit p35
- 46- Henri Bergeron et autres ,p 46

الملحق : الرسم البياني لنموذج الإطار الائتلافي الدفاعي 2007



المصدر: Paul Cairney, Policy Concepts in 1000 Words: The Advocacy Coalition Framework,
<https://paulcairney.wordpress.com/2013/10/30/policy-concepts-in-1000-words-the-advocacy-coalition-framework/>

نهاية الدولة القومية بعد العولمة: مفاجأة استراتيجية في القرن الحادي والعشرين

After the end of the nation-state of globalization

أ.بركة محمد

جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/14

Abstract :

The twentieth century was the surprises year, And the use of the term "strategic surprise" became a fashion. The nation-state, which was established in Europe since the sixteenth century and then evolved, became an active element in the field of international relations, From 51 full member in 1945, the number of members of the United Nations Organization rose to 193 in 2011, and there are more if you include entities that declare itself states but is not recognized by the international community. The twentieth century was the century of separation and disintegration, the emergence of several countries that have been created in half century, and this phenomenal growth can point us to think that the concept of nation-state make sure once and for all. But it may not be simple.

Key words: :

strategic surprise- The nation-state- International relations-

إن كان القرن العشرين قرن انتشار الدول القومية، فقد يكون القرن الحادي والعشرين مرحلة إعادة تشكيل الوحدات السياسية إما عن طريق العودة إلى الأشكال القديمة، أو ربما أكثر، من خلال نموذج التهجين خلط الأشكال القديمة والجديدة مع مساعدة التكنولوجيا الحديثة. هل يحتفظ لنا القرن الحادي والعشرين بمفاجآت على نطاق واسع ؟، أصبح إستعمال مصطلح "مفاجأة استراتيجية" من الموضة. كما هو الحال دائما، فإن المفاجأة هي ما لا يتوقع حدوثه، فيمكن توقع تأثير المناخ، أو أزمة اقتصادية ومالية، لكن لم نكن نتوقع بالضرورة تفكك الدولة، وأكثر من ذلك الدولة القومية¹، التي أنشئت في أوروبا منذ القرن السادس عشر و تطورت بعد ذلك، حيث أصبحت عنصرا فعالا في مجال العلاقات الدولية²، من 51 عضوا كاملا عام

1945، ارتفع عدد أعضاء منظمة الأمم المتحدة إلى 193 عام 2011³، و هناك أكثر إذا احتسبنا الكيانات التي تعلن نفسها دولا لكنها غير معترف بها من قبل المجتمع الدولي. إن القرن العشرين كان قرن الانفصال والتفكك⁴، بظهور العديد من الدول التي تم إنشاؤها في نصف قرن، و هذا النمو الهائل يمكن أن يوجهنا إلى التفكير إلى أن مفهوم الدولة القومية تأكد نهائيا وإلى الأبد. لكن الأمر قد لا يكون بهذه البساطة ...

في الواقع، قد تكون تعريف الدولة القومية متناقضة. تعرف اليونسكو⁵ الدولة القومية باعتبارها التماسك بين الحدود، العرق و الثقافة مع تأكيدها أن هذا لا وجود له...⁶. هذا التعريف يذكر أكثر بكثير المفهوم القديم للأمة كما كان في القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين. و على عكس ذلك، نهاية الدولة العثمانية و انتهاء الاستعمار عزز بكثير أطروحة رينان⁷، الذي يرى في الدول القومية التقاء شعوب من أصول مختلفة، من إقليم و رغبة إلى مجموعة من القيم المشتركة، حسب رينان يكون فرنسا من يعلن فرنسا و يتواصل في قالب مشترك على أساس الطوعية و الاختيار الحر، "الأمة المختارة" كما يقول ماكس فيبر. هذا الموقف يتعارض مع مبدأ الجنسية عن طريق الدم، أو العرق (النموذج الألماني)⁸. ولكن في نهاية المطاف، و بعد إنهاء الاستعمار، تم فرض أطروحة "رينان". وبالتالي، السكان، أو "الأمم"، و الذين حاربوا كثيرا على مر التاريخ، وجدت نفسها مرغمة للعيش تحت سقف وطني واحد.

مع بداية القرن الحادي والعشرين، تأثيرات العولمة، الأزمة المالية و الإقتصادية، و حدوث نزاعات داخلية في الدول ترجع إلى انهيار الأنظمة السلطوية الاستبدادية في العديد من الدول، كل هذه الأمور شكلت تحديا للنموذج السابق، و أصبح بقاء الدولة القومية محل تساؤل⁹.

لذلك، ربما لا يكون من العجب إذن أن يفشل نموذج الدولة القومية في أحيان كثيرة؛ فمنذ عام 1960، اندلعت أكثر من 180 حرباً أهلية على مستوى العالم. و كثيراً ما كانت تُعزى

هذه النزاعات الداخلية إلى توترات عرقية و فتن طائفية. و الدول التي تنهار - مثل سوريا في الوقت الحالي - عادةً ما تكون ممزقة بمثل هذا النوع من العنف العرقي و الطائفي. و بحسب فكرة أن الدولة القومية ينبغي أن تضمّ أمة واحدة فقط، فكثيراً ما يُلقى باللوم في حالات الإخفاق هذه على الإرث الاستعماري الذي جمع بين شعوب كثيرة داخل حدود غير طبيعية. لكن في مقابل كل دولة مثل سوريا أو العراق ثمة دول مثل سنغافورة أو ماليزيا أو تنزانيا، ينسجم أفراد شعبها على نحو جيد، على الرغم من أنهم يتشكّلون من جماعات «قومية» متعددة. و في ذات الوقت، ألغت الدول التي تضم أعداداً كبيرة من المهاجرين مثل أستراليا و الأمريكتين أمماً متحدة من تنوع أولي ضخم¹⁰.

بطبيعة الحال يمكن القول أن المواطن تربطه بدولته رابطة قانونية (الجنسية)، و رابطة عاطفية (الحب و الولاء للوطن)، و يكون بذلك شعب الدولة. لكن إذا ما وجدت في الجماعة البشرية روابط أخرى معنوية تستند على مقومات معينة، كوحدة الأصل، اللغة، الدين، التاريخ المشترك فسنكون أمام ما يسمى بالأمة.

لكن لاشك أن منظري مقولة الأمة، تحدثوا و أكثروا الحديث عن اللغة بوصفها العامل الأول للهوية القومية¹¹، لكن حتى مطلع القرن 19 كان نصف سكان فرنسا لا يتكلمون الفرنسية، و أكثر من نصف سكان إيطاليا لا يتكلمون الإيطالية، و أكثر من ذلك سويسرا التي يتكلم شعبها أربع لغات.

قد يكون أصدق تعريف للأمة هو ذاك الذي اقترحه رينان أنها نتاج إرادة مشتركة لا واقع مادي (فالانتماء إلى قوم ليس مسألة عرق بل مسألة إرادة أي الرغبة في العيش المشترك معا داخل حدود معينة).

في الواقع منذ عهد الثورة الفرنسية و الحروب النابليونية، حدث تداخل بين مفهومي الوطنية و القومية. يمكن القول أن الوطنية هي شعور طبيعي لدى الإنسان بحبه لأرضه و ذويه،

أما القومية فهي شعور اصطناعي يقوم أساسا على كراهية الآخرين، لذلك ارتبطت القومية بالعدوانية و أصبحت من المصطلحات غير المرحب بها في أوروبا.

القومية فكرة وضعية نشأت أول ما نشأت في البلاد الأوروبية شأن غيرها من الحركات و الأفكار التي تبحث عن التفلت من رابطة الدين و يلاحظ أن دعائها قد اختلفوا في المفهوم الصحيح لها، هل هي بمعنى تجمع أمة من الناس و ارتباط بعضهم ببعض هدفا و سلوكا و غاية. إما لانتمائهم إلى لغة واحدة — كما يرى القوميون الألمان — و إما لانضوائهم في عيشة مشتركة — كما يرى القوميون الفرنسيون — أم أنها لكليهما. أو أنها لغير ذلك من أمور سياسية و اقتصادية كالاشتراك في المعيشة الاقتصادية كما يرى الماركسيون أو الاشتراك في التاريخ و اللغة في البلد الواحد كما يرى كثير من دعاة القومية العربية ساطح الحصري¹² و من سلك سبيله بحيث يحسون أنهم جميعا كتلة واحدة و أن ما يجري على البعض من آلام و آمال هو ما يجري على الكل فتقوم قوميتهم على هذا المفهوم¹³. يقول برنارد لويس: " فالليبرالية و الفاشية و الوطنية و القومية و الشعبوية و الاشتراكية كلها أوروبية الأصل مهما أفلمها و عدلها أتباعها في الشرق الأوسط"¹⁴.

فالدولة القومية ما قامت قائمتها و لا تحددت حدودها في أغلب الحالات إلا بالحرب، فانجلترا هي بنت الحرب الطويلة ضد الاسكتلنديين و الويلزيين، و فرنسا وريثة حروب الثورة، و الولايات المتحدة الأمريكية تولدت من الحرب ضد الانجليز، الاسبان، الهنود، أما ألمانيا فقد رسمتها الحروب البسماركية.

كما نجد الآن أن تطور الدولة لم يكن منفصلاً بأي حال عن نشوء الكيانات العالمية، فكانت استقلاليتها مرتكزة على مبادئ السيادة الوطنية و المساواة ما بين الدول. لقد شكلت الدولة جزءاً من نظام الدول التي اعتمدت على بناء القواعد و النظم العالمية، و هذا ما أرسنه معاهدة وستفاليا عام 1648، و ضمنت حل المشاكل بين الدول إلى أن تركت معظمها و جرى حلها بالعنف،

مع دخول عام 1945، دخلت دول العالم مرحلة جديدة و هي مرحلة الأمن الجماعي الذي أرسنه الأمم المتحدة و ضمنت حماية الأمن و السلم الدوليين، لذلك ينظر إلى الأمم المتحدة بأنها "حكومة العالم الحقيقية و التي يتوقع في النهاية أن تحل محل الدول".

هذا من ناحية، من ناحية أخرى ظهرت مجموعة من الكتابات السياسية تؤكد بأن " العولمة السياسة " في الألفية الثالثة هي فوقية «الشرعية الدولية»، مما يتطلب إعادة تعريف " سيادة الدولة " بواسطة قوى العولمة، ليصبح مفهوم الدولة هو تعبير عن الإرادة الجماعية لسكان أي إقليم، لأن وحدة التكوين في العولمة هي «الكوكب». من ناحية ثالثة بدأت مراكز الأبحاث في الولايات المتحدة على وجه الخصوص، تردد أننا نعيش بالفعل عصر "الهويات" و الأصوليات، و العودة إلى ما قبل الإنتماء الوطني، و إن كان قد تبلور هذا الطرح عام 1979 مع " هنري كيسنجر " مستشار الأمن القومي الأمريكي، و وزير الخارجية الأسبق في مرحلة الحرب الباردة. و عقب أحداث سبتمبر 2001، كتب كيسنجر مقالين متتاليين في مجلة شؤون خارجية الأمريكية، نعي فيهما موت معاهدة وستفاليا عام 1648، مؤكداً على أن العالم دخل مرحلة جديدة بظهور التنظيمات المستقلة عن الدولة و القادرة على تهديد الأمن المحلي و العالمي، مما يعني تآكل مفهوم الدولة بالمعنى التقليدي، و نهاية التصور القديم لمفهوم السيادة الوطنية¹⁵.

كذلك ترى الأستاذة آن ماري سلوتر¹⁶ أن الهياكل الهرمية تُفسح الطريق لشبكات عالمية تتكوّن في الأساس من خبراء الدول القومية و بيروقراطيتها. على سبيل المثال، تعمل الحكومات الآن عبر شبكات مرنة مثل مجموعة الدول الصناعية السبع (أو الثماني أو العشرين) لإدارة المشكلات العالمية بدرجة أكبر من عملها من خلال الهيكل الهرمي للأمم المتحدة .

و من وجهة نظر البروفيسور إيان جولدن¹⁷ فإن مثل هذه الشبكات ينبغي أن تظهر. و يعتقد أن المؤسسات القائمة - مثل وكالات الأمم المتحدة و البنك الدولي - عاجزة من الناحية البنيوية عن التعامل مع المشكلات التي تنشأ من العلاقات العالمية المتبادلة؛ مثل: عدم الاستقرار

الاقتصادي، و الأوبئة، و التغير المناخي، والأمن الإلكتروني، و يرجع ذلك جزئياً إلى أن هذه المؤسسات هي هياكل هرمية من الدول الأعضاء التي تعجز هي نفسها عن التعامل مع هذه المشكلات العالمية، و يستشهد جولدن بقول سلوتر: «إن المشكلات الشبكية تتطلب استجابة شبكية»¹⁸.

ستكون خلاصة القول حسب ما جاء به ¹⁹ Thierry Wolton في كتابه "نهاية الأمم" La Fin des Nations، الصادر عام 2002، أن القومية قد أدت وظيفتها، و إن كانت وظيفة غير مشرفة، و قد آن الأوان لتغادر مسرح التاريخ. فمع بداية عصر العولة لم يعد ثمة وجود لا لاقتصاد قومي محض، و لا لثقافة قومية محضة، و لا لقانون قومي محض، و لا لإعلام قومي محض، فالدولة القومية كانت تمثل خط الدفاع الأخير أمام مد العولة.

الآن شئنا أم أبينا، قد تكون مجتمعاتنا في طور مرحلة انتقالية، إلا أنه ليس بإمكاننا بعد أن نتخيل عدم وجود بلدان، و لكن إدراك أن هذه البلدان كانت حلولاً مؤقتة لمواقف تاريخية معينة يمكنه فقط أن يساعدنا على التعامل مع الانتقال إلى أية مرحلة نحتاج إليها فيما بعد. و سواء أكانت بلداننا تحتتمل أم لا، فإن الهياكل التي ندير شئوننا من خلالها تنتظر تغييراً؛ لذا فقد حان الوقت لنبدأ التخيل.

¹ أصبحت الدولة صاحبة السيادة المطلقة التي لا تعلوها سيادة، و السيادة هي السند القانوني الذي تستند عليه الدولة في مباشرة صلاحياتها الداخلية و الخارجية، و هي السلطة العليا التي لا تعادلها سلطة أخرى، و التي تسمح للدولة بممارسة وظائفها و اختصاصاتها داخل إقليمها الوطني أو مجالها الجغرافي بشكل انفرادي، كما تعني السيادة: الاستقلال التام عن الدول الأخرى بحيث لا يتم تلقي الأوامر و التعليمات من سلطة خارجية.

² لقد كانت اتفاقية وستفاليا لعام 1648 الأساس في تأسيس الدول القومية واندماج مكونات كل دولة معا في إطار علاقات متساوية بينها على قاعدة المواطنة داخل الدولة الواحدة من جانب، وعلى قاعدة الاستقلال بين الدول القومية من جانب آخر. أنظر في ذلك : مايكل هاردي، أنطونيو نيغري تعريب فاضل جتكر. الإمبراطورية -إمبراطورية العولة الجديدة-، الطبعة الأولى، 2002، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، ص23 و ما بعدها، ص150 و ما

بعدها.

³ انفصلت جمهورية جنوب السودان رسمياً عن السودان في 9 تموز/يوليه 2011 كنتيجة للاستفتاء الذي جرى تحت رقابة دولية في كانون الثاني/يناير 2011، وتم قبول جنوب السودان كدولة عضو من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة في 14 تموز/يوليه 2011. عن الموقع الرسمي لمنظمة الأمم المتحدة : www.un.org

⁴ أنظر : La planète émietée, morceler et lotir, un nouvel art de dominer, Arléa, Paris,

2002, p.32

⁵ تأسست منظمة الأمم المتحدة للتربية والتعليم والثقافة (يونسكو) عام 1945، وهي تتألف من 193 دولة عضوا بعد انضمام جنوب السودان إليها، إضافة إلى ثمانية أعضاء منتسبين. تنتمي منظمة اليونسكو إلى عائلة الأمم المتحدة وتشاطرها مُمثلها وأهدافها أي: السلام والأمن، والعدالة وحقوق الإنسان، وتعزيز التقدم الاقتصادي والاجتماعي وتحسين مستوى المعيشة.

يقع مقر اليونسكو في العاصمة الفرنسية باريس، في مبنى حديث واستثنائي افتتح عام 1958، لكن أعيد ترميمه في المدة الأخيرة. وللمنظمة أيضاً أكثر من 50 مكتبا ميدانيا في جميع أنحاء العالم. كما تنشط المنظمة في مجالات متعددة منها الثقافة، والتربية، والعلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية والإنسانية والاتصال والمعلومات. وفي كل من هذه المجالات تسعى المنظمة لتحقيق أهداف سطرته لنفسها. أنظر محمد السعيد الدقاق، التنظيم الدولي، طبعة ثانية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، 1982. ص 437.

⁶ التعريف والصفحات التي خصصتها منظمة اليونسكو لمفهوم الدولة بشكل خاص معقدة نوع ما. فهي تعرض صحة دولة اليوم للجدل « L'état-nation est un domaine dans lequel les frontières culturelles se confondent aux frontières politiques. L'idéal de l'état-nation est que l'état incorpore les personnes d'un même socle ethnique et culturel. Cependant, la plupart des états sont polyethniques ».

و الدولة القومية أيضا « existerait si presque tous les membres d'une seule nation était organisés en un seul état, sans autre communautés nationales présentes. Bien que le terme soit souvent usité, de telles entités n'existent pas ».

إن الأمة بالتفكير الحديث هي نتاج القرن 19. منذ العصر الحديث، تعرف الأمة بأنها ذلك المجتمع السياسي الذي يضمن شرعية الدولة في أراضيها، و تحول الدولة إلى دولة كل مواطنيها. إن مفهوم الدولة القومية يركز و يصير على ذلك

التحالف الجديد بين الأمة و الدولة. ومن المقترض أن تقوم الجنسية بربط المواطن بالدولة و امتيازات السياسات الاجتماعية لدولة الرفاه.

أنظر: www.unesco.org/new/fr/social-and-human-sciences/themes/international-migration/glossary/nation-state/

⁷ أرنست رينان ولد في 28 فبراير 1823 و توفي عام 1892، مؤرخ و كاتب فرنسي اشتهر بترجمته ليسوع التي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينية نقدًا تاريخيًا علميًا و إلى التمييز بين العناصر التاريخية و العناصر الأسطورية الموجودة في الكتاب المقدس. اشتهر أيضًا بتعريفه للقوم وخاض نقاشًا حادًا مع المفكرين الألمان الذين كانوا يرون سكان منطقتي الألزاس و اللورين (الفرنسيتين اللتين كانت ألمانيا تحتلها منذ 1870) ألمان من حيث العرق فردّ رينان قائلا إن الانتماء إلى قوم ليس مسألة عرق بل مسألة إرادة و وصفه بالاستفتاء. فلا يزال هذا التعريف للقوم يلعب دورًا كبيرًا في تصور الفرنسيين لشعبهم و هويتهم. فلذلك أصبح رينو رمزًا من رموز فرنسا الجمهورية العلمانية القومية و أطلق اسمه على كثير من المدارس و المباني العمومية.

⁸ « Il n'y a rien de commun entre la conception anglaise, américaine et française de la nation étroitement associée à l'élaboration d'un Bill of Rights, depuis l'exemple anglais de 1689, et que Dominique Schnaper a justement défini comme la communauté des citoyens et l'idée de Volk qui unit l'idée de nation et celle de peuple, une définition ethnique et une définition politique de la nation. » Alain Touraine, « Le nationalisme contre la nation » in Pierre Birbaum (dir.), Sociologie des nationalismes, PUF, Paris, 1997, p. 408. Voir aussi Jean-Luc Chabot, Le nationalisme, PUF « Que sais-je ? », Paris, 1986.

⁹ « La mondialisation alimenterait la crise de l'Etat-nation en remettant en cause d'une part les fonctions générales de l'Etat et, d'autres part, les dimensions de la nation. L'Etat devrait être plus « modeste » et déléguer à d'autres formes de gouvernance, locales ou globales, une partie de son domaine y compris certains de ses droits. » Jean-Marc Siroën, « L'Etat-nation survivra-t-il à la mondialisation ? »

dauphine.fr/siroen/epi.pdf, p. 12 ; parution papier in : P. Berthaud & G. Kebabdjian (éds.), La question politique en économie internationale, Paris, La Découverte, 2006.

¹⁰ ديبورا ماكنزي، نهاية الدولة القومية: هل ثمة بديل؟، مجلة نيوساينتيسست، المجلد 223، العدد 2985، 3 سبتمبر 2013، ص 30-37، ترجمة سارة عادل، 1 فبراير 2015.

وحدة اللغة بين فرنسا و بلجيكا، بين اسبانيا و دول أمريكا اللاتينية، بين البرازيل و البرتغال لم تجعل منهم أمة واحدة.¹¹

¹² مفكر سوري/عراقي و أحد مؤسسي الفكر القومي العربي، و هو أحد الدعاة و المصلحين القوميين الذين زخر بهم المشرق العربي ممن تبنوا الدعوة إلى القومية العربية.

¹³ الموسوعة الميسرة في الأديان و المذاهب و الأحزاب المعاصرة، إشراف و تخطيط و مراجعة د. مانع بن حماد الجهني، المجلد الأول، الطبعة الرابعة، دار الندوة العالمية للطباعة و النشر، الرياض، 1999، ص 447، 448.

¹⁴ برنار لويس (الغرب والشرق الأوسط)، ترجمة نبيل صبحي، لا ذكر للناسر، بيروت، 1965، ص 2.

¹⁵ عصام عبد الله، نهاية الدولة القومية، صحيفة المؤتمر، العدد 2983، 05 حزيران 2014.

¹⁶ أستاذة العلوم السياسية بجامعة برينستون، ومساعد وزير خارجية الولايات المتحدة سابقاً.

¹⁷ مدير كلية أكسفورد مارتن بجامعة أكسفورد، التي تحلل مشكلات عالمية.

¹⁸ ديبورا ماكنزي، مرجع سابق.

¹⁹ كاتب فرنسي في مجال العلاقات الدولية.

ملف باللغات الأجنبية

Dialogue Méditerranéen

Revue académique spécialisée en sciences Humaines et sociales
éditée par le laboratoire de recherches sur les études
orientalistes de la civilisation du Maghreb Islamique
Université Djillali Liabes Sidi Bel Abbés- Algérie



N° 13-14

Décembre 2016

ISSN : 1112-945X

Dialogue Méditerranéen

Revue académique spécialisée en sciences Humaines et sociales
éditée par le laboratoire de recherche sur les études
orientalistes de la civilisation du Maghreb islamique
Université Djillali Liabes Sidi Bel Abbés- Algérie



N° 13-14
Décembre 2016

ISSN : 1112-945X
Dépôt légal : 4402-2009

Dialogue Méditerranéen

**Revue académique spécialisée en sciences Humaines et Sociales
éditée par le laboratoire de recherche sur les études
Orientalistes de la civilisation du Maghreb Islamique**

Directeur de la Revue

Pr. Hanifi HALAILI

Rédacteur en chef

A.E.K SAHRAOUI

Comité de la rédaction

**Dr. Hamida Ben Brahim
Dr. Bel Abbes Missouri
Pr . Abd El Kader SAHRAOUI
Dr. Soraya METADJER**

**Pr. Miloud Touahri
Dr. Ghaouti Nouli
Dr.Mohamed Samir Ayad
Pr. Hanifi HALAILI**

Comité Scientifique consultatif

Pr. Abd El Hamid Hadjiet (Univ-Tlemcen)	Pr. Abd El Aziz Lareg (Univ- Alger 2)
Dr. AbdElKader Doha (Univ-Khemis Miliana)	Pr.Ahmet YALDEZ(Turquie)
Pr. Ibrahim Sadaoui (Univ -Tunis)	Pr. Ibrahim MEHDID (Univ-Oran 2)
Pr. BOURICHE Riadh (Univ- Constantine 3)	Pr. JADOUR Mohamed (Univ-Rabat- Maroc)
Pr.TLILI Agili (Univ- Tunis)	Pr.Med Amine BELGHIT(Univ- Alger 1)
Pr. Mohamed Mahmoud ALSSAID (RA Saudia)	Pr. Mohamed MEKAHLI(Univ- Sidi Bel Abbés)

SOMMAIRE

DR. NOUALI GHAOUTI	P. 6
Unterrichtssprache im DaF-Unterricht in Algerien	
DR. Mohamed JADOUR	P. 13
Les figures de la mobilité du pouvoir Makhzanien	
Dr.Djillali MELLAK	P. 20
Le poème - chant populaire maghrébin la célébration Toujours recommencée	
Latifa SELLAM	P. 29
Learnability of Conceptual Metaphor:1 ST Year LMD Students asa Case Study	
Pr. Bellabbes MISSOURI	P. 46
Description des pratiques de lecture : cas des apprenants de la 1 ^{ère} année universitaire de langue française	
Abdelilah DEHANI	P. 51
Le système portuaire du Nord du Maroc au 17 et 18 siècles.	
Nassima BENTAALLAH	P. 59
L'usage de l'adverbe quantitatif et intensif chez l'apprenant de 1ère année secondaire dans le contexte algérien.	
Malika MANSOUR	P. 64
Le théâtre à l'école : une autre façon d'enseigner le FLE	

Unterrichtssprache im DaF-Unterricht in Algerien *German Language Teaching in Algeria*

Dr. Nouali Ghaouti

Université Djilali Liabés Sidi Bel Abbés

Abstract:

There are different aspects to the question of which education language should be given priority about the field of German as a foreign language. A tendency beginning from the source language and gradually progressing to the target language will also affect the learning in a positive way. In this way, the learners will follow German as a foreign language in a natural learning environment and their communicative abilities will improve.

Key words:

Teaching German as a foreign language, Education language.

Zur Frage, welche Sprache als Unterrichtssprache im Bereich Deutsch als Fremdsprache bevorzugt werden sollte, gibt es unterschiedliche Antworten. Es könnte lernfördernd sein, wenn von der Ausgangssprache mehr zur Zielsprache eine Überbrückung erstrebt wird. Demzufolge könnten Lernende die zu erlernende Sprache in einem natürlichen Sprachraum erleben und somit die Kommunikationskompetenz in Deutsch als ein primäres Ziel des DaF-Unterrichts mehr erreichen. Welche Einstellungen die Lernenden gegenüber der Unterrichtssprache Deutsch im DaF-Unterricht haben, wird im Rahmen dieser Arbeit versucht darzustellen.

Könnte in einer Situation, in der man Deutsch als Fremdsprache lernt, diese Sprache aber im natürlichen Sprachraum fast kaum hört und auch wenig verwendet, von einem Fremdsprachenlernprozess die Rede sein? Diese zentrale Frage ist für das Lehren und Lernen von Deutsch als Fremdsprache außerhalb der deutschsprachigen Länder, vor allem in geographisch entfernten und kulturkundlich andersgearteten Gegenden erstrebt evident. Dieser Aspekt betrifft selbstverständlich auch die Deutschlehrausbildung vor Ort. In dem

vorliegenden Beitrag geht es um die Darstellung der Lage an den algerischen Universitäten.

Unverzichtbarer Gegenstand der wissenschaftlichen Beschäftigung im Studiengang Deutsch als Fremdsprache ist es u.a. zum einen darum sich die deutsche Sprache als fremde Sprache anzueignen und zum anderen darum die Lehr- Lernprozesse auf die Sprache Deutsch als Fremdsprache zu beziehen. Diese können zwar in dem Studiengang unterschiedlich stark gewichtet sein und vertieft werden, sie sind aber doch obligatorische Richtlinien. Es befinden sich demzufolge verschiedene Organisationformen und Implementierungen von Deutsch als Fremdsprache in der universitären Ausbildung. Welche Einstellungen haben jedoch die Lernenden zu der Unterrichtssprache in den Lehrveranstaltungen? Sollten die Veranstaltungen in der Muttersprache Arabisch bzw. Französisch oder in der Zielsprache Deutsch oder in beiden Sprachen erfolgen? Aus dieser Fragestellung lässt sich das Ziel der vorliegenden Arbeit ableiten. Ziel ist es, die Einstellungen der Studierenden zum Untersuchungsgegenstand quantitativ festzulegen und diese zu bewerten.

In jedem Umfeld des Menschen gibt es generell stets zwei Dimensionen: Etwas hat Vor- und/oder Nachteile, etwas kann natürlich oder künstlich sein, etwas kann theoretisch oder praktisch sein, etwas kann kognitiv oder emotional sein. Die Dimensionen der Gegensätzlichkeit sind für Menschen, die eine Fremdsprache lernen auch von hoher Dominanz. Im Umfeld des Fremdsprachenlernprozesses ist zwischen verschiedenen strukturellen Betrachtungsweisen der zu lernenden Fremdsprache zu unterscheiden. Wenn es sich beispielsweise um die Vermittlung eines Grammatikpensums handelt, sind Form, Bedeutung und Funktion wichtige Themen. Die Form eines Verbs sagt beispielsweise aus, dass das Verb konjugierbar ist, wobei die Bedeutung eines Verbs eine Tätigkeit ausdrückt. Die Funktion basiert darauf, dass das Verb als Satzglied ein Prädikat sein kann (vgl. Spillmann 2004: 93). Allen drei Ebenen ist gemeinsam, dass sie das sprachliche Objekt theoretisch erfassen.

Bei der Anwendung eines Grammatikpensums könnten wiederum zwei Ebenen festgestellt werden: Einmal die Anwendung im künstlichen Umfeld, gemeint ist zum einen die Beschriftung einer erlernten Struktur, zum anderen die Übungsform im natürlichen Umfeld. Des Weiteren kann die textgrammatische Betrachtungsweise der Wortart ‚Verb‘ eine große Aussagekraft haben, wenn sie in einem Textgewebe erscheint (vgl. Weinrich: 2004). Bezüglich der Textebene kann auch eine textlinguistische Betrachtungsweise, die sich hauptsächlich auf die kohäsiven und kohärenten Ebene stützt, eine entscheidende rezeptive und produktive Sprachkompetenz vermitteln (vgl. Brinker: 1992).

Neben all diesen strukturellen Ebenen trägt die pragmatische Betrachtungsweise deutlich an Priorität, weil hier die drei elementaren Begriffe, wie Kommunikation, Kontext und Situation in den Vordergrund rücken (vgl. Holly: 2001). Aus dieser kurzen Analogie kann folgendes abgeleitet werden: Eine künstliche Sprachgebrauchssphäre ist eigentlich Voraussetzung für den natürlichen Gebrauch von Sprache. Erst wenn die Lernenden im Stande sind sich mittels der erlernten Sprachstrukturen in verschiedenartigen Kontexten angemessen zu äußern, kann von einer kommunikativen Sprachkompetenz die Rede sein. Um diese Sprachkompetenz weiter entwickeln zu können, hat auch die Sprache, in der man die Fremdsprache vermittelt eine erhebliche Bedeutung. Neben dieser Erklärsprache hat die zu erlernende Fremdsprache zwei Dimensionen: Erstens ist sie Metasprache und zum zweiten kann/soll sie als Unterrichtssprache eingesetzt werden. Als Metasprache versteht man die Sprache, mit der die Sprache gelehrt wird, so dass mit deren Hilfe Sprachen und Sprachenlernen kommentierbar werden können. Der zweite Fall grenzt sich etwas vom ersten ab, weil er auch die natürliche Kommunikation im Unterricht beinhaltet.

In diesem Diskurs ist es nötig einige Begriffe zu definieren und voneinander abzugrenzen. Ein Fremdsprachenunterricht ist ein anderer Gegenstand als ein fremdsprachiger Unterricht. Beim ersten handelt es sich um das Erlernen einer Fremdsprache, wohingegen der zweite Begriff sich auf einen Sach- und Fachunterricht beschränkt, der in der Fremdsprache fortgeführt wird (vgl. Haataja 2005; Haataja 2008).

Die Linguistik zum Beispiel ist ja immer die Linguistik, ob ihr Gegenstand das Deutsche oder das Arabische/Französische ist. Es soll meiner Meinung nach einen Unterschied geben, und dies ist gerade die Sprache, die im Unterricht gebraucht wird. Klingt sehr plausibel, doch ist auch zugleich eine erhebliche Anforderung für die Studierenden, zumal es eine hohe Sach- und Sprachkompetenz erfordert.

Durch einen ausgewogenen Einsatz der Muttersprache (Arabisch) könnte eine Balance erreicht werden, doch die eigentliche Wissensvermittlung und die seminarinternen Kommunikationsanlässe sollten auf Deutsch erfolgen, will man, dass die Studierenden auch eine angemessene Kommunikationsfähigkeit in der zu erlernenden Fremdsprache Deutsch entwickeln. Das Sprechen über das Thema, d.h. die Kommunikation im Seminarraum sollte in einem stetig ansteigenden Schwierigkeitsgrad in der Fremdsprache ablaufen. Doch anfänglich könnte die Muttersprache als Erklärsprache eingesetzt werden, um so anfallende inhaltliche Verstehensprobleme zu beheben.

Diese Studie versucht die Problematik darzustellen, dass die Sprachkompetenz Deutsch als verbale Kommunikation bei den Studierenden trotz der Aneignung von fachlicher Basiskompetenz zum Erreichen einer berufsbezogenen Lehrerqualifikation keine deutlich steigende kontinuierliche Tendenz aufzeigt. Es bestehen Ausnahmefälle bezüglich der persönlichen Sprachentwicklung, die als sehr gering einzustufen sind. Es verursacht ein hohes Maß an verbaler Lehrerdominanz, wenn DaF-Lernende im Unterricht nicht Deutsch sprechen. Wenn die Studierenden auch nicht an der verbalen Kommunikation teilnehmen, übernimmt dies der Lehrende. Meist werden dann die Signale und die Markierungen zur Gesprächsöffnung durch den Lehrenden gesetzt. Daraus resultiert, dass die allgemeine Gesprächsführung bei den Studierenden unterentwickelt bleiben kann. Genau dieser gravierende Punkt könnte der Grund dafür sein, warum auch die Metakommunikation unterentwickelt bleibt. Gerade die Metakommunikation fördert aber den individuellen Erkenntnisgewinn und somit die kommunikative Kompetenz. Wenn aber der Unterrichtsdiskurs nur auf das Erreichen der Lernziele reduziert wird,

kann nur teilweise von einem angemessenen Fremdsprachenunterricht die Rede sein.

Ein weiterer Problembereich ist, dass die Studierenden die Prüfungen in der jeweiligen Unterrichtssprache des Lehrers abzulegen haben. Wenn der Lehrer im Unterrichtsdiskurs dem Deutschen wenig Platz einräumt, z.B. mehr in der Muttersprache erklärt, interpretiert, vergleicht, definiert usw., dann haben die Studierenden erhebliche Schwierigkeiten in deutscher Sprache abgefasste Prüfungsfragen schriftlich bzw. mündlich auch in Deutsch zu beantworten. Dies kann sehr leicht zu einem Motivationsabfall und Desinteresse der Studierenden gegenüber der deutschen Sprache führen.

Ein repräsentatives Beispiel dieser Problematik stellen die durchgeführten zahlreichen Praktikumsbeobachtungen der Deutschlehreramtsanwärter der Universität von Sidi Bel Abbés dar. Studierende, die kurz davor stehen, ihr Studium zu absolvieren verfügen über eine geringe fremdsprachige Sprachkompetenz. Die Diskrepanz zwischen der Sprache, die gelehrt wurde und der Metasprache, besonders bei der Erklärung von Aufgaben, bei der Gesprächseröffnung und beim Zusammenfassen der Unterrichtsstunde konnte deutlich beobachtet werden. In den meisten Unterrichtsbeobachtungen konnte fast keine deutsche Unterrichtssprache festgestellt werden und auch keine systematisch integrierte Unterrichtssphraseologie. Das dies mit Hilfe guter Fachliteratur den Studierenden bereits schon in ihren eigenen sprachpraktischen Lehrveranstaltungen angeboten und vermittelt werden kann, steht außer Frage (vgl. Butzkamm 2007).

Die Förderung von Sprachen und somit auch von Fremdsprachen ist im gegenwärtigen Zeitalter ein übergeordnetes Ziel der Fremdsprachenpolitik vieler Länder, auch in Algerien. Diesbezüglich müsste besonders in der universitären Ausbildung auf die Entwicklung und Förderung der Fremdsprachenkompetenz Wert gelegt werden. Die Feststellung, dass in einem DaF-Unterricht so viel wie möglich Deutsch gesprochen und gehört werden sollte, so dass die rezeptiven und produktiven Fertigkeiten entwickelt werden können, sollte als eine Selbstverständlichkeit aufgefasst werden. Hier ist es ebenso wichtig zu betonen, dass man möglichst viel mit Redemitteln,

besonders Unterrichtspraseologien arbeiten, diese in den Unterricht einsetzen kann bis sie zu einer Normalität werden. Man sollte Deutsch als Fremdsprache in Deutsch lehren, d.h. die Studierenden sollten Regeln zur deutschen Sprache bekommen aber gleichzeitig auch Möglichkeiten haben in einer natürlichen Unterrichts Atmosphäre darauf aufzubauen.

Die Grundlage dieser Studie bildet eine selbsterstellte Umfrage. Da die Befragung auf keine Leistungsmessung beruht, wurde angenommen, dass die Lernenden ihren realen Wissenstand reflektieren. Bei Deutsch als Unterrichtssprache geht man davon aus, dass Lehrer die Verpflichtung tragen Deutsch deutlich, präzise, dialektfrei und fehlerfrei zu sprechen.

Die Untersuchung wurde zu Beginn des Studienjahres 2014-2015 durchgeführt und ebenso nach einer vier wöchigen Zeitspanne unter denselben Bedingungen wiederholt. Als Grund- und Teilgesamtheit ist zu bemerken, dass insgesamt 37 Studierende befragt wurden, sind. Für dieses Studentenklientel ist die deutsche Sprache die zweite Fremdsprache nach Arabisch/Französisch. Hier wurde dem Lerner nämlich die Frage gestellt, welche Unterrichtssprache er zukünftig bevorzugen würde.

Die Forschungsmethode dieser Studie ist eine deskriptiv-halb quantitative. Dabei wurde zu jeder dieser Niveaustufe die rezeptiven Fertigkeiten lesen und hören sowie die produktiven Fertigkeiten schreiben und sprechen tabellarisch erstellt. Die Studierenden hatten die Aufgabe zu jeder Niveaustufe und zu jeder Fertigkeit eine Spalte zu den Sprachmöglichkeiten anzukreuzen. Für die Sprachauswahl wurden drei Spalten angeboten, in der ersten Spalte die Sprache Deutsch, in der zweiten die Sprache Arabisch und in der dritten Spalte die Sprachen Deutsch und Arabisch.. Somit konnte ermittelt werden, welche Fertigkeiten die Studenten in welcher Unterrichtssprache im Unterricht Deutsch als Fremdsprache bevorzugen. Die gleiche Umfrage wurde nach vier Wochen wiederholt, so dass der zeitliche Abstand zwischen beiden Durchläufen eine bessere Überprüfbarkeit und Verbindlichkeit des Ergebnisses ermöglicht.

Wichtig ist es aber zu sagen, dass Lernende eine Bewusstheit gegenüber ihrer Unterrichtssprache haben. Die Studierenden hatten

den Fragebogen ausgefüllt, trotzdem hatten sie eine bestimmte Vorstellung gegenüber der zukünftigen Unterrichtssprache. Sie möchten in ihrem DaF-Unterricht Deutsch lesen, sprechen, hören und schreiben. Dafür benötigen sie aber einen natürlichen Sprachraum, in dem viel in Deutsch kommuniziert wird. Wieso sollte man nicht versuchen, mit einem vermehrten Einsatz der Unterrichtssprache Deutsch dem entgegenzukommen? Somit würden Studierende in zweifacherweise davon profitieren: Indem sie zum einen in ihren eigenen sprachpraktischen Lehrveranstaltungen einem intensiven „Sprachbad“ ausgesetzt werden – Deutsch lernen mit Anweisungen, die in deutscher Unterrichtssprache ausgedrückt werden – und zum anderen indem sie für die spätere berufliche Lehrtätigkeit mit selbstausprobierter/erlebter deutscher Unterrichtssprache gut ausgerüstet werden.

Quellenverzeichnis:

Balci, Tahir (1996): „Deutsch als Unterrichtssprache in der Auslandsgermanistik?“, in: *DaF Mitteilungen*, Institut für Germanistik der Universität Wien, S. 65-70.

Butzkamm, Wolfgang (2007): *Unterrichtssprache Deutsch - Wörter und Wendungen für Lehrer und Schüler*, Ismaning.

Brinker, Klaus (1992): *Linguistische Textanalyse, Eine Einführung in Grundbegriffe und Methoden*, Berlin.

Haataja, Kim (2005): „Über die Variablen ‚Lernumgebung‘ und ‚Unterrichtsmethodik‘ beim schulischen Fremdsprachenerwerb und dessen Erforschung - Das Beispiel DaF in Finnland“, in: *Aktuelles. Zeitschrift für den DaF-Unterricht in Finnland*, Goethe Institut, Helsinki, S. 27-40.

Haataja, Kim (2008): „Integriertes Sprach- und Fachlernen (CLIL) in Finnland - Ein Kurzüberblick über bisherige Entwicklungen und Zukunftsaussichten“, in: *Hallo Deutschlehrer! Zeitschrift des Polnischen Deutschlehrerverbands* (26), S. 23-25.

Holly, Werner (2001): *Einführung in die Pragmalinguistik*, München.

Spillmann, Hans-Otto (2004): *Einführung in die germanistische Linguistik*, München, S. 93.

Weinrich, Harald (2004): *Textgrammatik der deutschen Sprache*, Tehran.

Les figures de la mobilité du pouvoir Makhzanien

Mohamed JADOUR

Université Mohammed V, Rabat

En tant que style de gouvernement, la *harka* est un des moyens qui permettent de saisir visuellement la mobilité du pouvoir Ismaïlien et où se croisent ses composantes temporelles et symboliques qui fondent sa continuité et son prestige.

Bien qu'il soit encore difficile d'appréhender pleinement les conditions dans lesquelles se déroulent les *harkas*, et de connaître précisément leur nombre, on peut néanmoins dire que leur fréquence s'est accrue durant le règne de *Moulay Ismaïl* (1672-1727). Ce souverain, résolument déterminé à limiter la montée de la puissance des tribus a entrepris la mise en place et le maintien d'un support sécuritaire permanent composé de soixante-seize *Qasbahs*. Il se déplaçait en personne, peu soucieux des distances à parcourir et du coût exorbitant de ces tournées. Toutefois les expéditions en direction des contrées limitrophes avaient pour but mettre fin aux multiples incursions ottomanes.

En fait, la structure des *harkas* telle qu'elle apparaît dans les sources de l'époque, semble être totalement identique à celle des périodes précédentes. Certes, ce sont des déplacements que le discours officiel exagère la portée et l'apport, et surtout glorifie la personne du sultan. Un certain nombre de critères caractérisent ce genre de périple. Le premier est relatif aux modalités de préparation que le *makhzen* utilise à chaque fois, en conservant le même rituel. Le deuxième a trait à l'effort de guerre symbolique qui donne un sens à la *harka*. Ces deux éléments, à savoir la présence physique et percée symbolique, constituent ensemble un levier du pouvoir makhzanien. Il va sans dire que les deux traits sont inséparables, chacun tire sa révérence de l'autre¹.

Le rituel...

La façon réfléchie et minutieuse dont s'effectue les immenses préparatifs des *harkas* reflète une pleine interférence entre le sacré et le profane. À la veille de chaque départ, instruction est donnée pour lire le *Sahih al-Boukhari* dans toutes les mosquées. S'ensuit

l'obligation de battre les tambours en guise du lancement du mouvement collectif²...Le périple est ponctué d'étapes selon un schéma préétabli. L'emplacement du camp sultanien « *Mahalla* » dans un espace visible et ouvert au public, aux voisinages des villes et en plein régions peuplées, a pour rôle d'émerveiller l'imaginaire des sujets qui n'entrent que rarement en contact direct avec le sultan. Pourtant, ils peuvent assister et même participer de loin aux festivités en envoyant une délégation des notables qui les représentent. Ainsi le camp devient le théâtre des plus belles fêtes et reproduit les démonstrations d'un univers symbolique à l'instar de l'image inculquée dans l'imaginaire collectif des sujets³.

Le campement témoigne de la hiérarchisation du pouvoir. Au centre se dresse Le *foustatt* structure mobile entourée d'enceinte « *Afrag* ». La configuration reproduit la centralité du palais comme producteur de normes et de valeurs. Son amovibilité symbolise une autorité en mouvement prête à n'importe quel moment à faire face aux révoltes. C'est pour cette raison que les chroniqueurs insistent sur les moyens physique et symbolique que le *makhzen* déploie pour s'assurer le monopole de la mainmise sur l'espace.

La *harka* repose donc sur deux éléments dissemblables et complémentaires : le cortège makhzanien, et la horde des marchands et les artisans à l'origine de la création d'un espace d'échange indispensable à l'approvisionnement. Ces deux éléments constituent « une ville en mouvance » qui renvoie à la capacité du *makhzen* de mobiliser et de se déployer dans l'espace pour diffuser son « idéologie » à large échelle. Pour ce faire, la cour traîne derrière elle des centaines de chevaux, de mulets, de chameaux...traverse provinces et contrées, se fait acclamée par la foule qui se précipite, se bouscule pour voir le sultan de près. Le périple s'inscrit souvent dans la durée; des mois sont nécessaires pour mater une révolte ou pour s'assurer la levée des arriérés d'impôts. Cependant, Les activités du sultan ne se limitent pas à guerroyer; le souverain s'acquitte de plusieurs taches. Les requêtes et contre requêtes se succèdent, visant à permettre au sujets de s'exprimer lors des audiences que le souverain organise pour régler tous les problèmes primordiaux. C'est Ainsi que *Moulay Ismaïl* rendit justice aux habitants de *Sidi Rahal*. Pour le plaisir, des parties de chasse sont organisées à son honneur⁴.

La *harka* a une autre fonction, fonctionnelle celle-là. Elle permet de réactiver les liens entre le pouvoir central et l'ensemble des garnisons, entre Meknès et les provinces. Ainsi, des soldats sont enrôlés, des fournitures et des équipements militaires sont distribués, des dahirs sont émis...⁵

A bien scruter le sens des *harkas* entreprises par *Moulay Ismaïl*, il paraît évident que le monarque tendait à mettre en valeur deux attributs : le sultan chérifien à la fois fondateur et continuateur du règne dynastique, et le roi chef de l'autorité profane. Il ne s'agit pas seulement d'intimider les sujets, mais de produire chez eux, par la symbolique utilisée, un sentiment d'unité. En effet les rapports du *makhzen* avec ses sujets ne se limite pas à des relations pragmatiques, le langage symbolique lui a toujours joué un rôle déterminant.

« Ceux qui vivront après la mort du sultan *Moulay Ismaïl*, assisteront à des événements étranges et insolites tels que *la fitna*, le banditisme... ils souhaiteront sans aucun doute mourir au temps de *Moulay Ismaïl*... » Idée qu'avait confirmé ce sultan dans sa lettre du 22 septembre 1706 au parlement anglais où il avait insisté sur le fait que « Ses sujets ne prennent les choses au sérieux, ne se mobilisent et ne travaillent avec ardeur et acharnement que par crainte et par peur de la présence de leur sultan... »⁶

Il est permis d'attester que la personne du sultan incarne à elle seule la fonctionnalité des expéditions. Les sujets ne reconnaissent souvent les représentants régionaux et locaux qu'à travers *l'Imam* qui symbolise « le point d'ancrage de tout le système » à tel point que son absence soulève des doutes et crée la confusion quant à sa capacité de prendre les choses en main, surtout de conduire des *harkas* non pas seulement pour affirmer son autorité et démontrer l'apparat et la suprématie du système, mais aussi pour manifester la détermination du souverain à imposer son chérifisme à l'égard des concurrents, et à entrer en contact avec les sujets habitués à ce style de gouvernement⁷. A vrai dire, il s'agit d'un mode de pouvoir qui se base sur une conscience mutuelle : voir le sultan signifie qu'il est capable de gouverner c'est-à-dire de récompenser les partisans et de punir les opposants. Cette conscience est due essentiellement à la tradition du *makhzen* qui s'articule autour des périple répétitifs comme moyen de réactualiser sa légitimité. D'après les attitudes des sujets, l'image de cette institution n'était jamais dissociée de la représentation publique

du sultan et de son entourage, même si ses fonctionnaires et ses emblèmes sont en effet répandus dans la majeure partie du territoire.

Dons en mouvement

La baraka des sultans se mesure par l'abondance des dons distribués, et le faste exhibé. Conscient de cet impératif, le *makhzen* n'hésite pas à s'en servir pour renforcer sa position en tant que force d'attraction pour les uns, et moyen de s'enrichir pour les autres. Son principe relève des coutumes d'échange des présents tout au long de son itinéraire. Il saisit l'occasion pour visiter les saints patrons des régions et célébrer leurs fêtes religieuses. Ainsi lorsque le sultan *Moulay Ismaïl* avait décidé de mener une *harka* contre son neveu *Ahmed Ibn Mahrez*, il débute son périple par une visite au mausolée de *Moulay Driss Zarhoun*⁸. Il y accueille chaleureusement, les notables munis de leurs présents, et leur offre des donations sous forme de vivres, de vêtements, de parfums, de pièces d'or et d'argent. À l'image de ce qui se passe dans la capitale, ces actes véhiculent un sens emblématique qui dépasse leur valeur matérielle et illustrent bien les dimensions symboliques d'une volonté de reproduire les mêmes actes cérémoniaux officiels et d'inverser le sens de l'hospitalité.

Adaptées aux situations particulières des régions, ces fêtes permettent aux communautés de manifester leur identité particulière intégrable et effectivement intégrée dans « l'identité marocaine », entité aux composantes plurielles.

A l'occasion, le sultan consolide sa légitimité, en faisant étalage de sa *baraka*; le ciel répond aux attentes des sujets qui croient aux atouts qu'*Allah* met à la disposition d'hommes élus, notamment aux descendants du Prophète. C'est dans ce cadre que se situent les chutes de pluies et de neiges, au moment du passage du sultan, ou l'abondance des récoltes suite à la fertilisation du territoire par le sultan. Ces « semi miracles » ne sont pas seulement un rappel de sa grandeur et de sa puissance, c'est aussi le signe de son charisme. La culture du don a constitué l'épine dorsale même des campagnes militaires punitives. Ainsi de tels actes ont eu lieu lorsque la *harka* arrive à la Montagne de *Saghrou* à tel point que les gens expriment, selon les dires des chroniqueurs, leurs satisfactions et voient de bon augure l'expédition. Un autre exemple plus significatif à cet égard nous semble être celui des tribus du *Moyen Atlas*⁹. Après les avoir

vaincus et réduit leur force militaire, *Moulay Ismaïl* leur offre du bétail et compense ce don par le paiement du droit de dime. S'ensuit dès lors une période de paix sociale :

« Le Sultan...remet 20.000 moutons, qu'ils avaient chargé de paître et de soigner il les exonéra également d'impôts. Leur conduite s'améliora plus tard, car, tous les ans, ils apportaient la laine et le beurre de ces moutons au Sultan, qui leur remettait toujours de nouveaux animaux, si bien que leur chiffre atteignit 60.000. De cette façon, ils perdirent leur force et furent désormais incapables de nuire »¹⁰

Au fond, cette mobilité symbolique prend son essor au cours du règne de *Moulay Ismaïl* et c'est elle notamment qui fait qu'on attribue à ce sultan un usage fréquent du pouvoir suprême à savoir celui du don de la Baraka. Ainsi au moment où les troupes makhzaniènes n'arrivent pas à vaincre les *Ouled Dlim*, l'attitude du sultan consent que les disettes successives qui les ont ravagés, ne soient que les conséquences fatales de leur désobéissance¹¹. De ce fait, la colère du sultan détenteur de la baraka se traduit par la vengeance de la nature qui rend les insurgés démunis et vulnérables. Ce sont visiblement les séquelles d'une carte maîtresse dont dispose le sultan : supplier la protection divine pour se venger des dissidents.

Toutefois, la finalité de la *harka* se mue en fonction des conjonctures. D'habitude, le sultan proclame une prise d'otages dans la proche famille des chefs locaux ou régionaux rebelles, car selon lui, c'est le seul gage de dévouement et de fidélité à sa personne. Mais, dans d'autres situations, le monarque s'offre, par le mariage, l'occasion des alliances avec quelques tribus qui autrefois s'opposaient à son pouvoir¹². Il mène aussi des campagnes dans le but -entre autres- d'ouvrir les greniers pour faire face aux disettes.

Quant aux dons (*Karam*) « concurrents » prodigués par des forces religieuses telles que les *zaouïas*, ils ne gênent guerre l'expédition sultaniène, à la condition que les cérémonies soient discrètes. Toutefois, il arrive que des agents du *makhzen* s'en plaignent¹³. Pour eux, les *zaouïas* confisquent une partie du pouvoir symbolique de l'*Imam*. Ce dernier en effet profite de l'occasion pour démontrer sa suprématie, et ce par des manœuvres subtiles qui attisent les rivalités et les jalousies entre ces institutions religieuses et socio-économiques. Est-il nécessaire de rappeler que les *zaouïas* prospèrent grâce à la médiation, à la redistribution des richesses et à l'usage du don et du contre don.

Il en découle que le don du *makhzen* s'articule autour de l'idée suivante : donner « c'est redistribuer les biens d'*Allah* ». Les liens entre la *harka* et l'acte du don montrent à quel point le sultan cherche à mettre en relief les missions que Dieu lui a confiées. C'est un comportement ancré dans les valeurs de l'Islam qui considèrent la bienfaisance comme un devoir à accomplir par les croyants les plus aisés.

Ce don en mouvement sous différentes formes assure le dévouement, forge les alliances, joue sur l'échiquier des tribus, et calme les esprits potentiellement enclins à la rébellion. C'est un outil qui révèle le visage paternel de *Moulay Ismaïl* à l'égard de ses sujets. De ce point de vue, le signe du pouvoir souverain se personnalise dans l'image du maître du jeu en mobilité qui aspire à construire un royaume unifié et centralisé. Cette image est un rappel à l'investiture divine qui affirme le principe d'une autorité prenant sa source dans le chérifisme. D'après la tradition makhzanière, Il est significatif que celui qui détient le pouvoir spirituel et temporel, le manifeste en entrant périodiquement en contact avec les sujets pour récompenser les fidèles et punir les récalcitrants.

Il est donc clair que, le lien entre la *harka* et le rituel est un fait culturel attesté, qu'il s'agisse de la reproduction des us du palais ou de la manière dont le *makhzen* entretient les contacts avec ses sujets qui s'offrent la possibilité de se sentir associé émotionnellement à un système de pouvoir. Mais il est certain que, dans ce modèle des expéditions parfois violentes, la motivation économique et surtout financière est déterminante. Dans ces harkas, il est frappant de constater l'écart entre le temps « réel » vécu par les contemporains, et le temps « reconstitué » par les historiens modernes parfois à la lumière des sources fragmentaires et discontinues.

Notes :

¹ - Mohamed JADOUR, *L'institution du Makhzen dans l'histoire du Maroc*, (en arabe), série Abhath, Fondation du Roi Abdul-Aziz, Casablanca, 2011, p.p. 187, 188.

² - Mohamed JADOUR, *L'institution du Makhzen...*p. 193.

³ - Ibid.p.194.

⁴ -Ibid,p.p.193, 194, 195.

⁵ -Ibid , p.195.

⁶ - *SIHM*, 2^e série, Fra, t. IV, p. 352.

⁷ --Mohamed JADOUR, *L'institution du Makhzen...*p.p. 411-412.

⁸ Ibid ,p. 197.

⁹ - Ibid ,p. 95.

¹⁰ -Ibid ,p. 196. Voir également : Ahmed En-Nassiri, *Al-Istiqsa fi akhbari al Maghrib al Aqça*, Casablanca, 1954-1956, t. VII.

¹¹ - Mohamed JADOUR, *L'institution du Makhzen...*p.p. 196, 197.

¹² - Ibid ,p. 412-418.

¹³ - Ibid ,p.p. 172, 266, 267, 268.

Le poème - chant populaire maghrébin... la célébration toujours recommandée

The poem - popular Maghreb song

Dr. Mellak Djillali
Université de Sidi Bel Abbes

Abstract :

The Maghreb poems-songs which are inscribed in the wide repertory of the popular spoken language, are imprinted with a deep lyricism. Highly individualized by their large prosodic partition and their phonic materiality, these very short composite texts, linked to the high points of social life, include a strong affective communication, refer to multiple circumstances, are associated with community festivals and rituals.

Key Words:

Maghreb poems- popular language- communication- community
festivals- rituals.

Le chant, trait saillant de la vie sociale au Maghreb.

La poésie populaire qui fait largement sillage dans les couches sociales au Maghreb a toujours pris le dessus sur toute autre forme de communication orale. Elle garde en vertu de son caractère particulier, une longue tradition derrière elle. « *Des confins algéro-maliens à la Méditerranée, de Tindouf à El Oued, des centaines de milliers de mémoires conservent des poèmes inconnus qui ne savent pas toujours leur nom.* » ¹

Aisés à identifier, ces textes composites très brefs qui comportent une très forte communication affective, renvoient à des circonstances multiples, à l'exemple des fêtes et des rituels communautaires. La poésie traditionnelle a de tout temps été porteuse d'une référence d'ordre culturel, d'une profondeur réflexive et éducative. Composés d'abord pour servir d'outil d'enseignement et en parallèle donner libre cours aux manifestations de l'esprit, ces chants sont des traits saillants de la vie sociale au Maghreb.

Le chant est présent dans les manifestations de joie, mais aussi dans les moments de douleur. C'est une forme d'expression où la voix de

l'origine s'efface. Elle surgit du tréfonds de l'âme pour exorciser l'angoisse, conjurer le malheur ou célébrer les joies. Elle est expression du groupe, de ses crises, de ses tensions.

« La chanson a un rôle précis, elle libère du malheur, de la peur, elle apaise, elle apporte l'espoir, elle prophétise. Les chanteurs sont des hommes et des femmes du peuple soudainement inspirés ; dans un moment de tension, ils trouvent au fond de la mémoire, ils improvisent les paroles qui conviennent exactement aux circonstances. »²

Faut-il rappeler à l'endroit de la célébration sans cesse de cette parole poétique populaire, comme source fondamentale et génératrice d'une littérature spécifiquement maghrébine, qu'elle fonde en vigueur une littérature orale recentrée sur ses origines.

Son importance vient du fait qu'elle diffère des autres éléments de la littérature orale, par sa diversité de forme, la richesse de ses rythmes, le caractère original de ses thèmes qui sont à l'origine de son inspiration.

La langue arabe et amazigh, notamment dans le milieu rural, ont toujours privilégié et mis en avant cette poésie féconde qui ne s'écrit pas, mais est transmise oralement. Elle allie lyrisme et sagesse qui collent étroitement selon les circonstances aux aptitudes et aux dispositions collectives du terroir.

D'une manière générale, ces poèmes populaires bédouins portés à la connaissance du public par le « Guwwal » ou le « Meddah » poètes louangeurs, sur les places publiques et les marchés, chantent les grandeurs du passé, accompagnés d'instruments de musique, « Ainsi chanté, le vers des « Guwwal » acquiert outre le rythme une certaine harmonie, une résonance chaleureuse et agréable qui enrobe l'idée développée et satisfait l'ouïe et l'esprit de l'auditeur bédouin. »³ Que le thème soit sacré ou profane, Dieu n'en est jamais absent. Ces compositions laudatives sont habillées de symboles et de valeurs morales à la gloire de Dieu et à l'éloge des prophètes (Abraham, Moïse, Joseph...). La performance célèbre et glorifie aussi les exploits et les vertus de pieux personnages : Ali, Bilal ou Antar... chante les mérites et les miracles des saints, exemples de piété, de vertu et de soumission.

« La mémoire du peuple roule de vieilles plaintes »

Le texte poétique oral, production littéraire fertile et continue, a de tous temps été une note caractéristique de la pratique culturelle orale qui se met en scène comme parole populaire.

« *Le poète populaire algérien est seul à être en parfaite cohérence avec son époque et en liaison permanente avec les racines même du peuple, parce que sortant du peuple le poète a été comme le miroir des sociétés investies. Celles-ci se sont reconnues en lui. Son inspiration puisait au plus profond des réactions communes ; il n'a jamais inventé à partir de thèmes étrangers, pas plus qu'il est allé chercher ailleurs que dans le fonds commun les images et les expériences de ses chants.* »⁴ D'un apport majeur, le poème- chant se révéla extrêmement efficace dans la gestion du sujet patriotique. A son compte, dans une atmosphère d'hostilité, il s'inscrit politiquement contre le colonialisme en galvanisant la conscience des masses et en répondant aux exigences d'une société affaiblie, pour dire son accablement et sa révolte.

Signalons au passage que la censure des instances coloniales, aux dernières années de la lutte de libération en Algérie, avait interdit et étouffé ces « paroles intérieures », arrêté et harcelé les troubadours et bardes populaires qui intervenaient dans chaque région sur les places publiques et les foires, en raison du contenu du discours idéologique subversif de leurs chants.

Ces courts poèmes épiques, lyriques ou satiriques sont célébrés sans cesse, eu égard à leur importance historique et sociale et ne peuvent être légués à l'oubli. Toujours chantés, rarement récités, ils expriment l'émotion populaire devant le sacré et les thèmes éternels de la mort, la vie, l'amour et les rigueurs du destin. Ces chants-poèmes qui surgissent de l'âme populaire, comme paroles libérées exorcisent les souffrances par le souffle puissant du verbe.

La voix, le corps qui modalise le discours, la recherche du geste qui accompagne les paroles, le refrain et l'improvisation dans les moments de forte tension, fonctionnent à la manière d'une activité magique, ébranlant et subjuguant les consciences. Chaque poème, chaque chant, chaque complainte devient appel à la patience, à l'espoir, au renouveau.

Ces chants deviennent le biais incontournable de nombreux rituels et de pratiques socioculturelles diverses, toujours en référence

constante au contexte islamique. Associés aux fêtes et aux rituels qui célèbrent les multiples événements et interviennent aux moments forts de la vie du groupe, ils plongent leurs racines dans leur tréfonds métaphorique.

Paul Zumthor distingue quatre moments performanciels :

D'abord le chant immuable, celui du « temps social normalisé », attaché à des circonstances précises. Ce sont des chants rituels et cycliques qui s'attachent à la célébration en diverses circonstances des événements religieux, privés ou publics, ceux récurrents le jour du sacrifice de mouton, de la naissance du Prophète ou de l'Achoura.

Le deuxième type de performance est désigné par « Le chant du temps naturel. ». Son ancrage est en lien direct avec le cycle des saisons à l'exemple de Ennayer ou de l'avènement du printemps.

La troisième performance est appelée « Le temps historique » Elle marque un événement spontané, c'est un chant plus ou moins improvisé à propos d'un événement personnel ou local imprévisible et non récurrent, à l'exemple des chants funèbres, ou du retour du pèlerinage de la Mecque.

Enfin, le dernier type de performance appelé « La merveille du chant », regroupe des textes proférés dans un élan, par une humeur, un désir individuel. L'essentiel est dans la mélodie, privilégiant à la fois le rythme et l'attrait de la déclamation et de l'improvisation.

Ces six exemples de chant renvoient, soit au pathétique (textes N°81 et N°82) ou au ludique (textes N°79, N°86, N°87 et N°91)

Ces textes poétiques divers, qui restent caractéristiques du foyer géographique de l'aire culturelle de chaque région, portés par des voix anonymes, essentiellement populaires, possèdent un cachet lyrique, religieux ou ludique. En référence à un système de normes et de valeurs culturelles du groupe, ces réalisations expriment les émotions des classes populaires, manifestent selon les circonstances particulières leurs aspirations et leur foi, leurs angoisses et leurs incertitudes.

*** Le chant religieux**

Témoins de l'élan et de la ferveur populaire de la foi, la pratique des chants religieux a toujours gardé droit de cité au Maghreb. De nombreux chants s'exécutent lors des cérémonies religieuses en hommage au prophète ou lors des fêtes canoniques, pendant le mois

de ramadan, mois de jeûne, de prière et de piété ou encore pendant les veillées funèbres. Le thème intervient fréquemment dans des incantations fébriles et dans des suppliques passionnées.

Ce poème- chant est une litanie lors des veillées funèbres, psalmodiée par les hommes sur un ton déférent et qui restitue l'ardeur vive portée à Dieu et à son Prophète.

*« Allah, Allah, Allah,
Il n'y a de Dieu que Dieu.
Allah, Allah, Allah,
Dont Mohamed est le messenger
Que dans l'obscur tombeau
Ta lueur, O Prophète, nous éclaire
Que tu y sois mon compagnon,
Car là- bas, il n'y a point d'amis
Allah, Allah, Allah. »*

Tout le registre lexical liturgique est agencé et s'y déploie, se focalise sur Dieu et son Prophète. Car chanter Dieu et son Messager conforte le défunt et le pourvoit du meilleur et digne viatique : Le nom du Seigneur.

« Dans le Djurjura, on ne fait pas métier de chanteur d'enterrement. Les paysans se proposent spontanément de constituer deux cercles dont l'un ouvre le chant et en énonce successivement les couplets, tandis que l'autre reprend l'immuable phrase musicale sur laquelle se greffent toujours deux vers énoncés et entrecoupés plusieurs fois par le nom divin. Les paysans qui chantent devant le corps du mort, lors de la veillée funèbre, pensent accomplir un acte de dévotion »⁵

La répétition lancinante des litanies, scandées par les nombreuses voix qui se relayent, plonge l'auditoire dans l'extase, rappelant que la vie est éphémère, la mort égalitaire est réconfort. Ces chants mélodieux qui portent au Maghreb le nom de « Dikr », font partie d'un large répertoire de chants psalmodiés par des membres des confréries religieuses qui évoquent Dieu et célèbrent dans des solennités religieuses le nom du Prophète à l'occasion de la fin du Ramadan ou à l'occasion de la nativité du Prophète. Ces chants laudatifs sont parfois accompagnés de danses, c'est alors la danse mystique (la Hadra), chant-danse qui s'exécute en cercle. Le

mouvement du corps d'avant en arrière accompagne le chant et cette gesticulation cadencée, exacerbe les récitants à l'extase, à la quête, à l'abandon total à Dieu

D'autres textes, qu'on peut qualifier de chants religieux sont des fragments laudatifs très denses et très élaborés. Ils sont déclamés aux moments rituels d'une fête, à l'occasion des cérémonies de familles ou de célébrations religieuses.

« Aujourd'hui, c'est Arafat

Demain c'est l'Aïd

Préparons une petite galette

Pour Sidna Said.

C'est une chanson d'allégresse du répertoire enfantin, proférée d'une manière ludique. Ce petit poème- refrain, connu au Maghreb, est chanté l'avant-veille de « L'Aïd Seghir », jour de fête célébrant la fin du mois de Ramadan.

Ainsi, ces chants sapientiaux dans leur diversité, exaltent la grandeur de Dieu et glorifient sa miséricorde. Ce sont des grands moments d'émotion, empreints de spiritualité n des contingences éphémères de la vie.

* Le chant d'adversité

S'arrimant à un langage multiple, à des descriptions allégoriques et à des procédures de visualisation élaborées – chaque image, chaque motif est une variation sur un thème qui traverse le chant – les chants d'adversité répondent tous au souci de transmettre sur un ton soutenu, des émotions très vives.

« Ô mères ne survivez plus à vos garçons

C'est moi qui vous le dis

Il n'y a qu'amertume à survivre à son mari

Que reste-t-il lorsqu'on a enterré, comme moi

Toute sa famille

Je vous le dis

Que la chienne de vie et la mélancolie. »

Ce texte est une exhortation qui met à nu l'absurdité de la vie devant la mort La séparation de l'être cher suscite un profond

déchirement qui donne lieu à une création verbale à la limite de la révolte. On déplore le bonheur et les biens de ce monde considérés comme trompeurs et éphémères.

*** Le chant satirique**

A l'endroit de ce patrimoine oral chanté, des pièces expressives et très élaborées correspondent à des textes satiriques. Elles mettent l'accent sur la volonté de réprimander, d'adresser des remontrances ou tout simplement de porter le plus souvent un enseignement et d'instruire.

*« Quand il était en France
Elle fréquentait les ravins
A présent elle s'entoure de murs
Il paie une bonne pour l'eau. »*

Sur un ton moqueur, ce quatrain satirique, bref et condensé, d'aspect moralisateur, ironique et caustique, indexe la légèreté du comportement de la femme, condamne sa frivolité, qui transgresse l'ordre social du groupe. Il s'exerce comme une sorte de pratique d'hygiène mentale, rappelle à l'endroit de tout un chacun l'exigence d'une conduite exemplaire du respect de l'ordre social, du maintien aux valeurs cardinales du groupe auxquelles il importe de se conformer d'une manière impérative.

*« Son père mendie son tabac
Sa mère porte des haillons
Sa femme est parée de bijoux. »*

Ce chant d'inspiration essentiellement satirique est une variante du chant exemplaire qui ne se démarque pas du précédent. Ce tercet construit sous forme narrative, développe la thématique de l'ingratitude filiale initiée par l'épouse, sujet qui provoque fréquemment les réactions les plus vives.

Ces courts poèmes-chants sont fréquents. Ils décrivent et dénoncent certains défauts et travers, corruption avouée d'un comportement social, prélude à l'effondrement du système groupe. Ce genre de texte satirique régule les rapports de la communauté, impose sa cohésion, assure sa pérennité.

*** Le chant railleur et cocasse**

Trois textes de nature cocasse et grivoise, mettent en scène des personnages dans des situations banales où ils sont tournés en

dérision. Ce sont des textes de création collective, toutes du cru de l'imagination des enfants suivant leur humeur et leur fantaisie. Poèmes narratifs chantés sous une même assonance, ils se transmettent et se modifient en fonction des circonstances et au gré du récitant.

*« Notre cheikh, nous l'avons marié
Nous lui avons fait épouser une houri,
Une houri habitait le paradis
Le paradis où règne la sérénité. »*

Ces couplets de rue masculins, cocasses et moqueurs ne connaissent aucune retenue, aucun interdit. D'aspect plaisant et ironique ils font partie de ce vaste répertoire de l'univers subjectif des enfants. Empreint de verdeur, cet air cadencé est associé aux jeux, aux ébats tonitruants et triviaux des enfants, à leurs plaisanteries. Manifestement, ils rendent compte de la maturité précoce des enfants, de l'expansion brusque de leur qualité d'homme, à leur propension à gérer un quotidien sous le signe de la joie et de la gouaille.

*** Le chant ludique, les comptines**

Ces airs imaginatifs brefs, d'allure juvénile sont repris en refrain par les enfants en diverses occasions.

*« Ô printemps printanier
Dans ce pré, tu me verras chaque année
Des miens accompagnés. »
Ô brebis, belle brebis, gentille brebis,
Mon père t'engraisse pour t'égorger
Ma mère attend de te manger
Pauvre brebis, mon amie. »*

Ce type de chant très prosaïque que clament les enfants, bénéficie d'une large popularité, reflète leur monde familial, constitue une part de leurs occupations et concourt d'une façon évidente à leur équilibre psychique.

Ainsi ces chants et ces poèmes-chants issus d'une souche orale populaire, accompagnent tous les grands moments privilégiés de la vie du groupe. Ils concilient indéniablement les tranches émouvantes de la condition humaine, expriment dans leur contenu et dans leur forme les préoccupations et les émotions populaires, ressuscitant les instants éphémères mais combien vivaces de la vie.

BIBLIOGRAPHIE :

-ANTHOLOGIE des écrivains maghrébins d'expression française (1965), Paris : Présence Africaine

-BOURDIEU, Pierre (1958), Sociologie de l'Algérie, Paris : Minuit

-CHEVRIER, Jacques (2005), L'arbre à palabres, Paris: Hâtier.

-DUJARDIN, Camille (1984), « Littérature orale et histoire ; fonctions historiques d'un

corpus de littérature orale paysanne algérienne. », Revue Crape, Alger.

MAMMERI, Mouloud (1969), Les isfras poèmes de Si Mohand ou M'hand, Paris : Maspero.

-NACIB, Youssef « La poésie orale féminine » Revue : Promesse N°4, nov /dec 1969, p21.

-NACIB, Youssef (1998), Chants religieux de Djurjura, Paris : Sindbad

-OUARY, Malek (1974), Poèmes et chants de Kabylie, Paris : Saint Germain des Prés.

-VATIN, J. C. (1975), Culture et société du Maghreb, Paris : CNRS.

-ZUMTHOR, Paul (1983), Introduction à la poésie orale, Paris : Seuil.

Index :

¹ NACIB, Youssef « La poésie orale féminine » Revue : Promesse N°4, nov /dec 1969, p21.

² ARNAUD, Jacqueline (1982), La littérature maghrébine de langue française, le cas de Kateb Yacine, Paris : L'Harmattan. P214.

³ AZZA, Abdelkader (1979), Mestapha ben Brahim, barde de l'oranaïs et chantre des Beni Amers, P13.

⁴ DEJEUX, Jean (1982), La poésie algérienne de 1830 à nos jours, Paris : Publisud. P38

⁵ NACIB, Youssef (1988), Chants religieux du djurjura, Paris : Sindbad. P 62.

Learnability of Conceptual Metaphor: 1ST Year LMD Students as a Case Study

Dr. SELLAM Latifa

Tahar Moulay Université de SAIDA

Abstract

The possibility of learning conceptual metaphor and the feasibility of acquainting an EFL learner with metaphor interpretation have been a controversial issue. In the current study, 50 Algerian students were tested twice. In the pre-test, they were given four idiomatic phrases and four conventional metaphors to interpret and the results were compared. At the end of twelve-month familiarising them with non-literal language, the post-test was administered. It encompassed four conventional metaphors, as they were asked to improvise metaphors on their own. The tests revealed that an EFL learner can progressively develop the ability to interpret English metaphors, that he or she can generate only simple metaphors not intricate ones, and that EFL metaphorically organised conceptual system can be learnable.

Keywords:

Conceptual metaphor; Learnability; Interpretation; Conventionality; Acquaintance; Improvisation; EFL

1. Introduction

It is common knowledge that words are often used in figurative senses. Even young children are apt at using figurative language. Nevertheless, the study of this linguistic phenomenon was for a long time the exclusive domain of literary scholars who were interested in rhetoric or stylistics. In view of this, it is perhaps convenient to begin our discussion of figurative language with the explanatory power that metaphor has. Therefore, native and non- native learners of any language feel comfortable expressing themselves metaphorically in the target language. In this regard, the context of learning is an area where careful and appropriate use of metaphors may spell success. This implies urging students focus on the potent of non- literal language involving crucial communication tasks, because metaphor is, as Scheffler (1979) put it: “inventions of thought to explore a certain kind of possibilities in a heuristic way” (128- 130). Lakoff and Johnson (1980), the exponents of the domain say: “Metaphor is understanding and experiencing one kind of thing in terms of another” (5).

In this respect, it seems suitable to introduce some basic concepts regarding metaphor and learnability as well. So, linguistic metaphor links two things that appear to be quite different on the surface, but have some likeliness. Whereas, conceptual or cognitive metaphor refers to the understanding of one idea or conceptual domain in terms of another. And, learnability concerns how learnable a piece of instruction is, as it refers to the ease of language learning (MacCarthy 2001).

We can ask how deeply entrenched a metaphor is, in everyday use by ordinary people for everyday purposes. Therefore, the use of the notion of conventionality is different from the way this concept is usually used in linguistics, semiotics, and the philosophy of language. However, the term conventional is used here in the sense of well established and well entrenched. Thus, we can say that a metaphor is highly conventional or conventionalised i.e., well established and deeply entrenched in the usage of a linguistic community Kovecses (2002, 8-9). Since there are both conceptual metaphors (CM s) and their corresponding linguistic expressions, the issue of conventionality covers both CM s and their linguistic manifestations. Both conceptual and linguistic metaphors are all highly conventionalised, in that; speakers of English use them naturally and effortlessly for their normal, everyday purposes (Kovecses 2002).

The inquiry here is then: What makes the content of a figure of speech such as ‘metaphor’ learnable? Could we say that the main criterion contributing to shape the ease of learning is when learners experience good intellectual flow and enjoy the figure? This paper intends to examine the problem again using an Algerian experience. It is argued that CM would serve as an excellent means for language improvement, as a linguistic boost as well. Because students would benefit from being familiarized with the use of metaphors in their daily written as well as oral assignments. Eventually, they can achieve wonderful essays if they are well- equipped metaphorically. For learners, it will impress on them the value of acquainting themselves with non-literal expressions that they wish to master in the target language.

1.1. Literature review

There has been very little research reported in the literature that addresses the teachability of conceptual metaphors in L2. Several papers have been published which make suggestions for teaching orientational metaphors, for example, ‘more is up, less is down’ (Putz et al.2001 a and b), but to our knowledge, other than studies by Kovecses and Szabo (1996), Kovecses (2001), Boers and Demecheleer (2001), and two experiments reported in Boers (2000), these have not explored the impact of teaching on learning.

For example, Hays and McCagg (1999) conducted a study to determine if Japanese EFL university students could learn English idioms based on emotional data (for instance, anger, fear, happiness, sadness) and health related metaphors, including several based on supposed universal embodied experiences, where UP generally indicates positive features and DOWN often signals negative ones . The researchers come up with the idea of raising students’ awareness of the relationship between metaphors and embodied experiences, as they could identify the troubles encountered in depicting some key concepts in the given idioms. Accordingly, Low (1988) discusses the notion of metaphoric competence in his paper “On teaching metaphor”. He continues by claiming that, the focus is on alerting L2 learners to the presence and effects of conventional metaphor and pedagogical approaches to achieving this in ELT contexts. On the other hand, the work by (Petrie and Oshlag included in Ortony 1993, 579-609) has led to extensive discussion on the use of metaphors in SLT and SLA. Petrie points out that metaphors and analogies hold great instructional value in many major subject fields including literature, business, politics, psychology, physics, etc. He suggests that using metaphor based-instruction can help students to view situations from a fruitful new perspective and that, metaphors and analogies help students to learn unfamiliar and abstract concepts. Others, such as Danesi (1993, 497) believes that conceptual knowledge can be effectively taught in the classroom setting if we are able to integrate appropriate materials and pedagogical practices: students do not develop metaphorical competence by osmosis. It would seem that competence, must be extracted from the continuum of discourse and held up for students to study and practise in any ways that are similar to how we teach them grammar and communication. Cognitive

linguists and cognitive anthropologists, in turn, agree that conceptual meaning is a central feature of human thinking. They disagree, however, on whether conceptual meaning is grounded fundamentally in CM s, in the sense of (Lakoff and Johnson 1980).

There has also been opposition to learning CM. Strauss and Quinn (1997) contend, contrary to the generally accepted anthropological stance rooted in the writings of Geertz (1973) that cultural meanings are not only situated in symbols and external artefacts, but are primarily located in the minds of flesh-and –blood members of cultural communities. These meanings constitute cultural models, or schemas, that arise from the basic cultural experiences of individuals and are eventually internalised. Kovecses and Papp (2000) argue that, if learners acquire grammatical and communicative knowledge but fail to develop conceptual knowledge in a new language; their language use will be significantly different from that of native users. Danesi (1993, 490) concurs with this observation in commenting that, even if students develop high levels of communicative proficiency but continue to think in terms of native conceptual system using L2 words and structures to carry their own L1 concepts, they may be understood, but their discourse may be inappropriate.

Boers (2000), likewise, proposes a less ambitious goal in arguing for the need for learners to develop ‘metaphor awareness’ as opposed to the ability to generate metaphors in the L2, so that they will at least be able to “organise the steady stream of figurative language they are exposed to” (564). In the same direction, Valeva (1996, 36) problematises the question of L2 metaphor interpretation as well as generation by non-native learners. She maintains that there is little value in trying to develop a pedagogical programme for teaching metaphorically organised conceptual knowledge if such knowledge in an L2 is unlearnable in the first place. Finally, (Danesi 1993, 489-500) introduces the idea of ‘conceptual fluency’, i.e. how a given language builds concepts on the basis of metaphorical structuring. He argues that, conceptual fluency is a largely unconscious mechanism in native speakers that is deficient in non-native learners. Learners tend to think within their L1 conceptual system, which means that their utterances do not quite fit into the structure of the L2, see (Sontag, 1975; Lakoff and Johnson, 1980).

Studies on teaching CM in L2 are rare, but by all accounts the presented literature review is encouraging. Therefore, it appears that CM instruction may result in metaphor depiction, thus generation. Confirming this, no disconfirming evidence has been found (Low, 1988) in the notion of metaphoric competence. The current research focuses on the impact of learning metaphor mechanisms on metaphor interpretation and eventually production. The result of the study may enhance CM learning in EFL classes.

1.2. Metaphor mechanisms to be learned

In the cognitive linguistic view, metaphor is defined as understanding one conceptual domain in terms of another conceptual domain. Examples of this include when we talk and think about life in terms of journeys, about arguments in terms of war, about theories in terms of buildings, about ideas in terms of food, about social organisations in terms of plants, and many others. A convenient shorthand way of capturing this view of metaphor is the following: conceptual domain 'A' is conceptual domain 'B', which is what is called a 'conceptual metaphor'. A conceptual metaphor consists of two conceptual domains in which one domain is understood in terms of another. A conceptual domain is any coherent organisation of experience Kovecses (2010).

The two domains that participate in conceptual metaphor have special names. The conceptual domain from which we draw metaphorical expressions to understand another conceptual domain is called 'source domain', while the conceptual domain that is understood this way is the 'target domain'. Thus, life, arguments, love, theory, ideas, social organizations, and others are target domains; while journeys, war, buildings, food, plants, and others are source domains. The target is the domain that we try to understand through the use of the source domain Kovecses (2010), they are also known as the tenor and the vehicle.

1.3. Conventionality to be learned

The retrieval of metaphors in general occurs in a deliberate way when talking; many word- pairs containing metaphorically used words are adopted as well. Consider the metaphors below inspired by social organizations such as work, life, and so on, Kovecses (2002, 7):

a- SOCIAL ORGANIZATIONS ARE PLANTS: The company is growing fast.

b- THEORIES ARE BUILDINGS: We have to construct a new theory.

c- IDEAS ARE FOOD: I cannot digest all these facts.

d- ARGUMENT IS WAR: I defended my argument.

Before going further, there is what we call mapping in the metaphorical realm. So,

Mapping is a systematic group of correspondences that exist between features of the

source domain and others from the target domain (Lakoff and Turner 1989, 72). They

introduce the following example of 'Plant' mapping and 'Social organization' one: (The

grow of the plant ----development of the organization). Metaphorical expressions given as

illustrations of the CM s above are highly conventionalised, that is, they are well cliched.

Most speakers would not fact, even notice that they are using metaphor when using the

expression 'defend' in connection with arguments, 'construct' in connection with

theories, and 'digest' in connection with 'ideas'. For native speakers of English, these are

some of the most natural ways to talk about these matters.

1.4. Research questions

The study intends to answer the following research questions:

1. Can EFL learners develop the ability to interpret metaphors?
2. Is metaphor interpretation more approachable task than idiom depiction?
3. Can learners generate intricate metaphors in the foreign language?
4. Is an EFL metaphorically organised conceptual system learnable?

1.5. Research hypotheses

The following research hypotheses are proposed to conduct the study:

1. An EFL learner can progressively develop the ability to interpret metaphors.

2. They can generate simple metaphors in the target language.
3. EFL metaphorically organised conceptual system can be learnable.

2. Method

2.1. Participants

Participants were 50 university students majoring in both fields of humanities and natural and life sciences. They were learners of English as a foreign language (EFL). They were native speakers of Arabic, and studied at Tahar Moulay University of Algeria. They were both males and females in their first year of study, and were selected on the basis of their availability. Their age range was between 18 and 20. All of them had already passed successfully the baccalaureat examination at the secondary level with an average of 14 out of 20 in English language subject matter. Prior to the experiment, the instructor provided direct instruction and practice covering figures of speech merely metaphor; since learnability involves considering learning, teaching, and curriculum jointly. Therefore, the participants were fully ready and highly motivated to do the written tests. During the experiment the instructor made sure that the tests' entailments were quite clear and understandable by the entire group, including proficient and less-proficient learners.

There were two separate tests, the pre and the post. First, in the preliminary test, learners were asked to interpret four idiomatic expressions and four conventional metaphors. It gathered the criteria to fit the Pilot Test ¹ requirements in order to capture as much information as possible regarding idiomatic or metaphorical bias and schemata. The subjects were asked to sit for a placement test, no communication attempt was tolerated. Second, the final test was administered twelve months later. It encompassed four conventional metaphors to elucidate, as they were required to improvise some by themselves. This test aimed at investigating the acquired metaphorical competence as well as to capture any ways of improvement. The reason for the interval period between the pre-test and the post-test is to try to increase chances of relevant interpretations via affording both acquaintance in handling figurative language and accessibility of the test through suggesting conventional metaphors. This prevents lower

competence examinees from random inference when they find the test difficult and beyond their ability.

For the sake of testing the feasibility, equipment, or method, researchers often use a pilot test. It is a standard scientific tool for soft research allowing scientists to conduct a preliminary analysis before committing to a full study or experiment. Therefore, timing, clarity, and checking understanding are the test requirements ¹. The pre-test comprised the following tasks (1) and (2); the post-test included (a) and (b) respectively:

(1) Idiomatic expressions depiction:

Pulling the carpet under feet

Using two different vessels for measuring

Ring the danger bell

The way leads to each other

(2) Conventional metaphors interpretation:

HAPPY IS UP

LIFE IS A JOURNEY

COMMUNICATING IS SENDING

IDEAS ARE FOOD

(a) Conventional metaphors interpretation:

ANGER IS A HOT LIQUID

MORE IS UP

NIGHT OWL

IT DOES NOT MATTER IF IT IS BLACK OR WHITE AS LONG AS IT CATCHES MICE

(b) Metaphor improvisation

The time allocated to complete the tests was 90 minutes each.

2.2. Procedures

The testees were assessed at different levels to judge their metaphorical competence:

(1) TKR Tacit knowledge retrieval: Means wording/verbalising the experience-based knowledge to cope with a given material.

(2) KM Knowledge management: Includes ways in which students handle knowledge they have at their disposal to fit the encountered CMs.

(3) ACM Availability of conceptual mapping: Refers to the readiness of the mental map that the respondents draw in shaping their interpretations.

(4) TVI Tenor-vehicle interplay: Means the correlation existing between the source and the target domain that the subjects have to infer.

(5) LSA Lexico- syntactic accuracy: Refers to the ability to activate the appropriate lexis in accordance with the requirements of a given CM, as it entails word-ordering within a sentence.

1. Centre of Evaluation and Research, <http://programeval.ucdavis.edu>

To achieve a reliable result, it appeared indispensable to consider the above parameters to be applied in each suggested CM. 20 points were allocated for each section of the test, and five parameters to be checked for in each section-item ($5 \times 4 = 20 \times 2 = 40$ pts). Inspired by idioms testing (Nayak and Gibbs, 1990), the tester has chosen down-to-earth idiomatic expressions to be addressed. Next, the assigned CMs embody life experiences. Then, targeting fairness the examiner thought that conventionality affords more ease in approaching CMs. It was felt that suggesting unconventional metaphors would be compelling.

Later, we divided the students into two 25-member groups so as to ensure better monitoring. We dispatched 25 test-sheets in which the assigned tasks were printed with the provided room to be filled. The same procedure was followed for the second group during the next session. The maximum time allowed to complete the test was 90 min each group. The post-test has been organised in the same way one year later.

The assessment committee comprised not only the tester but, four other professors specialised in the field of applied linguistics. The outsiders agreed to award 40 out of 40 as a global mark for relevant answers that were in conformity with the established parameters. The committed teachers evaluated then, compared both tests.

3. Results

3.1. Pre-test

The pre-test findings are the following: First, 70% of the subjects accounted metaphor interpretation more than idiom depiction. Therefore, those who have provided relevant replies emphasised on the correctness of metaphors rather than idioms. Second, CM s took the largest share reaching 70 % out of 98, which was the percentage of the full answers, and that random guesses were merely idiomatic; 2% was the abstainers’ percentage. Third, suggesting highly conventional CM s appeared to be probative variable.

Idioms elucidation was somewhat perplexing task. Therefore, inferring a relevant reply was not so evident. Apriori, trying to associate the conventional meaning of a word with that in the assigned idiom appeared confusing. The students’ scores on the test components with regard to the consented parameters, which are not applicable to idiomatic expressions, awarded by the assessors are demonstrated in (Table 1).

Table 1

TKR means tacit knowledge retrieval, KM means knowledge management, ACM means availability of conceptual mapping, TVI means tenor-vehicle interplay, and LSA means lexico-syntactic accuracy, 4 pts for each complied parameter, the global mark is 20 pts

Conceptual metaphor			TKR	KM	ACM	TVI
LSA	Global mark					
HAPPY IS UP			3	2	2	
3	1	11				
LIFE IS A JOURNEY			3	3	3	
4	2	15				
COMMUNICATING IS SENDING			2	3	2	
2	1	10				
IDEAS ARE FOOD			3	3	3	
4	2	15				

Following the grades attributed to the achievements of each suggested metaphor in (Section 2), IDEAS ARE FOOD CM scored (15 out of 20), the same was for LIFE IS A JOURNEY CM (15 out of 20). The global mark awarded for HAPPY IS UP was lower than that of the previous metaphors (11 out of 20). The remaining CM, COMMUNICATING IS SENDING scored (10 out of 20).

3.2. Post-test

The post-test revealed the following points: First, the interval period (12 months) between the pre and the post-test appeared to be a significant variable. Second, the testees managed CM s embodying emotional data more than others tackling actual occurrences. In (Section 2), 60 % of the subjects built their own metaphors appropriately, 38% gave inappropriate replies. The remaining percentage 2% was that of the abstainers. The respondents' scores on (Section 1) entailments awarded by the assessors are displayed in (Table 2).

Table 2

Conceptual metaphor			TKR	KM	ACM
TVI	LSA	Global mark			
ANGER IS A HOT LIQUID			4	3	3
4	3	17			
MORE IS UP			2	3	3
2	2	12			
NIGHT OWL			2	2	3
2	3	12			

IT DOES NOT MATTER IF IT	4	3	3
4 3 17			
IS BLACK OR WHITE AS LONG			
AS IT CATCHES MICE			

ANGRY IS A HOT LIQUID CM score (17 out of 20) was much higher than MORE IS UP CM (12 out of 20). The same thing was for NIGHT OWL CM (12 out of 20). Here again, the global mark awarded by the assessors was (17 out of 20) for IT DOES NOT MATTER IF IT IS BLACK OR WHITE AS LONG AS IT CATCHES MICE CM.

4. Discussion

Can EFL learners develop the ability to interpret metaphors? According to the tests achievements, the participants managed CM s of the post-test better than those proposed in pre-test. First, in order to avoid putting them on the defensive, conventionality was indeed an inescapable decision upon which both tests have been built. Second, it seems that the interval period was significant, in the sense that it afforded ways of improvement through recurrent use, exposure, and acquaintance. Evoking the parametric combination in solving a given CM, lexico-syntactic accuracy parameter merely was in progress (Table 2). It is in line with (Lindstromberg 1991 and Boers 2000) view that, the efficacy of conceptual metaphors in the acquisition of specialised lexis. Moreover, Littlemore (2001) detected a tendency in language learners to employ metaphoric extension strategies to work out the meaning of unfamiliar vocabulary. Second, the availability of conceptual mapping is intimately linked with finding the interplay between the tenor and the vehicle; those two spell the success of any CM interpretation. This implies that, selecting the most salient features in the establishment of ontological as well as epistemic correspondences is somewhat constraining task for a non native learner. Gibbs (1999) believes that “Concepts are not understood via their own representations, but by metaphorical connections to knowledge” (147). In Test 1: (HAPPY IS UP, COMMUNICATING IS SENDING), and in Test 2: (MORE IS UP, NIGHT OWL CM s)

scored lower than (LIFE IS A JOURNEY, IDEAS ARE FOOD in Test 1 and (ANGER IS A HOT LIQUID, IT DOES NOT MATTER IF IT IS BLACK OR WHITE AS LONG AS IT CATCHES MICE CM s in Test 2), and this because students coped with CMs involving emotional data more than CM s dealing with pragmatic contents. In this regard, some students' samples are worth entailing: "ANGRY IS A HOT LIQUID means that when we get angry is like when a hot liquid burns or hurts us. When someone gets angry, he feels as a hot liquid circling in his or her body". "When you get angry, you do everything bad, because you are losing logic and your mind too". (Lakoff and Johnson 1980; 1999) propose that bodily metaphors are universal, people appear to have similar physical experiences of the world through their bodies. In the same vein, (Hays and McCagg 1999) view that: "We experience much our world in terms of the vertical orientation of our bodies" (37). "MORE IS UP means that things go beyond my ability. It overcomes the limits and lines, and this thing should stop". Third, another noteworthy variable arising from the nature of metaphor itself is the opacity or transparency of a given CM. For instance, COMMUNICATING IS SENDING CM was not covered as LIFE IS A JOURNEY CM in the Pret-test. The former seemed to be perplexing, whereas, the latter appeared so obvious for the subjects. There were asymmetrical levels of conceiving the tenors: 'life' and 'communicating' and the vehicles: 'journey' and 'sending'. So was for conceptual mapping i.e., how a learner organises and structures his or her knowledge. The argument is based on the idea that the incongruence underlying the conceptual mapping among one CM makes it opaque. In other words, there is no logical- correlational link between communicating and sending, because communicating is normally conceived as being two ways channel (sending and receiving) and not one way. Similarly, IT DOES NOT MATTER IF IT IS BLACK OR WHITE AS LONG AS IT CATCHES MICE CM in the Post-test score was quite interesting since it is highly conventional, in addition of being transparent, and very inspiring too; this pertained to relevant interpretations.

Is metaphor interpretation more approachable task than idiom depiction? Regarding leaning, idiomatic expressions did not appear enjoyable task. However, the tendency towards metaphor

interpretation was sharp. The contingent answers that the testees gave revealed low mental associations and connotations as well. As an example, some respondents wrote: “pulling the carpet under feet means to defeat someone who is usually the first or the stronger”. Using two different vessels for measuring means: “When we do something wrong or bad, we will hurt just ourselves not the others”. “We need to think about the next step from all its sides before doing it”. In view of this, Gibbs (1992, 1994) has proposed that our comprehension of the vast majority of linguistic metaphors- both idiomatic and novel figurative expressions- is fundamentally a recognition process.

Can learners generate intricate metaphors in the foreign language? They were kin to produce metaphors by themselves after being exposed to. Roughly, 100 palatable metaphors have been improvised by almost 70% of the students. It appears that knowing the mechanisms reigning CM as a prerequisite paves the way for the improvisation process. Some examples seem to be convenient here: “Beautiful life needs beautiful eyes; Technology is a two-sided weapon; I will never stop trying as long as I am near the bush; Money does not sleep, so, we cannot take a rest” Thus, an EFL learner can generate simple CM s. Therefore, learning CM by osmosis according to Sfar (1992) occurs when students are committed in absorbing the mechanisms of how a conceptual metaphor works, and that, it encompasses a double aspect of outer and inner and thus, makes possible an eventual impregnation.

Is an EFL metaphorically organised conceptual system learnable? An EFL metaphorically organised conceptual system is learnable, since it requires exposure and knowing about CM functioning. The point is that, the more often learners use metaphors, the more automatic they become, and the faster students become at using them. That is to say, metaphor acquaintance can be conducive to fast retrieval or effortless production. Metaphor is not at the margin of language, rather, as Harris (1981) convincingly argues, it “is at the very heart of everyday mental and linguistic activity”. (cited in Lantolf 1999 b: 42).

The study demonstrated that effective CM interpretation depends on metaphoric proficiency and accordingly, metaphorical competence

might be increased through recommended CM familiarisation. Such conceptual maintenance is a major objective for language learners who regularly invoke CM. Larger repertoire of words may have given rise to their better oral and written achievements. There may be a positive connection between CM use and specialised lexis equipment, which will no doubt prove to be fruitful.

5. Conclusion

This paper has considered the possibility of learning conceptual metaphor by presenting four research questions. The answers for the questions confirmed that an EFL learner can develop the ability to interpret metaphors, that metaphor interpretation is more approachable task than idiom depiction, that learners can generate simple conceptual metaphors, and that an EFL metaphorically organised conceptual system is learnable. Learning conceptual metaphor boosts students' conceptual thinking, as it triggers expressive, compact, and profound language. It has been argued that metaphor familiarisation reflects some language patterns as well, since learners would benefit from being frequently exposed to as the acquisition of specialised lexis.

References :

- Boers, F., 2000. Metaphor awareness and vocabulary retention. *Applied Linguistics* 21, 553-571.
- Daneisi, M., 1993. Metaphorical Competence in Second Language Acquisition and Second Language Teaching. In *Georgetown University Round Table on Language and Linguistics*, ed. J.E. Alatis, pp.489-500. Washington, D.C.: Allen and Unwin.
- Demecheleer, M. (1998). *A Cognitive Semantic Approach to Teaching Prepositions*. *ELT Journal*, 52, (3), pp.197-204.
- Geertz, C., 1973. *The Interpretations of Cultures: Selected Essays by Clifford Geertz*. New York: Basic Books.
- Gibbs, R. W., 1992. Categorization and metaphor understanding. *Psychological Review*, 99, pp. 572-577.
- Gibbs, R. W., 1994. *Figurative Thought and Figurative Language*. In M.A.Gernsbacher (Ed.), *Handbook of Psycholinguistics*. San Diego: Academic Press.
- Gibbs, R. W., 1999. 'Taking Metaphor out of our Heads and Putting it into the Cultural World' in R.W. Gibbs, jr. and G.J. Steen (Eds.), *Metaphor in Cognitive Linguistics*. Amsterdam: John Benjamins.
- Harris, R., 1981. *The Language Myth*. London: Duckworth.

Hays, P., McCagg, P., 1999. Foreign Bodies in Foreign Minds: ‘SLA and the Embodiment of Metaphor’. *Language Research Bulletin* 14, 33- 43.

Kecskes, I., Papp, T., 2000. *Foreign Language and Mother Tongue*. Mahweh, N.j. : Lawrence Erlbaum.

Kovecses, Z., Szabo, P., 1996. ‘Idioms: A View from Cognitive Linguistics’ *Applied Linguistics* 17, pp.326-55.

Kovecses, Z., 2000. *Metaphor and Emotion. Language, Culture, and Body in Human Feeling*. Cambridge University Press.

Kovecses, Z., 2001. ‘A Cognitive Linguistics View of Learning Idioms in an FLT Context’ in M. Putz, S. Neimeir, and R. Dirven (Eds.): *Applied Cognitive Linguistics II*:

Language Pedagogy. Berlin: Mouton de Gruyter.

Kovecses, Z., 2002. *Metaphor: A Practical Introduction*. Cambridge University Press.

Kovecses, Z., 2010. *Review : Psycholinguistics*. Cambridge University Press.

Lakoff, G., Johnson, M., 1980. *Metaphors We Live By*. Chicago: University of Chicago Press.

Lakoff, G., Turner, M., 1989. *More than Cool Reason: A Field Guide to Poetic Metaphor*. Chicago: University of Chicago Press.

Lantolf, J.P., 1999b. ‘Second culture acquisition: cognitive considerations’ in E. Hinkel (Ed.), *Culture in Second Language Teaching and Learning*. Cambridge University Press.

Lindstromberg, S., 1991. *Metaphor and ESP: A Ghost in the Machine*. *Journal of English for Specific Purposes*, 10, pp. 207- 225.

Littlemore, J., 2001. ‘Metaphoric Competence: A Possible Language Learning Strength of Students with a Holistic Cognitive Style’. *TESOL Quarterly* 23, (3) pp. 459- 491.

Low, G., 1988. *On Teaching Metaphor*. In *Applied Linguistics*, 9, 2, pp. 125- 147. Oxford

University Press.

MacCarthy, M., 2001. *Vocabulary*. Oxford: Oxford University Press.

Nayak, N., Gibbs, R. W., 1990. *Conceptual Knowledge and the Interpretation of Idioms*.

Journal of Experimental Psychology: General, 119, pp. 315-330.

Petrie, H. G., Oshlag, R. S., 1993. *Metaphor and Learning*. In A. Ortony (Ed.), *Metaphor*

and Thought (2nd edition.) pp. 579-609. Cambridge: Cambridge University Press.

Putz, M., Niemeier, S., Dirven, R. (Eds.), (2001a). *Applied Cognitive Linguistics I*:

Theory and Language Acquisition. Berlin: Mouton de Gruyter.

Putz, M., Niemeier, S., Dirven, R. (Eds.), (2001b). *Applied Cognitive Linguistics II*:

Language Pedagogy .Berlin: Mouton de Gruyter.

Scheffler, I., 1979. *Beyond the Letter: A Philosophical Inquiry into Ambiguity, Vagueness, and Metaphor in Language*. Routledge and Kegan Paul.

Sfard, A., 1992. Operational origins of mathematical notions and the quandary of reification- the case of function. To appear in E. Dubinsky and G. Harel (Eds), *The Concept of Functions: Aspects Epistemology and Pedagogy*. MAA Monograph.

Sontag, S., 1975. *Illness as Metaphor*. New York: Vintage Books.

Strauss, C., Quinn, N., 1997. *A Cognitive Theory of Cultural Meaning*. Cambridge: Cambridge University Press.

Valeva, G., 1996. On the notion of conceptual fluency in second language. In A. Pavlenko

& R. Salaberry (Eds), *Cornell working papers in linguistics: Papers in second language acquisition and bilingualism*. pp. 22-38. Ithaca: Cornell University Press.

Description des pratiques de lecture : cas des apprenants de la 1^{ère} année universitaire de langue française

Pr. MISSOURI Belabbas

Université Djilali Liabès- Sidi Bel Abbès

Abstract :

This study concerns the case of newly established learners in French-language classes within the university. For each of the points analyzed, we will try to keep the same approach: a brief separate description of the nature of the learners followed by a synthesis highlighting common points and specificities. We made the choice to approach this observation through realities that we experience daily where the majority of learners is not able to succeed in a simple discussion, a simple language exercise and less the performance of a language activity .

Key words:

Reading, writing, competence, methodology, learning, practices

Cette étude concerne le cas des apprenants nouvellement installés en classe de langue française au sein de l'université. Pour chacun des points sur lesquels portera l'analyse, nous tenterons de conserver la même démarche : une rapide description séparée de la nature des apprenants suivie d'une synthèse mettant en évidence points communs et spécificités. Nous avons fait le choix d'aborder cette observation à travers des réalités que nous vivons quotidiennement où la majorité des apprenants n'est pas en mesure de réussir une simple discussion, un simple exercice de langue et moins la réalisation d'une activité de langue.

Pour mieux recadrer notre problématique, un certain nombre de question méritent d'être insérées : Quelles sont les stratégies de lecture mises en pratique ? Que font les apprenants de leurs lectures diversifiées ? Ces lectures, existent-elles d'abord ? Comment se structure leur rapport à la pratique de la lecture ? Par quel moyen construisent-ils les représentations à la lecture ? Nous allons aussi schématiser ce tandem lecture-écriture et voir comment peut-il contribuer à l'installation de cette habitude cognitive chez les apprenants. Ces derniers, dans

leur majorité, souffrent de quelques difficultés liées à l'apprentissage de la langue.

L'apport et l'intérêt de la lecture peut-il aider à mieux écrire ? D'emblée, nous nous inscrivons dans l'affirmatif. Nous justifions cela par un rappel des situations d'enseignement dans lesquelles nous avons, nous-mêmes, évolué. Il était clair que la lecture aide à enrichir les compétences lexicales. La découverte des mots, des locutions, des temps grammaticaux stimulent l'apprenant à saisir et à se ressaisir. Nous nous intéresserons aussi à l'analyse d'un certain nombre d'approches qui ont trait à la maîtrise de la langue et aussi aux stratégies de l'écrit qui découlent des pratiques de la lecture.

Les stratégies de la lecture font subir aux apprenants un genre de « défi ». Ils sont appelés à confectionner des produits personnels pour des usages multiples. Quelque soit la nature de ces derniers, les apprenants se sentent toujours dans le besoin d'apprendre pour mieux réussir. Ceci nous amène donc à reformuler un ensemble de questions relatives à cette zone de problèmes de lecture que nous pensons explorer dans la présente recherche.

- Quel est le rôle de la lecture dans l'amélioration des compétences lexicales ?

La lecture, à notre avis, un élément facilitateur, peut contribuer à installer chez le scripteur un rapport à l'objet, créer chez lui une fluidité lexicale capable de l'aider à se sentir à l'aise pendant la pratique scripturale. Nous pensons détailler le discours de la langue comme outil nécessaire à l'acquisition des savoirs universitaires, particulièrement en ce qui concerne nos apprenants en langue française. Nous pensons aussi que bien des choses devraient être faites pendant ce cycle que nous considérons comme l'édifice de l'enseignement. Durant cette phase, nous jugeons les instructions de base comme une donnée déterminante pour la suite des apprentissages et c'est, à ce stade là, qu'il est important de faire naître chez les apprenants le goût de la lecture, d'où l'émergence d'un rapport à la tâche. Certains (un nombre considérable) d'entre nos apprenants actuels, et à

titre privé, se confient qu'ils ne se sont jamais imaginés arriver en classe de langue française et au supérieur, en plus. Pour eux, le Français était une chose impossible parce qu'ils ne l'ont jamais bien maîtrisé. D'autres (très peu relativement à l'ensemble), par contre, montrent une adhésion aux principes qui régissent le bon déroulement de la tâche de la lecture. Il est nécessaire de mentionner ces cas de figure. Ils (ces apprenants) parlent de leurs analyses et commentaires écrits avec une certaine fierté. Ils affirment qu'ils ne connaissent pas ou peu de difficultés et qu'ils sentent une certaine aisance pendant la réalisation des tâches d'écritures à partir de leurs lectures diversifiées. Ils estiment que leur bagage lexical est consistant et capable de les aider à utiliser des représentations adéquates. Ils ajoutent qu'ils se sont initiés à des pratiques de lectures individuelles en plus des celles qui sont constantes. C'est, à notre avis, le point de différence entre ces deux catégories. Cette pratique combinatoire d'associer lecture et écriture est responsable de la richesse des compétences lexicales chez les apprenants qui se considèrent comme bons.

Pour mieux gérer les écrits universitaires, il a été conclu (à travers notre enquête de terrain) qu'un lecteur-scripteur est mieux disposé à se lancer dans la pratique. C'est le fait de pouvoir disposer d'un bagage lexical consistant qui lui facilite la tâche, lui permet aussi l'entrée dans la situation d'écriture sans hésitation, l'aide à comprendre ce qui va être fait (l'apport des prédispositions à ne pas trop chercher à se situer par rapport à l'objet de travail). Dans sa globalité, l'apprenant en classe de français au supérieur, et en dépit des difficultés qu'il rencontre, est tenu par le suivi des instructions, des méthodes de travail. Il aurait été plus juste d'exploiter son attention. Il est vrai que chaque apprenant a ses propres caractéristiques. Dans la vie quotidienne de ce dernier, lire un journal, un magazine, un roman ou un recueil est un comportement qui se raréfie. La manque de pratique de lectures (confirmée par un bon nombre d'enquêtés) ne peut pas aider à acquérir un matériau lexical, à enrichir l'imagination quant aux suites à donner aux analyses

littéraires, à réussir la compréhension des discours universitaires, à améliorer les styles d'écriture. Nous pensons qu'il s'agit d'un facteur générateur de beaucoup de connaissances et autres outils permettant l'entrée dans l'écriture et sa maîtrise graduelle. Pour mieux étayer nos propositions, nous rappelons ce rapport qui devait exister entre enseignant-enseignés d'où un échange perpétuel de points de vue relatifs aux lectures et aux bons usages des acquis « récoltés ».

La lecture est, de ce fait, un moyen capable de stimuler l'apprenant à se conforter à des situations qui lui permettent de réintégrer des acquis réalisés antérieurement (à travers des lectures préalables, il peut rechercher des indices de sens, recenser les idées-maîtresses, utiliser ses propres observations), ainsi que la mise en pratique de tous ces apprentissages pour réaliser un écrit complexe et signifiant. Nous soulignons, à travers la présente proposition, l'importance à prendre en considération la nécessité de donner la latitude à l'apprenant de réinvestir ses acquis et les mobiliser pour réussir la production d'un écrit demandé ou visé. Le but de nos propositions, rappelons-le, est de permettre aux acteurs impliqués dans l'enseignement-apprentissage du français (particulièrement au supérieur) d'évoluer, à travers le tandem lecture-écriture, pour la réalisation des objectifs respectivement assignés.

L'implication des enseignants dans les projets d'installation des compétences (orales et écrites) chez l'apprenant permet la mobilisation, chez ce dernier, des capacités d'analyse, d'expression, de communication. Elles passent aussi par le besoin d'apprendre à pratiquer la lecture intensive, quotidienne et diversifiée. La présence de toutes ces matières de les nouveaux programmes du L.M.D (expression et compréhension orales, compréhension et expression écrites, techniques du travail universitaire) sont là pour simplifier l'apprentissage à l'apprenant et le mettre dans des conditions favorables.

Bibliographie :

- DABENE, M., (1987) : ‘‘ L’adulte et l’écriture ’’, dans J.L. Chiss, J. P. Laurent, J. C. Meyer, H. Romian, B. Schneuwly, (dir.), *Apprendre/enseigner des textes écrits*, Bruxelles, De Boeck Université.
- DABENE, M., (1990) : ‘‘ Des écrits extraordinaires. Eléments pour une analyse de l’activité scripturale ’’, *Lidil* N° 3.
- DELCAMBRE, I., (2002) : ‘‘ L’inscription graphique au cours d’un travail de groupe : aide cognitive ou rituel formel ? *Pratiques* N° 115/116, *L’écriture et son apprentissage*, Décembre 2002.
- DELCAMBRE I., LAHANIER-REUTER. D., (2003) : ‘‘Propositions pour une étude sur les méthodes de recherche en didactique’’, *Les cahiers Théodile* N° 4.
- DEZUTTER, O., & THYRION, F., (2002) : ‘‘ Comment les étudiants entrants s’approprient-ils les discours universitaires ? *SPIRALE* N° 29, *Lire-écrire dans le supérieur*, Revue de Recherche en Education.
- JAVERZAT, M-C., (2004) : ‘‘ La dictée à l’adulte comme genre de l’activité scolaire d’apprentissage du langage écrit, *Mélanges CRAPEL*, n° 29.
- JEANJEAN, M-C., JEANJEAN, M-F, MASSONNET, J., (1991) : *Oser parler : pouvoir écrire*. Paris, Nathan.
- NONNON, E., (2002) : ‘‘ Des interactions entre oral et écrit, in *Pratiques* N° 115/116, décembre 2002.
- POLLET, M-C., (2001) : *Pour une didactique des discours universitaires : Etudiants et système de communication à l’université*, Bruxelles, De Boeck Université.
- REUTER, Y., (1996) ‘‘ Les relations lecture-écriture dans le champ didactique’’, *Pratiques*, n° 86.
- VANHERWEGHEN, J. L., (1999) ‘‘ Que veut dire « réussir à l’université » ? *In Enseignement secondaire et Enseignement universitaire : quelles missions pour chacun ?* Bruxelles, Les éditions de L’U.L.B.

Abstract:

The present research deals with practical comportments among French language First year students at university. Actually, it is an observation of learning evolution (and continuation) since new students are dealing with a variety of knowledge within a new structure. Reading is the main item of our research as we consider such a notion as the most effective element that may help learners to approach the planned objectives.

Le système portuaire du Nord du Maroc au 17 et 18 siècles

Abdelilah DEHANI

Université Mohamed V- Rabat

Le rôle de la mer dans l'histoire du Maroc n'est toujours pas connu. La recherche touchant ce domaine étant récente, les études élaborées jusque-là restent très rares. Et si Salé a bénéficié de quelques thèses, les autres ports surtout ceux du Nord du Maroc, n'ont toujours pas été l'objet d'études pouvant élucider leurs activités, la société maritime qui y était établie, et même ses relations avec les autres ports, aussi bien du Maroc que des autres pays.

Dans ce contexte, nous proposons d'examiner la situation des ports du Nord du Maroc, essentiellement Tétouan et Tanger à la lumière des questions méthodologiques parues récemment, et qui abordent les points essentiels d'un système portuaire tels le rôle de l'état, les fonctions du port, son arrière-pays et son avant-pays, sans négliger le contexte extérieur ¹.

1/ Le Rôle de l'Etat.

Nous savons qu'en Europe, le rôle de l'Etat était déterminant dans l'évolution des ports, par les mesures décisives qu'il a prises.

Au Maroc, nous pouvons avancer que le Maghzen a pris des décisions concernant les ports et les marins, mais ces décisions de par leur nature et leur exécution posent problème.

Le sultan Moulay Ismail qui a régné entre 1672 et 1727, à donner un coup fatal aux activités maritimes –dit-on souvent- en contrôlant les opérations maritimes. En effet, c'est lui qui armait la plupart des navires, qui d'ailleurs ne dépassent pas une dizaine. C'est à lui également qu'on devait payer les taxes. Enfin, c'est à lui que devaient être remis tous les captifs contre une petite somme d'argent.

Il en résulte que les marins, ne profitant plus à leur compte des opérations qu'ils menaient, ont fini par perdre toute envie de reprendre la mer.

Malgré sa politique visant à récupérer toutes les villes prises par les européens, il s'intéressait peu de l'évolution des ports. On doit noter l'absence d'une politique visant à favoriser l'évolution des ports (Tanger, Maamora et Larache). La nomination de Ali ben Abdellah, jusque-là² Bacha de Tétouan et gouverneur des Algarves, en poste de

ministre chargé de toutes les affaires maritimes, n'est qu'un autre point qui mérite des explications. L'homme connaissait peu les affaires maritimes bien qu'il ait eu des intérêts commerciaux en Europe, surtout à Gibraltar. On peut lire dans le dahir de nomination :

« Nous portons à votre connaissance que nous avons nommé le caïd Ali ben Abdellah ministre chargé de toutes les affaires maritimes. Nous lui avons cédé tous vos captifs. C'est lui qui va vous contacter pour traiter avec vous toutes les questions qui vous concernent. »³

Notons que Moulay Ismaïl avait dans sa cour des hommes plus expérimentés sur les affaires maritimes que le Bacha de Tétouan, dont Abdellah ben Aïcha n'est qu'un exemple. Peut-être le sultan ne voyait pas de différence entre les affaires maritimes et les autres fonctions, puisque le dernier mot, c'est-à-dire la décision finale et décisive lui revient ?.

Moulay Ismaïl connaissait peu des affaires maritimes. Il vivait à Meknès confiant à des caïds la mission de lui fournir les informations dont il avait besoin. Presque un siècle plus tard, Sidi Mohammed ben Abdellah allait accuser les envoyés européens d'avoir trompé son père Moulay Abdellah, et son grand père Moulay Ismaïl qui ne connaissaient rien des affaires maritimes⁴.

De sa part, le sultan Sidi Mohammed a pris plusieurs mesures liées à la mer :

-Il a promulgué des dahirs en faveur des marins.

-Il a ordonné qu'il n'y ait plus d'esclaves dans son royaume.

-Il a essayé non seulement de se doter de matériel naval pour sa flotte, mais aspirait même à attirer des marins expérimentés d'Europe en leur offrant des sommes alléchantes, comme le montre sa lettre à son gouverneur su Tanger :

« Nous ordonnons à notre caïd Mohamed ben Abdelmalek de rassembler tous les consuls établis à Tanger pour les informer que notre marine perd chaque année plusieurs bâtiments ; et que si une nation voulait avoir plus de faveur dans notre cour, elle doit nous envoyer des pilotes pour nos navires... Nos marins seront sous leurs ordres pour les assister... Nous proposons à ces pilotes une somme une fois et demie plus grande que celle de leur nation... Nous tenons à les informer également que nous projetons les envoyer en Inde et en Amérique⁵.

-Il a ordonné aux gouverneurs des places maritimes d'apprendre aux gens le travail sur mer. Le texte d'Ibn Zidane est dans ce sens significatif :

« Le Sultan a ordonné aux tribus Ait Atta de lui envoyer 600 hommes. Il a également mandé qu'on lui envoie 400 des abids de Tafilelt pour leur apprendre à travailler sur mer »⁶.

-Il a procédé à la construction de deux villes côtières : Essaouira et Fedala (Actuelle Mohammedia à quelques kilomètres au Nord de Casablanca).

Pourtant, les mesures prises par le sultan n'avaient pas d'impact réel sur la situation des ports. Non seulement les européens refusaient de lui fournir ce dont il avait besoin, mais surtout les hommes de la mer qu'il voulait former fuyaient vers les montagnes. Cela nous amène à soulever le deuxième facteur.

2/ Les marocains et la mer

Soulevé souvent, la relation des marocains avec la mer mérite d'être examinée. Des explications ont été présentées pour expliquer cette relation, et répondre à la question : Pourquoi les marocains portaient peu d'intérêt à la mer ?

-Un point de vue se réfère à la tradition. C'est que les marocains ne voyaient venir de la mer que du mal. Les événements qui avaient marqué le début de l'ère moderne c'est à dire les invasions des côtes marocaines par les Ibériques, viennent confirmer ce point de vue.

-Une autre explication s'appuie sur des versets coraniques et des hadiths du prophète qui insistent sur les dangers de la mer.

-Une troisième explication tient au fait que les marocains sont plus attirés par l'intérieur qui leur offre tout ce dont ils ont besoin. Kaddouri à donner de plus amples détails sur ce point⁷.

Outre cette mentalité générale qui refuse le travail sur mer, les élites -si on ose parler d'élites – n'arrivaient jamais à former un groupe homogène capable de forcer le makhzen à favoriser le développement des ports.

Pour le Nord du Maroc, aussi bien Ali ben Abdellah que son fils Ahmed et leurs proches monopolisaient presque toutes les activités économiques. John Windus qui a accompagné l'ambassadeur anglais Charles Stewart au Maroc en 1721 nous présente l'un d'eux comme suit :

« Le Bacha est le maître absolu de sa région, il agit comme un roi qui confisque tout ce qu'il lui plait (maisons, terres, chevaux...). C'est pour cela que toute personne ayant réussi à ramasser de l'argent, tâche de la cacher. Sinon le Bacha procède à le torturer et le priver de sa fortune »⁸.

Cette « élite » menait une vie très aisée. Elle avait de jolies maisons, avait sous les ordres des gens armés et prêts à exécuter ce qu'on leur demanda. Elle partait de temps en temps faire des tournées de chasse, elle boit même du vin en cachette. Mais c'est une élite qui est restée liée à l'intérieur et n'avait pas le souci des ports, de leurs activités ou de leur évolution en général.

Vivaient à Tétouan et à côté de cette élite, des andalous, des juifs et des chrétiens dont le nombre était limité.

A Tanger, sous l'occupation anglaise, Joseph de Léon trace une image d'un port très actif, avec une population hétérogène (Musulmans, chrétiens, protestants, chrétiens catholiques, juifs..) mais qui cohabitent en harmonie. Le port disposait d'infrastructures qui facilitent l'accueil des navires. La position géographique du port de Tanger lui assure des ressources très importantes, vu le nombre très élevé des navires qu'il recevait⁹.

Mais après sa récupération par les marocains en 1684, la population chrétienne ou la plupart- a quitté la ville, le port a perdu une grande partie de son infrastructure. Les anglais avaient démoli presque toutes les constructions du port avant de s'embarquer¹⁰. Il n'a repris son activité que quelques décennies plus tard. En résumé, le Maroc n'a pas disposé d'une élite ayant la mer comme horizon.

3/ L'arrière-pays.

Selon les descriptions du XVII et XVIII siècle, les régions liées à Tétouan et Tanger abondaient en produits agricoles (oranges, olives, moutons, vaches, poulets...). On peut lire dans l'une d'entre elle :

« Les terres par où nous sommes passés (entre Tétouan et Meknès) sont très fertiles. Les grains abondent ainsi que les viandes. Il y a également une grande quantité d'olives. Et cela, malgré le fait qu'une grande partie des terres n'est pas exploitée »¹¹.

Ce sont les mêmes remarques qu'avaient fait avant lui les ambassadeurs du XVII et du début du XVIII siècle. Deux problèmes restent tout de même un obstacle à ce facteur. Le premier est lié aux moyens de transport. Le moyen le plus utilisée étant les chevaux, et le

terrain difficile à traverser. Les quantités de produits transportées à Tétouan et Tanger étaient donc limitées. Le deuxième a trait à l'esprit qui régnait au Maroc durant le 17^{ème} et le 18^{ème} siècle, et même avant, et quelque temps après, et qui consiste à cultiver la terre selon les besoins c'est à dire que seul le souci de subsistance prédomine. Dans sa réponse à un ambassadeur européen qui voyait mal la non exploitation d'aussi vastes terres, le bacha de Tétouan répond :

« Nous avons une grande quantité de grains qui peut nous suffire au moins pendant 100 ans. Le sultan n'a pas besoin d'ordonner l'exploitation de ces terres »¹².

En général, nous pouvons dire que les ports du Nord disposaient d'un arrière-pays riche, mais avec des difficultés énormes de transport.

4/ L'avant-pays ou the foreland.

Les ports du Nord marocain étaient liés à la mer, aux autres ports du Sud de l'Espagne, à Gibraltar, Marseille et Malte. Des va-et-vient entre Tanger d'une part, Tarifa y Gibraltar de l'autre, étaient fréquents et même quotidiens. Tétouan était liée principalement à Gibraltar et l'Est espagnol (Barcelone). En effet, Tanger fournit à l'Andalousie une quantité importante de ses besoins en nourriture (vaches, moutons, poules, grains, fruits, légumes...) ; autant de produits que les documents citent souvent. Des commerçants de Tarifa étaient très connus à Tanger tels Fernando Arias, Antonio Roman et Diego Fuentes¹³. De même, des navires venaient de Gibraltar chercher de l'alimentation, comme le montre les documents classés au fonds des archives des affaires étrangères à Paris. Les conflits européens ne font que renforcer cette situation. Les navires marocains, très sollicités par les espagnols pour contourner l'embargo imposé par les anglais à la fin du XVIII^{ème} siècle, allaient souvent à Barcelone, Malaga et autres ports espagnols¹⁴.

Comme on a pu le constater, l'avant-pays des ports du Nord était limité géographiquement, mais c'est un espace vital ou le mouvement des navires était très grand.

5/ le facteur extérieur.

Les positions prises par les responsables européens vis-à-vis du Maroc ont contribué à pousser une grande partie de la population marocaine loin de la mer.

1° les razzias que menaient souvent les marins de l'autre rive, ont obligé les gens à fuir la côte. [Nous pouvons tout simplement nous référer à l'étude intéressante du Prof Eloy Martin Carrales » Les répercussions].

2° Les responsables européens n'étaient pas favorables au développement de la force navale du Maroc. Les uns s'opposaient fermement à lui fournir du matériel naval, les autres refusaient de réparer ses navires, ou bien, s'ils acceptaient de le faire, ils demandaient de grandes sommes d'argent. De plus les réparations faites laissent beaucoup à désirer.

3° A plusieurs reprises, les pays européens attaquaient les ports marocains pour brûler et détruire les navires marocains. Si l'expédition française de 1765 contre Larache avait échoué et a tourné même au désastre, d'autres, comme celle menée par les espagnols, avaient bien réussi.

Fonctions des ports : De la Course à la Diplomatie.

Au 17^{ème} siècle et au début du 18^{ème}, Tétouan a changé de fonction. Point actif de la course, elle se convertit à l'époque de Moulay Ismaïl et encore sous le règne de sidi Mohammed ben Abdellah , avec Tanger, à des points de contacts diplomatiques importants. Les ambassadeurs français qui se dirigeaient vers Meknès, prenaient souvent la route qui relie Tétouan à la capitale de Moulay Ismaïl. St Olon qui a visité le Maroc en 1693 pour négocier la libération des captifs, débarqua dans ce port avant d'être reçu par le Bacha Ali ben Abdallah sur la route entre Tétouan et Meknès. Charles Stewart, l'ambassadeur anglais qui a réussi en 1721 à obtenir la ratification d'un traité globale qui a régi les relations anglo-marocaines pendant plus d'un siècle, descendit à Tétouan où il avait de longues discussions avec le Bacha Ahmed ben Ali qui a succédé à son père à la tête du province des Algarves.

Tanger, quant à lui, a cessé d'être loin de l'intérêt du Sultan. En plus de son rôle déjà cité, c'est-à-dire d'être un espace d'un négoce qui touche Gibraltar et l'Andalousie, le port de Tanger a joué un rôle stratégique dans le conflit anglo-espagnol sur le rocher de Gibraltar. En effet, les documents de l'époque mettent en évidence une action politique active de la part des belligérants auprès du Sultan pour s'assurer son ralliement ou au moins sa neutralité¹⁵. Le sultan finit par prendre parti en faveur de l'Espagne, prétextant dans une lettre

adressée à Mohammed ben Abdel Malek, son gouverneur sur Tanger que : « Le pays (Maroc) a souffert d'une disette si aiguë qu'il ne peut pas autoriser la sortie des produits agricoles »¹⁶.

Non seulement le Maroc a mis le port de Tanger à la disposition des espagnols, mais il a aussi mis fin au négoce avec Gibraltar. Au lieu de se voir bénéficier de la position stratégique de Tanger, le Maroc s'est vu infligé de lourdes pertes, surtout que cela a coïncidé avec des saisons de sécheresse et de disette.

Nous voyons également passer par Tanger le docteur William Lemprière qui nous a donné une image de cette ville en 1790, ou encore des voyageurs comme Jean Potoki, des espions tel Ali Bey El Abassi (Domingo Badia y Leblich) au début du XIX siècle.

Nous pouvons conclure en disant qu'il y avait un certain ordre entre les ports du Nord du Maroc, soit entre elles (Tétouan et Tanger) ou avec leur arrière-pays et avant-pays, et il existait même des fonctions pour ces ports (course, diplomatie, commerce...). Pourtant, ce « **système portuaire** » mérite de plus amples recherches pour connaître son fonctionnement.

Index :

¹ Voir essentiellement l'étude méthodologique de A. Guimera Ravina et D. Romero-puertos y sistemas portuarios (siglos XVI- XX), Actas del coloquio Internacional « El sistema portuario español » Madrid, 1996.

²

³ Archives nationales de Lahaye, Serie 1.01.08 N° 12 594.36 Année 1695.

⁴ Rogers : Les relations Anglo-marocaines jusqu'à 1900. trad. Arabe par y.l.RIZK, p 142.

⁵ Archives nationales de Lahaye, Etats Généraux, série 1.01.04 n° 6987 / AHN, Estado, leg. 4319.

⁶ Ibn Zidane (A)- Ithaf (en arabe), T.3, 2^{ème} ed., Casablanca, 1990, p 262.

⁷ Abdemajid Kaddouri, Le Maroc et l'Europe. Le problème du dépassement, Centre Culturel Arabe, 2000 , pp 337- 361.

⁸ Windus (J) – A journey to Mequinez. Trad. Arabe, p42.

⁹ Chantal de Laveronne, Tanger sous l'occupation anglaise d'après une description anonyme de 1674. Limoges, 1974.

¹⁰ Moulay Ismail avait protesté auprès des anglais lors de la destruction du port, arguant que ces infrastructures, auraient servi les intérêts des deux pays et qu'il était prêt à les indemniser s'ils avaient gardé les constructions.

¹¹ Windus (J) – A journey to Mequinez (trad. Arabe), Meknés, 1993, p70.

¹² Windus (j)- A journey... op.cit, p19.

¹³ Voir l'étude qu'a consacrée Carlos Posac Mon au commerce entre Tanger et Tarifa.

Carlos Posac Mon, « Las relaciones comerciales entre Tanger y Tarifa en el periodo 1766-1768 » in **Cuadernos de la Biblioteca espanola de Tetouan**, n° 12, 1975, pp33-54.

¹⁴ Eloy Martin Corrales, « La flotte marocaine et le commerce de cabotage espagnol (1797 – 1808) in **Maroc-Europe**, n°2, 1991, pp 71-80.

¹⁵ Nous pouvons lire dans un numéro de la **Gaceta de Madrid** du 3 mars 1779 que le sultan du Maroc a reçu une lettre des responsables anglais lui demandant l'autorisation de prendre des produits agricoles.

¹⁶ Archivo Historico Nacional, Estado, Legajo 4314.

L'usage de l'adverbe quantitatif et intensif chez l'apprenant de 1ère année secondaire dans le contexte algérien.

Mme BENTAALLAH Nassima, ép SALMI
Université Djilali Liabès, Sidi Bel Abbès

Abstract:

Our study is an academic research that deals with the adverb usage among secondary school programme. It shows how important is the place of the adverb among the context. The present paper is also a continuity of our investigation and the relative procedures used to reach our research aim. Teaching a foreign language is based on items, notions and other acquisitions.

Key words:

Adverb, teaching, school, system, context, phrasal construction,

Ce choix de ce travail ne s'articulera pas essentiellement autour du domaine didactique mais plutôt tachera d'ouvrir une voie d'accès à la recherche sur les adverbes en situation d'apprentissage. En questionnant les élèves ne cours sur les adverbes qu'ils connaissent ; ils répondent par :-simplement -doucement-calmement

Cette réponse est celle qui a motivé notre choix. Nous avons remarqué une lacune quant à l'enseignement syntaxique de cette notion, nos apprenants face à cette partie de langue sont incapables de la caractériser même si elle fait partie de leur capacité passive.Par ailleurs, il est aussi bien un outil grammatical qu'un outil nécessaire à la compréhension du sens, il est important dans les énoncés car il explique, modifie, approfondie le sens et il modalise en un mot. -j'irai à Oran. -**demain**, j'irai à Oran.

-Est-ce que l'emploi des adverbes est conditionné par la langue maternelle ? Ou est-ce que tout simplement c'est la nature complexe de l'adverbe français qui pose problème?

-Nous proposons des différentes difficultés chez nos apprenants pour éclairer celles qui sont susceptibles d'être empruntées par des personnes spécialisées en vue de leur solution. Il existe des erreurs liées au désintérêt ou à l'inattention mais le plus grand nombre

d'erreurs commises peut servir de soutien pour renouveler l'analyse de ce qui est pratiqué dans la classe afin de mieux constituer et d'organiser l'intervention pédagogique.

Par ailleurs, l'enseignant de langue doit se prononcer sur l'interopérabilité, la grammaticalité des énoncés produits et la référence à la norme, dans ce qu'elle a de fluctuant, rend la réponse à ces questions très difficile : quelle norme adopter : celles de l'oral, celles de l'écrit, celles d'un français régional ou encore standard. La question de l'enseignement se trouve ainsi confrontée à celle en relation avec les observations sociolinguistiques.

Nous chercherons à clarifier certaines erreurs relatives, quelque fois absolues, en relation avec l'emploi des adverbes, nos observations portent essentiellement sur des productions d'élèves inscrits en première année secondaire pour se faire, nous proposons dans les pages qui suivent un itinéraires descriptif et analytique ayant pour but d'interpréter ces erreurs et principalement celles en relation avec les adverbes

La tradition grammaticale s'accorde à caractériser l'adverbe comme appartenant aux mots grammaticaux (partie du discours prédicative).il est défini étant "*mot invariable dont la fonction est de modifier le sens d'un verbe, d'un adjectif ou d'un autre adverbe*"¹

Quant au Nouveau dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langage présente cette catégorie dans la partie lexicque:"*l'adverbe est un mot ou groupe de mots qui participent à une représentation de l'évènement énonciatif*"²,dans un autre dictionnaire qui présente la même définition"*mot qui accompagne un verbe, un adjectif ou un autre adverbe pour en modifier ou en préciser le sens, en réalité, l'adverbe étant invariable, on a classé parmi les adverbes d'autres mots comme "ou" ou "voici"qui ne correspondent pas à cette définition, la catégorie traditionnelle de l'adverbe regroupe des mots qui n'ont de commun que l'invariabilité*"³, dans un autre ouvrage, il est appelé "*connecteur*"⁴

Parmi les composantes (les unités constitutives) positives (positives) relevant du niveau pragmatique (énonciatif) l'apparence générale des productions est suffisamment similaire à celle des modèles étudiés en classe .de même, la modalité énonciative et celle qui est attendue puisque nous retrouvons le (je) qui décrit.

1. *Mes besoins en grammaire au collège et au lycée*, p65
2. *Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, p731
3. *Dictionnaire de linguistique*, Larousse, Pp 19,20
4. *Grammaire méthodique du français*, Larousse, p646

Pour sa valeur sémantique, Moignet dit dans son extrait: "l'adverbe est une partie de l'oraison qui se décline, ni se conjugue, et qui se joint avec le verbe pour exprimer la manière d'agir, ou de souffrir, et quelque fois aussi avec un deuxième degré comme "vite" "souvent", de véritables substantifs comme: hier, demain, des pronoms comme: ici, là, des particules non prédicatives qui ne sont que des morphèmes, comme, très, si, ne pas"5

Riegel précise que les adverbes "ce sont des compléments modalisateurs d'une phrase assertive, positive ou négative, ils précisent le degré de réalité que le locuteur assigne au contenu positionnel du reste de la phrase ou l'évaluation qu'il en fait"6

Nous pouvons dire que l'adverbe assure des fonctions syntaxiques et sémantiques diverse comme en précise le dictionnaire des sciences du langage de Ducrot et de Schaeffer "Les adverbes, Souvent la nuance apportée par une expression adverbiale, c'est le cas de "franchement" dans "Jean m'a parlé franchement", il précise le type de parole attribué à Jean"7

L'adverbe "bien" prend deux valeurs différentes:

-C'était bien bon----- adverbe d'intensité

-Il y a bien des erreurs dans votre devoir-----adverbe de quantité

Ce qui a retenu notre attention, comme le stipule le présent travail est le fonctionnement dissymétrique des adverbes sur la chaîne syntagmatique .pour les étudier, nous les avons relevés puis nous les avons classés en différents groupes.

L'élève a traduit littéralement de la L1 (langue arabe, la langue d'apprentissage) à la L2 (français, langue étrangère) du moment que l'adverbe (كثيرا) en L1 correspond l'adverbe beaucoup en L2.

5. G. Moignet, *L'adverbe dans la locution adverbiale*, cahiers de psychomécanique du langage, 1961, N°5, p61

6. M. Riegel, J.C. Pellat, R. Rioul, *Grammaire méthodique du français*, 3^{ème} éd, Quadriga, PUF, 2004, p226

7. O. Ducrot, J.M.Schaeffer, *Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, Seuil, Paris, 1995, p 731

Cette traduction textuelle de phrases propres à une langue (phrases dites idiomatiques) est souvent à l'origine de l'erreur ; la langue maternelle fait peur, elle est considérée comme responsable de fautes interférentielles. En effet, c'est l'influence de la langue source qui est en contact avec la langue cible qui engendre les erreurs.

Par ailleurs, l'acceptabilité de l'exemple (j'ai vu une créature bizarre beaucoup) représente une construction qui ne peut être acceptée du point de vue sémantique, elle est irrecevable. L'emploi prototypique de l'adverbe beaucoup est un emploi quantitatif, dans l'exemple (j'ai vu une créature beaucoup bizarre) nous n'avons pas l'expression de la quantité, mais si on prend en considération le contexte l'interprétation serait la suivante : une créature qui n'est pas simplement bizarre .Ainsi créature serait la cible de la localisation et bizarre en serait le site.

L'apprenant semble ignorer l'environnement de l'adverbe, c'est pourquoi il ne choisit pas l'adverbe en fonction de cet environnement. Ces adjectifs : bizarre, heureux sélectionnent des adverbes intensifs qu'ils soient comparatifs ou superlatifs, nous pouvons avoir les cas suivants :

Bizarre : une créature très bizarre /moins bizarre /la plus bizarre, tellement bizarre.

L'élève en tant qu'apprenant étranger n'a plus de repères vu qu'il n'y a pas de règles de systématisation, et ne sait plus s'il doit dire :

J'avais peu peur ou j'avais moins peur, il a avancé beaucoup vite ou il a avancé très vite ou il a avancé tellement vite, etc.

Comme tous les adverbes sont différentes les uns des autres, il nous a paru inévitable de diversifier suffisamment la sélection des adverbes, c'est-à-dire les adverbes quantitatifs et intensifs de différentes structures ou de différentes compositions afin que nous puissions aborder les diverses difficultés. Si nous établissons une comparaison des chiffres des résultats obtenus, nous constatons réellement que les apprenants éprouvent des difficultés à identifier les adverbes dans la mesure où aucun élève n'a pu réaliser la totalité de l'exercice correctement.

- Nous parvenons aux observation et remarques suivantes :

- Le premier et le principal point est que l'apprenant est fréquemment confronté à la langue arabe (la langue maternelle) qui très souvent vient faire face à la langue française (la langue cible), principalement lorsqu'il s'agit de forme voisines c'est-à-dire des mécanismes de m' analogie interlinguale. Autrement dit, face à une difficulté, l'élève a recours systématiquement aux formes existantes en langue arabe et cela se traduit par des reproductions exactes, l'apprenant passe à la traduction des structures déjà existantes en dissimulant les différences entre la langue source (arabe) et la langue cible (français), des points de différence qui peuvent être d'agencement structural (place de l'adverbe), d'agencement syntaxique.
- Le point suivant est que l'apprenant a fréquemment tendance à systématiser les structures, ignorant pour cela l'environnement des adverbes et la valeur sémantique, l'apprenant ne trouve aucune différence entre : beaucoup bizarre, très bizarre.
- Le troisième point est que l'apprenant ne fait toujours la une seconde fois ou l'élève fait intervenir la langue source dans le cas des adverbes interrogatifs.
- Le dernier point est que l'apprenant semble bien connaître la forme des adverbes constitués avec *ement* vu le taux de réussite obtenu (phrase 2 : il a totalement raison, phrase 3 : je suis vraiment désolé ...)
- .

REFERENCES BIBLIOGRAPHIQUES:

- Dubois.J et Lagane.R, *Mes besoins en grammaire au collège et au lycée*, Larousse, 1973
 - Mével J.P. *Dictionnaire de linguistique*, Larousse, 1994
 - Jouette A. *Grammaire méthodique du français*, Paris, 2007,
 - G.Moignet, *L'adverbe dans la locution adverbiale*, cahiers de psychomécanique du langage, 1961, N°5, p61
 - M.Reigel, J.C.Pellat, R.Rioul, *Grammaire méthodique du français*, 3^{ème} éd, Quadriga, PUF, 2004, p226
 - O.Ducrot, J.M.Schaeffer, *Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, Seuil, Paris, 1995
- Lien internet: TLF (trésor de la langue française)

Le théâtre à l'école : une autre façon d'enseigner le FLE

Mme MANSOUR Malika

Université Djilali Liabès Sidi Bel Abbes

Résumé:

Tout au long de cette étude , nous avons tenté de montrer que faire du théâtre en classe ne relève pas de l'impossible et, d'autre part, qu'il s'agit d'un terrain favorable où l'on aborde conjointement deux domaines d'apprentissage : vivre ensemble et la maîtrise du langage. Par le mime, l'improvisation ou l'interprétation d'un rôle, les élèves sont amenés à s'écouter, à coopérer, à prendre la parole, à exprimer des émotions, à décrire leurs actions, à émettre des hypothèses ...en bref à cerner les difficultés de la communication et à communiquer dans des situations variées

Abstract:

All along the present study, we will try to show the theatre's place among a foreign language classroom. We consider that it should be possible especially when talking about two main aspects that belong to teaching: living together and mastering the language. Throughout the mimic, gestures, improvisation and interpreting, pupils should be able to listen, to cooperate, to dare addressing a speech toward a public, to express emotions, to describe actions and suggest hypothesis. In sum, we would like to limit communicative difficulties and permit to pupils to express themselves within various situations.

Key words:

Theatre, parole, speech, communication, competences, abilities, interpretation, pupils, teaching,

Cet article vise à rendre compte d'une expérience pédagogique menée dans le cadre d'un enseignement de l'oral à travers la pratique théâtrale. En ma qualité d'enseignante pendant 4 ans en zone rurale, j'étais souvent en contact avec des élèves qui éprouvaient de grandes

difficultés à lire et à dire ne serait-ce qu'une seule phrase. C'était des élèves qui parlaient très peu en classe, qui avaient peur de prendre la parole qui communiquaient rarement entre eux, des élèves hyperactifs à qui il fallait canaliser ces énergies dans une activité récréative. C'est avec ces classes que j'ai souhaité mettre en place des stratégies de remédiation face aux problèmes rencontrés. Le théâtre s'est imposé naturellement pour deux raisons principales :

-Le théâtre est d'abord un art que j'aime profondément, et qui me semble, à travers l'enseignement, une expérience de littérature vivante passionnante à transmettre aux élèves, surtout lorsqu'il s'agit de jeunes élèves qui n'ont pas encore goûté pour la plupart à la littérature et à ses charmes.

-Les Pratiques théâtrales contribuent à faire acquérir une meilleure expression orale

Le théâtre sert à déshiniber l'apprenant, à lui enlever ses peurs face à la réalisation de la parole. C'est en quelque sorte, une application concrète. La langue devient utile parce qu'elle sert à communiquer, elle sert à jouer, à réaliser des actions

Nous devons préciser que faire du théâtre, c'est d'abord jouer, jouer à être dans la peau d'un autre, et de ce fait on va dépasser les cadres du réel qui nous entoure. En se penchant sur cette apparence ludique, nous permettons à l'élève de jouer aussi avec la langue qu'il apprend. L'effet de contrainte de l'apprentissage d'une langue, de l'appropriation de ses codes s'en trouve ainsi atténué. Créer un rapport ludique avec la langue, en proposant des activités qui plaisent au public, c'est donc donner une image positive de la langue¹

Selon Anne Ubersfeld, « *le théâtre n'est pas un genre littéraire. Il est une pratique scénique* »² La scène étant un espace de liberté absolue, j'inviterai les élèves à exprimer leurs émotions (timidité, tristesse, joie, angoisse, excitation, vulgarité, folie....), de la façon la plus ludique et passionnante.

D'autant plus que, dans toutes les cultures, sous une forme plus ou moins élaborée, le théâtre a servi et sert encore à dire le monde. « *Franchir la porte d'une salle de théâtre, c'est, à coup sur, entrer dans un autre monde* »³ Dire le monde tel qu'il est, ou tel que l'on

voudrait qu'il soit. Dire le monde qui nous fait peur, ou dire le monde dont on rêve. Dire le monde où l'on vit, ou qui nous habite

Pourquoi, à mon sens, il est vital de faire du théâtre à l'école de la même façon que l'on fait des arts plastiques ou de la création musicale : parce que l'enfant est à chaque instant le créateur essentiel de son univers. Il ne faut donc jamais imposer un jeu, une mimique, mais juste proposer ou guider, car nous imposerions notre seule vision réductrice de l'univers de la pièce. L'enfant doit s'approprier l'espace sémantique de l'œuvre, le sentir, le vivre. Il en fera un mélange avec son propre espace de vie et produira une réalisation personnelle qui, si au premier regard ne semble pas être parfaite (rien n'est parfait), sera cependant bien plus convaincante que si tout lui a été imposé. Place au rêve, à la poésie, aux envolées... Le théâtre est un moyen (heureusement, il n'est pas le seul) de lutter contre l'uniformisation des formes de pensées. Il faut absolument l'enseigner à l'école, non seulement comme un moyen d'aboutir à des objectifs pédagogiques (expression, articulation...), mais comme un véritable espace d'appropriation de soi et du monde.

Le théâtre à l'école primaire poursuit de multiples objectifs à différents niveaux. Les sujets des pièces sont par eux même pédagogiques, autant pour ceux qui les jouent que pour ceux qui les regardent.

Introduire une pratique théâtrale à l'école, c'est y introduire le jeu. c'est aussi « expérimenter les bienfaits d'un projet de travail facteur de motivation »⁴ Si à cette occasion l'enfant joue pour son plaisir (« *L'enfant joue pour jouer, et pour lui, jouer c'est jouir* » Château, 1946), l'adulte qui lui propose de jouer ne le fait pas vraiment pour cette raison, mais parce que l'éducation par le théâtre offre la possibilité de finaliser les apprentissages, favorise le développement de l'expression et de la créativité, permet la découverte de l'autre et aide à la socialisation. Elle fait partie de la formation que l'école doit garantir à chacun pour le provoquer à s'impliquer de manière authentique dans des activités qui lui permettront, au travers des apprentissages réalisés, de construire sa vie affective et sociale présente et future.

Le théâtre à l'école primaire poursuit de multiples objectifs à différents niveaux. Les sujets des pièces sont par eux même pédagogiques, autant pour ceux qui les jouent que pour ceux qui les regardent. J'ai toujours eu le souci de légitimer l'existence du théâtre et d'en faire un objet d'apprentissage au niveau de l'écoute et de l'oral : *«Chaque partie doit jouer son rôle et permettre la mise en place d'un cadre clair encourageant l'introduction du quatrième art dans les programmes scolaires. L'enseignement du théâtre dans le cycle primaire permettra de développer l'imagination de l'enfant et sa culture générale»*⁵

Introduire une pratique théâtrale à l'école, c'est y introduire le jeu. c'est aussi *« expérimenter les bienfaits d'un projet de travail facteur de motivation »*⁶ Si à cette occasion l'enfant joue pour son plaisir («L'enfant joue pour jouer, et pour lui, jouer c'est jouir» Château, 1946), l'adulte qui lui propose de jouer ne le fait pas vraiment pour cette raison, mais parce que l'éducation par le théâtre offre la possibilité de finaliser les apprentissages, favorise le développement de l'expression et de la créativité, permet la découverte de l'autre et aide à la socialisation. Elle fait partie de la formation que l'école doit garantir à chacun pour le provoquer à s'impliquer de manière authentique dans des activités qui lui permettront, au travers des apprentissages réalisés, de construire sa vie affective et sociale présente et future.

Le théâtre est un espace où l'on communique, où l'on modifie des comportements, où l'on peut trouver sa place au sein d'un groupe, où l'on peut apprendre à vivre en société.

C'est un temps pour libérer son imaginaire, pour manipuler la fiction et la réalité, pour faire parler ses émotions, sa sensibilité artistique. C'est aussi un moyen de développer des savoir-être, il permet au sujet de se structurer et de construire des liens sociaux au fur et à mesure du travail mené à chaque séance.

La pratique théâtrale est par essence une activité orale. Le travail sur l'oral prend d'ailleurs tout son sens car les élèves sont confrontés à des situations authentiques de communication. L'élève est amené à apprendre et à restituer des textes et à exprimer ce qu'il veut par la parole et de ce fait il va utiliser différentes fonctions

langagières orales telles que l'argumentation. Cependant, le théâtre n'est pas un objet d'étude comme les autres du fait qu'il développe des compétences transversales. L'enseignement du théâtre s'inscrit dans l'approche actionnelle, de ce fait, il est en même temps dans la vie et dans l'école. C'est cette ambivalence qui le rend redouté et marginalisé. Le théâtre et l'école doivent être des espaces et des lieux où la violence est écartée et où se créent des citoyens libres. L'initiation aux pratiques théâtrales repose uniquement sur le volontariat des enseignants, c'est au professeur que revient d'intégrer cette discipline ou non dans les projets « *Les activités théâtrales font cruellement défaut et sont les parents pauvres du monde scolaire* »⁷ « *En effet, jusqu'à un passé récent, il était difficile d'introduire un poète, un romancier ou un artiste dans l'enceinte des écoles. En juin dernier, un accord a été signé entre les ministères de l'Education nationale et de la Culture.* » Les directeurs demandaient toujours un accord préalable de la tutelle. Belkacem Rouache ajoute que : « *Le contact direct entre les élèves et les auteurs aura un impact considérable : de sensibilisation pour les uns et de stimulation pour les autres. Des vocations naîtront au sein de la population scolaire, des passions certainement et tout au moins de l'intérêt pour la chose culturelle. N'est-ce pas là le minimum escompté d'une ouverture de l'école sur le monde de la culture* »⁸ A travers le théâtre, l'enseignant fait découvrir à l'enfant, d'autres manières de manipuler le langage, dans des situations sociales différentes de celles qu'il rencontre habituellement, d'explorer d'autres façons de se poser en énonciateur, d'apprendre à faire usage de la parole, dans ses manifestations les plus variées. C'est à travers les thèmes d'improvisation que l'élève s'exerce aux différents usages de la langue, qu'il adapte son registre de langue. C'est pourquoi j'ai proposée aux enfants tout un travail préparatoire à partir d'improvisation concernant des scènes de la vie de tous les jours, ainsi que des exercices faisant appel à l'expression corporelle avant de passer à la mise en voix (et en scène) de la pièce qu'ils avaient eux-mêmes créée

D'une manière générale, l'efficacité des séances du théâtre dépend des objectifs fixés par l'enseignant et de son goût pour cette activité. La pratique du théâtre par les élèves doit être conduite d'une

manière imagée et ludique. Ces moments de langage doivent être courts et accessibles pour les enfants afin d'éviter toutes sources de blocage qui retranche l'élève dans le silence.

Je terminerai par une citation de Mr AMR Douara qui montre l'importance d'initier nos enfants au théâtre afin de former un public instruit:« *Au cas où le théâtre scolaire échouerait à faire émerger de jeunes talents, il aurait quand même permis de former un public cultivé et fervent*»⁹

Bibliographie:

1. ANNE, Ubersfeld. *Lire le théâtre II. L'école du spectateur*. P9. Éd. Avril 2005. Coll. BERLIN SUP lettres
Philippe,Meirieu. *Quels apprentissages pour le théâtre à l'école ?* Texte de travail pour les enseignants. (intervention orale).
http://www.meirieu.com/THEATRE/theatre_fiche5.pdf. consulté le 27.01.09 à 20h25
2. MARIR, Bernanoce. *Autour de l'incipit de théâtre, un ensemble de séquences de lecture, écriture, mise en voix et en espace. Acte, scène I (vol. I)* p25. Ed. Delagrave. mars 2000..
Mourad. Cherimou. Enseignant de français au primaire. Béjaia. Propos recueillis lors de l'interview 15.12.2009
3. A.B. *Les activités théâtrales en milieu scolaire*. Article paru dans le journal indépendant EL WATAN. Ed du 07.12.2005
4. AHMED,Cheniké.MAKHLOUR, Boukrouh. *Pour de nouveaux rôles. Débat penser le théâtre en Algérie*. Article paru dans le journal indépendant EL WATAN. Ed du 05.06.2008.
M. Amr Douara. Metteur en scène et critique égyptien Des écoles qui n'enseignent pas le théâtre !
[http://www.magharebia.com/cocoon/awi/print/fr/features/awi/newsbriefs/g](http://www.magharebia.com/cocoon/awi/print/fr/features/awi/newsbriefs/general..)
[eneral..](http://www.magharebia.com/cocoon/awi/print/fr/features/awi/newsbriefs/general..) consulté le 24.10.2009 à 15h

Index :

¹⁻ ANNE, Ubersfeld. *Lire le théâtre II. L'école du spectateur*. P9. Éd. Avril 2005. Coll. BERLIN SUP lettres

²⁻ Philippe,Meirieu. *Quels apprentissages pour le théâtre à l'école ?* Texte de travail pour les enseignants. (intervention orale).

http://www.meirieu.com/THEATRE/theatre_fiche5.pdf. consulté le 27.01.09 à 20h25

³⁻ MARIR, Bernanoce. *Autour de l'incipit de théâtre, un ensemble de séquences de lecture, écriture, mise en voix et en espace. Acte, scène1 (vol.1)* p25. Ed. Delagrave. mars 2000..

⁴⁻ Mourad. Cherimou. Enseignant de français au primaire. Béjaia. Propos recueillis lors de l'interview 15.12.2009

⁵⁻ MARIR, Bernanoce. *Autour de l'incipit de théâtre, un ensemble de séquences de lecture, écriture, mise en voix et en espace. Acte, scène1 (vol.1)* p25. Ed. Delagrave. mars 2000..

⁶⁻ A.B. *Les activités théâtrales en milieu scolaire*. Article paru dans le journal indépendant EL WATAN. Ed du 07.12.2005

⁷⁻ AHMED, Cheniké. MAKHLOUR, Boukrouh. *Pour de nouveaux rôles*. Débat penser le théâtre en Algérie. Article paru dans le journal indépendant EL WATAN. Ed du 05.06.2008.

⁸⁻ M. Amr Douara. Metteur en scène et critique égyptien Des écoles qui n'enseignent pas le théâtre !

<http://www.magharebia.com/cocoon/awi/print/fr/features/awi/newsbriefs/general..> consulté le 24.10.2009 à 15h